# فى
# علم الأجناس البشرية

دكتور
هشام محمود الأقداحى
خبير فى العلوم السياسية و الدبلوماسية
وسياسات الشرق الأوسط



مؤسسة شباب الجامعة
40 ش د / مصطفى مشرفة
تليفاكس: 4839496 الإسكندرية
Email shabab_elgamaa@yahoo.com

# في
# علم الأجناس البشرية


دكتور

**هشام محمود الإقداحي**

خبير في العلوم السياسية والدبلوماسية
وسياسات الشرق الأوسط


٢٠١١


الناشر

**مؤسسة شباب الجامعة**

٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفة

إسكندرية – تليفاكس : ٤٨٣٩٤٩٦

Email:Shabab_Elgamaa@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

صدق الله العظيم

# شكر خاص

بكل الحب والاخلاص نتقدم بأسمى معاني الشكر والعرفان والامتنان إلى السيد الاستاذ/ أحمد حسن عبد العزيز والاستاذ محمد حسن عبد العزيز وجميع القائمين على مؤسسة شباب الجامعة فرداً فرداً على ما بذلوه من جهد حتى صدر هذا الكتاب.

واننى إذ أتوجه بكل الفخر بالشكر اليهم جميعاً، فإنه ليشرفنى أن أنتمي إلى هذه المؤسسة العريقة التي كانت وستظل منارة للاشعاع الفكري في المنطقة العربية والشرق الاوسط.. وإلى مزيد من التقدم على طريق العلم والثقافة الرفيعة.

**هشام محمود الأقداحي**

الاستاذ/ هشام محمود الاقداحي

تحية طيبة وبعـد،

أحيط علماً بأننا قد تلقينا بمزيد من الشكر والتقدير الإهداء المقدم منكم لمكتبة الإسكندرية المكون من تسعة كتب.

وكما تعلمون سيادتكم أن المكتبات في جميع أنحاء العالم تثرى مجموعاتها من الأعمال التي يصعب اقتناؤها بالطرق المعتادة عن طريق إهداءات قرائها وزوارها المثقفين لها من مكتباتهم الخاصة والتي ساهمت في تشكيل وعيهم الفكري.

وقد كان لأبناء مصر الغالية، مثل سيادتكم، فضلاً كبيراً في تزويد مكتبة الإسكندرية بالعديد من الأعمال النادرة والقيمة والتي ساهمت في إثراء مجموعات المكتبة كماً وكيفاً. ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم لسيادتكم بجزيل الشكر والعرفان على هذا الإهداء القيم.

كما آمل أن يتسع وقت سيادتكم لزيارة مكتبة الإسكندرية للتعرف على مجموعاتها والاستفادة من خدماتها. كما أدعوكم لدوام التواصل مع المكتبة وأنشطتها وخدماتها عن طريق زيارة موقعها الإلكتروني على الإنترنت على العنوان التالي: www.bibalex.org . (للنسخة العربية من الموقع: http://www.bibalex.org/arabic/index.aspx) .

مع جزيل الشكر وأطيب التمنيات،

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام والتقدى،،،

رئيس قطاع المكتبات

الدكتورة/ سهير فهمي وسطاوي

# الفصـــل الأول

# بواكير الفكر الانثروبولوجي

# الفصل الأول

## بواكير الفكر الانثروبولوجي

يصف مؤرخو العلوم «الانثروبولوجية» بأنها أحدث العلوم الاجتماعية على الاطلاق، وأنها لا تزال تتطور وتتقدم لتأخذ مكانتها المستقلة، والفريدة بين العلوم الاخرى التي تشاركها دراسة الإنسان، وطبيعة الحياة البشرية، ومراحل تطورها. ورغم حداثة الانثروبولوجيا، التي لم تتبلور كدراسة متخصصة، وعلم مستقل عن الفلسفة الاجتماعية إلا في أواخر القرن التاسع عشر، فإن وصف ثقافات الشعوب والحضارات الانسانية، وعقد المقارنات بينها قد جذبا بانتباه كثيراً من المفكرين والكتاب منذ قديم الزمان. لقد حاول كثيرون عبر التاريخ تقديم الملاحظات الخاصة بالطبيعة الانسانية، والوجود البشري، كما افترضوا بعض التفسيرات بصدد الاختلافات القائمة بين الشعوب سواء في النواحي الجسمية، أو في التقاليد والعرف والمعتقدات.

فقد لعبت الحروب والرحلات التجارية، منذ عصور ما قبل الميلاد، دوراً هاماً، ولاشك، في حدوث اتصال بين الشعوب واكتساب معرفة الواحد بالآخر، خاصة فيما يتعلق باللغة والتقاليد والعادات. ويعتبر مؤرخو الانثروبولوجيا تلك المعرفة بمثابة جذور أولية للدراسات الاثنوجرافية التي تشكل قاعدة هامة للمقارنة بين النظم الاجتماعية، والتنظير بصدد تطورها عبر التاريخ الإنساني، كما سبق أن أوضحنا. وفي هذا الشأن، يكتب مودوي – في عرضه لتاريخ الاثنوجرافيا – أن الرحلة التي قام بها القدماء المصريون عام ١٤٩٣ قبل الميلاد تعد من أقدم الرحلات التاريخية على الاطلاق. ذلك حين أبحر في النيل، صوب جنوب مصر، اسطول مكوناً من خمسة مراكب، وعلى متن كل مركب واحد وثلاثون فرداً، وذلك بهدف

تسويق بضائعهم النفيسة، التي شكلت، آنذاك، البخور والعطور. نتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء بأقزام إفريقيا. وتأكيداً لاقامة علاقات معهم فيما بعد، فقد صورت النقوش في معبد الدير البحري استقبال ملك وملكة بلاد بونت لمبعوث مصري. أوضحت النقوش كذلك بعض تفاصيل الصفات الجسمية لتلك الشعوب، وبدا واضحاً ما اتصف به أهل المملكة من تراكم السمنة بافراط (خاصة على الآلية)، شأنهم فى ذلك شأن جماعة البوشمان Pushmans الموجودين حالياً فى صحراء كلهاري أما عن الشواهد الاخرى لجذور المادة الوصفية لشعوب المجتمعات القديمة فقد جاءت في كتابات عدد من الكتاب الاغريقيين مثل الشاعر اليوناني هوميروس Homer الذي عاش خلال القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد، وصاحب ملحمتي الالياذة Iliad والاوديسة Odyssey. نذكر أيضاً المؤرخ اليوناني هيرودتس Heredotus الذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد، والذي يعتبره معظم كتاب تاريخ الانثروبولوجيا أول باحث انثروبولوجي في التاريخ. ويرجع السبب في ذلك إلى أنه كان قد جمع معلومات وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوروبية، حيث تناول تقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمية وأصولهم السلالية.

ففي كتاب «التواريخ» The Histories حرص هيرودتس على تقديم كل ما يستحق التسجيل عن التاريخ الانساني حتى زمانه. فقد قدم معلومات في تسعة فصول، عن حوالي خمسين شعباً من خلال رحلاته وقراءاته، إلى جانب وصفه الدقيق للحرب التي دارت بين الفرس والاغريق إبان القرن السادس قبل الميلاد. وقد جاء وصفه لمصر أيضاً دقيقاً وشيقاً، وهو صاحب العبارة الشهيرة القائلة بأن «مصر هبة النيل». ولا تحمل هذه العبارة أهمية

كبيرة من حيث صحتها فحسب وإنما لها دلالتها وصلتها بالاتجاه الفكري الذي ساد في عصور لاحقة من حيث ربط البيئة بالتقدم الحضاري.

يبدأ هيرودتس فصله عن مصر بقـوله: «والآن سأبدأ الكلام عن مصر في اسهاب، لأنها - دون غيرها من بلاد العالم أجمع - تحوي عجائب أكثر، وآثاراً تجل عن الوصف. ومن أجل ذلك، سأطيل الحديث عنها، نظراً لأن مناخ مصر منقطع النظير، ولأن نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة باقي الأنهار. لذلك اختلف المصريون كل الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم» (مرجع ٨٦ ص ١١٦).

ويعطي لنا هيرودتس أمثلة لهذه الاختلافات كما ورد مثلاً في الفقرة رقم ٣٦ من الباب التاسع بكتاب التواريخ[١]:

«وفي غير مصر يطلق كهنة الآلهة شعورهم، أما في مصر فيحلقونها. ويقضي العرف عند سائر الشعوب بأن يحلق أقارب المصاب رؤوسهم أثناء الحداد. ولكن المصريين، إذا نزلت بساحتهم محنة الموت، يطلقون شعر الرأس واللحية». (مرجع ٨٦ ص ١٢٠). ويستطرد في المقارنة قائلاً: «ويسكن سائر الناس في عزلة عن الحيوانات، أما المصريون فيسكنون مع حيواناتهم ويعيش الآخرون من الناس على القمح والشعير، ولكنه عار عظيم على من يعيش عليها من المصريين. إذ هم يصنعون خبزهم من الذرة (ألورا). وهم يعجنون العجين بأقدامهم، فأما الطين فبالايدي وبها أيضاً يرفعون الروث. وأعضاء التناسل يتركها عامة الناس على طبيعتها أما

(١) عرض تاريخي - هيرودتس.

المصريون ومن أخذ عنهم فيمارسون الختان». (مرجع ٨٦ ص ١٢٠).

ومن الطريف أن نذكر أيضاً أن هذا المؤرخ الاغريقي، كان أول من جاء بوصف دقيق عن قبائل البدو بليبيا، من ناحية أصولهم العرقية وطريقة حياتهم. يكتب مثلاً «أن في ليبيا أربعة أجناس، اثنين من أهل البلد الأصليين واثنين من خارجها. إن أهل البلد الاصليين هم الليبيون الذين يحتلون المنطقة الشمالية، والاثيوبيون الذين يحتلون الاجزاء الجنوبية من البلد. أما الاجناس الوافدة فمنهم: الفينيقيون واليونانيون». (مرجع ٧١ ص ٩٧) وفي الفقرة ١٨٧ من النصوص الليبية يدون هيرودتس بعض الملاحظات عن عادات الليبيين الصحية فيقول :

«وهذه هي حال هذه المنطقة. لكن الليبيين غرب البحيرة التريتورية ليسوا بدواً رعاة، ولا يمارسون العادات نفسها. ولا يعاملون أطفالهم مثلما تعود البدو الرعاة أن يفعلوا. إذ أن من عادة كثير من الليبيين البدو الرعاة (ولا استطيع أن أقول بدقة ما إذا كانت عادة الجميع) أن يأخذوا أولادهم عندما يبلغون الرابعة من العمر ويكووا عروق جلود رؤوسهم، أو أحياناً عروق اصداغهم بدهن صوف الغنم، حتى لا يصاب الأطفال بعد ذلك أبداً بالبلغم الذي ينزل من الرأس. وهم يقولون إن هذا يجعل أطفالهم أكثر صحة. والحق أنه ليس من المعروف لدينا من الشعوب من هو في مثل صحة الليبيين. ولست استطيع القول بدقة ما إذا كان ذلك بسبب من هذه العادة، لكنهم أصح الناس بالتأكيد. وقد وجد الليبيون علاجاً لتوجع الأطفال من ألم الكي،

وهو أن يطببوهم بترطيبهم ببول الماعز، وهذا ما يقوله الليبيون أنفسهم». (مرجع ٧١ ص ٨٥).

والآن إلى أي حد يمكن اعتبار هذا المؤرخ الاغريقي مجازاً بمثابة الأب أو المؤسس الأول للانثروبولوجيا بصفة عامة، أو الاثنوجرافيا بصفة خاصة، كما يحلو للبعض الاشارة اليها. يرى شوكنج أن تأثير هيرودتس محدود ولاشك في بلورة الانثروبولوجيا بالمعنى الذي نشأت وتطورت في اطاره. ومع ذلك فقد استطاع هرودتس، في ذلك الوقت المبكر من الفكر الانساني، أن يطرح فكرة وجود تنوع بين الشعوب في النواحي الثقافية واللغوية والسلالية والدينية. نجده أيضاً قد وصف لنا الكثير من المظاهر المتعددة للحياة اليومية عند بعض الشعوب مثل ما يتصل بالبيئة والملبس والمأكل والطب وعادات الزواج والتقاليد المصاحبة لها. ونظراً لما حظى به وضع المرأة في المجتمع من اهتمام كبير في الحضارة اليونانية فقد انعكس ذلك في كتابات هيرودتس (مرجع ١١٠ ص ١٣).

وبصدد وصفه اقتباس الشعوب بعضها من بعض، وهو موضوع اهتم به الانثروبولوجيون فيما بعد في دراساتهم عن انتشار عناصر الثقافة، كتب هيرودتس أن الاغريق قد أخذوا عن الليبيين الثياب، والغناء، والعربات. يقول هيرودتس في الفقرة ١٨٩ من النصوص الليبية :

«يبدو أن ثوب ودرع وتماثيل أثينا نقلها الاغريق عن النساء الليبيات، غير أن لباس النساء الليبيات جلدي، وأن عذبات دروعهن المصنوعة من جلد الماعز ليست ثعابين، بل هي مصنوعة من سيور جلد الحيوان، وأما ما عدا ذلك فإن الثوب والدرع في الحالتين سواء. بل إن الاسم ذاته الذي يطلق على درع أثينا ينم عن أن كساء تماثيل هذه الالهة جاء من ليبيا، إذ

أن النساء الليبيات يرتدين فوق ثيابهن جلود ماعز ذوات عذبات بعد نزع شعرها وتلوينها باللون الأحمر. وقد غير الاغريق الاسم الليبي لجلود الماعز هذه إلى اسمها الاغريقي (آيجس) أي الدرع، وأكثر من هذا فإن الغناء الطقسي - فيما أظن - ظهر أولاً في ليبيا، فإن نساء تلك البلاد يغنين غناء مطرباً شجياً. ومن الليبيين تعلم الاغريق كيف يقودون العربات ذات الخيول الأربعة، (مرجع ٧١ ص ٨٧).

ويرى كثير من الانثروبولوجيين أن منهج هيرودتس في وصف ثقافات الشعوب يحمل في طياته إلى جانب الوصف العام لمظاهر حياة الشعوب وبعض النظم الاجتماعية بعض اساسيات المنهج الاثنوجرافي المتعارف عليه في وقتنا الحالي. فالانثروبولوجيون الدارسون لاساليب حياة الجماعات الانسانية يركزون على الدراسة الحقلية، أو الاتصال المباشر بالجماعات أو الشعوب موضع الدراسة، والتفرقة بين ما يشاهدون وبين ما يقال لهم، علاوة على فحصهم احاديث الاخباريين في اطار الواقع المشاهد. هذا فضلاً عن اجراء المقارنات كلما تيسر لهم ذلك. وفي هذا الصدد، فقد أبرز هيرودتس بجلاء واسهاب، الفروق القائمة بين المصريين واليونانيين مثلاً، ولكنه لم يصف اسلوب حياة المصريين بالغرابة أو الشذوذ. وربما تجدر الاشارة إلى أن منهج كتابة تواريخ هيرودتس يرتبط لاشك بالجو الفكري العام، والذي ساد عصره، كما يرتبط بشخصيته أيضاً. فقد عاش هيرودتس في عصر سادت فيه الرغبة في الاستكشاف والقيام بالرحلات، إلا أن رحلاته جاءت في نهاية ذلك العصر. هيأ ذلك كله لهيرودتس مجالاً واسعاً في رحلاته لتسجيل مشاهداته وعقد المقارنات بين الشعوب. ولقد كان لدى هيرودتس أيضاً نوع من التسامح والرغبة في فهم الثقافات الاخرى اكتسبهما من

احتكاكه الثقافي، خاصة وأنه ولد في اسيا الصغرى وعاش وتعلم في اليونان. إلا أن انطلاقة هيرودتس خارج حدود اليونان لم تحث اليونانيين على السعي لمعرفة ثقافات الشعوب الاخرى. فقد تبلور الفكر اليوناني القديم حول الذات وذلك في اطار فلسفات تأملية لما يجب أن يكون لا لما هو عائن ومحسوس. وعلى هذا الاساس نستطيع أن نفسر اهتمام أفلاطون (٤٢٨-٣٤٧ق.م) مثلاً بموضوع تغيير مجتمع أثينا «عاصمة اليونان» وذلك من خلال تصورات مثالية لما يجب أن تكون عليه الحياة الاجتماعية، وهو ما تبلور عنه كتابه الشهير «الجمهورية». الذي عرض فيه لهذه التصورات ولعل الدافع وراء مثل هذا التخيل للمدن الفاضلة كان هو تلك الازمات السياسية، والحروب، واضطراب احوال المجتمع آنذاك بصفة عامة.

وبالرغم من هذا الطابع الفلسفي الذي يناقض ما تتجه إليه الدراسات الانثروبولوجية والسيولوجية من دراسة ما هو قائم، لا ما يجب أن تكون عليه الامور أو الاحوال الاجتماعية والثقافية، فإن فضل الفكر الفلسفي اليوناني خاصة عند كبار فلاسفتهم، لا يمكن التقليل من شأنه أبداً. لقد وضعوا أسس التفكير المنطقي ووجهوا العقل الانساني نحو الفكر والتأمل والجمع بين الاستقرار والاستدلال للوصول إلى اليقين. إن الدارس لاعمال الفلاسفة اليونانيين ليصل إلى معلومة طريفة، ذات صلة بالفكر الانثروبولوجي، وهي أن اليونانيين قد أخذوا الكثير من الحضارات التي سبقتهم، حيث امتزجت فلسفتهم بالحضارة المصرية القديمة، وتمخض عنها ما يعرف في التاريخ باسم «الحضارة الهيلينية». تلك الحضارة التي سادت وازدهرت خلال القرون الثلاثة السابقة على مولد المسيح. كذلك نجد أن أرسطو (٣٤٨-٣٢٢ق.م) كان من أوائل المفكرين الذين وضعوا بعض أوليات الفكر التطوري للكائنات الحية، وذلك من خلال ملاحظاته وتأملاته في التركيبات البيولوجية

وتطورها في الحيوان، كما ينسب اليه أيضاً توجيه الفكر نحو وصف وتحليل نشأة الحكومات وأشكالها وأفضلها، الأمر الذي يعتبر مساهمة مبدئية وعامة في دراسة النظم الاجتماعية والانسانية.

وبانتقالنا إلى عصر الامبراطورية الرومانية، الذي امتد حوالي ستة قرون، نجد الرومان قد تابعوا ما طرحه اليونانيون من قضايا حول طبيعة المجتمعات الانسانية وتفسير التباين بينها، إلا أنهم نبذوا التجريد ووضع النماذج المثالية لما يجب أن تكون عليه سبل الحياة الانسانية، ووجهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس والمحسوس. ومع ذلك، لا يجد الانثروبولوجيون في الفكر الروماني ما يمكن اعتباره بمثابة اسهامات أصيلة في نشأة علم مستقل لدراسة الشعوب وثقافاتهم، أو تقاليد راسخة لمثل هذه الدراسات. وربما نستثنى من ذلك أشعار كاروس لوكرتيوس Lectretius (٩٨–٥٥ ق.م) التي احتوت ولاشك على بعض الافكار الاجتماعية الهامة. إن القارئ لكتابة «طبيعة الاشياء De Rerum Naturae (التي نشرت ترجمة انجليزية له في سلسلة بينجوين Penguin، مرجع ١٤٨) . يجد أن لوكرتيوس تناول عدة موضوعات عرضها في ستة أبواب رئيسة وضمنها أفكاره ونظرياته عن المادة، وحركة وشكل الأجرام السماوية وتكوين العالم مثلاً. تطرق أيضاً، في الباب السادس خاصة، إلى فكرتي التطور والتقدم؛ حيث تحدث عن الإنسان الأول، والعقد الاجتماعي، ونشأة اللغة ونظامي الملكية والحكومة، إلى جانب مناقشته للعادات والتقاليد والفنون والازياء والموسيقى (مرجع ١٤٨ ص ١٩٩–٢١٦) . ويرى بعض الانثروبولوجيين أن لوكرتيوس استطاع أن يتصور مسار البشرية في عصور حجرية ثم برونزية ثم حديدية (مرجع ١٠٩ ص ١٥)، وتلك أفكار لا تختلف كثيراً عما قدمه الاركيولوجيين فيما بعد بحوالي تسعة عشر قرناً. وقد رأى البعض

الآخـر في فكر لوكـرتيـوس تطابقـاً مع فكر لويس مـورجـان L. Morgan (١٨١٨-١٨٨١م)، أحد أعلام الانثروبولوجيا في القرن التاسع عشر، وذلك من حـيث رؤية التـقدم والانتـقال من مـرحلة إلى أخـرى في اطار حـدوث طفـرات مـادية وإن كـانت ترد في النهـاية إلى عـمليات وابتكارات عـقليـة (مرجع ١٠٩ ص ١٥).

يبدو لنا إذن، أنه فيما عدا أشعار كولوتيوس وما احتوتها من افكار خاصة بالكون والنشأة والتطور، فمن الصعب أن تنسب نشأة علم الانثروبولوجيا إلى الفكر الرومـاني القديم، كـمـا هو الوضع أيضاً بالنسبـة لليونـانيين، فيمـا عدا أعـمـال هيـرودتس. وبغض النظر عن اتجـاه اليـونانيين الفلسـفي أو اهتـمـام الرومـان بالواقع كما سبق أن أشرنا، فكلاهما قد ربط بين السلالات البشرية وبين امكانية التقدم والحركة الحضارية، ووجدوا في أنفسهم امـتيازاً وافضلية على بقـيـة الشعـوب. فاليونانيون «كانوا يرون انـفسهم أفضل الامم واذكاها واشرفها، وأن بقية الخلق همج. أما الرومـان فقد جعلوا الرومـانـي فوق غيره بحكم القانون، حـتى أنهم كـانوا إذا ارادوا أن يرفعوا من قدر إنسان أو سلالة، اصدرت لهم الدولة قراراً بمنحه الجنسيـة الرومـانيـة» (مـرجع ٣٩ ص ٤٣) وفي حـقيـقة الأمر أن هذا الاتجاه العنصري قد وجد في الحضـارات الشرقيـة القديمة أيضاً، إذ كان الصينيون يعتقدون مثلاً أنهم أفضل الخلق وأنه لا وجود لأية حـضارة أو فضيلة خـارج جنسهـم، بل كانوا يرون أنهم لا يحـتاجـون إلى غيرهم في شيء. وكي يؤكد ملوكهم هذا المعنى اقامـوا سور الصين العظيم حتى لا تتدنس أرضهم بأقدام الآخرين) (مرجع ٣٩ ص ٤٣).

ولعلنا نتساءل هنا عما إذا كان قد تبلور لدى الصينيين القدماء أية مفاهيم أو افكار انثروبولوجية (ولو بصورة أوليـة). والحـقيـقة أن البعض يعتقد أنه بالرغم من دراسة الصين بالحضارة الرومانية واحترامها في كتاباتها، إلا أنه

لم يجد فيها أو في غيرها منافساً لحضارته. فلقد كان الصينيون القدماء يشعرون بالامان داخل حدودهم، وكانوا مكتفين ذاتياً، حتى أن تجارتهم مع العالم الخارجي انحصرت في تبادل السلع والمنافع، ولم تنشأ عنها تأثيرات ثقافية عميقة. لم يعبأ الصينيون إذن بالثقافات الاخرى حارج حدودهم، ومع هذا لم يخل تاريخ الصين ذاته من التقارير الوصفية لعادات الجماعات البربرية وإن كانت تقدم في اسلوب يتسم بالازدراء والاحتقار (مرجع ١٠٩ ص ١٥).

ومما هو جدير بالذكر، أن الغرب لم يكشف عن الحضارات الشرقية القديمة، ولم يبدأ في فحص مضامينها الثقافية فحصاً عميقاً إلا عن طريق حركة الاستشراق التي اتسعت مجالاتها واهتماماتها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بصفة خاصة، كما سنشير إلى ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد. ولعل من الاهمية بمكان أن نذكر هنا أن مؤرخي التفكير الاجتماعي والفلسفي الغربيين يبدأون عادة باليونان، ولكن هذا يمثل تجاهلاً لعظمة الفلسفة الشرقية السابقة على الفكر اليوناني كما يمثل نقصاً في الاستقراء العلمي. فقد ظهر في الحضارات القديمة – في مصر والهند والصين – طوائف من الحكماء والفلاسفة المشرعين والمصلحين الاجتماعيين الذين عالجوا موضوعات في الفلسفة الاجتماعية لا تقل شأناً عما عالجه فلاسفة اليونان. فقد عرف الفراعنة أدق نظم الحكم، ووضعوا من التشريعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ما اعانهم على النهوض باعباء الحكم اجيالاً طويلة. وفي الهند حيث تعددت العقائد والافكار، تنوعت أيضاً العادات والتقاليد واساليب الفكر التي انعكست بطبيعة الحال على العلاقات والنظم الاجتماعية. وفي الصين، اهتم الفلاسفة بالاخلاقيات وشئون الاجتماع البشري وتميزوا باتجاهاتهم الواقعية والعملية في معالجة شئون

الحياة الانسانية (مرجع ٩٠ ص ١١، ١٢). لهذا يمكن القول أنه كما وجد الانثروبولوجيون في الملاحم الاغريقية، وكتب المؤرخين في عصور ما قبل الميلاد، مصدراً للمادة الاثنوجرافية عن ثقافة العصر، يستطيع الانثروبولوجيون أن يجدوا أيضاً سجلاً لوصف النظم الاجتماعية والتقاليد السائدة من خلال فحص مادة الملاحم الشرقية القديمة، مثل الرمايانا الهندية Ramayana، أو محتوى وتعاليم الديانات القديمة مثل البوذية Buddahism التي نشأت حول تعاليم بوذا Buddah (٥٦٣، ٤٤٨٣ ق.م)، أي الرجل الحكيم، الذي قال «إن الالم جزء لا يتجزأ من طبيعة الحياة وبأن في استطاعة المرء الخلاص منه بالتطهير الذاتي، والعقلي، والاخلاقي» (مرجع ٤٤ ص ١٣٣).

وعندما نترك تلك الحقبة من فلسفات العصور القديمة (بأوروبا أو خارجها) وننتقل إلى مرحلة تاريخية أخرى، يذكر لنا المؤرخون: أنه مع نهاية القرن الخامس الميلادي تقريباً بدأت السلطة المركزية لروما في التدهور والانهيار، ودخلت أوروبا في فترة زمنية طويلة ترتبط عادة في اذهان الاوربيين بالنكسة الحضارية والارتداد بالفكر إلى حقبة مظلمة. وتعرف هذه الحقبة بالعصور الوسطى، لأنها وقعت بين عهدين أولهما زمن الفلسفات الاوربية القديمة، سواء ما ازدهر منها في أثينا أو روما، وثانيهما عصر النهضة الاوربية الذي حاولت أوروبا خلاله الخروج من الظلمات إلى النور، والانطلاق نحو مجالات جديدة من استكشاف للعوالم الاخرى، واحياء للتراث الفكري القديم، وابداع في الفن والدراسة والتحصيل. ويذكر لنا المؤرخون أيضاً أنه خلال تلك العصور تدهور التفكير العقلاني، وادينت أية افكار تخالف التعاليم المسيحية، أو ما تقدمه الكنيسة من تفسيرات للكون والحياة الانسانية سواء في منشئها أو مآلها. ففي تلك العصور، انتشر الدين

المسيحي وسيطرت الكنيسة سيطرة مطلقة على اتجاهات التفكير الاجتماعي (مرجع ٦٧ ص ١٦) . وتجدر الاشارة إلى أنه إلى جانب الكنيسة وما ارتبط بها من مؤسسات دينية كالأديرة والكتدرائيات، كانت هناك مراكز أخرى وجهت ايضاً منطلقات المعرفة وحددت طبيعتها خلال العصور الوسطى للحضارة الغربية، كبلاط الملوك، الذي كان يضم في العادة فئات من المثقفين كرجال الادارة والسياسة والشعراء. هذا إلى جانب المدن وازدهار نشاطها الحضاري والاقتصادي خاصة في أواخر العصر الوسيط، وكذلك الجامعات مثل جامعة بولونيا التي اشتهرت بدراسة القانون، وجامعة باريس وتفوقها في الفلسفة واللاهوت. ومما لا شك فيه أنه كان لتلك الجامعات وغيرها أثر في طبيعة العلوم والاتجاهات الفكرية التي تبنتها، وقامت بتدريسها. ولا يستطيع أحد أن ينكر ما ترتب على التوسع في دراسة القانون أو اللاهوت أو الفلسفة من أثر في الحياة العامة بأوروبا من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية (مرجع ٥٠ ص ٢٩-٣٠) . كما لا نستطيع أيضاً أن نهمل دور الأفراد من العلماء والمفكرين في هذه النهضة كما سنوضح ذلك فيما بعد.

ومن ناحية صلة هذه الحقبة الطويلة من تاريخ الحضارة الغربية ببواكير الفكر الانثروبولوجي، نجد أن اقطاعيات أوروبا الوسطى خاصة في بدايات العصر الوسيط قد وجدت انفسها تطل من الغرب على محيطات مجهولة وتمتد. أما من ناحية الشرق، فهناك الاقطار الجبلية التي تقطنها الشعوب المتبربرة التي يحل معها الذعر والدمار أينما حلت. ولم يختلف الامر كثيراً في الجنوب على سواحل البحر المتوسط حيث عاشت شعوب اجنبية لم يألفوا حياتها ولم يعرفوا عنها إلا القليل. وقد أثر هذا الوضع المكاني كثيراً في الاتجاهات الفكرية للعقلية الاوربية في العصور الوسطى، الامر الذي جعلها

تنحو منحى ذاتياً تمركز حول الدين، ذلك أنهم بدلاً من أن يهتموا بالتعرف على تلك الشعوب أو دراسة تقاليدها، نظروا اليها من منطلق ضرورة تخليص أرواحهم من الشرك، وتطهير أراضيهم الوثنية عن طريق الغزو.

ورغم أنه كانت – هناك بعض المحاولات – من حين لآخر – للكتابة عن تلك الشعوب، إلا أن الوصف جاء غالباً في اطار من التخيل وليس المشاهدة المباشرة. نجد مثلاً أن الأسقف ايزدور Isdore (٥٦٠-٦٣٦م) كان قد أعد موسوعة عن المعرفة في القرن السابع الميلادي، وأشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم، ولكن بطريقة عفوية تتصف بالسطحية والتحيز. فقد ذكر مثلاً أن قرب الشعوب أو بعدها عن أوروبا يحدد درجة تقدمها. فكلما كانت المسافة بعيدة، كلما كان الانحطاط والتدهور الحضاري مؤكداً. ليس هذا فحسب، بل إنه وصف اولئك الناس الذين يعيشون في أماكن نائية، بأنهم سلالات غريبة الخلقة حيث تبدو وجوههم بلا أنوف. وقد ظلت تلك المعلومات سائدة وشائعة حتى القرن الثالث عشر حين ظهرت موسوعة أخرى اعدها الفرنسي باتولو ماكوس Batholomacus، والتي حظيت بشعبية كبيرة رغم أنها لم تختلف كثيراً عن سابقتها من حيث الاعتماد على الخيال.

هذا من ناحية الوصف الاثنوجرافي للشعوب غير الاوروبية، أما في معرض التنظير بشأن الفروق القائمة بين البشر، سواء في التكوين البدني أو الوضع الحضاري، فقد اتجه المفكرون خلال تلك العصور إلى تقديم تفسيرات قائمة على الانحياز العنصري والديني، وساد ما يشار إليه بنظرية «الارتداد أو الانتكاس الحضاري Cultural degeneration والتي تذهب إلى أن بعض السلالات، وخاصة الشعوب غير الغربية، قد تدهورت من الحالة المثلى التي خلق الله الإنسان عليها إلى حالة أو مستوى حضاري أدنى أو

أحط بكثير من مجتمعات غرب أوروبا وذلك بسبب ما قاموا به من افعال شريرة، وما يمارسونه من طقوس ومعتقدات شاذة وغريبة. أما الشعوب التي اعتنقت المسيحية، وامتثلت لتعالم الكنيسة، فكانت تمثل في اطار تلك النظرية أرقى انواع الحياة الانسانية، واكثرها تقدماً.

هذا وتجدر الاشارة هنا إلى أنه بينما كانت أوروبا تعيش ما يطلق عليه تاريخياً «بفترة العصور الوسطى المظلمة» ازدهرت حضارتان رئيستان خارج القارة الاوربية وهما «الحضارة البيزنطية» و «الحضارة الاسلامية». ورغم أن الحضارة البيزنطية هي في اساسها مسيحية غربية، إلا أن انتقالها من غرب أوروبا إلى الشرق قد اكسبها الكثير من خصائص الحضارات القديمة والتراث الشرقي. وقد عمت الحضارة البيزنطية جهات متعددة مثل سوريا وآسيا الوسطى وفلسطين ومصر، كما تأثرت أيضاً بالحضارة اليونانية لدرجة أن اللغة اليونانية اصبحت هي اللغة المتداولة. وبصفة عامة، ازدهرت الحضارة البيزنطية وتفوقت كثيراً على الحضارة الرومانية التي سادت في غرب أوروبا لعدة قرون قبل أن تتدهور وتنتهي باجتياح القبائل الجرمانية التي كانت عاصمتها الغربية (روما) - حيث اشاعت الفوضى وأفشت الجهالة.

ويظهر الاسلام في الجزيرة العربية، في الفترة نفسها التي ازدهرت فيها الحضارة البيزنطية تقريباً، ويبدأ في الانتشار خاصة بعد فتح مكة عام ٧هـ/٦٣٢م وتبدأ بوادر الحضارة الاسلامية آنذاك في التكوين والازدهار منذ منتصف القرن السابع حتى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً. ويذكر المؤرخون أن عظمة الحضارة الاسلامية واهميتها لا ترجع إلى أنها أتت فقط بدين جديد آمن به الملايين من الناس في اماكن متعددة ومتفرقة، وإنما فيما أحدثته أيضاً من تغيرات اجتماعية وسياسية كبيرة نتج عنها اثراء فكري وتراث حضاري لم يسبق لهما مثيل. وقد تضمنت الحضارة الاسلامية.

الآدب والاخلاق، والفلسفة والمنطق، كما كانت ذات تأثير خاص في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية (مرجع ١٠٧ ص ٢٥٩).

واننا في استعراضنا لهذه الخلفية التاريخية الموجزة نولي اهتماماً خاصاً بالكتابات ذوات الصلة بالانثروبولوجيا[1] ومن ثم تجدر بنا الاشارة إلى اهمية الجغرافيا العربية التي بلغت أوج نضجها في القرن الرابع الهجري (التاسع الميلادي). فلقد أصبح من الضروري، عقب الفتوح العربية الاسلامية، الاهتمام بادارة البلاد، الامر الذي جعل وصف الاقاليم والعناية بها جزءاً من اخبار الفتوح والمغازى، كما أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم أيضاً. ثم جاء دور الاهتمام بالمنطقة من حيث ثروتها ومقدرتها على دفع الضرائب. فهذا النوع من الجغرافية الادارية أو السياسية يبدو واضحاً في كتاب المسالك والممالك الذي دونه «ابن خرداذبه» في اواسط القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). وفى هذا الشأن، كتب استاذ التاريخ د. نقولا زيادة في كتابه «الجغرافية والرحلات عند العرب» أنه باستقرار الدولة الاسلامية وكثرة تنقل الحجاج والتجار وأهل العلم والرحالين واهتمام الكثرة من هؤلاء بتدوين ما يرون ويشهدون ويسمعون، أخذت العناية بالجغرافية تتبلور حول دراسة الاقاليم والمناطق دراسة وافية» (مرجع ٩٣ ص ١٢). فمنهم من اهتم بتقديم وصف عام للاقاليم الاسلامية مثل ما جاء في كتاب شمس الدين القدسي بعنوان «أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» ومنهم من تخصص في اقليم معين مثلما فعل الهزاني في «وصفه جزيرة العرب» والبيروني (٣٦٢هـ - ٤٤٠هـ) في وصفه للمجتمع الهندي.

وعلى سبيل الايضاح نشير هنا إلى كتاب البيروني عن الهند، لما حظي به من شهرة كبيرة في الدوائر العلمية الاوربية، ولما احتواه من مادة اثنوجرافية هامة. ففي هذا الكتاب، الذي حمل عنوان «تحرير ما للهند من

مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، وصف البيروني المجتمع الهندي من ناحية نظمه الدينية والاجتماعية، وانماطه الثقافية، كما اهتم أيضاً بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس. وقد أبرز البيروني حقيقة أن الدين يلعب الدور الرئيس في تشكيل الحياة الهندية وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات، وصياغة القيم والمعتقدات. أوضح البيروني كيف أن الهنود يعتقدون في قوة موجودة وجوداً حقيقياً لا تدرك بالحس. وإنما تعقلها النفس، وتحيط بصفاتها الفكرة التي يسمونها «ايشفر»، وهي معبودهم الذي خلقهم وخلق الكون. وسوف نجد أن البيروني قد عرض أيضاً لفكرة «البناء الاجتماعي» الذي وصفه في فصل بعنوان «في ذكر الطبقات التي يسمونها الواناً وما دونها» وأوضح كيف أن المجتمع الهندي يسود فيها النظام الطبقي المغلق. ولم يقتصر وصف البيروني على تلك الجوانب الدينية والاجتماعية، وإنما تناول - علاوة على ذلك اللغة الهندية، وقارنها باللغة العربية. وقد «قسم اللغة الهندية إلى كلام دارج مبتذل يستخدمه السوقة، وإلى مضمون فصيح يتعلق بالتصاريف والاشتقاق، ودقائق النحو والبلاغة لا يرجع إليه إلا الفضلاء المهرة «أو من يسمون الآن بالخاصة». (مرجع الدكتور حسين مؤنس).

وقد برز العرب أيضاً علاوة على ما تقدم في اعداد المعاجم الجغرافية، كمعجم البلدان لياقوت الحموي وكذلك في اعداد موسوعات كبيرة بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) مثل «مسالك الامصار» «لابن فضل الله العمري» ونهاية الارب في فنون العرب للنويري. وقد اهتمت هذه الكتب عادة بشئون العمران، كما تميزت مادتها بكونها تعتمد على المشاهدة والخبرة الشخصية، الامر الذي جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الانثربولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الانسانية. ونظراً لأن

هدفنا هنا ليس أن نتحدث عن الرحالة العرب أو المسلمين جميعهم، إلا أنه تجدر الاشارة مثلاً إلى علي بن الحسين المسعودي، الكاتب الموسوعي، والرحالة، والمؤرخ الاجتماعي، الذي كان – على حد وصف نقولا زيادة – «يسير في البلاد مفتوح العين والاذن، طلعة العقل والفكر، كثير التساؤل؛ وبذلك اتيح له أن يدرك من احوال هذه الدنيا وتطور شعوبتها وشيعها ما لم يتح لكثير من معاصريه» (مرجع ٩٣ ص ١٥٣).

ويعتبر مؤلفه الشهير «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذي دونه حوالي سنة ٣٣٠هـ/٩١٢م «كتاب سياحة ومعرفة جغرافية، وعمران وعلم وملاحظة، واخبار واساطير» (مرجع ٩٣ ص ١٥٦). ويحتوي الجزء الاول منه بصفة خاصة على ما يمكن أن يشار إليه بأنه ذو صلة وثيقة بمسائل انثروبولوجية اساسية؛ وذلك لما ورد فيه من وصفه للخليقة، وعرضه للاديان والعادات والمذاهب. ففي الجزء الثاني من مؤلفه نجده يشير إلى تأثير البيئة على الإنسان فيذكر أن «سحب الشام ومرتفعاتها ورياحها تحسن الجسم، وتصفي اللون، وإن كانت تبلد العقل وتجفي الطبع (ج٢ ص ٦١). أما حرارة مصر وركود هوائها فتكدر الالوان وتخيب الفطن. والمغرب يقسي القلب ويوحش الطبع، ويذهب بالرحمة (ج ٢ ص ٦٢) والجبال في (خمدان أو عراق العجم) تخشن الاجسام وتبلد الافهام لغلظ التربة وتكاثف الهواء. أما العراق، سرة الأرض وقلبها، حيث وقف الاعتدال، فصفت امزجة أهله، ولطفت اذهانهم، واحتدت خواطرهم، فهو مفتاح الشرق ومناره (ج٢ ص ٦٣)» – (مرجع ٤٩ ص ٣١٨).

وإذاكان المورخون يطلقون على المسعودي لقب شيخ الرحالة العرب. فهناك شخصية عربية أخرى يشتهر صاحبها – وهو ابن بطوطة – بأنه سيد رحالة عصره على الاطلاق، أي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر

الميـلادي) . ولرحـلات ابن بطوطـة وكـتـاباتـه خـصـائـص ذات طابـع انثروبولوجي برزت في اهتمامه الكبير بالناس ووصف دقائق حياتهم اليومية وطابع شخصياتهم وسلوكهم وقيمهم. فمن ذكره «لما استحسنه من افعال السودان» – على حد تعبيره كتب يقول :

«فـمن افـعـالهم الحـسنة قلة الظلم، فـهم أبعـد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه؛ ومنها شمول الأمن في بلادهم، فـلا يخـاف المسـافـر فـيـهـا ولا المقيم من سـارق ولا غـاصب. ومنهـا عـدم تعـرضـهم لمال من يموت ببـلادهم من البـيـضـان، (يقـصـد البـيض والاجـانب) ولو كـان القناطيـر المقنطرة، وإنما يتـركـونه بيد ثقـة من البـيضـان حـتـى يأخـذه مسـتـحـقـه؛ ومنـهـا مـواظبـتـهم على الصلوات والتـزامـهم في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلي لكثـرة الزحـام. ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان علامة بسجادته، فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد. وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له. ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة. ولو لم يكن لاحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة، وفيها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود، إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه» (مرجع ٢١ ص ٦٧٢) .

إن اقـامـة ابن بطوطة بجـزر «ذيبـه المهل» «جـزر الملديف» لمدة عـام ونصف، واشتغاله بالقضاء فيها، وتزوجه من امرأتين هيأت لـه معرفة وافية بحـيـاة أهل تلك الجـزر، فـيـصـف اهلهـا بأنهم «أهل صـلاح وديانة، وايمان

صحيح صادق، أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب» (مرجع ٢١ ص ٥٦٣).
وعنهم يكتب أيضاً أنهم «أهل نظافة وتنزه عن الاقذار، واكثرهم يغتسل مرتين في اليوم تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق، ويكثرون من الادهان العطرية كالصندلية وغيرها، ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو» (مرجع ٢١ ص ٥٦٣). في ذكر نسائها، روى ابن بطوطة ما يلي:

«ونساؤها لا يغطين رؤوسهن، ولا سلطانتهم تغطي رأسها، ويمشطن شعورهن، ويجمعنها إلى جهة واحدة، ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل، وسائر اجسادهن مكشوفة، وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها. ولقد جهدت لما وليت القضاء بها، لاقطع تلك العادة وآمرهن باللباس، فلم استطع ذلك، فكان لا تدخل الي منهن امرأة في خصومة إلا مستترة الجسد، وما عدا ذلك لم تكن لي عليهن قدرة». (مرجع ٢١ ص ٥٦٦).

«والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزرة الصداق وحسن معاشرة النساء، وأكثر الناس لا يسمى صداقاً، إنما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها، وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء فإذا ارادوا السفر طلقوهن، وذلك نوع من نكاح المتعة، وهن لا يخرجن من بلادهن أبداً، ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن، ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها، بل هي التي تأتيه بالطعام، وترفعه من بين يديه، وتغسل يده، وتأتيه بالماء للوضوء، وتضم رجليه عند النوم. ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة، ولقد تزوجت بها نسوة، فأكل معي بعضهن بعد محاولة، وبعضهن لم يأكل

معي، ولا استطعت أن أراها تأكل، ولا نفعتني حيلة في ذلك»
(مرجع ٢١ ص ٥٦٧).

وإلى جانب اعمال المسعودي وابن بطوطة، وكلاهما من المغرب العربي هناك عدد كبير أيضاً من الرحالة العرب والمسلمين الشرقيين. نذكر من بين هؤلاء ابن فضلان من أهل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي ذهب إلى ملك البلغار في بعثة ارسله اليها الخليفة العباسي المقتدر بالله. وجاءت اخبار ابن فضلان عن البلغار، وعن الروس الذي كانوا يتاجرون معهم، غنية بالمعلومات الاثنوجرافية والمعرفة الجغرافية. ومما قاله مثلاً عن معاملة الروس للمرضى أنه :

«إذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم. وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه، بل لا يتعاهدونه في كل أيام مرضه لاسيما إذا كان ضعيفاً أو مملوكاً. فإن برئ وقام رجع اليهم. وإن مات احرقوه، فإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير»
(مرجع ٩٣ ص ١٩٩).

ومن المشرق العربي، نذكر ابن بطلان الذي غادر بغداد في رمضان عام ٤٠٤هـ ووصف انطباعاته عن الطريق من العراق إلى شمال الشام في رسالة إلى صديق له، ولهذه الرسالة اهمية اثنوجرافية لما احتوته من جوانب اجتماعية وثقافية «قل إن حفل بها العرب المسلمون، مثل كلامه عن وضع السكان النصارى وموقعهم من البيزنطيين، وعاداتهم واماكن العبادة عندهم» (مرجع ١٦ ص ٢٦١). ومن المشرق نشير أيضاً إلى أحد الرحالة المسلمين، ناصر خسرو (٣٩٤-٤٨١هـ) الفارسي الاصل والنشأة والثقافة، الذي وصف

البلاد التي زارها وصفاً دقيقاً، والقى الاضواء على الحياة الاجتماعية بتلك البلاد، الامر الذي جعل رحلته المعروفة باسم «سفر نامة» غنية بالصور، مليئة بالمعلومات عن مدن الشام وحياة الناس بها وتقاليدهم قبل مجيء الصليبيين، كما يتضح من الفقرتين التالبتين :

«ورأيت مدينة حلب فإذا هي جميلة، بها سور عظيم، قست ارتفاعه فكان خمساً وعشرين ذراعاً، وبها قلعة عظيمة مشيدة كلها على الصخر، ويمكن مقارنة حلب ببلخ، وهي مدينة عامرة، ابنيتها متلاصقة، وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق، ويذهب اليها التجار من جميع هذه البلاد. ولها أربعة أبواب، باب اليهود وباب الله، وباب الجنان، وباب أنطاكية. والوزن في سوقها بالرطل الظاهري وهو اربعمائة وثمانون درهماً، وتقع مدينة حماة جنوبي حلب بعشرين فرسخاً، ومن بعدها حمص، ومن حلب إلى دمشق خمسون فرسخاً، وإلى أنطاكية اثنا عشر فرسخاً، وإلى طرابلس كذلك، ويقال إن من حلب حتى القسطنطينية مائتي فرسخ» (مرجع ٩٢ ص ١٤٠٤).

«وفي الحادي عشر من رجب سنة ٤٣٨ (١١ يناير ١٠٤٧) خرجنا من حلب، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ منها قرية تسمى جند قنسرين، وفي اليوم التالي سرنا ستة فراسخ وبلغنا مدينة سرمين، التي لا سور لها. وبعد مسيرة ستة فراسخ أخرى بلغنا معرة النعمان، وهي مدينة عامرة ولها سور مبني. وقد رأيت على بابها عموداً من الحجر، عليه كتابة غير عربية فسألت ما هذا؟ فقيل إنه طلسم العقرب، حتى لا يكون في هذه المدينة

عقرب أبداً، ولا يأتي اليها، وإذا أحضر من الخارج وأطلق بها فإنه يهرب ولا يدخلها، وقد قست هذا العمود فكان ارتفاعه عشر أذرع. ورأيت أسواق معرة النعمان وافرة العمران. وقد بنى مسجد الجمعة على مرتفع وسط المدينة بحيث يصعدون إليه من أي جانب يريدون وذلك على ثلاث عشرة درجة. وزراعة السكان كلها قمح وهو كثير، وفيها شجر وفير من التين والزيتون والفستق والعنب. ومياه المدينة من المطر والآبار، (مرجع ٩٢ ص ٤٥).

إن ذكر الصليبيين يدعونا إلى الاشارة هنا إلى أنه مع بداية الحملات الصليبية عام ١٠٩٦م على منطقة المشرق العربي، أتت اعداداً كبيرة من الاوروبيين كحجاج لبيت المقدس، أو مبشرين للديانة المسيحية. ومع أن اهدافهم كانت روحية، أو سياحية أو استكشافية في المقام الأول، إلا أنه كان لما دونوه من مشاهدات، وما تناقلوه من روايات قيمة اثنوجرافية كبيرة، رغم ما احتوت عليه المادة من كثير من الانطباعات الذاتية والاحكام التقويمية. وقد نتج عن هذا الاتصال الثقافي المبدئي بين الغرب والشرق أن نما الاهتمام بالشرق ومعرفة احوال أهله، وكان هذا اساساً لكثير من الاستكشافات والتصورات عن الشرق، مما مهد للتوغل بعد ذلك. وبلغ هذا الاحتكاك الثقافي ذروته في حروب المغول بقيادة جنكيز خان (١١٦١-١٢٢٧م) التي نشبت لصد هذا الزحف الغربي، إلى أن تقهقرت جيوش المغول حوالي ١٣٣٤م وتوغل الغرب تدريجياً صوب الشرق (مرجع ١٧٦ ص ١٥).

وقد سجل ماثيوباريس Mathew Paris بعض التفصيلات الشيقة عن المغول ابان هذه المواجهة بينهم وبين الغرب وإن لم تكن تخلو من التحيز، كما يبدو واضحاً في الفقرة التالية :

«ليس لديهم (المغول) قوانين انسانية. لا يعرفون الراحة وهم أكثر وحشية من الدببة أو الأسود. لديهم قوارب مصنوعة من جلود الثيران والتي يتسع كل منها لعشرة أشخاص أو اثنى عشر شخصاً. يتقنون السباحة والتجديف ولهم قدرة كبيرة جداً على اجتياز الأنهار والقنوات التي تتدفق فيها المياه بسرعة هائلة وبخطورة كبيرة. إنهم يشربون الدم وإن لم يجدوه استعاضوا عنه بشرب الماء المعكر بالطين. لديهم سيوف ذوات حد واحد، وخناجر، وجميعهم – سواء اكانوا رجالاً أم نساء، صغاراً أم كباراً – يتقنون الرمي بالقوس. لا يتحدثون غير لغتهم التي لم تكن معروفة لدى الغربيين، الامر الذي جعل التواصل بينهم والتعرف على تقاليدهم صعباً. يتحول المغول في الأراضي الشاسعة مع قطعانهم وزوجاتهم اللاتي يتقن فن الحرب كالرجال تماماً. وهذا ما يفسر انقضاضهم بمهارة وحنكة على حدود مملكة المسيحية وكأنهم صاعقة نزلت لتلحق الموت والدمار بالجميع الذين أصابهم الذعر والهلع». (مرجع ١٧٦ ص ١٥-١٦).

وبشأن العلاقة بين الشرق والغرب، وأوجه الاتصال والتفاهم، نجد أن تراجع المغول نحو الشرق قد أعطى الدولة المسيحية الفرصة والوقت لبناء جسور مع أهل الشرق، تخوفاً من احتمال أن يعاودوا الكرة، ويقوموا بهجمة شرسة أخرى. ولعلنا نذكر في هذا الصدد رحلات نيكولاي بولو N. Polo، وأخيه ماثيو بولو M. Polo، وابن أولهما مارك بولو M. Polo (١٢٥٤-١٣٢٤م)، والتي قامت رغم طابعها الاستكشافي والتجاري بدور سياسي كبير كهمزة وصل بين الشرق والغرب. وعن مارك بولو والمعلومات

التي أوردها ونشرت عن رحلاته مع والده وعمه، خلال الفترة من ١٢٧١ - ١٢٨٨م، يذكر لنا ويندديل أوسوالت Wendell Oswalt في كتابه الشيق المعنون «شعوب أخرى، تقاليد أخرى» أنها كانت تتصف بعدم الاتساق والخلو من الترابط والبرهان. لهذا يرى أوسوالت أنه ربما لا يوجد بعد كتابات هيردوتس من أعمال تستحق الذكر من حيث قيمة ما تقدمه من معلومات اثنوجرافية مدققة عن الشعوب غير الاوروبية، إلا مدونات الفرنسيسكان الذين كانوا في حقيقة الامر من اوائل الاوروبيين الذين حصلوا على معلومات حقيقية ودقيقة عن البلاد والشعوب التي ارادوا تنصير أهلها» (مرجع ١٧٦ ص ١٦).

وتتصدر اعمال الفرنسيسكان مدونات الايطالي جون دي بلانو كاربيني J. Carpini (١١٨٢-١٢٥٢م) الذي حمل تكليفاً بابوياً بالتوجه إلى بلاد التتار ليصف تقاليدهم وعاداتهم، بقصد انجاح عمليات التنصير فيما بعد. وقد نجح كاربيني في تقديم أقدم وصف دقيق عن بلاد آسيا الوسطى والشرقية وشعوبهما، متقدماً في ذلك على مارك بولو بحوالي نصف قرن. وقد نجد في هذا التكليف الذي تكرر واتسع فيما بعد ليشمل أشخاصاً آخرين، اهمية تاريخية في مجال استخدام المعرفة باسلوب حياة شعب معين والوقوف على تقاليدهم وعاداتهم بقصد تحقيق تغيير مقصود في العقيدة والنظم الاجتماعية. إن هذا التوظيف للمعرفة الاثنوجرافية - إن صح هذا التعبير - ربما يشكل في اعتقادنا أول ربط بين الاثنوجرافيا والاغراض أو الاهداف العملية، مما أصبح في الوقت الحالي تخصصاً هاماً من تخصصات الانثروبولوجيا، يعرف بالانثروبولوجيا التطبيقية Applied Anthropology. وهكذا نجد أن الكنيسة الرومانية قد انتهجت سياسة استعمارية خلال القرن الثالث عشر الميلادي، كما اهتم البابوات بصفة خاصة بكاثاي (أو الصين

كما كانت تسمى حينذاك). لكونها مجالاً خصباً لعمليات التنصير، خاصة أن الكنيسة قد لاقت المتاعب الكثيرة مع مسلمي آسيا. وقد وجد المبشرون الاوروبيون رفضاً مماثلاً لعمليات التبشير من قبل المسلمين عندما توجهوا جنوباً صوب القارة الإفريقية. فقد منعهم مسلمو المغرب والجزائر من اختراق اواسط إفريقيا. وإن لم يرفضوا المعاملات التجارية (مرجع ٦٦ ص ٢٣).

وبصدد الاسلام والمسلمين في ادبيات العصور الوسطى، تذكرنا الدكتورة رشا الصباح في بحث حول هذا الموضوع: أن وجهات نظر الكتاب الاوروبيين متعددة ومتضاربة. نجد مثلاً أن تناول دانتي Dante (١٢٦٧-١٣٢١م) لصلاح الدين الايوبي يختلف عن معالجة جيوفاني بوكاتشيو G. Boccaccio (١٣١٣-١٣٧٥)، كما أن تفضيله لابن رشد لا يلقى هوى عند كاسيتو بترارك Petrarch (١٣٠٤-١٣٧٤م). ورغم هذا التنوع والتضارب في وجهات النظر، إلا أنه ساد اتجاهان رئيسان نحو الاسلام والحضارة العربية. فبينما أكد البعض على قيمة الاسهام العربي في تطور العلم الغربي خاصة في اعمال الفارابي وابن رشد وابن سينا، نجد أن الاتجاه الآخر تبلور حول الصراع، والمواجهة الشرسة بين العالم العربي والمسيحية الغربية التي بلغت الذروة بالحملة الصليبية من جهة الغرب وبالجهاد ضدها ومقاومتها من قبل مسلمي الشرق (مرجع ٩٨ ص ٢٢).

ومهما يكن الامر، فاننا نجد أنه بالرغم من بداية تدهور الامة الاسلامية، وتقلص الاسهامات العلمية لمفكريها منذ اواخر القرن الحادي عشر، ظل علماء العرب والدارسون منهم يتلاحقون حتى القرن الرابع عشر وربما تجاوزوه (مرجع ٢٩ ص ١٧٠). ففي اواخر ذلك القرن نجد أن أحد علماء المسلمين، واسمه عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢م-١٤٠٦م)، قد أرسى قواعد المنهج لدراسة المجتمع، وطبيعة العمران

البشري، ودورة الحضارات، وسبق في ذلك بقرون عديدة فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع والاوروبيين. ومن الطريف أن نذكر أن بعض الكتاب العرب يرون في ابن خلدون المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع، بينما يجد البعض الآخر - وخاصة الانثروبولوجيون البريطانيون في مقدمة ابن خلدون بعض موضوعات ومناهج الانثروبولوجيا الاجتماعية (مرجع ١٠٠ ص ١١٢) بالرغم من أنهم يردون أصول أو جذور علمهم إلى الافكار والنظريات التي سادت خلال القرن الثامن عشر وخاصة ما جاء في كتابات مونتسكييه Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥)، كما سنشرح ذلك بالتفصيل في الفصل التالي. وفي أمريكا، نجد أن غالبية مؤرخي الانثروبولوجيا لا يشيرون إلى ابن خلدون عند تناول كتابات ما قبل عصر النهضة. ومع ذلك، نجد أن مؤرخ الانثروبولوجيا دارنيل قد ضمن مقتطفات من فصل ابن خلدون عن البدو ضمن كتابه «قراءات في تاريخ الانثروبولوجيا» (مرجع ١٠٩). وقد أشار جون هونجيمان أيضاً في كتابه «تاريخ الفكر الانثروبولوجي» إلى أن ابن خلدون قد تناول منه بعض الافكار ذات الصلة بنظرية مارفين هاريس عن «المادية الثقافية» Gultural Materialism ونجد أن هاريس ذاته يذكر ابن خلدون، ومن قبله الادريسي، قد قدما افكاراً ومادة ساعدت على بلورة نظرية الحتمية الجغرافية التي سادت ابان القرن الثامن عشر كما سنوضح ذلك بالتفصيل في الفصل القادم. (مرجع ١٠٠ ص ١١٢).

هذا وقد نال كتاب ابن خلدون «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر» شهرة كبيرة بسبب مقدمته الرئيسة والتي جاء عنوانها «في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والمصانع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب». وتعتبر هذه المقدمة عملاً اصيلاً في تسجيل

الحياة الاجتماعية لشعوب شمال قارة إفريقيا بما لها من تقاليد وعادات وعلاقات اجتماعية، إلا جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كل ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة. وقد كتب الكثير ولا يزال يكتب عن هذا العمل الفريد، الذي يصفه مؤرخ له مكانته مثل المؤرخ أرنولد توينبي A. Toynbee بأنها – يقصد المقدمة – اعظم عمل من نوعه أمكن لأي عقل أن يجود بمثله في أي عصر أو أي مكان، (مرجع ٢٩ ص ١٦٥).

وهنا يستحق ابن خلدون منا وقفة، ولو قصيرة، وذلك في إطار عرضنا لقصة الانثروبولوجيا، إذ أنه تطرق في مقدمته إلى موضوعات شكلت فيما بعد اهتماماً رئيساً في الدراسات الانثروبولوجية. ولعل من أهم تلك الموضوعات، كما يشير إلى ذلك الاستاذ الدكتور أحمد أبوزيد، أن ابن خلدون انتبه منذ قرون إلى مبدأ العصبية واهميته في فهم المجتمع القبلي. «وقد اهتم بهذا الموضوع عدد من المستشرقين الذين اتيحت لهم دراسة ابن خلدون والتعمق في دراسة طبيعة المجتمعات العربية القديمة. وأفضل مثل لذلك هو روبرتسون سميث الذي خصص كتاباً من أهم كتبه لدراسة القرابة والزواج في بلاد العرب القديمة، مسترشداً بابن خلدون ثم انتقل ذلك الاهتمام منه إلى واحد من أكبر علماء الانثروبولوجيا وهو الاستاذ ايفانز بريتشارد الذي اتخذ من ذلك المبدأ مدخلاً لدراسة قبائل النوير الرعوية في جنوب السودان». (مرجع ٨ ص ٦٧).

وكما أوضح ابن خلدون في تناوله لمبدأ العصبية «أن التنظيم الاجتماعي الخاص بالبداوة يقوم على مبدأ قرابة الدم الذي يحدد الولاءات والعصبية حتى تكاد القبيلة تشكل مجتمعاً قائماً بذاته، ولذاته خلال تاريخ طويل» (مرجع ٤٠ ص ٧٠)، فقد تحدث ابن خلدون أيضاً عن تنوع انماط المعيشة، وما يرتبط به من تباين حضاري. ويقول في هذا الشأن «إن اختلاف الاجيال

في احوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش. فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله، والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي» (مرجع ٦٥، الجزء الثاني، ص ٥٧٨). والقارئ للمقدمة سيجد أن ابن خلدون لم يكتف بتقديم وصف تفصيلي عن السمات والقيم السائدة لدى تلك الانماط المعيشية الثلاثة (البداوة والفلاحة والحضارة) وإنما قارن بين تلك السمات وبحث في طبيعة العلاقات بينهم.

ومن الموضوعات الاخرى التي تناولها ابن خلدون في مقدمته، والتي لها صلة بالاهتمامات الانثروبولوجية، في الماضي والحاضر، على حد سواء، تلك العلاقة القائمة بين البيئة الجغرافية وشئون الاجتماع. وكما يذكر لنا علي عبد الواحد وافي في تحقيقه القيم «مقدمة» أن ابن خلدون اعتبر البيئة الجغرافية دعامة هامة لمختلف الظواهر الاجتماعية، وأنه تناول هذا الموضوع في أربع مقدمات من الباب الاول حيث بدأ بعرض عام لجغرافية العالم، بالقدر الذي وصلت إليه بحوث هذا العلم في عصره، ثم شرح آثار البيئة الجغرافية في مختلف الظواهر الفردية والاجتماعية (مرجع ٦٥ ص ٢٩١). وكما يتضح من النص التالي، فقد رد ابن خلدون اختلاف البشر في الوانهم ومزاجهم النفسي وصفاتهم الجسمية والخلقية إلى البيئة الجغرافية التي اعتبرها أيضاً عاملاً هاماً في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الانسانية (مرجع ٦٥ ص ٢٩١). ففي المقدمة الثالثة، من الباب الاول، كتب ابن خلدون فصلاً بعنوان «في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر والكثير من احوالاهم»، نشير إلى بعض فقراته فيما يلي:

«قد بينا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لافراط الحر في الجنوب والبرد في الشمال. ولما كان الجنبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد، وجب

أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً. فالاقليم الرابع أعدل العمران. والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال. والذي يليهما من الثاني والسادس بعيد من الاعتدال. والاول والسابع أبعد بكثير. فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل اجساماً والواناً واخلاقاً وادياناً. حتى النبوات فإنما توجد في الاكثر فيها. ولم نقف على خبر بعثة في الاقاليم الجنوبية ولا الشمالية. وذلك أن الانبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم واخلاقهم» (مرجع ٦٥، الجزء الاول، ص ٤٨٦).

وإلى جانب تلك الموضوعات، نجد أن هناك تشابهاً إلى حد كبير بين ما جاء في قواعد منهج ابن خلدون في البحث وعرض الحقائق، وبين ما يدعو إليه الانثروبولوجيون المحدثون في دراساتهم وكتاباتهم عن ثقافات الشعوب، والتعميمات بشأنها. وعن منهج ابن خلدون يكتب الدكتور علي عبد الواحد وافي أن ابن خلدون اعتمد في بحوثه: «على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي اتيح له الاحتكاك بها والحياة بين اهلها، وعلى تعقب هذه الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره، وتعقب اشباهها ونظائرها في تاريخ شعوب أخرى لم يتح له الاحتكاك بها ولا الحياة بين أهلها، والموازنة بين هذه الظواهر جميعاً، والتأمل في مختلف شئونها للوقوف على طبائعها، وعناصرها الذاتية وصفاتها وما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد والجماعات، والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض، والعلاقات التي تربطها بما عداها من الظواهر الكونية، وعوامل تطورها واختلافها

باختلاف الأمم والعصور، ثم الانتهاء من هذه الامور جميعاً إلى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر في مختلف شئوها من قوانين». (مرجع ٦٥، الجزء الاول، ص ٢٥٥).

أما من ناحية الفكر النظري، فقد سبق ابن خلدون مفكري القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في بلورة نظرية متكاملة عن مراحل تطور الحضارة الانسانية، والمسار الذي يحكمها، والدراسات المقارنة المتصلة بها، وهو الموضوع الذي شغل الفكر الاوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وفي حقيقة الامر أن فكرة تغير الزمان والاشياء وتحولها، قديمة قدم الوجود الانساني ذاته، إلا أن اليونانيين، مثلاً، نظروا إلى ظاهرة التغير والتحول هذه، وفسروها في اطار فلسفي يقوم على الحركة في اتجاه واحد يربط بين الحياة والموت، ووصل الاشياء بعضها ببعض. أما العرب فقد رأوا في قيام الدول وتداعيها مدعاة لربط حياة المجتمعات الانسانية بحياة الكائن الحي من حيث مروره بمراحل العمر المختلفة من الولادة حتى الممات. وبهذا برزت فكرة دورة الحياة والموت عند الكائن الحي لتجد مجالات للتطبيق على الدول أو الحضارات الانسانية. ومن الطريف أن نجد تشابهاً بين هذا المنطلق والنظرة إلى التاريخ الانساني عند الفرس والرومان أيضاً (مرجع ٣٩ ص ١٥٠).

إن ابن خلدون قد تناول في مقدمته، مسألة اطوار الدول من ناحية قيامها ثم ما يجري عليها بعد ذلك من احوال، وبلور نظريته التي اسماها بدورة العمران بين البداوة والحضارة على أساس المشابهة بين الجماعة البشرية وبين الكائن الحي. تلك فكرة سيطرت أيضاً على الاذهان في الشرق والغرب على حد سواء خلال العصور الوسطى، فالتطور هو سنة الحياة الاجتماعية في نظر ابن خلدون وهو أساس بحثه في الظواهر الاجتماعية، إذ

يقول «إن احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر إنما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والاوقات والامصار، فكذلك يقع في الآفاق والاقطار والازمنة والدول» (مرجع ٦٥ الجزء الاول ص ٢٥٢) «فالدول تمر في دور البداوة ثم في دور الانحلال، كما أن عمر الدولة لا يعدو في الغالب عمر ثلاثة اجيال أي حوالي ١٢٠ سنة» (مرجع ٦٥ الجزء الأول ص ٤٨٥). وهكذا تتلخص نظرية ابن خلدون عن اطوار الدول، ففي رأيه أن كل دولة تسير في خمسة اطوار تبدأ عادة بالاستيلاء على الملك من دولة سالفة، وهذا الطور الأول هو «طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع» – على حد قوله، ويعقب ذلك طور استبداد الحاكم على قومه ثم طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك. أما الطور الرابع فهو «طور القنوع والمسالمة»، ويعقبه طور الاسراف والتبذير» اللذين تكمن فيهما نهاية الدولة حيث تحصل في الدولة طبيعة التهرم» ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برء» أي أن تنقرض – على حد تعبير ابن خلدون – وهكذا تنهي اطوار الدولة لتبدأ من جديد دولة أخرى على انقاض الدولة السالفة». (مرجع ٦٥ الجزء الثاني، ص ٦٦٤-٦٦٦).

هذا وقد خضعت مقدمة ابن خلدون بصفة عامة، ونظريته عن دورة الدول بصفة خاصة، للتحليلات المستفيضة بأقلام المفكرين والدارسين العرب والاجانب على حد سواء. ولا يتسع المجال هنا لعرض ما جاء في كتاباتهم وإنما يهمنا أن نبرز – في إطار موضوع هذا الكتاب – حقيقة هامة مؤداها أن مقدمة ابن خلدون تعتبر تراثاً انسانياً ذا قيمة عالية، واهمية كبيرة في تاريخ الفكر الاجتماعي عامة، وفي مسار العقل الانساني نحو وضع الاسس المنهجية والعلمية لدراسة احوال البشر، ولفهم طبيعة الحياة الاجتماعية،

ومسار الحضارة الانسانية. إن نظرية ابن خلدون عن التطور الاجتماعي تعتبر ولاشك واحدة من أهم المحاولات المنهجية للوصول إلى القوانين التي تحكم مسار الحياة الاجتماعية للجماعات الانسانية، وهذا أمر شغل بال المفكرين لقرون عدة بعد ابن خلدون، حتى تبلورت الانثروبولوجيا ذاتها كعلم مستقل حول بحث قضية الثقافات أو الحضارات الانسانية ومسارها (التقدمي)، كما سيتضح ذلك بجلاء فيما بعد.

وبصفة عامة، وفي اطار عرضنا لبواكير الفكر الانثروبولوجي، ربما يمكن القول إن اليونانيين والعرب، بصفة خاصة، قدموا بعض المفكرين الذين طرحوا مسألة التنوع الثقافي أو الحضاري بين الشعوب في الازمنة السابقة على عصر النهضة. كذلك برزت في كتاباتهم امكانية فهم ثقافة أو حضارة معينة في اطار مقارنتها بالثقافات أو الحضارات الاخرى. ولقد اوضحت الانثروبولوجية الامريكية دارنيل عند عقدها لمقارنة بين هيردوتس وابن خلدون أن كليهما قد حظى بخلفية ثقافية مغايرة لثقافة الشعوب أو الجماعات التي تناولاها بالوصف. فابن خلدون ينتمي إلى أصل عربي اسباني. وهيردوتس – كما سبق أن ذكرنا – له خلفية آسيوية. ومن الطريف أن كلاهما كتب عن البدو، رغم أن تناول ابن خلدون للبدو يتصف بتضارب المشاعر في عدة مواضع. فبينما وجد فيهم فضائل شخصية تفوق بكثير خصائص أهل الجماعات المستقرة بالحضر، ومنها الجسارة والبساطة في الحياة، إلا أنه أدرك أن الابتكار أو تقدم العلوم والمعارف لا يأتيان إلا من أهل الحضر. كذلك اهتم ابن خلدون بالمقارنة بين الحضارات. كما فعل هيردوتس في مقارنته بين الحضارة اليونانية والحضارات الاخرى. هذا علاوة على أن كليهما في – نظر دارنيل – قد طرح، ولو بدرجات متفاوتة. فكرة النسبية الثقافية، التي أضحت فيما بعد اساساً لمعالجة ودراسة الثقافات

الانسانية. ويشير منطلق النسبية إلى النظر إلى السلوكيات الثقافية للناس في سياق حياتهم وتقاليدهم وقيمهم وليس في اطار تقويمي يعتمد اساساً على ثقافة الكاتب أو الباحث. (مرجع ١٠٩ ص ١٥-١٦).

وبالرغم من اهمية اعمال كل من هيردوتس وابن خلدون، وما أشرنا إليه أيضاً من اعمال أو مصادر أخرى للمادة الاثنوجرافية عن شعوب المجتمعات القديمة واساليب حياتها، إلا إن الانثروبولوجيا عندما تبلورت كفرع جديد من المعرفة في اواخر القرن التاسع عشر لم يكن ذلك على أساس تلك الاعمال أو أن الانثروبولوجيا امتداد لها. لقد قصدنا في هذا الفصل أن نوضح أن الاهتمام بالإنسان وحضارته قديماً كان محصوراً في جمع المادة الاثنوجرافية فحسب، دون أن تكون هناك محاولات جدية أو منهجية سليمة نحو التنظير. ذلك ما لم يبدأ، في حقيقة الامر، إلا في عصر النهضة، كما أن تلك المحاولات لم تبلغ ذروتها أو نضجها إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومع ذلك، يجب أن نستثنى عبد الرحمن بن خلدون من هذا التعميم، ففي مقدمته نجد المادة الاثنوجرافية والنظرية معاً. ولعل ما يهمنا أن نوضحه في هذا المجال، أن هذا النوع من التراث الفكري، وخاصة ما صدر عن الشرقيين، يحتاج إلى «قراءة جديدة» ومن جوانب عديدة. وذلك كما يقول أحمد أبو زيد، بهدف «الوصول إلى نظرة متكاملة إلى مناهج البحث في الاعمال التراثية، والمبادئ العقلية التي كانت تحكم هذه الأعمال، ومدى امكان الاستعانة بهذه المناهج والمبادئ في اقامة فكر عربي جديد يسترشد بجهود المفكرين السابقين مثلما يسترشد بالفكر العربي المعاصر».

إن من بين مهام الانثروبولوجين العرب في الوقت الحاضر ألا تقتصر جهودهم على ابراز السبق العربي على الغرب فحسب بصدد بعض المفاهيم النظرية، أو جمع المادة الاثنوجرافية، وإنما لابد وأن تتضمن دراساتهم أيضاً

الفحص الدقيق للاعمال التراثية، بهدف الكشف عن الجوانب المنهجية المشتركة بين الكتاب، والتي يكونون قد استمدوها من معارفهم وتربيتهم الدينية اساساً. وفي هذا الصدد ينبهنا الاستاذ الدكتور توفيق الطويل إلى حقيقة هامة وهي أن «الحياة العقلية عند الشرقيين كانت أوثق اتصالاً بحياتهم الدينية منها بالتفكير الفلسفي الخالص، فقد امتزج هذا التفسير بالتفكير الديني في شتى عصور الانسانية، حتى ليمكن القول بأن كل محاولة تهدف إلى الفصل بينها تنتهي لا محالة إلى العجز عن فهم كليهما» (مرجع ٧٢ ص ٤٦).

# الفصل الثاني

# الشعوب البدائية

# الفصل الثاني

## الشعـوب البـدائيـة (*)

لقـد استـعـملت مـصطلح «البـدائيـة»، مـثل كـثـيـرين غـيـري من الأنثروبولوجيين، بشعور متزايد من عدم الرضا. ويضم كتاب مدرسي نشره سيـرفس بعنوان «مـلامح الثـقـافـات البـدائيـة» «A Profile of Primitive Cultures» عـام ١٩٥٨ وصـفـاً لشـعـوب الأرُنْتـا، والـيـاهـغـان، والأنـدامـان، والأسكيـمـو، والتّنغـو، والشـايان، والنوير، والنافـاهو، والخـيـفـارو، والنونكا، والتروبرياندر، والتاهيتيين، والكالنغا، والمايا، والإنكا، والأشانتي، ولقرى في يوكاتان، ومرّاكش، والصين، والهند. ويبدو أن هذا المصطلح في ذلك الكتاب وفي غـيـره من الكتب التي سبـقـتـه، مـثل «مـعـاصـرونا البـدائيـون» «Our Primitive Contemporaries» (مـيـردُك ١٩٣٤) لا يعني إلاّ «الشعـوب التي يدرسها الأنثروبولوجيون». إذن لماذا اختير هذا المصطلح دون غيره؟.

ليست المسألة مسألة اختلاف حول ظلال المعاني. ففي الرحلات التي قمت بها حديثاً اتضح لي أن تغاضينا عن هذا المصطلح سيلحق الضرر بعلم الأنثروبولوجيا. إن الأنثروبولوجي يُعرّف بأنه «من يدرس الشعوب البدائية» لكن المعاني القاموسية لكلمة «بدائية» لا تشير إلى وجود جماعات من هذا النوع، أو على الأقل، ليست الشعوب التي ندرسها بدائية بالمعنى الذي تفهم به هذه الكلمـة، فـفي عـالم اليـوم غـدا العلمـاء الذين يدرسـون الجـمـاعـات «البدائية» بلا موضوع يدرسونه.

---

(*) يعاد نشر هذا البحـث هنـا من Current Anthropology، المجلـد الأول، العـددان ٥ – ٦ أيلول – تشرين الثاني، ١٩٦٠، ص ٤٤١ – ٤٤٥.

كنت أخذت على عاتقي مهمة كتابة بحث حول هذا الموضوع لاجتماع الجمعية الأنثروبولوجية للولايات الأمريكية الوسطى الذي كان سيعقد في بلُومِنْغْتُنْ بولاية إنديانا في الولايات المتحدة، في أيار ١٩٦٠، وطلبتُ من مساعدة البحث "لوس مِدْنِكْ" أن تعدّ لي بعض المعلومات حول استعمالات مصطلح البدائية في علم الأنثروبولوجيا وسأنقل هنا نصّ مذكرتها لما لها من فائدة عامة.

وقد اتضح لي في غضون ذلك أن سبب عجزنا عن الاستعاضة عن ذلك المصطلح بغيره - مثل قبل - كتابية، أو وطنية، إلخ - هو أن الاستعمال الأنثروبولوجي لكلمة البدائية لا يعبر عن مفهوم صحيح يستحق مصطلحاً واحداً، إذ نحن نحشر معاً كل شعوب العالم، ماضيها وحاضرها، فيما عدا تلك التي تشكل جزءاً من المدنية الغربية وأسلافها القدماء. لكن يجب على الأنثروبولوجيين، قبل غيرهم، أن يعرفوا أن هذا التصنيف غير مقبول، فإذا ما تطلبت شجرة البلوط مصطلحاً يغطي كل الأشجار الأخرى باستثناء شجر البلوط، فهل نستغرب ألاّ نجد جواباً شافياً؟ ليس بين الشعوب التي ندعوها بدائية، في الحقيقة، عامل مشترك لا تشاركها فيه كل المجتمعات والثقافات البشرية الأخرى. إذ لابدّ لسمة كتلك أن تكون (١) صفة تميز بنفس الدرجة الأندامان، والأُرنتا، والأشانتي، والشايان، والصين، والأسكيمو، والإنكا، والهنود، والخيفارو، والكالنغا، والمايا القدماء والمعاصرين، والمراكشيين، والنافاهو، والنوتكا، والنوير، والتاهيتيين، والتروبرياندر، والتنغو، والياهغان، وأن تكون (٢) مميزة لكل هؤلاء عن مصر إخناتون، وأثينا بِرِكْليس، وفلورنسة جِليني، وإنكلترا شيكسبير، وأوروبا نابليون.

ونحن لم نكتشف أية سمة في هذا النوع، بل استنتجنا أن مثل هذه السمة لا وجود لها. لكننا نمضي مع ذلك في استعمالنا للكلمة وصفاً للمجموعة

الأولى لأن شعوبها غدت موضوع دراستنا الخاصة (فالمجموعة الثانية معروفة لدينا بشكل جيد).

ورغم أن أية كلمة مفردة لن تكون مناسبة، إلا أن الكلمة التي اخترناها – أي البدائية – كانت أسوأ من غيرها بالنظر لما لها من ظلال المعاني. ومن المفارقات الغريبة أن المؤمنين بالنسبية الثقافية استعاضوا عن المصطلحات السيئة القديمة (متوحشة، بربرية، متمدينة) بأسوأ منها (بدائية) ليطلقوها على أولئك الذين كان علماء النشوء والارتقاء يدعونهم بالمتوحشين والبرابرة، واستخدموها، فضلاً عن ذلك، ليصفوا بها شعوباً «متمدينة» لم تكن معروفة جيداً من قبل الأوروبيين. أما الأنثروبولوجيون فإن استعمالهم لمصطلح البدائية في السياقات النظرية (حيث لا مدلول لها هناك) يقل عن استعمالهم له في عناوين مقرراتهم الدراسة وكتبهم، وفي أحاديثهم العادية، حيث يكون أثرهم على أشده، وهذه أعجب المفارقات! نحن نضع المصطلح بين علامات اقتباس ونعرف أن ذلك ليس صحيحاً، ولكن هل نلوم غيرنا إذا قال، ضمن إطار تقسيم العمل، إن الأنثروبولوجيين هم الأشخاص الذين يدرسون البدائيين؟.

**مذكرة حول استخدام «البدائية»:**

**يذكر معجم وبستر الموسّع الاستعمالات التالية لكلمة Primitive [المشتقّة من Primitif الفرنسية، والمشتقة من كلمة Primitivus اللاتينية، المشتقة من Primus، ومعناها: الأول]:**

١ – ما يتعلق بالبداية أو الأصل، الأقدم في الزمن، الأول، الأصلي، مثل: العصور **الأولى** للدين، أجدادنا **الأوائل**(*).

(*) أرجو أن يفهم من الكلمات التي تحتها خط في الأمثلة المعطاة أنها جميعاً المرادفات العربية المناسبة في سياق الأمثلة لكلمة Primitive التي تستعمل في كل تلك الأمثلة (المترجم).

٢- ما يتعلق بأقدم العصور، كعصور البشرية أو المدنية، أو أقدم الفترات، كأقدم فترات المسيحية أو الفن، مثل: الآلات القديمة، أو الأخلاق القديمة، الكنيسة القديمة، ما يتصف به القدماء من فقدان المنظور المناسب.

٣- أصلي، أولي، جذري غير مشتق من غيره، مثل: الفعل غير المشتق في النحو.

٤- يتصف بميزة أو ميزات تخص الحالة الأصلية للانسان أو لمؤسسة من المؤسسات أو يقال إنها تخصها، كميزات الطبيعية والرقة والبساطة إلخ، مثل قولنا، العيش على الطبيعة، «ليس هناك من شعب يعيش على الطبيعة حقاً» (مَكْلِنْ).

٥- ما يتعلق بمذهب أو مذاهب أوائل المعمدانيين أو المثوديّين(*)، إلخ، «ربما كانوا في الأصل أعضاء في طائفة بدائية، لكنهم أصبحوا الآن، حسبما تمليه طبيعة الأشياء، أعضاء في الكنيسة الانكليزية» (غُولْزْوِرْذِي).

٦- في علم الأحياء: (أ) أصلي Primordial: (ب) قديم، بالٍ، غير متطور، مُتَشَبِّث Persistent – تقال عن فصيلة أو مجموعة يقارب تركيبها أقدم أنماط أسلافها: كقولنا إن حيوان الأبوسوم من اللبونات البدائية، أو إن حيوان التواتارا من الزواحف البدائية، إلخ. انظر كلمة Promorph [شكل بدائي].

(*) المثوديون [أو أتباع الطريقة المنظمة في الدرس والعبادة] هم أتباع طائفة دينية بروتستانية ظهرت في انكلترة في النصف الأول من القرن الثامن عشر بزعامة جون وِسلي وجارلز وِسلي وجورج وتفيلد وغيرهم. (المترجم).

٧- في علم الجيولوجيا: ما تشكَّلَ في أقدم العصور، أساسي - تطلق خاصة على الصخور البلّورية في أقدم الصخور المعروفة.

مرادفاتها: الأول، الأصلي، القديم، ما تقادم عهده: انظر Primary
أضدادها: الحديث، قريب العهد المعاصر، الراهن.

أما كتب الأنثروبولوجيا الحديثة فإن البحث فيها سرعان ما يوضح أن استخدام الأنثروبولوجيين لاصطلاح «البدائية» لا يتفق مع معانيه القاموسية. فالعديد من الكتب التي نشرت مؤخراً والتي تضم عناوينها كلمة «البدائية» تصنّف تحت هذه التسمية (١) مجتمعات متباينة تشمل القبائل الفلبينية التي يسلخ أعضاؤها فروات رؤوس أعدائهم القتلى للذكرى (سيرفس ١٩٥٨) والفلاحين الهنود، (٢) قوانين هنود السهول في شمال أمريكا وقوانين الأشانتي (هيبل ١٩٥٤)، وديانة المورنغن وسكان داهومي (غدْ ١٩٥١). ويضم كتاب «التراث البدائي Primitive Heritage» (١٩٥٣) الذي أشرفت عليه "ميد" بمشاركة "كالّس" مقالات تتناول الأضحيات الانسانية التي كانت تقدمها قبائل الأزتكْ، واحتفالات الحرب عند قبائل البوني. ويبدو أن المختارات في هذه المجلدات الأربعة قد اختيرت لما تمثله من آراء متباينة، ولما تغطيه من أماكن مختلفة. والصفة الوحيدة التي تجمع بين الثقافات والمجتمعات هي أنها درسها الأنثروبولوجيون.

ويعتمد رِدفيلد في كتاب «العالم البدائي وتحولاته The Primitive World and its Transformations» (١٩٥٣) على معلومات معاصرة من أجل فهم ما كانت عليه الثقافات قبل ظهور الكتابة وتشييد المدن. وهو يستعمل «البدائية» كمرادف لاصطلاح «قبل - كتابية» (ص ١١ من المقدمة). لكن «بدائيية» يمثلون كل العصور ويضمون شعوباً كانت بدائية بالمعنى الاشتقاقي للكلمة وشعوباً أصبحت كتابيّةً حديثاً.

إن تعريف «البدائية» كما يستعملها الأنثروبولوجي أمر بالغ الصعوبة، بل إن بعض الكتاب يستعملون الكلمة في عنوان الكتاب ثم لا يكادون يستعملونه في المتن إلاّ لماماً. وتمثل سلسلة المقالات والمحاضرات التي جمعها رادكلِفْ – براون تحت عنوان «البناء والوظيفة في "المجتمع البدائي Structure and Function in Primitive Society» (١٩٥٢) هذه النقطة خير تمثيل. فمقالته الموسومة «بالقانون البدائي» لا تستعمل الكلمة في متن البحث على الاطلاق ولا ترد الكلمة في بقية المقالات الإحدى عشرة إلاّ أربع مرات، منها اثنتان في حديث موجه إلى جمهور من غير المتخصصين.

إن غموض مصطلح «البدائية» يدلّ عليه أن الكثير من الكتاب يشعرون بالحاجة إلى تفسير استعمالهم للكلمة أو تبريره: «استعملت كلمة «بدائيين» في كل أجزاء الكتاب دون تفسير إضافي. وأرجو ألاّ يُفهم من ذلك أنني أعتبر هذه القبائل تعيش في الحالة الطبيعية الأُصلية التي تخيلها روسو».

فعلى العكس من ذلك، يجب أن نذكر أن كل شعب بدائي كان له تاريخ طويل، وقد يكون منحدراً من مستوى أعلى من مستويات التطور، أو قد يكون ارتقى إلى مستواه الراهن إثر صراع ضد المصاعب. وليس هناك قبيلة بدائية لا تحددها الأعراف والعادات. كلما زادت بدائية زاد عدد الضوابط التي تتحكم بمسلكها» (بُوس ١٨٨٨، أعيد نشره في بُوس ١٩٤٨: ٦٣٣).

«... ليسوا قدماء، ومع ذلك فإنهم بدائيون. وما نودّ التركيز عليه أن البدائية بين المجتمعات المعاصرة لا تعني القِدم بالضرورة، رغم أن «الأوّليّ» يعني «الأوّل». فما تعنيه البدائية بالفعل هو أن الأشكال الثقافية عند المجتمعات البدائية هي أشبه، من حيث خصائصها العامة، بالخصائص التي نظن أنها سادت في الثقافات الأولى لطفولة البشرية (هيبل ١٩٥٤: ٢٨٩ – ٢٩٠).

«ليست كلمة «البدائية» مناسبة للشعوب التي يدرسها الأنثروبولوجيون الاجتماعيون، رغم أننا نستعملها لأنها صارت معتادة. فالمجتمعات البدائية ليست دائماً بدائية بمعنى أنها «بسيطة».. من الأفضل أن ندعو البدائيين لاكتابيين. ولكنهم، إلى جانب كونهم لم يطوروا لغات مكتوبة، يتصفون بصفة مشتركة أخرى. فهناك في هذه المجتمعات أعمال تشارك بها هيئات منظمة تتحدد العضوية فيها عن طريق القربى تفوق في أعدادها ما نجده في أي مجتمع غربي حديث». (هومانز ١٩٥٠ : ١٩٢). ويضيف لِزْلي وايت (١٩٤٩ : ٢٤١) تعريفاً آخر :

«المجتمع البدائي: قبائل تجمعها آصرة القربى، الكلُّ فيها أحرار في استغلال المصادر الطبيعية، فيها القليل من التمايز الاجتماعي والتخصص، لكن هناك درجة عالية من المساواة الاجتماعية».

تمثل هذه "الاقتباسات" بعض المعاني المختلفة التي يربطها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بكلمة «بدائية». والواقع أن كل حقل من حقول الأنثروبولوجيا الخمسة الآثار، اللغويات، الأنثروبولوجيا الطبيعية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والاثنولوجيا) أعاد تعريف «البدائية» لتناسب حاجاته واهتماماته، كما حصل مع كلمة «ثقافة». ويكون هذا الأمر مقبولاً لو كان هناك اتفاق في كل من هذه الحقول على معنى الكلمة. لكن الواقع غير ذلك لسوء الحظ.

فمثلاً. يتحدث أحد علماء اللغة (غرينبرغ ١٩٥٣ : ٢٦٥) عن اللغات «البدائية» ويقصد بذلك اللغات غير المكتوبة بينما يضع "بيلزْ وهويجر" (١٩٥٤ : ٥٨ - ٥١١) الكلمة بين علامتي اقتباس في معرض حديثهما عن اللغات البدائية، ثم يمضيان ليثبتا حقيقة عدم وجود لغات من هذا النوع.

وفي علم الآثار يساوي كيسو (١٩٥٣ : ٢٢٨ - ٢٣٠) بين ما يدعوة

بالأفق البدائي الأمريكي الوسيط وبين العصر الحجري الحديث في العالم القديم، بينما يقول موفِيَسْ (١٩٥٣: ١٨٩):

«لعبت الظروف البيئية في عصور ما قبل التاريخ، كما في العصور التاريخية، دوراً بارزاً في تكييف سلوك الجماعات القديمة المختلفة (أو البدائية) من البشرية».

وفي الأنثروبولوجيا الطبيعية لا يقل الوضع عن ذلك ارتباطاً.

فسِمبسُنْ (١٩٥٠: ١٠١)، الذي يلتزم بتعريف بيولوجي دقيق يستعمل اصطلاح «البدائية» ليعني «التطور ببطء» ويضعه في مقابل الأجهزة أو الكائنات التي تقدمت في مضمار التطور أو تطورت بسرعة. بينما يرفض واشبرن (١٩٤٤: ٧٠) أن يستعمل الاصطلاح، ويحذر من أنه اصطلاح يغيّر معناه باستمرار. وتوضح ثلاثة اقتباسات من هوتُن (١٩٥٢) سلامة تحذير واشْبِرْن:

«عند البيض يسود شكل الشعر المتموج الذي ربما كان سمة بدائية» (ص ٥٨١).

«وفي العصر الحديدي دخل نمط من العصر الحجري القديم الأعلى أو كومب – كابيلي من أنماط البحر المتوسط البدائية إلى جنوب الهند» (ص ٦١٥).

«ينتشر الأقزام في مجموعات صغيرة في الكونغو، وليست لديهم لغة خاصة بهم. ويستخدمهم ذوو الأحجام الطبيعية من الزنوج المشتغلين بالزراعة إما كصيادين أو للتسلية في بيوتهم. والأقزام لا يعرفون الزراعة، وليس عندهم حيوانات أليفة، ويعيشون في أقصى ما يمكن أن نتصوره من حالات البدائية» (ص ٦٢٣).

ولو بحثنا في كتب الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية لزاد ذلك في بلبلتنا. فقد نتج عن بحث استغرق بضع ساعات اكتشاف ثلاثة وعشرين معنى مختلفاً لمصطلح «البدائية»، يرد بعضها مترابطاً وبعضها منفرداً. وفي معظم الحالات تعني الكلمة: "غير متمدينة" (كالَسْ ١٩٥٣: ٢٦ من المقدمة، كون ١٩٤٨: ٥ من المقدمة، فيرث ١٩٥١: ٥ من المقدمة و ٨٠، كروبير ١٩٥٣: ١٣ من المقدمة، ميد ١٩٥٣: ١٨ من المقدمة)، "بسيطة" (هومانز ١٩٥٠: ١٩٢، رادكلف – براون ١٩٥٢: ١٥٣)، "صغيرة" (فورتس وافنز – برجَرد ١٩٥٠: ٥، نادل ١٩٥١: ٥٢) "قبل – كتابية" أو لا كتابية "(هومانز ١٩٥٠: ١٩٢، ميد ١٩٥٣: ١٧ من المقدمة، [مجلة] ملاحظات وتساؤلات ١٩٥٤: ٢٨، رادكليف – براون ١٩٥٢: ٣، ردفيلد ١٩٥٣: ١١ من المقدمة)، "غير غربية" (كون ١٩٤٨: ٦ من المقدمة، فيرث ١٩٥١: ١٠، هرسكوفتز ١٩٤٠: ٢٣٧، ٢٤٦، ٢٦١، ٢٦٤)، "ساكنة" (فيرث ١٩٥١: ٨٠ – ٨١، مالينوفسكي ١٩٣٦: ٨٠) "سلَفية" (بُواس ١٩٤٨: ٣٦٣، مالينوفسكي ١٩٣٦: ٨٠.

ومن بين المعاني التي يقل ترددها عن ذلك: "غريبة" (كروبير ١٩٥٣: ١٣ من المقدمة)، "غير تقدمية" (فيرث ١٩٥١: ٨٠)، رجعية (رادكلف – براون ١٩٥٢: ٢)، "قبلية" (وايت ١٩٤٩: ٢٤٠، ٣٧٧)، "معزولة" (ردفيلد ١٩٥٣: ١١ من المقدمة)، "متجانسة" (ردفيلد ١٩٥٣: ١١ من المقدمة)، "لا تستعمل النقود" (فيرث ١٩٥١: ١٣٣ – ١٣٤)، "غير ناقدة"، قبل العلمية (بِدْني ١٩٥٣: ٣٣٢ – ٣٣٤)، شبه علمية (مالينوفسكي ١٩٣٦: ٨٠).

لا تستنفذ هذه المعاني كل الاستعمالات، ولكن ذكر المزيد من المصادر من شأنه أن يطيل هذه المذكرة بلا طائل. فالنقطة التي نرمي إليها يجب أن

تكون قد اتضحت، وهي أن كلمة «البدائية» تستعمل بأشكال متضاربة غير واضحة في كل حقل من حقول الأنثروبولوجيا سواء أخذت منفردة أم مجتمعة. وتزداد حيرتنا بشأن معناها حينما يكون الجمهور المخاطب هو عامة القراء وليس جمهور المتخصصين.

ولسوء الحظ لا تنحصر الفوضى في استخدام مفهوم «البدائية» في علم الانثروبولوجيا فقط، لأن أي باحث في أي علم آخر قد يستعير هذا المصطلح الهُلاميّ لأغراضه هو. فهذا فرويد (١٩١٣) يستعمل المصطلح على النحو التالي:

«... ومن خواص اتجاه الأجناس البدائية نحو حكامها ما يذكرنا بآلية Mechanism موجودة في كل الاختلالات العقلية، وتتضح جلية في ما يدعى بوهم الاضطهاد» (ص ٨٠٧).

«نعرف الانسان البدائي من خلال المراحل التي مرَّ بها في تطوره... وهو بمعنى من المعاني ما يزال معاصراً لنا. فهناك أناس نعتبرهم أقرب إلى الانسان البدائي منهم الينا، ولذلك فإننا نرى فيهم أحفاد الانسان القديم وممثليه المباشرين. وهذا ما نستطيع قوله عن الأجناس التي تدعى متوحشة أو شبه متوحشة. ولحياتهم السيكولوجية أهمية خاصة في نظرنا لأننا نرى في حياتهم السيكولوجية مرحلة قديمة من مراحل تطورنا احتفظت هذه الأجناس بها بشكل جيد... والمقارنة بين سيكولوجية الأجناس البدائية كما يصفها الفولكلور وبين سيكولوجية العصابيين كما صارت تعرف فى التحليل النفسي كفيلة بأن تكشف عن نقاط شبه كثيرة، وبأن تلقي ضوءاً جديداً على مواضيع صارت مألوفة لدينا إلى حدّ ما» (ص ٨٤٦)(*).

---

(*) كذا. والصحيح أن هذا الاقتباس مأخوذ من ص ٨٠٧، بينما أخذ الاقتباس السابق من ص ٨٤٦. (المترجم).

وحتى نكون منصفين، قد نقارن هذا الاقتباس الثاني من فرويد بنص أنثروبولوجي كتب بعده بأربعين سنة. تقول مارغرت ميد (تاكس وزملاؤه ١٩٥٣ : ١٧٤):

«المشكلة الثانية التي يثيرها الدكتور كودل مشكلة مهمة على المستوى البدائي والاثنولوجي... ويثيرها كل الأطباء النفسيين، وهي ما إذا كان هناك في نفس الانسان طبقة أعمق من أن تؤثر فيها الثقافة. يقال إن هناك شيئاً يعمل داخلنا يدعى أحياناً «باللاوعي» وأحياناً «بالدوافع الخفية»، وهو ما يساويه الطب النفسي بالطبيعة البشرية الثابتة التي لا تتأثر بالثقافة. وفي امكاننا، على الأرجح، أن نحل هذه المشكلة الهامة بتناول مادة بحث بدائية، بطريقة أسرع بكثير من حلنا لها من خلال مادة بحث متمدينة». ويقول يُنغ (١٩٢٩) في «سيكولوجية اللاشعور The Psychology of the Unconscious».

«إن التفكير والشعور البدائيين يتصفان بالتجسيدية المطلقة. فهما مرتبطان بالاحساس دائماً، إذ أن فكر الانسان البدائي لا يوجد مستقلاً منفصلاً، بل هو لصيق بالظواهر المادية. وأقصى ما يستطيعه هو أن يرفع تفكيره إلى مستوى التشبيه... إن البدائي لا يمر بتجربة فكرة الألوهية بوصفها محتوى ذاتياً لأن الشجرة المقدسة هي سكنها - لا بل أنها هي الاله ذاته» (ص ٥٣٤).

من السهل أن نطيل الاستشهادات من هذا النوع، لكن يجب ألاّ نبالغ في التعبير عن قضيتنا، لأن العديد من الكتّاب المتأخرين يبدون اتجاهاً أكثر حداثةً في استعمالهم للمعطيات الأنثروبولوجية. فهذا إركسُنْ (١٩٥٠) يكتب:

«أخيراً ننظر إلى البدائية الثقافية باعتبارها الممثل الظاهر لطفولة

البشرية، حيث يبدو الناس، من وجهة نظرنا، سُذّجاً كالأطفال في لحظة من اللحظات أو تتلبسهم الشياطين كما تتلبس المجانين في لحظة أخرى... لكننا نعرف الآن أن لدى البدائيين معيارهم الخاص للبلوغ السويّ وأنماطهم الخاصة من العصاب والذهان، والأهم من ذلك أن عندهم أنماطهم الخاصة من الطفولة» (ص ٩٥).

«وقد أوضح اكتشاف النظم البدائية لتربية الأطفال أن المجتمعات البدائية لا هي بالمراحل الطفولية من تطور البشرية، ولا هي انحرافات متوقفة عن النمو عن المعايير التقدمية الفخورة بنفسها التي نمثلها نحن: إنها شكل كامل من أشكال الحياة الانسانية الناضجة التي غالباً ما تتصف بالتجانس والاكتمال بشكل حريّ به أن يستثير فينا الحسد» (ص ٩٦).

لكننا نقرأ فيما بعد في نفس الكتاب :

«إن النظام الذى تقوم عليه تربية الأطفال عند قبيلة السّو الهندية (الحمراء) نظام بدائي، أي أنه يقوم على تكييف مجموعة شديدة التمركز حول ذاتها، صغيرة نسبياً تعتبر نفسها هي كل الإنسانية التي لها شأن» (ص ١٣٩).

وإذا انتقلنا من الطب النفسي إلى التاريخ الاقتصادي وجدنا ما يلي عند بولانيي Polanyi (١٩٤٤):

«يجب بادئ ذي بدء أن نتخلص من بعض الأهواء التي شاعت في القرن التاسع عشر، والتي تكمن خلف افتراض آدم سمث الخاص بميل الانسان البدائي المزعوم نحو المهن المربحة. ولما كانت مقولته تلك أوثق صلة بالمستقبل المباشر منها بالماضي السحيق فقد خلقت عند أتباعه موقفاً غريباً إزاء تاريخ الانسان القديم. إذ كان ظاهر الأدلة يوحي بأن سيكولوجية

الانسان البدائي كانت شيوعية النزعة لا رأسماليتها (مما ثبت خطؤه فيما بعد أيضـا) (ص ٤٤). ثم يقتبس بولانيي (ص ٤٥ - ٤٦) المصادر الأنثروبولوجية في معرض توسعه بفكرة أن «الربح ليس حافزاً طبيعياً في الانسان»:

«إن الخاصية المميزة للاقتصاد البدائي هي غياب أية رغبة في الربح من التبادل [ثيرنوالد ١٩٣٢]. والفكرة الأخرى التي يجب إظهار فسادها نهائياً هي الفكرة الخاصة بالانسان الاقتصادي البدائي التي تروج لها بعض كتب الاقتصاد الدارجة [مالينوفسكي ١٩٣٠] ويجب علينا أن نرفض الأنماط المثلى التي تروج لها ليبرالية مانشستر التي لا تتصف بالتضليل النظري فحسب، بل بالتضليل التاريخي أيضاً» [بْرِنْكْمَنْ ١٩٢٤].

ثم يختم بولانيي القسم الخاص بالاقتصاد البدائي بقوله: «لا يختلف الاقتصاد البدائي، كما درسته الصفحات السابقة، عن أي شكل آخر من أشكال الاقتصاد بقدر ما يتعلق الأمر بالعلاقات الانسانية، ويقوم على نفس أسس الحياة الاجتماعية» (ص ٥٣).

وهذا مثال على كيفية استعمال مؤرخ قانوني هو وليم سيغل (١٩٤١: ٣٣ - ٣٥) لمصطلح «البدائية». فتحت عنوان الفصل الرابع حول القانون البدائي، وهو «العرف هو الحاكم» يقول سيغل: إن المجتمعات البدائية ليست لديها قوانين، وتعيش تحت «سلطان العرف التلقائي»، ويبدو أن ذلك يكفي. لذلك «لا توجد القوانين إلاّ بعد أن توجد المحاكم». فإذا كانت الشعوب التي تعرف بالبدائية تملك المحاكم، فهي، بحكم ذلك، غير بدائية، ذلك «أن الكلام عن قانون بعض الشعوب الإفريقية باعتباره «بدائياً» مع أنها تملك المحاكم ووصف العديد من أشكال المعاملات القانونية المعقدة التي لن تقل قيمتها

عند مقارنتها بما كان موجوداً عند قدماء البابليين، هو من قبيل إساءة استخدام المصطلحات».

أما المثالان التاليان من الفلسفة فيستخدمان مصطلح «البدائية» للدلالة على شعوب لها نظرات عاطفية وعقلية تختلف عما يتميز به الانسان المعاصر :

«... كان الوصول إلى درجةٍ عاليةٍ من المدنية أمراً ضرورياً دائماً من أجل أن يبدأ الانسان الحيواني في ادراك تلك الفروق البدائية جداً بين «التعمد» و «الإهمال» و «العرضي» و «المسؤولية» وأضدادها، وأن يستخدمها لتقدير العقاب المفروض. لقد كانت فكرة أن المذنب يستحق العقاب لأنه يمكن أن يتصرف بشكل آخر، رغم أنها هذه الأيام مبتذلة، واضحة، طبيعية، وحتمية، ورغم أنها استخدمت لتوضيح الطريقة التي ظهر بها الإحساس بالعدالة على الأرض – كانت في الواقع متأخرة، ومثلت شكلاً رفيعاً من أشكال المحاكمة العقلية والقدرة على الاستنتاج عند بني البشر. وما تقديمها في الزمن لتعاصر بداية العالم إلا خرق مفضوح لمبادئ السيكولوجية البدائية بما لا تحتمل» (نيتشه ١٩٢٩: ١٩).

«لا يعبر الانسان البدائي عن مشاعره وعواطفه برموز مجردة فقط، بل بطريقة مباشرة تجسيدية. ويحق لنا هنا أن نتكلم عن التوتر بين الثبات والتطور.. ففي الأسطورة والدين البدائي يبلغ الميل للثبات من القوة ما يجعله يتفوق على الميل المضادّ. والفكر الأسطوري هو، في أصله ومبدأه، فكر تقليدي... ويعتبر أي تغيير في نظام الأشياء القائم، مهما كان طفيفاً، أمراً مدمراً من وجهة نظر الفكر البدائي... ولذلك لا يستطيع الدين البدائي أن يترك أي مجال لأية حرية في الفكر الفردي» (كاسيرر ١٩٤٤: ٢٨٠ – ٢٨٢).

ويعلق عالم الاجتماع مانهايم (١٩٦٠: ٥٤٢) على فيبر بقوله: «لقد لاحظ ماكس فيبر أن السيكوباثيين (المرضى النفسيين)، حتى في المجتمعات البدائية يتحولون عادةً إلى مُتنبِّئين ومخلّصين ومصلحين، ويغيرون طرق الحياة البالية والاتجاهات السحرية القديمة. وسبب هذا في نظره أن الشخصية السيكوباثية في المجتمعات التي تكتسب فيها العادات قداسة عن طريق السحر بالدرجة الأولى، هي الشخصية التي تشذ في سلوكها عن السلوك العام، ولذلك تجرؤ على كسر طوق العادات القديمة التي لم تعد صالحة للأوضاع المتغيرة، وتكتشف اتجاهات جديدة أفضل من سابقاتها».

والمثال الأخير هو بدائية روسو المأثورة التي وصفها مُلر Muller (١٩٥٧: ٥١) على النحو التالي:

«... يتجه الناس نحو المجتمعات البدائية ليكتشفوا الطبيعة الانسانية في حالة «نقائها» لكننا، في الواقع، لن نجد مثل هذه الحالة الطبيعية التي تنطبق على كل البشر، بل سنجد بدلاً منها تنوعاً مذهلاً في أنماط المعيشة، يرافقه في كثير من الأحيان تجاهل مؤسف للقوانين المزعومة للطبيعة البشرية. إن هذه المقولة المبتذلة من مقولات علم الأنثروبولوجيا تهمنا هنا لأن علينا قبل كل شيء أن نعالج فكرة البدائية، أعني الفكرة القائلة بأن المدنية مرض وأن الدواء الوحيد لهذا المرض هو العودة إلى أحضان الطبيعة وحياة البساطة. إن أسطورة المتوحش النبيل قديمة قدم "هوميروس"... ويمتلئ الأدب اليوناني والروماني بالمواعظ عن الحياة السعيدة والفضلى التي تحياها الشعوب غير المتمدينة... ولكن مذهب البدائية يرتكز على سوء فهم للحياة البدائية التي تعقّد بساطتها الظاهرية المحرمات القاسية والسحر الأسود. إن أتباع مذهب البدائية يحلمون برغبة مستحيلة التحقيق، فهم يرغبون في تذوق الحياة البسيطة بكل الوعي والحساسية اللذين لا يصبحان ممكنين إلا في ظل

المدنية، يرغبون في أن يكونوا أطفال الطبيعة في نفس الوقت الذي يكونون فيه شعراء وفلاسفة يتغنون بالطبيعة أيضاً.

لقد اتضح الآن السبب الذي من أجله أعلن تقرير ملاحظات وبحوث في الأنثروبولوجيا Notes and Queries on Anthropology (١٩٥٤) تخلّيه عن استعمال كلمة «البدائية» بقوله: «نستعمل كلمة Native [وطنية] في هذا المجلّد لأننا نفترض أن الدراسات ستجري في أكثر الحالات على الشعوب في موطنها الأصلي. وقد تجنبنا مصطلحات «بدائية» و «متوحشة» و «من السكان الأصليين» لأنها كانت تستخدم بدون دقة. وسيصعب على أي كاتب أن يحدد ما يعنيه بكلمة «بدائية» (ص ٢٨).

لكن ما تزال هناك، بعد أن أظهرنا الفوضى التي تحيط بكلمة «البدائية»، مسألة السبب الذي دعا الأنثروبولوجيين إلى الابتعاد إلى هذا الحد عن معناها القاموسي. فالكتابات الأنثروبولوجية القديمة تستعمل مفهوم البدائية بشكل أوضح. لقد عنون بوشيه دي بيرت Boucher de Perthes (١٨٤٦) رسالته حول الآلات التي كانت مستخدمة في عصور ما قبل التاريخ بعنوان De L,Industrie Primitive [في الصناعة البدائية]، قاصداً، كما هو واضح، إلى القول إن تلك كانت آلات أوائل البشر. كذلك كانت أولى مقالات مَكْلَنَنْ حول الزواج البدائي (١٨٦٥) محاولة لوصف التطور القديم للبشرية على أساس مخلفاتها الثقافية. وكان مَكْلَنَنْ وغيره من أنثروبولوجيي عصره منشغلين بتكوين ما صار فيما بعد المدرسة التطورية البريطانية.

وقد استعمل معظم المشتغلين بالأفكار الأنثروبولوجية في تلك الأيام كلمة «بدائية» بمعنى «قديمة» أو «أصلية»، ويبدو أن معظم الفوضى التي ارتبطت بالكلمة نشأ عن جِدّة الموضوع. إذ كانت المفاهيم في طور التشكيل، والتعريفات في طور الصياغة، والمعلومات في طور التجميع. ولم يكن علماء

العالم في تلك الأوقات على صلة وثيقة بعضهم ببعض. والمدهش حقاً أن الفوضى لم تكن أكثر مما كانت عليه في تلك الظروف.

كتب دوق ارجايل (١٨٧٢) في كتابه «الانسان الأول Primeval Man» يقول: «لم ينتبه أحد بما فيه الكفاية إلى أن البحث في الوضع البدائي للبشرية ينحصر في ثلاث مسائل... الأولى هي مسألة أصل الانسان باعتباره نوعاً... والثانية مسألة قدم الانسان.. والثالثة وضعه العقلي والأخلاقي والفكري عندما خلق لأول مرة (ص ٢٤ - ٢٥)..

(... كان المخلوق «الذي لا يستحق أن يدعى بشراً» والذي أشار إليه السير. ج. لَبْكْ باعتباره جدّ الانسان، بحسب هذه الفرضية، فاقداً للملَكات العقلية التي تميز الآن أدنى البشر». (ص ٦٧).

«يتحدث السير. ج. لَبْكْ عن الانسان القديم باعتباره عاش في ظروف «بربرية تماماً»... لكن تلك الظروف لا تبيح لنا الافتراض بأن البربرية كانت هي الوضع البدائي للانسان، مثلما أن الآثار الاقطاعية في قوانين أوروبا الحديثة لا تثبت أن المبادئ الاقطاعية ولدت مع الجنس البشري (ص ١٣١ - ١٣٣).

«يرى السير. ج. لَبْكْ أننا نرى في هؤلاء المتوحشين شيئاً أعلى، لا أدنى، من الوضع البدائي للانسانية». (ص ٦٩ - ٧٠).

«ويبدو أن السير. ج. لَبْكْ يعترف بأن هذه العادة الكريهة لم تكن موجودة أصلاً، ربما لأنه يعتبرها عادة غير طبيعية... فعادة أكل لحوم البشر ما هي إلاّ حالة متطرفة لقانون عام، وهي امتحان أساسي للوهم الذي تقع فيه طائفة كاملة من الأفكار التي يفترض صحتها أولئك الذين يؤيدون نظرية التوحش الخاصة بالوضع البدائي للانسانية» (ص ١٣٤ - ١٣٦).

«وهنا لابدّ من ملاحظة أننا حتى لو أخذنا الشعوب المتوحشة كنمطٍ لما كان عليه الوضع البدائي للانسان، فإن الأدلة المستقاة من تلك الشعوب كلها تؤيد القول بأن الانسان، من حيث قواه العقلية، كان دائماً هو الانسان، وليس أقل من ذلك» (ص ١٥٠).

* إن ما كتبه دوق أرجايل يسبق الصياغة الكلاسيكية للنظرية التطورية ومصطلحاتها. وقد تبددت معظم نواحي الغموض القديمة لدى أكثرية الأنثروبولوجيين البريطانيين عندما نشر تايلر كتاب **الأنثروبولوجيا** (١٨٨٨). إذ لم تعني كلمة «البدائية» لتايلر إلا ما يعنيه جذرها الاشتقاقي، واستخدمها ليشير إلى السكان المنقرضين الذين لا نملك حيالهم إلا التفكير النظري. أما في الأوصاف والتحليلات الخاصة بالسكان التاريخيين والأحياء وثقافاتهم فقد استعمل تايلر السلسلة التصاعدية المألوفة التي حاق بها الاهمال التام تقريباً في هذه الأيام – سلسلة التوحش، والبربرية، والمدنية:

«إذا عدنا في الزمن إلى أبعد ما يستطيع علم الفيولوجيا (فقه اللغة) أن يأخذنا إليه، فسنجد عدة مجموعات من اللغات على قيد الوجود تختلف عن بعضها في المفردات والتركيب، وإذا كانت هذه اللغات ارتبطت مع بعضها بشكل من الأشكال فإنها لم تحتفظ بعلامات تدل على ذلك وتستطيع معرفتنا أن تتبيّنها. أما وجود لغة بدائية أصلية كانت البشرية تتكلمها فإن البحث الدؤوب لم يستطع أن يتبين له أثراً» (ص ١٢).

«ليس هناك عالم تشريح متمكن من علمه تفحّص التركيب الجسماني لهذه القرود العليا استعداد لأن يقول لنا أن الإنسان قد انحدر من أي منها. لكن هذه القرود، حسب نظرية أصل الأنواع، تبدو أقرب الأحياء الموجودة التي انحدرت من ذلك الأصل البدائي الذي انحدر منه الانسان أيضاً» (ص ٤٠).

«... قد تكون قبائل "الأنداماني" من مخلفات عرق بشري قديم جداً، وربما كانت أفضل من يمثل النمط الزنجي البدائي الذي تغير مع مرور الزمن من عدة نواح «خلال انتشاره في بقاع العالم الشاسعة» (ص ٨٨ - ٨٩).

«قد ندعو اللغة الأصلية التي انحدرت منها كل هذه اللغات الآرية اللغة البدائية» (ص ١٥٦).

«ربما كان الدرع البدائي هو درع اتقاء الخطر» (ص ٢٢٢).

لكن من المؤكد أن الكتابات التي نشرت على هامش التيار الرئيس للفكر الأنثروبولوجي تضمنت استعمالات فضفاضة غائمة لكلمة «البدائية» رغم استعمال التطوريين البريطانيين لها بشكل متسق. فالمجلد الأول من **مجلة المعهد الانثروبولوجي الملكي** (١٨٧١)، مثلاً، تضمن مقالة كتبها سي. س. ويك بعنوان «الصفات العقلية للانسان البدائي ممثلة بسكان استراليا الأصليين» استعمل فيها تفسيراً مخالفاً بعض الشيء لمفهوم البدائية :

«أريد بالدرجة الأولى أن أحدد الظواهر العقلية الحقيقية التي يتصف بها مواطنو استراليا الأصليون، وأن أظهر بالدرجة الثانية، وعلى وجه التقريب، الظروف التي مر بها الانسان بشكل عام خلال العصور القديمة، وليس بالضرورة عندما ظهر على الأرض لأول مرة، وإنما بعد أن ظهر الصراع من أجل البقاء بين الانسان وأخيه الانسان، وبعد أن تطورت الغرائز الأنانية عند بني البشر ونضجت» (ص ٧٤).

كذلك تكشف المجلات الأمريكية والفرنسية والالمانية والايطالية التي ظهرت في هذه الفترة (١٨٧١ - ١٩٠٠) عن ميل متنام لاستعمال كلمة «البدائية» بشكل فضفاض. فقد ضمت نشرة الجمعية الأنثروبولوجية بباريس (١٨٧٥) مقالتين، إحداهما بقلم د. إيكتال بعنوان :

«Sur Ie texte Primitif du Premier récit de la creation»

[بحث في النص الأصلي لأول قصة للخليقة] وثانيتهما بقلم الأب بتيتو بعنوان :

«Sur la Contemporance ite de la Pierre ttaillé de la Pieerre Polie du bronze et du fer chez les Peuplades Primitives de la Scandinavie, de la Bretagne, et des Gaules»

[ بحث حول تعاصر الحجارة المقطوعة، والحجارة المصقولة، والبرونز والحديد عند القبائل البدائية في البلاد الاسكندنافية وبريطانيا وبلاد الغال]. ومع أن المجلات الالمانية لا يبدو أنها استعملت كلمة Primitive أو Primitivät إلا أنها مليئة بكلمات مثل Ursprünglisch [أصلي] و Altertümlich [قديم] وUrmensch [الانسان الأول] و Urzeit [الزمن الأول]، وغيرها وهي كلمات يترجمها الانكليز بـ Primitive و Primitive man و Primitive era، الخ ولما كانت السابقة الألمانية – Ur تعني «قديم» أو بدائي فقد نكون محقين إن قلنا أن الاستعمال الالماني يتبع الاستعمال التايلري.

كذلك تضم المجلات الايطالية العديد من المقالات التي تستعمل كلمة «البدائية» في عناوينها. لكن هذه في معظمها تقارير أرسلها الرحّالة أو المبشّرون، أو تمثل أبحاثاً هامشية كتب معظمها أشخاص يحملون وجهات نظر خاصة، مثل مقالة سيزار لومبروزو (١٨٩٦) بعنوان L' uomo Primitivo e l' atavismo [الانسان القديم والتأسّلي](*).

ويضم المجلد الأول من مجلة الأنثروبولوجي الأمريكي (١٨٨٨) مقالة

---

(*) التأسُّل كلمة مجمعية معناها العودة إلى صفات الأسلاف بعد انقطاعها. (المترجم).

كتبها ج. و. باول عنوانها «من البربرية إلى المدنية» تظهر أثر التطوريين في العنوان، إن لم يكن في المتن كله :

«... ولم تكتشف مجموعة أخرى من الكتّاب من الأدلة بين مثل هذه الشعوب إلا ما يدلّ على البراءة البدائية وعلى سعادة البساطة البدائية، فرفعت أفرادها إلى مصاف الملائكة» (ص ٩٩).

على أن من المشكوك فيه أن نتمكن من رد مصاعبنا الراهنة بصورة مباشرة، أو بصورة كاملة، إلى مصادر كهذه لا تمثل في معظمها إلاّ أموراً هامشية بالنسبة للنظرية الانثروبولوجية، بل يبدو أن مصاعبنا ناشئة عن انهيار المدرسة التطورية، ففي غمرة حرصنا الشديد على التخلص من النظرية التطورية ذات الخط الواحد، يبدو أننا شعرنا أيضاً بضرورة التنكر لاستعمال اصطلاحات التوحش والبربرية والمدنية، مما أفقدنا كل المصطلحات باستثناء الاستعمال الفضفاض اللاتطوري لكلمة «بدائية» فغدت هذه الكلمة مصطلحاً شاملاً يجمع بين التوحش والبربرية، أما اليوم، وبعد أن درس الأنثروبولوجيون الثقافات المكسيكية والمايا الاندية، والهندية والصينية، فإن هذه الثقافات أيضاً تدعى بدائية رغم أن الانثروبولوجيين هم أول من يقر بمكانتها كمدنيات.

لوس مدنك

# الفصل الثالث

## مفهوما «البدائية» و«الوطنية» في الأنثروبولوجيا

# الفصل الثالث

# مفهوما «البدائية» و «الوطنية» في الأنثروبولوجيا(*)

**مقدمة:**

ينظر هذا البحث في آراء الأنثروبولوجيين الخاصة بالمجتمعات التي اعتادوا على دراستها؛ الشعوب «البدائية» و «الوطنية» Native، وذلك في ضوء التيارات الرئيسة في النظرية الأنثروبولوجية لأن هذه الآراء تتصل بتطور النظرية اتصالاً وثيقاً. ويضم هذا البحث وصفاً موجزاً للمناهج وطرق البحث الميدانية لأن الاتجاه نحو البحوث الميدانية كان نتيجة لمفاهيم واتجاهات محددة اتخذها الأنثروبولوجيون نحو المجتمعات اللاكتابية. ويحلل هذا البحث، أخيراً، اصطلاحي «البدائية» و «الوطنية» وأمثالهما للكشف عن صحتها كأسماء وصفية تصنيفية، وينظر في استجابة الجمهور العام والشعوب التي تدعي بهذه الأسماء لها.

إن مشكلة التسميات الاصطلاحية للمجتمعات اللاكتابية خطيرة حقاً. ويشير وضع مصطلحات «البدائية» و «الوطنية» وأمثالها بين علامات اقتباس إلى الشك في صلاحيتها كأسماء للمجتمعات التي يدرسها الأنثروبولوجيون. ويدل انعدام الدقة في استخدام هذه المصطلحات على نمو علم الأنثروبولوجيا

---

(*) يعاد نشر هذا البحث هنا من الكتاب السنوي لعلم الانثروبولوجيا ١٩٥٥، نيويورك، مؤسسة ونر - غرن للبحوث الانثروبولوجية المتحددة، ١٩٥٥، ص ١٨٧ - ٢٠٢.
[لا يشير مصطلح «الوطنية» في العنوان إلى أكثر من الانتماء إلى بقعة جغرافية معينة (المترجم)].

وتغيره في عالم متغير. فالعلم الذي ينمو وينضج يعيد النظر في اصطلاحاته وينظمها، فتحلّ المصطلحات الفضلى، الوصفية منها والتصنيفية، محلّ المصطلحات القديمة غير المناسبة. والواقع أن الأنثروبولوجيين يشعرون شعوراً متزايداً بأن هذه المصطلحات لم تعد مرضية أو مناسبة.

إن التوصل إلى تسميات تصنيفية وصفية مناسبة أصعب في علم الأنثروبولوجيا منه في أكثر العلوم الأخرى لأن دارسي العلوم الطبيعية والبيولوجية لا يهتمون إلا بالتسميات الوصفية التصنيفية، بينما يتوجب على علماء الأنثروبولوجيا، بسبب تناولهم للظواهر الانسانية، أن يأخذوا بنظرة الاعتبار تقبل الشعوب المسماة للأسماء التي سيطلقونها عليها. وهكذا يجد الأنثروبولوجيون أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه يكون عليهم فيه أن يختاروا مصطلحات تكون مناسبة من الناحية التصنيفية والوصفية دون أن تستثير ضجة من ردود الفعل السلبية لدى الجمهور. وهم يشعرون بهذا الوضع شعوراً حاداً هذه الأيام لأن المجتمعات التي كانوا يدرسونها تقليدياً هي في حالة غليان وتغير. فقد وصل أثر المدنية الصناعية إلى أشد المناطق عزلة وهامشية في العالم، وأضحت أعداد كبيرة من المجتمعات «اللاكتابية» خلال ذلك مجتمعات كتابية تشارك في الثقافات «البدائية». ولذلك فإن على الأنثروبولوجيين أن يختاروا تسميات تفي بمتطلبات علمهم ولا تؤذي مشاعر أعداد كبيرة من الناس.

**«مختبر» الأنثروبولوجيين:**

يعتمد علم الأنثروبولوجيا، أو علم الأثنولوجيا إن شئنا الدقة، الآن كما اعتمد في الماضي، على الدراسات الوصفية للمجتمعات اللاكتابية للحصول على الكثير من معلوماته الأساسية. ويتفق الأنثروبولوجيون بشكل عام على

أن هذه المجتمعات تتصف بما يلي: (١) أنها تفتقر إلى اللغة المكتوبة؛ (٢) أن تكنولوجيتها بسيطة نسبياً؛ (٣) أن مؤسساتها الاجتماعية بسيطة التنظيم؛ (٤) أن أعدادها صغيرة؛ (٥) أنها منعزلة نسبياً؛ (٦) أن ثقافتها تتغير بشكل أبطأ من غيرها. ومن المفهوم طبعاً أن المقارنة تجري مع المجتمعات ذات الأعداد الكبرى، والتراث المكتوب، والتكنولوجيا المعقدة، والمؤسسات الاجتماعية المتنوعة، ومعدلات التغير الثقافي الأسرع. ويستحق وصف[1] بندِكْتْ (١٩٣٤ : ١٧) للمجتمعات اللاكتابية وتبريرها لدعوتها إياها بأنها «مختبر» أنثروبولوجي أن يقتبس هنا :

«... أفضل ما يمكن أن ندرسه خلال بحثنا في الأشكال والعمليات الثقافية هي المجتمعات التي هي أبعد ما تكون عن الاتصال التاريخي بنا وبعضها ببعض. إذ تبقى الثقافات البدائية هي المصدر الوحيد الذي يمكن أن نفيد منه بعد تلك الشبكة الواسعة من الصلات التاريخية التي نشرت المدنيات الكبرى عبر مساحات هائلة. فهذه الثقافات "مختبر" يمكننا أن ندرس فيه تنوع المؤسسات البشرية. لقد مرت على مناطق بدائية كثيرة، بسبب عزلتها النسبية، قرون كان بوسعها خلالها أن تتوسع في المظاهر الثقافية التي أصبحت من مميزاتها. وهي لذلك تقدم لنا المعلومات الضرورية عن التنويعات الكبيرة الممكنة في التكيفات الانسانية. والدراسة النقدية لها أمر جوهري لفهم العمليات الثقافية. إن مختبر الأشكال الاجتماعية هذا هو الوحيد الذي بقي لنا أو سيبقى...».

وهناك فوائد أخرى للمجتمعات اللاكتابية «كمختبر». إذ يمكن للباحث فيها، وهو في الغالب غريب عنها، أن يتناول عمله بموضوعية وتجرد وهذا

---

(١) روث بندكت: عالمة انثروبولوجية.

ما يكاد يستحيل لو درس مجتمعه وثقافته هو. ثم أن تعقد المجتمعات الكتابية على وجه الخصوص يقف حائلاً أمام الدراسات الشاملة. وقد زادت وسائل الاتصال السريعة، كالتليفونات والراديو والتلفزيون، الوضع تعقيداً. كما أن عامل الحجم يؤدي إلى ظهور جماعات فرعية لها قيمها وأهدافها الاجتماعية ومعاييرها الأخلاقية الخاصة بها، وتكون العلاقات المتبادلة من التعقيد بحيث يصبح التحليل المناسب بحد ذاته مشكلة منهجية بالغة الضخامة. أما في المجتمعات اللاكتابية فإن الثقافات تميل إى أن تكون أكثر تجانساً. فأفرادها أقل عدداً، وأنماطها الثقافية أكثر انتظاماً، مما يجعل المتغيرات التي يجب أن تدرس أقل عدداً أيضاً. أضف إلى هذا أن دراسة المجتمعات اللاكتابية غير الأوروبية تساعدنا على فهم المجتمعات الأكثر تعقيداً. فكما قال لِنْتُنْ (١٩٤٥: ١٢):

> «.. من قواعد العلم العامة أن البحث يجب أن يتقدم، حيثما أمكن ذلك، من البسيط إلى المعقد. وقد اتبع الاثنولوجيون هذه القاعدة بالذات في دراساتهم الاجتماعية والثقافية..».

لكن ما قالته "بندكت" حول أهمية المجتمعات اللاكتابية كمختبر غير مرض أبداً، لأنها ليست مختبرنا الوحيد الذي نملكه الآن أو سنملكه. فقد كان العاملون في حقلي الشخصية – والثقافة، والدراسات الخاصة بالجماعات، حتى حين كتبت كتابها عام ١٩٣٤، يستكشفون حقولاً أخرى للبحث. كما ركزت الدراسات الخاصة بالتكيف الثقافي و «الاتصال الثقافي»، منذ زمن طويل، على أنواع أخرى من الأوضاع التي تختلف اختلافاً جوهرياً، خاصة حيث تفاعلت المجتمعات الكتابية الصناعية مع المجتمعات اللاكتابية. أما الاتجاه المعاصر لدى بعض الأنثروبولوجيين نحو الابتعاد عن «مختبرهم»

التقليدي فسنتناوله بالتفصيل فيما بعد. وسنستعرض حتى الآن باختصار التطور التاريخي لدراسة المجتمعات اللاكتابية.

**عرض تاريخي:**

كان رائدا علم الأنثروبولوجيا مورغن وتايلر من أول من استخدموا المعلومات المستقاة من المجتمعات اللاكتابية بشكل منظم، وكان هذان الكاتبان يحصلان على معلومات عن المجتمعات المختلفة عن مجتمعهم من أي مصدر يمكنهم الحصول عليها منه، وعلى الأغلب من روايات الرحالة والمبشّرين. ووفقاً للرأي الشائع في أيامهما، عندما كانت فرضيات «التطور ذي الاتجاه الواحد» هي السائدة، كانت المجتمعات اللاكتابية تعتبر «بقايا» أو مجتمعات منحطة. وقد اعتبرت تلك المجتمعات في أكثر الأحيان ممثلة «لمراحل» في النمو الثقافي البشري بلغت ذروتها مع ظهور التراث الأوروبي «المتقدم». كذلك كانت فكرة «الوحدة النفسية» تسود تفكير تلك الأيام، بحيث قام الأنثروبولوجيون بأعمالهم في ظل الاعتقاد بأن البدائيين يمثلون منطقة المياه الراكدة في مجرى نهر التاريخ. ومن المفيد أن نشير هنا إلى الاتجاهات المحددة التي كان يعتقد بها كل من مورغن وتايلر نحو المجتمعات اللاكتابية فقد كتب مورغن في **المجتمع القديم** (١٨٧٧ : ٤١).

> «يستدلُّ على تدنّي الانسان المتوحش في الموازين العقلية والأخلاقية، وعلى افتقاره للتطور والخبرة، وعلى خضوعه لشهواته الحيوانية وعواطف الدنيئة، من بقايا الفن القديم التي تظهر في الآلات الصوانية والصخرية والعظمية، ومن حياته في الكهوف في بعض المناطق، ومن بقاياه العظمية. كما يستدل على ذلك من الوضع الراهن للقبائل المتوحشة التي ما

تزال في حالة متدنية من التطور، والتي ظلّت موجودة في قطاعات معزولة من شواهد الأرض على الماضي..».

ولا تكاد اتجاهات "تايلر" نحو المجتمعات اللاكتابية تختلف عن اتجاهات مورغن بشيء، ويتضح من الاقتباس التالي في تايلر (١٨٩١ : ٣١) أنه كان يستعمل تصنيفاً شديد الشبه بتصنيف مورغن لمجتمعات العالم إلى حالات التوحش والبربرية والمدنية :

«... أعتقد أن بإمكاننا تطبيق المقارنة التي نسمعها كثيراً بين المتوحشين والأطفال من الناحية الفكرية على الناحية الأخلاقية أيضاً. إذ تفتقر أفضل حياة اجتماعية يعيشها المتوحش إلى التوازن الدائم، وما أسرع ما يختل ذلك التوازن لدى أي شعور بالخوف أو الاعزاء أو العنف بحيث تتحول إلى أسوأ حياة اجتماعية يعيشها المتوحش، وهذا ما نعرفه من خلال أمثلة رهيبة كثيرة. لكننا نعترف أن هناك من القبائل المتوحشة من تعيش حياة تحسدها عليها بعض الشعوب البربرية، بل يحسدها عليها من يعيشون على هامش الشعوب العليا.. بينما تؤيد الأدلة المتوافرة الرأي القائل إن الانسان المتمدن بشكل عام ليس أحكم وأقدر من المتوحش فحسب، بل أفضل وأسعد، وأن البربري يقف بينهما..».

لابد من التأكيد مرة ثانية على الحقيقة المعروفة، وهي أن تايلر ومورغن درسا كمية ضخمة متنوعة من الكتابات المتوافرة عن الثقافات اللاكتابية في أيامهما، فقد كانا باحثين بكل معاني الكلمة. ويتضح هذا من كتابتهما الغنية بالتوثيق. ورغم أنهما اتهما بكونهما من «انثروبولوجيي

المقاعد الوثيرة»، إلا أنهما كانا يعطيان وزناً كبيراً للمعلومات التجريبية، وكان لكل منهما خبرة في العمل الميداني. فقد طاف تايلر في أنحاء المكسيك، بينما يعتبر مورغن أول باحث ميداني واسع الاهتمامات. ولابد أن توصف دراساته عن قبائل "الإروكوي" في نيويورك بأنها وضعت مستويات جديدة للبحوث الخاصة بالثقافات اللاكتابية(*). كذلك قام مورغن بعدة رحلات قصيرة إلى غرب الولايات المتحدة كلّفته الكثير من المصاريف والتضحيات ليجمع المعلومات بنفسه (وايت ١٩٤٢: ١ – ٢٦). كما كان مورغن يتراسل مع عدد كبير من الناس في كل أنحاء العالم ليحصل على المعلومات عن شعوب لا كتابية أخرى (لووي ١٩٣٧: ٦٢).

ولم يكن تايلر أقل تقديراً للعمل الميداني. فكما قال لووي (١٩٣٧: ٧١):

«لم يكن تايلر باحثاً ميدانياً بالمعنى الاصطلاحي، إلا أنه كان على النقيض من أنثروبولوجيي الكراسي الوثيرة. ولاشك أن رؤيته للوطنيين المكسيكيين في فترة شبابه وما بعدها (١٨٨٤) وزيارته لقرى "البويبلو" زيارة قصيرة أمران يستحقان الذكر. لكن ما فاقهما أهمية ميله الشديد لدراسة الثقافة في قلب مدينة كبرى. فقد تلقى مرة محكّة جلد تسمانية فأرسلها إلى القصاب كي يفحصها. وكان يمعن النظر في واجهات الدكاكين بحثاً عن مضخة تماثل مضيفة وجدت في أوقيانوسيا، وفي "سومرستشر" أخذ يراقب نسّاجة ترمي بمكّوكها من يدٍ إلى يدٍ، وعندما صادفته مشكلة في لغات الإشارة التي يستعملها السكان الأصليون تعلّم مئات الإشارات في مؤسسة برلين للصم والبكم».

(*) R. H. Lowie, 1937, pp. 54 - 67; Leslie White, 1951, pp. 11 - 17.

نحن لم نعد نؤمن برأي تايلر حول قابلية تقسيم المجتمعات الانسانية إلى سلسلة من الطبقات المتجانسة في كل أنحاء العالم. ولا نتفق مع قول مورغن إن المؤسسات الاجتماعية يمكن أن تصنّف إلى مراحل هي التوحش والبربرية والتمدن. لكن كتابات مورغن وتايلر ذات أهمية خاصة في تطوير واستعمال طريقة منهجية مهمة في علم الأنثروبولوجيا، ألا وهي "البحث المقارن" الذي طبقه كل منهما بلا هوادة على المعلومات المتوافرة لديه. ولم يتركا شاردة ولا واردة في كل ما وصل أيديهما مما كتب حول المجتمعات اللاكتابية خلال محاولتهما وضع تلك المجتمعات على السلّم التطوري الذي افترضاه. وقد أخطئا بحسرهما للمعلومات في تصنيفات أقيمت على أساس معايير أحادية (اجتماعية أو سياسية، أو ما أشبه) وفي حالات أخرى على أساس معايير حمّلاها أكثر مما تحتمل.

إن من المهم أن نذكر دائماً حقيقة أن الدراسات الأنثروبولوجية كانت فى طفولتها عندما كتب مورغن وتايلر ما كتباه. وقد جعل المناخ الفكري في أيامهما تصنيف الظواهر إلى تعاقبات منظمة متسقة أمراً لا محيص عنه. كما أن من المهم أن نذكر أن الدراسات الخاصة بالمجتمعات اللاكتابية في مناطق شاسعة من العالم كانت مفقودة، وأن الموجود منها لم يكن جديراً بالثقة. فإذا ما أخذنا هذه الأمور بنظر الاعتبار أصبحت انطباعاتهما عن «البدائيين» وافتراضاتهما التخمينية غير العلمية مغتفرة.

لقد كان تأثير مورغن وتايلر عظيماً على عدة أنثروبولوجيين من عصرهما، كما يتضح من الدراسة الجديدة لنظرياتهما وافتراضاتهما التي قام بها أمثال وايت (١٩٤٩) وستِوَرْدْ (١٩٤٩). ورغم أن البرهان لم يقم بعد، إلاّ أن الاطار التطوري قد يعطينا نتائج أفضل باستعمال طرق بحث أفضل تخضع لسيطرة أكبر، وربط هذه الطرق بوجهات النظر التاريخية والوظائفية.

برزت الآراء المناهضة للنظرية التطورية في كل من أوروبا وأمريكا عقب انتهاء القرن الماضي. وقد شدد أكثر القائلين بهذه الآراء تطرفاً على عدم قدرة الانسان على الابتكار، وحاولوا أن يفسروا المحتوى الثقافي على أن مصدره في النهاية واحد. هذا الرأي المتطرف قال به الانثروبولوجيان البريطانيان سْمِيثْ (١٩٢٩) وبري (١٩٢٣). فقد حاول هذان الكاتبان اللذان لم تحز آراؤهما قبولاً لدى أغلبية الأنثروبولوجيين، أن يردا كل العناصر الثقافية تقريباً إلى مصدر واحد هو "مصر". واستندت افتراضاتهما برمتها تقريباً على التأمل الفلسفي النظري. ولذلك كانت آراؤهما الخاصة بالشعوب اللاكتابية غائمة تفتقر إلى التحديد.

وقد انتهى و. هـ. ر. رِفْرِزْ، عالم النفس الذى استغرقت اهتماماته الأنثروبولوجية الجزء الأخير من حياته، إلى الانضمام إلى سْمِثْ وبري في القول بانتشار الثقافة من مركز أصلي واحد (انظر سْمِثْ ١٩٢٤: ٥ – ٧ من المقدمة). لكن رِفْرِزْ قام ببحوث اثنوغرافية ذات مستوى أرقى. وقد أضافت دراساته التي قام بها بين قبائل "التودا"، وإلى حد أقل تلك التي أجراها بين الميلانيزيين، إضافات أصيلة للدراسات الوصفية الخاصة بالمجتمعات اللاكتابية. وكان مفهوم التفكير «البدائي» الذي جاء به رِفَرْزْ (١٩٢٤: ٥٢ – ٥٣) بمثابة صيغة مبكرة لمفهوم وسعه بوس فيما بعد.

«لا يعوق تقدمنا في محاولتنا المبذولة لفهم عقل الانسان ذي الثقافة الدنيا شيء قدر الاعتقاد الشائع بأن أفعال هذا الانسان تحددها دوافع غامضة لا يتحكم بها قانون، ينسبها الكثيرون لفكر الانسان المتوحش. بل إن هناك من يؤمن بأن شعوباً مثل البابويين والميلانيزيين لم يصلوا بعد إلى مرحلة التفكير المنطقي. أما أنا فأعتقد أنه ليست هناك ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية يصعب إظهار بطلان هذا الرأي فيها... وأرجو أن تكون

الحقائق التي جمعتها هنا كافية للتدليل على أن الانسان المتوحش، في محاولته التعامل مع الأمراض، ليس مخلوقاً غير منطقي أو سابقاً للمنطق، بل أن أفعاله يتحكم بها تفكير قد يبلغ من دقته ما قد ندّعيه للمشتغلين بالطب عندنا».

لكن ما أسهمت به المدرسة المسماة بمدرسة «حلقة الثقافة» Kulturkreis school التي أسسها كل من فْرِتْزْ غْرَيبْنَرْ والأب فِلْهِلْمْ شْمِدْتْ وغيرهما أوثق صلة بأهداف البحث الراهن مما أسهم به غيرها. فهؤلاء الأنثروبولوجيون يدرسون شعوب العالم باعتبارها نتاج ثقافات نواتية عديدة انتشرت في كل أنحاء المعمورة بعد اكتسابها بعض المميزات الجوهرية في العالم القديم، خاصة في آسيا. ثم أضيفت لتلك الثقافات الأساسية عناصر جديدة بعد أن انتشرت، وفقدت منها عناصر أخرى. لكن ظلّت في كل حالة مجموعة من العناصر الأصلية تكفي لتحديد هويتها الثقافية (شْمِدْتْ ١٩٣٩).

إلا أن آراء مدرسة «حلقة الثقافة» حول الشعوب التي تدرسها لا تختلف كثيراً عن آراء من سبقها وعاصرها. وتظل ممثلة لمستوى قديم من مستويات البحث الأنثروبولوجي. ولذلك فإن آراء أتباعها تختلف عن الرأي السائد الآن حول الشعوب اللاكتابية بين الأنثروبولوجيين الأمريكيين، وهو الرأي الذي أرسى قواعده بُوس وتلاميذه، وسنبحثه بالتفصيل فيما بعد. فقد كان بوس وتلاميذه مسؤولين عن نشر الجزء الأكبر من الاتجاه السائد الآن نحو الشعوب اللاكتابية، وعن استخدام طريقة جديدة في تناول الدراسات الميدانية.

لقد أكدت المدرسة التي تدعى بالمدرسة الأمريكية التاريخية ضرورة دراسات الثقافات اللاكتابية واتباع طرق البحث الميداني ذات المعايير الدقيقة. فقد أصر بُوس على ضرورة دراسة كل جوانب هذه المجتمعات

وعلى ضرورة وصف الجماعات الثقافية من الداخل، من وجهة نظر أعضاء المجتمع لا من وجهة نظر الإثنوغرافي. وشجع على دراسة اللغات الوطنية واستعمالها، واقترح أن تسجل الإصطلاحات التي يستعملها الوطنيون حيثما تعذر ذلك، وأن تجمع النصوص، وأن يُعلّم الوطنيون كيفية كتابة لغتهم بحيث يتمكنون هم أنفسهم من تسجيل النواحي المهمة من ثقافتهم.

ويعتقد بُوس والعديد من تلاميذه أن المجتمعات اللاكتابية تعطينا المعلومات الوحيدة التي تهم البحث الأنثروبولوجي. وقد بلغ الاعتقاد بأن هذه المجتمعات هي المختبر المشروع للأنثروبولوجيين، حداً من القوة جعلهم ينظرون بفزع إلى تكيف المجتمعات اللاكتابية الثقافي وزوالها من الوجود بصفتها مجتمعات لاكتابية. هذا لِنْتُنْ (١٩٤٥: ١٠) مثلاً يقول :

«... حصر الإثنولوجيون جهودهم المبذولة لجمع المعلومات، حتى وقت قريب، فيما يدعى بالشعوب «البدائية»، أي الشعوب التي تعيش خارج نطاق الثقافات المعقدة الغنية التي ندعوها بالمدنيات. وقد تناسب الاهتمام بتلك الجماعات طردياً مع شدة عزلتها عن ثقافتنا واختلافها عنا. وكان الاثنولوجي القديم يشعر أنه في السماء السابعة لو اكتشف جماعة لم يرها الرجل الأبيض من قبل، وهو ينظر إلى الانفتاح الحالي لزوايا الأرض البعيدة نظرة أي عاملٍ فنّي يرى أن مصدر رزقه في خطر...».

تحدّى بُوس بشكل خاص فكرة كون اللاكتابي أدنى من الناحية العقلية، وأنه عاجز عن تخطي مستواه المتدني من الثقافة، وذلك في كتابه **عقل البدائي**. وبيّن بُوس في مجموعة المقالات هذه بشكل لا يقبل الشك أن عقلية الانسان «البدائي» لا تختلف بشكل جوهري عن عقلية الانسان «المتمدن»، وبرهن على أن المكانة الهابطة والوضع المتدني اللذين ينسبان لعضو المجتمع اللاكتابي ليسا سوى نتيجة لمقارنتهما بحضارة "تتمركز حول

ذاتها"، وفي مقارنة تقوم على أساس واحد – هو مقياس ثقافة الأنثروبولوجي نفسه. وأصر على ضرورة إجراء البحث بدون تلك الأفكار المسبقة.

أما بالنسبة للنظريات فقد انتقد بوس بشدة طريقة البحث المقارن كما كان يطبقها التطوريون الكلاسيكيون، وصاغ في بحث حول هذا الموضوع (١٩٤٠: ٢٧٦ – ٢٨٠، ٦٣٣ – ٦٣٤) شرطين يجب على الأنثروبولوجيين استيفاءهما، وهما:

١– دراسة قبائل معينة دراسة مفصلة في سياق ثقافتها ومنطقتها الجغرافية كوسيلة لإعادة تصور تواريخ الثقافات والمناطق القبلية.

٢– مقارنة هذه التواريخ القبلية بهدف صياغة قوانين عامة عن النمّو الثقافي.

وقد طبّق بُوس وتلاميذه الشرط الأول من هذين الشرطين تطبيقاً يثير الإعجاب، كما هو معروف. أما الشرط الثاني الخاص بتطبيق طريقة البحث المقارن، فقد أدى الاستغراق الشديد في وصف المجتمعات الوطنية إلى إهماله (أكَرْنِخْتْ ١٩٥٤، إغَنْ ١٩٥٤).

لكن بُوس وتلاميذه قدموا أوصافاً ممتازة للمجتمعات اللاكتابية، رغم أنهم لم يعيروا طريقة البحث المقارن ما تستحقه من الاهتمام. ولم يكن يشك أحد في تلك الفترة في أن المجتمعات «البدائية» كانت هي مختبر الأنثروبولوجيين الثقافيين. غير أن ما يهمنا هنا هي الاتجاهات نحو المجتمعات اللاكتابية وجهود الباحثين المبذولة لوصف الثقافات من وجهة نظر المجتمعات التي كانوا يدرسونها. لقد طبق ذلك على كل نواحي الثقافة، فالأشكال والتصنيفات كان ينبغي ألاّ تفرض من الخارج، بل أن «تكتشف». وقد وصف بِدْني (١٩٥٣: ٦٨٨ – ٦٨٩) اتجاه بُوس وتلاميذه نحو

«البدائيين» وعزوفهم عن تقويم الثقافات، بأنهما تعبير عن المناخ الديموقراطي المتحرر السائد في ثقافتهم، إذ أنهم :

«لم يزيدوا، كليبراليين وديمقراطيين، عن أن يؤكدوا اتجاهات هي من صميم ثقافتهم، ولكنهم قالوا إنهم استمدوا «تسامحهم الرفيع» من الدراسة المقارنة للثقافات البدائية. أما فكرة «أخلاقيات العنف»... والأزمات الدائمة التي تنتج عن صراع الطبقات الاجتماعية والمصالح القومية التي نادى بها كل من ماركس وسوريل، فلم تدخل في منظورهم العلمي السلمي على الإطلاق. ولو فكروا بإمكانية تعارض الأيديولوجيات وتصارعها، وبمذهب الثورة الاجتماعية، لا بالتطور الاجتماعي البطيء، لما اشتغلوا تحت ظل التفاؤل الساذج الذي يتيحه لهم اعتقادهم بالحرية الثقافية. لقد تطلب الأمر صدمة الحرب العالمية الثانية لكي يهتز هذا التفاؤل الثقافي الرومانسي ولكي يستيقظ الأنثروبولوجيون من سباتهم ويروا حقيقة الأزمات الثقافية وضرورة التكامل الثقافي على المستوى العالمي».

والظاهر أن "بِدْنِي"، بنقده "لِبُوس" وتلاميذه لعزوفهم عن تقويم الثقافات، يرفض أيضاً الطريقة الأنثروبولوجية في تحليل الثقافات اللاكتابية. إن هذه الطريقة لا تبارك - بحدّ ذاتها - النسبية الثقافية، بل تدافع عن الحاجة لاكتشاف النظم الثقافية الفريدة للمجتمعات اللاكتابية والتثبُّت منها. وتؤكد بشكل خاص أنه لا يحق لنا استعمال مثال ثقافي معين لدراسة مثال آخر، لأن المعايير والتصنيفات تتباين تبايناً شديداً بين مجموعات الثقافة المختلفة. صحيح أن النسبية الثقافية نشأت كناتج عرضي لهذه الطريقة، لكنها ليست من صميمها.

ولكن سواء أكان الاتجاه العلمي الذي تميز به بُوس وتلاميذه مستمداً من دراستهم للمجتمعات اللاكتابية أم من القيم الكامنة في ثقافتهم هم، فإن ذلك

لا يهمنا ضمن حدود البحث الراهن بل إن ما يهمنا هو أن طريقة بُوس وتلاميذه مهمة لأنها أثبتت أن ثقافات المجتمعات اللاكتابية "نظم مُتَّسقةٌ مكتفيةٌ بذاتها". كما خلصتنا من الرأي السابق القائل إن «البدائيين» كائنات متدنّية، طفولية، أو أنهم عاجزون عن الارتفاع فوق مستواهم الثقافي المُقَدَّر لهم.

أما الأنثروبولوجيون الاجتماعيون البريطانيون المعاصرون فيميلون إلى اعتبار علمهم مقصوراً على دراسة المجتمعات اللاكتابية. وقد أكد ذلك إفَنْزْ - بْرِجَرْدْ (١٩٥١: ١٠ - ١١) حينما قال: «إن الأنثروبولوجيا الاجتماعية... يمكن أن تعتبر فرعاً من الدراسات الاجتماعية، ولكنه الفرع الذي يقف نفسه على المجتمعات البدائية». ويبدو أن آراء الأنثروبولوجيين البريطانيين فيما يخص طرق البحث شبيهة بما وصفناه من آراء الأنثروبولوجيين الأمريكيين، فهم يشاطرون الأمريكيين اهتمامهم بالدراسات الميدانية، ويشاركون بُوس على الأقل في رغبته في تعلم اللغات الوطنية (فيرث ١٩٥١: ٤٧٤، إفَنْزْ - بْرِجَرْدْ ١٩٥١: ٧٦ - ٧٧).

لكن الأنثروبولوجيين البريطانيين يختلفون عن زملائهم الأمريكيين من نواحٍ أخرى مهمة، ربما كان أهمها حصرهم لاهتماماتهم بعدد محدود من الظواهر الثقافية. ورغم أنهم ما عادوا يرفضون التاريخ، فانهم نادراً ما يلجأون إلى التحليلات التاريخية. وكما يقول ميرْدُكْ (١٩٥١: ٤٧١): «إنهم يهتمون بالدرجة الأولى بالجماعات الاجتماعية وبِبُنْيَة العلاقات الشخصية أكثر من اهتمامهم بالثقافة، وبالارتباطات المتزامنة أكثر من اهتمامهم بالارتباطات المتعاقبة». ويستنتج ميرْدُكْ (١٩٥١: ٤٧٢) من ذلك أن «الأنثروبولوجيا البريطانية [هي في الواقع] مدرسة متخصصة من مدارس علم «الاجتماع». ويتفق فيرث (١٩٥١: ٤٧٧) مع هذه الأقوال في مجملها.

وإذا ما عدنا لأمريكا فإننا سنجد أن الاتجاه الراهن عند كثير من الأنثروبولوجيين هو نحو الابتعاد عن دراسة المجتمعات اللاكتابية والتحول إلى دراسة الجماعات الحديثة والجماعات التي تمر في فترة انتقالية. وسبب ذلك، في نظر مجموعة من الأنثروبولوجيين، هو اختفاء الشعوب اللاكتابية وضرورة اكتشاف «مختبر» جديد، بينما تشعر مجموعة أخرى من الأنثروبولوجيين أن طرق البحث التي وصلت إلى درجة عالية من الكمال بين المجتمعات اللاكتابية يمكن تطبيقها بشكل فعّال على أنواع أخرى من الجماعات. ويمثل كروبير (١٩٥٣ : ٣٦٠) الرأي الأول في سياق تعليقه على دراسة الجماعات البشرية :

«... من الواضح أن الدراسات التي نقوم بها هذه الأيام لجماعات منعزلة إلى حدٍ ما داخل مجتمع أكبر، ودراسة مميزات ثقافتها، ما هي إلا بديل للدراسات القبلية الشاملة التي تقادم عليها العهد، والتي ترعرع عليها علم الاثنوغرافيا. إذ لم يكن بدٌ من أن تضمحل البقايا البدائية بالتدريج وأن تضحى بعيدة جداً؛ فبينما كان بوسع الباحث أن يدرس قبيلة من القبائل مدة صيف كامل دون أن يكلفه ذلك أكثر من بضع مئات من الدولارات، صار لزاماً عليه أن يصرف حوالي سنتين وعدة آلاف من الدولارات ليقوم بالدراسة الميدانية. ثم إن الكثير من الثقافات الوطنية اختفت تماماً حتى كذكريات. لذلك انقلب الأنثروبولوجيون وقد واجهوا شُحاً في مواد الدراسة، إلى النمط الحديث من دراسة الجماعات، وهي دراسة يمكنك أن تبدأها بأن تدفع عشرة سنتات أجرة القطار الأرضي من وسط المدينة. وما يزال بامكانك في هذه الدراسات الجديدة أن تستعمل طرق المقابلة الشخصية القديمة، والعلاقات الشخصية بمحدّثيك، وهي الطرق التي تميز بها الأنثروبولوجيون عن معظم علماء الاجتماع وعن كل علماء الاقتصاد».

أما رالف لِنْتُنْ (١٩٤٥ : ١٠) فيؤكد فائدة طرق البحث التقليدية التي كان يستخدمها الاثنولوجيون لدراسة الجماعات الحديثة، ويقول :

«... إن الاثنولوجيين الشباب لا يساورهم القلق بسبب هذه الأحداث [كما يساور الاثنولوجيين الشيوخ بسبب اختفاء المجتمعات اللاكتابية]. فقد أدت دراسة الثقافات المختلفة عن ثقافتنا اختلافاً شديداً إلى تطوير طرق البحث وتعميق التجرد، وهما أمران لا يفقدان قيمتهما عندما يطبقان على المجتمعات المتمدنة والثقافات التي تمّر في فترة انتقال. إن دراسة وطنيي احدى جزر بحر الجنوب أكثر رومانسية من دراسة جماعة من فلاحي ولاية "آيوا"، لكن يمكن استخدام نفس الطرق العلمية في كلتا الحالتين، ويمكن لكلتا الدراستين أن تؤديا إلى نتائج هامة. ومادام البشر يعيشون في جماعات ويطورون طرقاً حياتية خاصة لمواجهة ظروفهم الخاصة فلن يأتي يوم على الاثنولوجي تهدده فيه التكنولوجيا بالتعطل عن العمل». ويعبر كروبير بصراحة، في مراجعته الختامية لكتاب «الأنثروبولوجيا اليوم» Anthropology Today (١٩٥٣ : ٣٦٦ – ٣٦٧)، عن قلقه حول بقاء الاثنولوجيا كعلم متخصص بدراسة المجتمعات اللاكتابية :

«أوشك أن أهجر الطفل [الاثنولوجيا] كي تأكله الذئاب ليموت قبل أوانه أو من تقدم السن به، كما يحلو لك». ثم يشير إلى الأسباب التي تجعله يعتقد بأن علم الاثنولوجيا على وشك الاختفاء وهي تناقص عدد البدائيين، وعدم القيام بالتصنيفات والمقارنات، والميل إلى القفز إلى النظريات الشاملة.

أما إغَنْ (١٩٥٤ : ٧٥٦) فيلفت النظر في رده على كروبير إلى ثقافات لم تدرس بعد في الأجزاء الداخلية من غينيا الجديدة، ويذكر أيضاً مصادر للشعوب التي لم تستغل بعد في افريقية، والهند، وجنوب شرق آسيا،

واندونيسيا، وميلانيزيا. وهذه الشعوب الأخيرة تمثل ثقافات في حالة تغيّر، أي أنها «مختبر» يتحدّانا للعمل فيه.

وتدور ملاحظات بيلز (١٩٥٣ب: ٦٥) في مقدمة بحثٍ يصف جماعة واقعة تحت تأثير المدنية الصناعية، حول هذا الموضوع أيضاً :

«... ما تزال الإحصائيات سيئة أو معدومة بالنسبة لأجزاء كثيرة من العالم. لكن أشد التقديرات اعتدالاً تقول إن أكثر من ثلثي سكان العالم يعيشون في القرى، وقد يصل الرقم إلى ٧٥٪ أو إلى ٨٠٪ أو أكثر. والقرية وحدة صغيرة تناسب تماماً دراسة العديد من المشاكل النظرية الهامة.

لكن صغر الحجم والسهولة ليسا السببين الوحيدين لدراسة القرية. فعالم القرية اليوم يمر في حالة الغليان الذي يرافق التطور تحت ضغط المدنية الصناعية المتزايدة، مما يسبب عدداً من أصعب المشاكل التي يواجهها عصرنا. كذلك تزودنا ظروف التغير المختلفة بظروف من غير المحتمل أن يجد دارسو الانسان ظروفاً مثلها من حيث قربها من ظروف المختبر. لذلك تعتبر دراسة القرية أمراً تدعو إليه حاجات العلم والظروف العلمية المستعجلة».

أما فيما يتعلق بنقطة كروبر الثانية، وهي عدم القيام بالتصنيفات والمقارنات، فإن إغَنْ Eggan يدعو إلى استعارة طرق البحث التي يستعملها الأنثروبولوجيون الاجتماعيون البريطانيون، وإلى اتباع ما قام به "ميردُك" في كتاب «البناء الاجتماعي» Social Structure (١٩٤٩). ويقترح إغَنْ أن نعود إلى المشكلات الأساسية التي كان الاثنولوجيون الأمريكان يعالجونها في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، مسلّحين بطرق بحث جديدة، وبآراء جديدة، وبمفاهيم أوسع مدى. وهو يشعر أن الميل للقفز إلى النظرات الشاملة

في طريقه إلى الاختفاء. ويشير إلى أبحاث كتلك التي أجراها كل من كلوكهون Kluckhohn، وأوبلر Opler، وهويجر Hoijer، وغدون Goodwin، وغيرهم بين الشعوب الجنوبية التي تتكلم اللغة الأثاباسكية، باعتبارها أنواعاً مثمرة من أنواع البحث. ويذكر، كأمثلة على الاستخدام الفعّال لطريقة البحث المقارن، أبحاث شبير Spoehr في جنوب الشرق وردفيلد في يوكاتان. ويختتم إغن (١٩٥٤: ١٧٥٩) ردّه على كروبير بقوله:

«ذكرت أنه قد تكون هناك بعض المزايا في مزج مفهومي الأنثروبولوجيا الاجتماعية الخاصين بالبنية والوظيفية مع مفهومي التحول والتاريخ الاثنولوجيين. وإذا استطعنا أن نفعل ذلك بشكل مرضٍ فقد نتمكن من انقاذ «الطفل الاثنولوجي» من المصير الذي يقول كروبير أنه يترصده...».

إلا أن الاهتمام بالشعوب اللاكتابية ما يزال قوياً جداً. إذ يهتم الأنثروبولوجي الثقافي أو الاثنولوجي بهذه المجتمعات اهتماماً فائقاً رغم أن من الصعب أحياناً تمييز أشكالها الحديثة التي مرت بالتغير وتكيفت ثقافياً عن أشكالها القديمة. إن «المختبر» ما يزال مليئاً بالمشكلات المهمة نظرياً، سواء أكانت تتعلق بجماعة تقليدية أو حديثة أو متغيرة.

**طرق البحث الميداني:**

أرى أن إدراج الوصف الموجز التالي لطرق البحث الميداني مفيد في هذا السياق لأن الاتجاه نحو العمل الميداني متأثر إلى حد بعيد بالنظرة الخاصة إلى المجتمعات اللاكتابية، وخاصة كما أرسى "بوس" قواعدها.

يعتبر ما كتبه "لاونزبري" عن اللغويات، وما كتبه هنري وسبيرو عن الوسائل النفسية، وما كتبه بول عن فنّ المقابلة والعلاقات الميدانية، وما كتبه لويس عن الضوابط والتجارب في العمل الميداني، أحدث وأوفى ما كتب في هذه المواضيع.

إن ما يتميز به عمل الأنثروبولوجيين بين الجماعات اللاكتابية عن البحوث التي قام بها العاملون في العلوم الأخرى هي الملاحظة والمقابلة. إذ يشارك الأنثروبولوجي إلى حدٍ ما، أثناء عمله في مجتمع لا كتابي، في طريقة الحياة التي يحياها أبناء ذلك المجتمع. لكن ذلك مستحيل بين بعض الجماعات بطبيعة الحال فلم يتمكن وايت مثلاً من المشاركة في حياة الكيريس Keres رغم أنه زار قراهم المتعددة وراقب احتفالاتهم العامة عندما سمحت له الظروف بذلك. وكان السبب هو التحفظ الشديد الذي أبداه هنود البويبكو في ريوغراندي على فكرة أن يدرسهم أحد. وقد ذكر وايت (١٩٣٥ : ٧) المميزات الخاصة بالعمل الميداني بين هذه الشعوب بقوله :

«لابد من القول للقاري الذي لا يعرف شيئاً عن قرى الهنود في نيومكسيكو إن من المستحيل في معظمها أن يقوم المرء بالدراسة الاثنولوجية بشكل صريح. فالوضع المثالي الذي يتمثل بالذهاب «والعيش كما يعيشون» مستحيل تماماً في القرى المنتشرة في ريوغراندي. إذ أن سكان هذه القرى يعترضون بقوة على الافصاح للغرباء عن أي شيء يخص عاداتهم ومعتقداتهم. ويعلمون أطفالهم منذ نعومة أظفارهم ألاّ يقولوا للغرباء شيئاً. ويراقب بعضهم بعضاً لئلا يفشي أحدهم أسرارهم».

ربما كانت المشاركة التامة لغريب في حياة مجتمع مختلف عن مجتمعه، تفصله عن صفاتٍ طبيعية فيه، أمراً مستحيلاً. وربما كان أقرب من وصل إليه باحث من الكمال في المشاركة ما توصلت إليه فلورنس كلوكهون، وهي تصف أنواع المشاركة المختلفة وميزاتها في بحثها الممتاز (١٩٤٠).

إن «التحول إلى وطنيٍ من الوطنيين» – على فرض إمكانه – أمر تواجهه صعوبات جمة تنتج عن المشاركة العاطفية واكتساب الهوية الجديدة.

ويشير بول إلى أن الباحث في تلك الحالات كثيراً ما يكف عن أن يكون مراقباً، ولا يصح اعتباره في عداد الأنثروبولوجيين. ويذكر كمثال على ذلك (١٩٥٣: ٤٣٥) كيف أن فرانْكْ كُشِنْغْ قد اندمج عاطفياً بحياة الشعب الذي كان يدرسه في قرية زونيي إلى حد أنه رفض الاستمرار في نشر المعلومات التي جمعها عن الزونيي.

و "مما يستحسن في الدارس الميداني للشعوب اللاكتابية" أن يتعلم لغتها". وقد كان ذلك ضرورياً في أوائل عهد هذه الدراسات لأن الجماعات المدروسة كانت برمتها أو غالبيتها أحادية اللغة. أما في السنوات المتأخرة فقد حلت مشكلة اللغة باستخدام من يتكلمون لغتين منهم كمرشدين أو مترجمين. لكن كلوكهون (١٩٤٥: ١١١ - ١١٤) تشير إلى أن معرفة قدرٍ من لغة المدروسين أمر لا غنى عنه حتى ولو كان الوطنيون يتكلمون لغتين أو كان المترجمون كثيرين.

وقد شدد بوس على جمع النصوص باللغة الوطنية، وكان ذلك مما تميزت به بحوثه وبحوث تلاميذه. ولاشك أن النصوص مفيدة، لكن ربما فاقت فائدتها لعالم اللغة ولاهتمامات الدارس المتخصص فائدتها لغيرهما. وقد تكون الوسائل الميكانيكية كالمسجّلات نافعةً من عدة نواحٍ، وهي الآن جزء لا يتجزأ من معدات الدارس الميدانية. وهذا ينطبق على الصور، سواء ما كان منها بالأبيض والأسود أو بالألوان الطبيعية. وتعتبر الأفلام الخاصة بمختلف نواحي الحياة الوطنية أمراً مرغوباً فيه جداً، لكن التكاليف الباهظة التي تحتاجها الأفلام والكاميرات، فضلاً عن إمكانية رفض أفراد الشعب المدروس لها، قد تحدّ من استعمالها.

ولا يستعمل الأنثروبولوجيون طرقاً متشددة في اختيار عيناتهم عادةً، لأن ما يهمهم هي الأنماط الثقافية العامة للمجتمعات اللاكتابية. فكما تقول

ميد (١٩٥٣ب: ٦٥٤ – ٦٥٥)، يختلف اختيار العينة في الأنثروبولوجيا عنه فى العلوم الأخرى :

«.. أي في تلك العلوم التي تعتمد فيها صحة العينة، لا على عدد الحالات، بل على الخواص المناسبة لله خبر، بحيث يمكن أن يحدد مكانه الصحيح بعد أخذ عدد كبير جداً من المتغيرات، كالسن، والجنس، وترتيبه بين إخرته، وخلفيته الاجتماعية، الخ»، ويستند هذا القول على النظر إلى الثقافة على أنها نظام متكامل (خاصة ضمن جماعة صغيرة متجانسة) مما يؤهل عدداً صغيراً من المخبرين، ما داموا يشاركون في تلك الثقافة مشاركة تامة، لأن يعطونا الأنماط الثقافية العامة التي يتميز بها المجتمع. وهذا أيضاً هو ما يعنيه هوسكوفتز (١٩٥٤: ١٦) عندما يذكر أن المخبر لا يمكنه أن يخترع ثقافة، مثلما أنه لا يمكنه أن يخترع لغة. لكن ماندلباوم (١٩٥٣: ١٨٥) بيّن أن اتباع طرق أفضل لاختيار العينات أمر جوهري إذا ما كنا مهتمين بالتنوعات الممكنة داخل الأنماط الثقافية.

**نظرة غير المتخصصين «للوَطني» :**

لكن ما هو موقف قراء الكتابات الأنثروبولوجية خارج دائرتنا المختارة المتخصصة؟ إن هذا سؤال هام لأننا لا نستطيع التهرب من أثر الدراسات الأنثروبولوجية على عامة القراء. بل نعتقد أن هذا الأثر هو الأثر الطبيعي القيّم لعلمٍ يقف نفسه لفهم السلوك ويحاول فيه الانسان أن يفهم أخاه الانسان. وقد كتب في السنوات الأخيرة عدد من الكتب «الشعبية» والمقالات الموجهة لجمهور غير المتخصصين مباشرة. كذلك ينبغي أن ندرك أن هذه الكتابات لا تصل أعداداً كبيرة من شعوب المجتمعات الصناعية القادرة على القراءة فقط، بل تصل أيضاً إلى أفراد المجتمعات التي كانت موضوع الدراسات

الأنثروبولوجية. ويحتل الكثير من هؤلاء الآن مراكز مهنية كمعلمين ومحامين وأطباء – بل وأنثروبولوجيين. أي أن من المهم أن ندرك أن أعداداً كبيرة من «الوطنيين» هم الآن مشاركون كاملون في ثقافات «كتابية» صناعية، يساهمون في حياة كانت تعتبر غريبة عنهم، ويتأثرون تأثراً قوياً بأبحاث الأنثروبولوجيين، خاصة تلك التي تخص مجتمعاتهم، وبشكل أخص بالألفاظ المستعملة.

لاشك أن أي أنثروبولوجي تحدث إلى جمهور كبير يضم أشخاصاً لهم خلفيات متعددة قد أدرك أن عليه أن يختار كلماته بعناية فائقة عندما يتحدث عن «مختبره». ولقد وجد كل أنثروبولوجي يميل إلى استخدام اصطلاحات مثل «البدائية» و«التأخر» و «التوحّش» وما شابهها أن عليه أن يحاول الاستعاضة عنها ببدائل لها. وصارت مشكلة إيجاد المصطلحات المناسبة غير المهينة بالغة الصعوبة في المجلات المتخصصة وقاعات الدراسة والمحاضرات العامة.

ومعظم أفراد الجمهور غير المتخصص من غير «الوطنيين» يقبلون المعاني السلبية التي توحي بها المصطلحات الأنثروبولوجية عن المجتمعات اللاكتابية. ولما كانت عامة القراء تفهم الصفات «العرقية» و «العقلية» و«الثقافية» باعتبارها غِشْطالْت(*) فإن اصطلاحات الأنثروبولوجي تُقْبَل كأوصاف للاكتابيين في كل هذه الحقول. ولذلك فإن الافتراض الشائع بين الناس العاديين عندما يُستخدم اصطلاح «البدائية» ليصف مجتمعاً لا كتابياً معيناً، هو أن مثل هذا المجتمع متخلّف عرقياً وعقلياً وثقافياً. ويفسّر هذا التصور الخاص باللاكتابيين الاستجابة السلبية التي كثيراً ما تُقابَل بها

(*) أي نمطاً أو كياناً كلياً متكاملاً وليس مجرد مجموع لأجزائه (المترجم).

محاولات الأنثروبولوجيين لدراسة الجماعات الحديثة. فسبب اعتراض أفراد المجتمعات الحديثة على أن يدرسهم الأنثروبولوجيون هو أن هولاء الأفراد يشعرون – فيما يبدو – أنهم أخذوا يصنفون «كبدائيين»، مع كل الصفات السيئة الأخرى التي ترتبط بهذه الكلمة وأمثالها. ويعتبر رد فعل "هوليوود" ضد دراسة باودرميكر (١٩٥٠) دليلاً على ما نقول. فقد أثارت هوليوود ضجة حول وضعها في طبقة «المتوحشين»، وكتبت عن ذلك الصحف والمجلات مقالات مشحونة.

وهكذا يشكل رد فعل هوليوود مؤشراً جيداً لما يفكر به الناس حول الأنثروبولوجيا والمجتمعات التي يدرسها الأنثروبولوجيون. لكن الأنثروبولوجيين الذين يهتمون بالجماعات الحديثة يدركون هذه المشكلة. وأدى توقع المشكلات المرتبطة بدخول الباحث إلى الجماعة التي ينوي دراستها واتصاله بها، إلى أن يتّخذ الباحث دوراً مألوفاً أكثر و«محترماً» أكثر، مثل دور المعلم (باودرميكر ١٩٣٩) أو «المؤرخ» (بول ١٩٥٣: ٤٣٢ – ٤٣٣).

إذن فالأنثروبولوجيون بالنسبة لعامة الناس هم أولئك الذين يدرسون الشعوب المتأخرة، الفظة، غير المتمدنة، أو المتوحشة. كذلك يجب التشديد على أن المصطلحات التي يستخدمها الأنثروبولوجيون يفسرها الناس على أنها تنطبق على الخصائص الجسمانية والعقلية والثقافية للاكتابيين. وقد يبرز الأنثروبولوجيون وجهة النظر المعاصرة حول هذه المجتمعات، ويقولون إنه ليست هناك أدلة كافية تثبت التدني الجسماني أو العقلي لأي شعب من الشعوب، لكن عامة الجمهور من غير المتخصصين سيستمرون في اعتبار «البدائيين» «متوحشين» طالما ظل الأنثروبولوجيون يستعملون مصطلحات لها اشتقاقات شائعة مخالفة للدقة العلمية.

وما يلفت النظر حقاً هو أن العلماء الاجتماعيين بالغو الحساسية نحو المصطلحات عندما يدرسون الجماعات الكتابية. فمن الواضح أنهم يعملون حساباً لرد الفعل السلبي أو الإيجابي في دراسة الجماعات الحديثة. لاحظ مثلاً هذه الأسماء المختلفة المستعملة في التقارير المنشورة بعنوان :

(*)Middle Town, Yankee City, Plainville, U. S. A

بل إن كاتب هذه المنشورات وجد أن من الأسلم له أن يستعمل اسماً مستعاراً في آخرها. لقد كان علماء الاجتماع مدركين دائماً لآثار مصطلحاتهم باعتبار أنهم يدرسون المجتمعات الكتابية، فامتنعوا عن استعمال مصطلحات عاطفية أو سلبية عند إقامتهم لنظم التصنيف أو التسميات. ولذا فإن الألفاظ المتقابلة التي يستخدمونها، أمثال «مجتمع - جماعة»، «حضري - ريفي»، لا تحمل إشارات سلبية كتلك التي تحملها التسميات الأنثروبولوجية. ويصح هذا بشكل خاص على الدراسات التي هي اجتماعية في جوهرها، والتي قام بها ردفيلد في يوكاتان. فاصطلاحات «قبلي» و «شعبي» و «حضري» التي يستعملها لا تحمل معاني سلبية.

أما في حالة المجتمعات اللاكتابية فإن الأنثروبولوجيين لم يكلفوا أنفسهم عناء إخفاء هوية ما درسوه منها، إلا في حالات قليلة بارزة. لقد أخذوا كل ما بوسعهم من الحيطة لاخفاء هوية مخبريهم، بينما لم يأخذوا مثل هذه التحوّطات في أغلب الأحيان لإخفاء هوية المجتمعات المدروسة ككل(**). ولم يحاول الأنثروبولوجيون، إلا فيما ندر، أن يختاروا كلمات أقل إهانة لوصف اللاكتابيين بشكل عام. لكن ما يبعث على الأمل أن هناك استثناءات

---

(*) يتفادى هذا العنوان أسماء الأماكن الحقيقية، فكأنه يقول: المنطقة الفلانية من الولاية العلانية من الولايات المتحدة. (المترجم).

(**) انظر كْلايد كلوكهون (١٩٥١) ومارْغرتْ ميد (١٩٣٢).

حتى لهذه المقولة العامة. فقد تفادى عدد من الأنثروبولوجيين الكلمات ذات الصفة التحقيرية الشديدة أو ذات المدلولات الغامضة. ففي الكتاب المدرسي التمهيدي الحديث الذي كتبه بيلز وهويجر (١٩٥٣) يتفادى الكاتبان استعمال مصطلح «البدائية» ويوثّقان منجزات بعض المجتمعات وتطوراتها توثيقاً جيداً. بينما يضع سواهما المصطلحات المهينة بين علامات اقتباس، أو يسبقونها بالتعبير الاحترازي «ما يدعى بـ....»، مشيرين بذلك إلى عدم رضاهم أو اعتراضهم على مثل تلك المصطلحات. وقد دافع هرسكوفتز في كتاب الانسان وأعماله Man and His Works (الذي رفض فيه صراحة استعمال مصطلح «البدائية») عن استعمال مصطلح «اللاكتابية» كبديل مقبول (١٩٤٨: ٧٤: ٧٥):

«... لقد اقتُرحتْ عدة اصطلاحات كبدائل لاصطلاح «البدائية». ولم يلق اصطلاح «اللاتاريخية»، من بين هذه الاصطلاحات قبولاً واسعاً. فالمصطلح يشير إلى أن غياب التاريخ المكتوب معادل لعدم وجود تاريخ على الإطلاق، وهو أمر لا ينطبق على أي شعب من الشعوب. أما مصطلح «قبل الكتابية» فقد وجد قبولاً أكثر، لكن ما نعترض عليه فيه معنى التوقع الذي يوحي به. وهو في حقيقته نتاج مفهوم «أسلافنا المعاصرين»، لأنه يعني أن الشعوب التي تفتقر للغات المكتوبة هي في مرحلة سابقة للمرحلة التي ستتوصل خلالها إلى الكتابة أو تكتسبها على الأقل. بينما لا تفعل صيغتنا المقترحة، وهي «اللاكتابية» أكثر من أنها تصف ببساطة حقيقة أن هذه الشعوب لا تملك لغات مكتوبة. إن هذه الكلمة تختلط أحياناً باصطلاح الأمّية، لكن يجب علينا أن نتجنب استعمال هذا الاصطلاح الأخير لأنه يدل دلالة واضحة على التدنّي في القدرة أو الفرصة أو في كليهما. أما اصطلاح «اللاكتابية» فينقل معناه بدون غموض لأنه تعبير لا لون له، وينطبق تمام

الانطباق على المعلومات التي يقصد منه تحديدها، ولذا فإننا نفضله على سائر الاصطلاحات الأخرى... لكن لابدّ من إدراك أن هناك بعض السمات التي ترافق غياب الكتابة. فالشعوب اللاكتابية يجدها المراقب أشد انعزالاً، وأقل عدداً، وأقل ميلاً للتغير السريع في أنماط سلوكها المتعارف عليها من تلك التي تستعمل الكتابة. وقد صار من الضروري في السنوات الأخيرة أن تُميِّزَ الثقافة الأوروبية الأمريكية لا عن الثقافات اللاكتابية فحسب، بل عن الثقافات الكتابية التي تقع خارج أوروبا وأمريكا أيضاً، وذلك بسبب وجود تكنولوجيا تعتمد على الآلات التي تدار بالطاقة، وبسبب التراث العلمي في أوروبا وأمريكا. لكن يجب أن نعترف أنه ليس هناك من بين هذه الفروق، باستثناء الفرق الأخير، ما يبلغ من الوضوح ما يبلغه وجود الكتابة أو غيابها».

إن الاتفاق على مصطلح أو مصطلحات مناسبة من ناحية الدلالة التصنيفية وخالية من المعاني غير المرغوب فيها، أمرٌ بالغ الصعوبة. ورغم استعمالنا لاصطلاح «اللاكتابية» في هذا البحث، فإنها كلمة غير مرضية تماماً. إذ تجعلها إمكانية خلطها باصطلاح «الأمّية» كلمة لا يحبذ استعمالها. ثم إنها ليست أفضل من الكلمات السلبية الأخرى ككلمة "تصنيفية". لكن بوسع الأنثروبولوجيين أن يبحثوا عن كلمات أفضل منها وأن يحترسوا، إلى حين توصلهم إلى ما هو أفضل منها، من استعمال الكلمات المهينة من أمثال «البدائية» و «التوحش» وما شابههما. ومن الممكن استعمال كلمات مثل «قبيلة» أو «قَبَلِيّة»، «بسيطة» أو «أبسط»، «معقدة» أو «أقل تعقيداً» وغيرها بعضها بدل بعض لأنها لا تحمل من الدلالات المهينة قدر ما تحمله غيرها. صحيح أن أيّاً من هذه الكلمات قد تكتسب في بعض الحالات معاني سلبية أو توحي بها، وفي تلك الحالات يجب أن يستعاض عنها بكلمات أشد محايدة. قد تستعمل كلمة «شعبية» في بعض الأحيان رغم أن هذه الكلمة Folk قد اكتسبت معنى

متخصصاً في كتابات ردفيلد (١٩٤٧)(*)، وقد لا تكون الاصطلاحات الأخرى مناسبة فيكل الحالات.

إن الأسباب التي تجعلنا نحاول اختيار مصطلحات لا تؤذي مشاعر اللاكتابيين أو تحتقرهم هي في جوهرها أسباب أخلاقية، ولكنها قد تكون عملية أيضاً بالنظر إلى الوضع العالمي الراهن. ومن المناسب هنا أن نقتبس ثانيةً من هوسكوفتز الذي يدرك كل أبعاد المشكلة. فقد كتب في مقدمة الطبعة المنقّحة من كتاب الحياة الاقتصادية للشعوب البدائية الذي أعيد نشره تحت عنوان الأنثروبولوجيا الاقتصادية (١٩٥٢: ٥ - ٦ من المقدمة) يقول:

«... يمثل تغيير العنوان تغييراً في وجهة النظر هو أبعد غوراً من مسألة الاصطلاحات فقط. فقبل عشر سنوات كان مصطلح «البدائية» يرد على اللسان بسهولة. لكن التطور السريع في وسائل الاتصال خلال العقد الماضي. وتلاحم الشعوب ذات الثقافات المختلفة على الساحة العالمية جعل الطبيعة التحقيرية المتحيزة لهذا الاصطلاح، كغيره من الاصطلاحات مثل «التوحش» و «التأخر» و «القدم»، كنعوتٍ لأي طريقة في الحياة تقوم بوظائفها المنوطة بها، أمراً بادياً للعيان. ورغم أن هذا ليس هو المكان المناسب لتحليل المشكلات الثقافية والسيكولوجية التي واجهتها القوميات الناشئة في المناطق التي أخذت تتسع وتكتسب الكتابة لأول مرة في كل من إفريقية وآسيا وغيرهما من المجتمعات التي لا تعتمد على الآلات، فإنه عندما تروى قصة هذه المجتمعات سيبدو الدور الذي لعبته ردود فعل زعمائها ضد هذا النوع من التسميات كبيراً جداً في العداوات الكامنة أو المعلنة التي تشكل هذه الحركات تعبيراً عنها...».

(*) وانظر نقد مصطلح Folk عند كلٌ من م. فوستر ١٩٥٣، ص ١٥٩ - ١٧٣ وجولْيَنْ هـ. ستَورْد ١٩٥٠، ص ١١٣.

وقد عبرت ميد (١٩٥٣ب: ٣٥١) عن اعتراضٍ مماثل لهذا في تعليقها على البحوث المنشورة في Anthropology Today :

«... [يجب أن نتفادى الاصطلاحات التقويمية] مثل «الوطنية» و «اللغة المحلية» و «البدائية» [التي تستثير عداء غير الأوروبيين]. يجب أن نحذر لئلا نفوّت على أنفسنا القدرة على العمل على الصعيد العالمي، حيث يسهم كل شعب بنصيبه في علم الأنثروبولوجيا، وأن ندرك أن الانسان لن يستطيع التعليق على الانسان من زاوية تاريخ الانسان وفكره ككل إلاّ بعد أن تسهم كل منطقة ثقافية كبيرة في العالم بنصيبها».

ويقدم الأستاذ لِبْسْ في المتوحش يرد وصفاً حسنَ التوثيق لنهوض الشعوب اللاكتابية في كل أنحاء العالم، ويرسم صورة مخيفة ليقظة ملايين «البدائيين» على استغلال الرجل الأبيض وظلمه لهم. والاقتباس التالي (١٩٣٧: ٢٥ - ٢٦) من كتابه له أهميته الخاصة:

«إن سيطرة الجنس الأبيض ما تزال حقيقة واقعة، لكن الأرض تُحفر من تحته منذ زمن طويل. هذه السيادة تقوم بالدرجة الأولى على قوة الامبراطورية البريطانية وعلى تضامن أوروبا. لكننا لا نستطيع الاعتماد بشكل مطلق على أيٍّ من هذين العاملين. ومن المستحيل أن نتنبأ هنا بنتائج أي حربٍ أوروبية جديدة [الحرب العالمية الثانية]. لكن هناك حقيقة واحدة لاشك فيها: وهي أن الجنس الأبيض سيفقد اليد العليا. ستستخدم الشعوب الملوّنة لمحاربة الأعداء البيض أكثر مما استخدمت في الحرب العالمية الماضية. وسيتعمق شعورها العرقي أكثر فأكثر حتى تنقلب ضد أسيادها البيض. ولقد توقف الرجل الأبيض منذ زمن بعيد عن أن يكون إلها، خاصة لأن الحرب عرّتْه من آخر أسرار تَفَوُّقِهِ التكنولوجي. والآلهة التي لا أسرار

لها، خاصة تلك التي تجعلها مناحراتها الداخلية تقف على أرجل من طين، ما أسرع ما تعزل عن عروشها».

لقد صدقت نبوءة الأستاذ لِبْسْ في أغلبها. فهناك بالفعل مناحرات عرقية(١) في عالم اليوم أكثر مما كان عليه الوضع قبل الحرب. وتعجُ كل من آسيا وإفريقية بمشكلات «الوطنيين»، ولم تعد سيادة البيض فيها مطلقة لا يتحداها أحد.

وهكذا فمن الواضح أن الأنثروبولوجي ما عاد قادراً على الاحتفاظ بقشرته الأكاديمية دون أن يحسّ بردود فعل أعداد كبيرة من اللاكتابيين الذين يستاؤون بشدة من الاصطلاحات السلبية التي تستعمل أوصافاً لهم. وتتبين أهمية ذلك خاصة عندما تكون المصطلحات التي يستخدمها الأنثروبولوجيون مختلفة عن المعاني التي يعطيها لها الاستعمال الدارج. أضف إلى ذلك أن المصطلحات السلبية التي توصف بها المجتمعات اللاكتابية ليست ذات قيمة وصفية أو تصنيفية دقيقة. فإذا ما كان مصطلح «البدائية» يصلح بنفس المقدار لوصف "وطني" في تييرا دلْ فُويغو، وشعب الإنكا الذي عاش في المرتفَعات الأنديّة، والبشمان في جنوب إفريقية، واليوروبا في غرب إفريقية، فأي تبرير علمي يبقى لاستخدامه؟.

إن الأنثروبولوجيين على وعي بنواقص مصطلحاتهم الوصفية التصنيفية التي يستخدمونها في علمهم. فهذا "سْتِوَرْدْ"، من بين آخرين سواه، يبحث هذه المشاكل بحثاً هاماً مسهباً في كتابه عن البحث الميداني (١٩٥٠: ١٠٦ - ١١٤). وتتصل ملاحظات وايت (١٩٤٩: ٢١) بهذا الموضوع أيضاً. ففي معرض دعوته لاستعمال مصطلحات علميةٍ أدق، يقول:

«يمكن أن يقاس نضج العلم في أي حقل من الحقول، بالنظر في

---

(١) الحركات العرقية في العالم المعاصر - هشام محمود الأقداحى - مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.

مصطلحاته؛ فكلما نضج العلم طوّر مصطلحاته الخاصة به. وقد حدث ذلك بشكل واسع في كل من العلوم الطبيعية والبيولوجية. ولقد غدا استعمال كلمات مثل «الغريزة» و «الذكاء» و «الجنس» و «المجتمع»من الصعوبة بحيث صار إحلال كلمات أخرى محلها أمراً شديد الاحتمال.

وكان حرياً بوايت أن يضيف إلى قائمة كلماته كلاً من «بدائية» و «متأخرة» وأمثالهما. إننا بحاجة إلى مصطلحات أدقّ، هذا واضح، لكن يجب أن نحذر من مغبّة اختيار كلمات تهين كرامة أعداد كبيرة من الشعوب التي يراد من تلك الكلمات أن تدل عليها، وتجرح مشاعرها.

وهذه الدعوة لاستعمال مصطلحات تصنيفية أفضل، خالية من نزعة التحقير، لا يُقصد منها ألاّ يسعى الأنثروبولوجيون إلى محاولة اكتشاف نظام المجتمعات وتطورها وحالاتها القديمة بين المجتمعات اللاكتابية. إذ ليس هناك ما يمنعنا من استعمال مخطط تصنيفي تطوري ناجح يتجنب الألفاظ التي تعزو إلى أعدادٍ كبيرةٍ من سكان العالم مكانة هابطة متدنية.

# الفصل الرابع

## التمركز العرقي حول الذات

# الفصل الرابع

## التمركز العرقي حول الذات (*)

تعني ولادة المرء ضمن ثقافةٍ معيّنة، بشكلٍ عام أنّ هذه الثقافة تضعه على منصة يطلُّ منها، بدرجاتٍ متفاوتةٍ من عدم الاكتراث أو العداوة، على الثقافات الغريبة الأخرى. ولذا غلّب أن يكون مراقبو الثقافات الغريبة منحازين، بالمعنى البسيط الذي يفضّلون فيه ثقافتهم على كل الثقافات الموجودة الأخرى، وينظرون فيه إلى الغريب باعتباره الشكل المشوّه المنحرفَ عن المألوف. وكانت السذاجة التي تُدَغْدِغُ الذاتَ وتُمَيِّزُ التقسيمَ الأرسطيَّ لسكان العالم إلى إغريق وبرابرة، أو إلى أحرار بالطبيعة وعبيد بالطبيعة، هي النمطَ المعتادَ الذي حَشَرَ الناسُ فيه ما لاحظوه من فروق بين البشر.

كانت فئة البرابرة بالنسبة لأرسطو واسعة جداً، تضمُّ العديد من الناس بغض النظر عن الاقليم أو الشعب أو العرف. لكن التباين في مدى الاختلافات الثقافية ارتبط في كتابات معظم المشتغلين بالشؤون الانسانية بالتباين في أنواع الأحكام المستمدة من الملاحظة. وكلما زاد الاختلاف الثقافي زاد التعبير عن العداوة والاحتقار حدةً. ومن هنا فإن الثقافات البدائية، كما وصفها المراقبون المتمدنون، قد عانت أكثر من غيرها من عادة استصغار الغريب، مما جعل تطبيق الوصية الدينية التي تأمر بتجنب شهادة الزور صعباً في هذا الحقل من حقول الوصف الثقافي بشكل خاص.

---

(*) يعاد طبع هذا البحث هنا من مجلة Lsis، المجلّد ٤٩، الجزء الأول، رقم ١٥٥، آذار ١٩٥٨، ص ٦٢ - ٧٢.

وتهدف الدراسة الراهنة إلى أن تحلل، في قطاع واحد من الكتابات المتعلقة بالثقافات البدائية، الطبيعة الدقيقة لمظاهر التحامل في هذا المجال، ومدى إعاقتها للوصف الصادق، للظواهر. وقد وضعتُ أولاً حداً جغرافياً للكتابات التي تتناولها هذه الدراسة، وهي الكتابات الخاصة بالصلات الأوروبية بإفريقية البدائية، خاصة إفريقية الزنجية. وهناك أيضاً حدٌ زمني. فقد حصرتُ قراءاتي بشكل مكثف في الكتابات التي كتبت منذ القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر. لكنني أخذت أهمَ المصادر الكلاسيكية (القديمة) والوسيطة بعين الاعتبار أيضاً من أجل المقارنة ورسم الخلفية المناسبة. لكن هذه الدراسة لا تطمح لأن تكون تحليلاً شاملاً لكل الكتابات الموجودة حتى ضمن هذه الحدود. ومع ذلك فإنّ الروايات التي تزيد على المائة عن الرحلات الإفريقية والرسائل الجغرافية التي رجعت إليها تشكل عينة من مجموع ما كتب عن هذا الموضوع تكفي للتوصل إلى تعميمات صحيحة عن محتواها(*).

(*) هناك مرجعان ببليوغرافيان مفيدان حول هذه الكتابات، الأول هو:

Edward Godfrey Cox, **A Reference Guide to the Literature of Travel** (Seattle, 1935), vol. I, **The Old World**, section, XIII, «Africa», pp. 354 - 401.

والثاني هو:

Monroe N. Work, **A Bibliography of the Negro in Africa and America** (New York, 1928), part I, «The Negro in Africa», section I, «Discovery and Exploration in Africa from Ancient Times to 1800», pp. 1 - 17.

ورغم أن تغطية المرجعين التاليين اللذين يتناولان كتب الرحلات للفترة والمنطقة اللتين تهمانا تختلف عما في هذا البحث، إلا أنهما يجب أن يذكرا هنا، وهما:

Geoffrey Atkinson, **Les Relations de Voyages du XVII^e^ Siècle et l'Evolution des** Idées (Paris, 1924); and Roy H. Pearce, **The Savages of America: A Study of the Indian and the Idea of Civilization** (Baltimore, 1953).

إن الروايات القديمة عن سكان إفريقية البدائيين مبعثرة وموجزة بشكل عام، وتميل إلى التأكيد على ما هو غريب ومذهل ومشين في الثقافات والشعوب التي تتناولها، ومن ثم إلى التأكيد على الهوة التي تفصل بين العالم المتمدن والبدائي. وسبب هذه النزعة قلة المعلومات التي بنت عليها هذه الروايات أحكامها. فقد كانت المعلومات الكلاسيكية (القديمة) عن ذلك الجزء من إفريقية الذي يحاذي البحر المتوسط، والذي ازدهرت فيه الحضارتان المعروفتان، المصرية والقرطاجية، كافية، بينما كانت، بالنسبة لإفريقية البدائية، شحيحة تُنْتَقى على أساس الشعور بالتفوق والاستهجان، وتتميز بميل رواتها إلى الاستعاضة عن الحقائق بالتخيلات العدائية بشكل يتزايد طردياً مع بعدهم عما عرفوه من أجزاء القارة، إما عن طريق المشاهدة الشخصية أو عن طريق ما سمعوا من روايات غيرهم عنها. وهكذا نجد أن هيرودوت نفسه، وهو شيخ الجغرافيين الكلاسيكيين، يأتي، في معرض وصفه لسكان الصحراء الكبرى، إلى المناطق المجهولة في أقاصي ليبيا الغربية، حيث «توجد الأفاعي الضخمة والسباع.. والمخلوقاتُ العديمة الرأسِ التي يقول الليبيون إن أعينها تقع في صدورها، والرجالُ المتوحشون والنساء المتوحشات..»(*) أما ديودورس فيقول في سياق حديثه عن بعض البدائيين الإثيوبيين:

«لأكثرهم.. لون أسود وأنوف مفلطحة، وشعر يشبه الصوف. أما طبيعتهم فمتوحشة تمام التوحش تشبه طبيعة الحيوانات الضارية.. وهم أبعد ما يكونون عن الرأفة الانسانية فيما بينهم. وبما أنهم يتكلمون بأصوات حادة، ولا يتخذون

---

(*) **Herodotus, The History**. Translated and edited by George Rawlinson (London, 1910), I, p. 362. (Book II, Ch. 191).

عادات الحياة المتمدنة كما هي عند بقية الجنس البشري، فإنهم يتناقضون تمام التناقض مع ما نحن عليه»(*).

تمثل هذه الأقوال النغمة التي تتسم بها الأوصاف التي تتلو ذلك عند ديودورس تمثيلاً كافياً. فالقائمة الطويلة من الجماعات البدائية التي يتناولها (وهي الجماعات التي سكنت غالبيتها في المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر) هي، حسب قوله، جماعات غريبة، بائسة، يكاد يقضي عليها الجوع والخوف، تقتل مسنّيها ومرضاها، وتمارس المشاعية الجنسية.

الرأي الكلاسيكي العام إذن هو أن هذه الشعوب في مجاهل إفريقية وعلى سواحلها البعيدة لا تفتقر للمدنية فحسب، بل تفتقر أيضاً لأي معيار أخلاقي يتحكم في التنظيم الاجتماعي أو المسلك. إنها شعوب فوضوية، متهتكة، قاسية، تعيش حياة الحيوانات، لا حياة البشر. وفضلاً عن ذلك فإن الجماعات النائية من هذه الشعوب تعد في نظر الكثيرين مفتقرة حتى إلى الشكل الانساني السويّ. والاتجاه السائد في هذه الروايات يرى المدنية – خاصة المدنية اليونانية الرومانية – كنظام أساسي يفرض على فوضى الطبيعة. وبما أن الطبيعة – الطبيعة العمياء – تنزع، في غياب الضبط والتوجيه، نحو التوحّش، فإن الثقافة، في غياب المدنية، تنزع نحو الفوضى والإسراف. وهكذا نشأ في وقت مبكر نمطٌ من التفكير ظل لقرون عديدة تالية أساس النظرة إلى بدائيي إفريقية – تلك النظرة التي رأت الأفارقة لا كما كانوا وما ملكوا، بل كما لم يكونوا ولم يملكوا – أي رأت فيهم انعدام الانسانية والوحشية والافتقار إلى القانون الصحيح.

---

(*) Diodorus Siculus, (Works), trans. by C. H. Old father (London, 1935), II, pp. 103 - 105. (Book III. Ch. 8).

كانت إثيوبيا نفسها تعتبر بلداً متمدناً منذ القدم. ولذلك لن نتناول في هذه الدراسة الروايات التي تصف سكانها وثقافتها.

بدأ الاتصال الاوروبي المباشر والمستمر بإفريقية، فيما وراء ساحل البحر المتوسط، في القرن الخامس عشر، وتبدأ مع هذا الاتصال الكتابات التي تهم هذه الدراسة بالدرجة الأولى بالظهور(*). لكنّ الكتب التي وصلتنا من القرن الخامس عشر نفسه قليلة العدد، ومؤلفوها كلهم من البرتغاليين والايطاليين.

ولقد كان من المحتم أن يؤدي توسع الصلات الأوروبية الكبير مع إفريقية إلى ازدياد المعرفة بالمنطقة، وهي معرفة كانت في معظمها جغرافية الطابع. لكنها لم تخلُ من العناصر الخاصة بالشعوب الإفريقيّة وثقافاتها. وقد شهدت نهاية القرن ظهور خريطة لحدود القارة تشبه شكلها المعروف حالياً، واختفت وحوش التخيّلات الكلاسيكية في أغلبها من السواحل البعيدة، وحتى من المجاهل غير المستكشفة بعد. لكن الضغوط التي تسببها مدنية عدوانية كانت حتى في تلك الفترة قد بدأت برنامجاً طموحاً لاستغلال الغريب والبدائي أكثر من أي برنامج عُرف من قبل، ما تزال تفعل فعلها في تشكيل ما يراه الملاحظ وما يرويه، أي أن المشكلة «التمركز العرقي حول الذات» ما تزال قائمة.

أثر هذا التمركز حول الذات على هذه الروايات بأشكال مختلفة. فهو أولاً وقبل كل شيء يخلق التحامل على البدائي وثقافته، مما يؤدي إلى تشويه النظرة، كما أسلفنا. وهو ثانياً يؤدي إلى عدم الاكتراث بالبدائي وحضارته،

---

(*) لن نتناول هنا الروايات التي ترجع إلى القرون الوسطى، سواء منها العربية أو المسيحية، نظراً لضيق المجال. ومن الملاحظ أن غالبية الروايات العربية الخاصة بمناطق شمال إفريقية وبالشعوب التي تعيش فيما وراء حدود مراكز المدنية القديمة والمعروفة تعتمد على المعرفة المباشرة. ولذلك فهي أفضل بكثير من الروايات الكلاسيكية والمسيحية التي كتبت في زمانها. لكن هذه الروايات نتاج ثقافة نضالية النزعة في أوج توسّعها؛ لكنْ يعيب حتى أفضل هذه الروايات (رحلات ابن بطوطة مثلاً) الاستطراد واهتمامات كتّابها السياسية وأحكامهم الدينية.

بحيث لا يعطي الراوي من وقته وعنايته لهما إلا أقل القليل، وفي مقابل كل ظاهرة يقوم بوصفها، يتجاهل ظواهر أخرى كثيرة في متناول يد القائم بالملاحظة. وقد كانت خطايا التجاهل والاهمال هذه كامنة في نفس طبيعة كتب الرحلات في هذه الفترة المبكرة من فترات العصور الحديثة. وربما كانت أكثر دلالة من الأخطاء التي ارتكبها كاتبوها فيما وصفوه، لأن هذه أخطاء تسهل الاشارة إليها. كذلك يؤدي التحامل المتمركز حول الذات، من الناحية الثالثة، إلى الاستعداد الفوري للتوحيد ما بين الخلفية الثقافية المألوفة وبين كل شيء في الموقف الثقافي الجديد يتبين أنه شبيه بها إلى درجة كافية. وأغلب الظن أن هذا التوحيد، الذي لا يعني بالضرورة الرضا عن الخاصية التي هي موضوع البحث، ولا يعني بكل تأكيد الرضا عن سياقها الثقافي، هو نتيجة لعدم الاكتراث الذي ذكرناه بخصوص الثقافة الغربية.

أخيراً، فإن التمركز العرقي حول الذات، وهو بحد ذاته تقليد وعادة، يشجع على استمرار تقاليد وعادات أخرى في نقل الروايات، مادام يدفع المشاهد إلى تركيز اهتمامه، لا على ما يرى في الثقافة الغريبة عنه، بل على ما سمعه عنها داخل ثقافته هو. وهكذا تنشأ أنواعٌ معينةٌ من التحيز وموضوعات معينة تركز عليها الوصف بل وأشكال معينة من التعبير اللغوي تدوم لعدة قرون، وتضيف إلى انطباع الاستمرارية الذي تعطيه هذه الكتابات ثِقَلَ الاستشهادِ بأقوالٍ محددةٍ.

تحتوى أوصاف المؤسسات السياسية عند البدائيين الأفارقة التي تضمها روايات القرن الخامس عشر عناصر تَغيّر وثبات، لكنها تشكل في ذاتها تقليداً اتبعته الروايات التي تلتها في الزمن. فالبنية السياسية المعقدة في المجتمعات الزنجية في غرب إفريقية بشكل خاص كانت أوضح من أن يهملها المنشغلون بالمفاوضات التجارية في تلك المنطقة. وقد كان لابدّ من إهمال الصورة النمطية الكلاسيكية عن البدائي الذي لا قانون له في حالة تلك المجتمعات.

لكن تلك الصورة لم تستبدل بها صورة تفضلها بكثير لأن المؤسسات الإفريقية السياسية نُظرَ إليها من خلال مثيلاتها في أوروبا في تلك الفترة، بغض النظر عن الاختلافات القائمة ما بين قبيلة وأخرى. وهكذا تحدثنا تلك الروايات عن ملوك أفارقة، وطبقة نبلاء أفارقة، بل تحدثنا أيضاً عن أفارقة يحملون ألقاب دوق وكونت وفارس(*). لكن، من جهة أخرى ظل البدائيون الأفارقة المقيمون في المناطق النائية، خاصة منهم «العرب السُمر» في الصحراء، يوصفون في القرن الخامس عشر بأنهم لا يعرفون شيئاً عن النظام والقانون(**)، ولا يرى الكتّاب بين النقيضين السياسيين المتطرفين أية إمكانية لوجود تنويعات أخرى.

وفي روايات القرن الخامس عشر هذه تتردد بكثرة تهمة الحيوانية التي تميز البدائيين في كتابات الجغرافيين الكلاسيكيين، ويعتبر غياب المؤسسات الشكلية المعترف بها من وجهة النظر التقليدية، غياباً لعنصر أساسي من عناصر الانسانية، مما يؤدي إلى الحيوانية. فالمجتمع الذي يفتقر إلى القانون أو إلى معايير تنظم السلوك الجنسي أو الدين هو، من حيث افتقاده لكلٍ من هذه الأمور، مجتمع حيواني. وقد قيل عن عدة مجتمعات إفريقية، طوال قرون، إنها تفتقر إلى هذا الشكل أو ذاك من أمثال هذه المؤسسات الشكلية. فهذا رحالة يؤكد أن بعض الزنوج الذين يعيشون في منطقة لا يحددها

---

(*) See Gomes Eannes de Azurara, **The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea**, trans. by C. Beazley and E. Prestage (London: Hakluyt Society, 1896), I pp. 48, 281, 284.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن وضع رواية ما في قرنها يستند في هذه الدراسة على تاريخ الرحلة أو على تاريخ كتابتها أو عليهما معاً وليس على تاريخ نشرها لأول مرة.

(**) Ibid., II, p. 233; also Alvise da Cadamosto, **The Voyages of Cadamosto and Other Documents on Western Africa**, Trans. by G. R. Crone (London: Hakluyt Society, 1937), p. 54.

الرحالة ذاته بوضوح جنوب الصحراء «يمارسون الجنس كالحيوانات: الأب مع ابنته، والأخ مع أخته»(*) ويؤكد نفس الرحالة أن أولئك الزنوج «يأكلون اللحم البشري»(**) وهي عادة تعتبر، تقليدياً، عادة حيوانية أيضاً. وقد كانت كل غرابةٍ في الملبس أو المأكل أو المسلك تجرح الأحاسيس الأوروبية تستخدم لرسم صورة الحيوانية الإفريقية هذه(***).

ويمثل الاقتباس التالي هذا الموضوع تمثيلاً جيداً: وسياق الكلام هو أن الكاتب يحاول تبرير اتّجار البرتغاليين بالرقيق (وهي تجارة كانت تعتمد في سنواتها الأولى على الإغارة من أجل اقتناص السود)، فتكلم أولاً عن الوضع «السعيد» الذي وجد الأفارقة المخطوفون أنفسهم فيه بعد أن غدوا رقيقاً في البرتغال:

«وهكذا غدا وضعُهم عكسَ ما كان عليه، لأنهم كانوا في السابق يعيشون في حالةٍ لا رجاء فيها للروح أو الجسد: للروح لأنهم كانوا وثنيين مقطوعين عن صفاء الدين المقدس ونوره؛ لأنهم كانوا يعيشون كالحيوانات لا تنظم حياتهم عادة من عادات العقلاء، ولم يكونوا يعرفون الخبز أو الخمر، ولا تغطي أجسادهم الملابس، ولا تؤويهم البيوت. والأسوأ من كل ذلك أنهم، بسبب ما كان يستبد بهم من جهل، لم يكونوا يعرفون الخير، ولا يعرفون إلا العيش في خمول بهيمي»(****).

---

(*) Antoine Malfante, «The Letter of Antoine Malfante from That, 1447», in Cadamosto, op. cit., p. 89.

(**) Ibid.

(***) هناك إشارات عن بعض العادات الإفريقية في المأكل والملبس بوصفها عادات «حيوانية» في كتاب أزورارا المشار إليه، الجزء الثاني، ص ٢٣١ - ٢٣٢، وكتاب كاداموستو المذكور، ص ٤١.

(****) Azurara, op. cit. I, pp. 84 - 85.

يبرز هذا الاقتباس قضية أثر المسيحية على النظرة المتمدّنة للبدائي، وعلى القضية التي تهمّ هذا البحث، ألا وهي قضية التمركز العرقي حول الذات. فقد استعاضت المسيحية عن الفصل الكلاسيكي بين الإغريق والبرابرة بمعيارٍ أكثر كرماً وأشد مرونة لتقسيم البشرية، هو معيار الإيمان الذي كان أتباعها يحاولون نشره دائماً. ومع ذلك فإن الطبيعة التبشيرية للمسيحية، مثلها مثل النظرة الإغريقية التي تستبعد كل ما هو غير إغريقي من دائرتها، لا تشكل أساساً يشجع على الاهتمام المتعاطف أو الموضوعي بصفات الانسان أو ثقافته إن كانت تلك الصفات خارج الدائرة الدينية.

وهكذا نجد أن الأحكام الصادرة عن كلتا النظرتين تتفق في عدم رضاها عن طريقة الحياة البدائية. فالطبيعة الفجة، الطبيعة «الساقطة» التي تمثل[1] بالنسبة للإغريقي الفوضى، هي عند المسيحي أسوأ: إنها الخطيئة. أضف إلى ذلك أن الديانة لم تُلْغِ النظم الهرمية القديمة القائمة على الجنس، أو القومية، أو الطبقية، أو المكانة الوظيفية، بل تعاونت مع تلك النظم الهرمية، وفي أغلب الأحيان دعمتها بدلاً من أن تضعفها رغم أنها أدخلت الفكرة المعقدة التي تقول بامكانية إعادة ترتيب العلاقات البشرية في مجتمع عالم آخر. كذلك نجد أن الاقتباس السابق يشير إلى إمكانية خلاص كل النفوس التي تقبل التعاليم المسيحية الصحيحة رغم الاختلافات الجسمانية. لكن هل يقلل ذلك من تحيز الكاتب؟ إنه، على العكس، يمكّنه من امتداح أفعال كاختطاف المستضعفين) كانت في نظر الكلاسيكيين مفيدة أو ناجعة، باسباغ صفة الفضيلة عليها.

كذلك تهيء الديانة، أو الإطار الديني العام الذي يجري الحديث ضمنه، جوّ الأحكام الأخلاقية الذى يسود أدب الرحلات هذا. فمهما روى

(١) عرض تاريخي مترجم.

عن شعب من شعوب إفريقية لابد من أن تصاحب هذه الرواية أقوال عن «خصال» هذا الشعب. وهذه الأقوال هي، في العادة، قائمة بالمساوئ، رغم أن الكاتب قد يعترف بفضيلة هنا وفضيلة هناك. والسيئة التي تذكر أكثر من غيرها هي اللصوصية(*)، بينما تذكر فضيلة حسن الضيافة أكثر من غيرها من الفضائل(**). والمبدأ الموجه للاختيار هو، في كلتا الحالتين، التحيز المتمركز حول الذات. فالراوي ينظر إلى الأفارقة لا من زاوية الكيفية التي يتعاملون بها فيما بينهم، بل من زاوية الكيفية التي يتعاملون بها مع الأوروبيين.

كذلك خضعت الصفات الجسمانية للبدائيين الأفارقة لهذه النظرة الضيقة، وقيست عادة بمقياس المعيار الجمالي المأخوذ من النمط القفقاسي الأوروبي. فاعتبرت الصفات الجسمانية التي يتميز بها الزنجي، كالشفتين الغليظتين والجلد الأسود، قبيحة دائماً. وكلما قلّت زنجية الزنجي قلّ قبحه، وما يلفت النظر في هذا الحكم طبيعته المطلقة، فهو يطلق دون أدنى وعي بنسبيته. لا بل إن هذا الحكم الجمالي يتخذ مع مضي الزمن صفة الحكم الأخلاقي أيضاً. فبعد أن استعيض عن التفسير التقليدي للون الزنجي عن طريق الظروف المناخية، بتفسير وراثي، وهو ما حدث في هذه الروايات

---

(*) See Cadamosto, op. cit., p. 19.

(**) نفس المصدر، ص ٣٣. كان الاستقبال المبدئي للدخلاء الأوروبيين من قبل الشعوب الإفريقية ودياً في كل الحالات تقريباً. وكان السكان في إحدى البقاع الواقعة جنوب شرق الساحل الإفريقي الذي رست عنده سفن «داغاما» في أول حملة لها فترة من الوقت من حسن المعشر بحيث جعلوا البرتغاليين يدعون ذلك القطر Terrado Boâ Gente (أي بلد الطيبين). انظر:

**A Journal of the First Voyage of Vasco da Gama, 1497 - 1499** trans, and ed. by E. G. Ravenstein (London: Hakluyt Society, 1897), pp. 17 - 18.

خلال القرن السادس عشر(*)، أصبح التبرير الذي يقدم عادة هو انتساب الزنوج المزعوم لحام، الابن من أبناء نوح. وهذا ما جعل لون الزنجي الأسود مكروهاً لا من الناحية الجمالية فقط، بل لأنه صار رمزاً لوصمة أخلاقية ونتيجة لها أيضاً(**).

ومما يلفت النظر أيضاً في هذه الروايات ميلها للنظر إلى ثقافة البدائي الإفريقي باعتبارها مفتقرة تماماً إلى المهارات والمصادر المادية، واتخاذ أية إشارة إلى الثقافة المادية أساساً للمقارنة المغرضة مع منجزات المدنية الغربية(***). وفي هذا المجال تختلط الحقائق بالتحيزات أكثر من اختلاطها بها في معظم مجالات المقارنة. لكن طبيعة التحيز هنا تمنع الملاحظة الكافية أو الوصف الكافي لما يمكن ملاحظته، لأنها تركز على غياب الخصائص الثقافية بالدرجة الأولى، لا على وجودها.

إن بحثاً كبحثنا هذا لا مفر له من أن يركز على ما هو «خطأ» في الروايات التي يدرسها بدلاً مما هو «صحيح». لكن قولنا إن هذه الروايات المبكرة لا تفي بالغرض مهما تكن وجهة النظر، لا يعني أنها لا تحتوي على

---

(*) ظلت النظرية المناخية موجودة عند مالفانتي في المصدر المذكور، ص ٨٦. أما بالنسبة للنظرية البيولوجية في القرن السادس عشر فانظر:

Duarte Lopez, **A Report of the Kingdom of Congo and the Surrounding Countries,** trans. by Margarite hutchins on from the Italian account of Philip Pigafetta (London, 1881) pp. 16 - 17.

(**) See Father Jerom [Girolamo] Merolla da Sorrento, «A Voyage to Congo, in John Pinkerton A General Collection of... Voyages and Travels... (London, 1808 - 1814), XVI, p. 267.

(***) كاداموستو، المصدر المذكور، ص ٣١.

قدر كبير من المعلومات الصحيحة كان ينمو باطراد حول الثقافات التي تصفها. كذلك لابدّ من أن نأخذ بنظر الاعتبار الصعوبة البالغة في الاتصال بشعوب هذه القارة الكبيرة التي كانت صعبة المنال من قبل، وفي التعرّف عليها ولو سطحياً. فالصعوبات الكامنة في الالتقاء بهذا العدد الكبير من الثقافات الجديدة واللغات الغريبة، وبمثل تلك السرعة النسبية، لابدّ أن تشفع للكثيرين. لكن لا يفيد كل ذلك في تفسير حقيقية هامة، هي أنه بينما أمكن بحلول نهاية القرن الخامس عشر رسم خريطة عامة دقيقة لإفريقيا، لم يكن هناك وصف يماثل ذلك في دقته، للثقافات الإفريقية البدائية، ولم يُقدّر لهذا الوصف أن يظهر بعد مضي وقت طويل جداً من ذلك العصر. ففي الحقل الأول واكبت المعرفةُ التجريبيةَ، أما في الحقل الثاني فقد عملت العوامل العدائية على إطالة أمد الجهل.

ظلت الروايات الخاصة بالصلات مع إفريقية البدائية في القرن السادس عشر قليلة العدد، لكنها لم تعد وقفاً على اللغتين الايطالية والبرتغالية، رغم أن أكثرها كتب بهما. فقد أغرى الاهتمام المتزايد بالتجارة الإفريقية أقواماً أخرى، خاصة الإنكليز، بالاسهام في هذه الروايات أحياناً.

كذلك ظل مضمون هذه الروايات والروح السائدة فيها كما كانا في القرن السابق. إذ بقيت البيئة السياسية في غرب إفريقية توصف باستعمال مصطلحات الملوك والنبلاء، كما يرد ذكر دكتاتورين زنوج في شرق إفريقية وذكر امبراطور "لمونو موتابا" له بلاط باذخ، ويملك أموالاً طائلة، ويحتفظ بين أشجع مؤيديه المسلحين، بكتيبة من النساء الأمازونيات(*). أما البدائيون

(*) See Duarte Barbosa, **The Book of Duarte Barbosa. An Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and Their Inhabitants,** Trans.

-/-

الأفارقة الذين لا يبلغون هذه الدرجة من التنظيم فظلوا يوصفون بأنهم لا يحكمهم قانون، ولا يؤمنون بدين، وتسود بينهم المشاعية الجنسية، ويعيشون «كالحيوانات الضارية»(*). كما أن تهمة أكل لحوم البشر كثيراً ما تتردد، وتكتسب من التفاصيل ما يبعدها عن عالم الواقع إلى عالم التشنيع. يقول أحد الكتاب إن هناك شعباً من زنوج أواسط القارة سمع عنه «أن عنده مسلخاً للحوم البشر مثل مسالخ الحيوانات عندنا، وأنهم لا يأكلون أجساد أعدائهم المأسورين فقط، بل أجساد «أصدقائهم، ورعاياهم، بل وحتى أقاربهم»(**)، وهذا وصف غدا مبتذلاً في كتب الرحلات الإفريقية.

لكن تظهر في روايات القرن السادس عشر إضافة أيديولوجية واحدة، ذلك أن زنوج الساحل في غرب إفريقية على الأقل كانوا في ذلك الوقت قد تعرضوا للتأثيرات التمدنية القادمة من الغرب. ولذلك كان بوسع الكتّاب الغربيين أن يوثقوا شعورهم بالرضا عن النفس بسبب تفوق ثقافتهم على الثقافة البدائية، عن طريق الاستشهاد بأمثلةٍ عن تحسُّن عادات الزنوج تحت تأثير القدوة الأوروبية(***).

---

= Trans. by M. L. Dames (London: Hakluyt Society, 1918), I, pp. 12 - 13.

يرد ذكر الأمازونيات الخرافيات في شرق إفريقية عدة مرات في روايات القرنين السادس عشر والسابععشر أما المجندات اللواتي كنّ بالفعل جزءاً من حاشية حكام داهومي فلا يرد ذكرهن إلا في القرن الثامن عشر.

(*) نفس المصدر، ص ١٦، وكذلك كتاب ديوارتي لوبث المذكور، ص ١٢٥.

(**) ديوارتي لوبث، المصدر المذكور، ص ٢٨ - ٢٩. يمارس أكل لحوم البشر، أو كان يمارس من قبل بعض الشعوب الإفريقية. لكنه كان محصوراً في المناسبات الاحتفالية تماماً تقريباً. ويبدو أن اللحم البشري لم يكن مادة طعام شائعة كما كان يتصور أوائل الرحالة، فيما عدا بعض الاستثناءات الممكنة.

(***) المصدر المذكور، ص ٧٢. وانظر:

João de Baros, «Extracts from the 'Decadas daIndia',» Cadamosto, op. cit., pp. 107 - 108.

=/=

أما القرن السابع عشر فقد شهد ازدياداً ملحوظاً في عدد الكتب الخاصة بالرحلات إلى إفريقية البدائية، وفي عدد الجنسيات التي كان ينتمي إليها الكتّاب. وكان جنوب القارة في هذا القرن هو المنطقة التي أخذ الاستعمار الاوروبي يركز أقدامه فيها، ولذلك ظهر للعيان شعبان لم يكونا معروفين من قبل، هما شعبا البشمان [رجال الأدغال] والهوتنتوت.

والصفة الغالبة على روايات القرن السابع عشر هي أنها تمثل مرحلة انتقالية ما بين موقفٍ محددٍ موروثٍ من الماضي (تمثله روايات القرنين الخامس عشر والسادس عشر)، وموقفٍ لا يقل عنه تحديداً، وإن كان مختلفاً تمام الاختلاف، ينتمي للمستقبل (تمثله روايات القرن الثامن عشر). لكن أوضح المميزات التي تطالعنا في هذه الروايات سيطرة الماضي على المواقف الحاضرة. إذ يكتمل فيها رسم صورة الإفريقي السلبية(*)، ويشيع فيها الرأي القائل إن شخصية البدائي الإفريقي وعاداته تتحسّن بالاتصال بالأوروبيين. كذلك يستمر في هذه الروايات الميل إلى الضنِ على بعض الثقافات الإفريقية البدائية بالاعتراف بأنها تملك هذا الشكل أو ذاك من المؤسسات. وأكثر ما

- يعزو ليو أفْرِكانس (ليون الإفريقي)، وهو عربيٌ وُلِدَ في مراكش، في كتاب له عن رحلاته في شمال إفريقية في القرن السادس عشر، سبب ذلك التحسُّن الذي طرأ على طرق الحياة الوحشية التي كان يتبعها الأفارقة البدائيون الذين شاهدهم إلى انتشار التأثير الاسلامي. انظر:

Leo Africanus, History and Description of Africa, Trans. by John Pory (London: Hakluyt Society, 1896), III, p. 820.

(*) See Jacques Joseph Le Marie, **A Voyage of the Sieur Le Marie to The Canary Islands, Cape Verd, Senegal and Gamby** (London, 1696; trans. from the French original), pp. 79 - 82; and William Bosman, **A New Description of the coast of Guinea** (London, 1705; trans. from the Dutch original), p. 117.

يُنكر وجوده لدى الثقافات الإفريقية هو الدين. وهكذا تقول احدى الروايات المتحاملة بشدة ضد الثقافة الهوتنتوتية إن هذا الشعب البسيط قريبٌ جداً من النمط الأصلي للبدائي الحيواني. فيقول الكاتب: «إن هؤلاء البرابرة الذين لا يردعهم قانون والوثنيين اللاأخلاقيين لا يمارسون إلا تلك العادات التي تدفعهم لها الغرائز العمياء دفعاً لا يُقاوَم»(*). لكن أجرأ أشكال هذا المفهوم نجدها لا في الروايات التي تُعزى لرحالة معروفين، بل في شكلٍ أحطّ من أشكال أدب الرحلات، ألا وهي ملخّصات رحلات الآخرين. يخبرنا ملخّص من هذا النوع مثلاً عن «كفّارٍ أو منحلين يؤمنون بالعديد من المبادئ الالحادية، ويعيشون مع بعضهم عيشة إباحية.. ويجرون وراء.. شهواتهم التي لا يكبح جماحها كابح..»(**).

ونلتقي هنا مرة ثانية أيضاً بذلك المفهوم الذي يعود للقرن الخامس عشر والخاص بوجود نظامين سياسيين بين البدائيين الأفارقة:

«أما الحكومات فلا يعرفونها ولا سمعوا بها، فهم يعيشون في حالة الفوضى، ويقادون في كل المناسبات كالقطعان الهادرة، ويهدأون أحياناً كالماشية وهي تتناول طعامها،

(*) Willem ten Rhyne, «A Short Account of the Cape of good hope» (trans. from the Latin original) in Isaac Schapera, **The Early Caps Hottentos, Deseribed in the Writings of Olfert Dapper (1668), Willem ten Rhyne (1686), and Johannes Gulielmus de Gravenbroek (1695), (Cape Town, 1933), p. 127.**

(**) John Ogilby, Africa (London, 1970), p. 34.

ويبدو أن هذا الكتاب في معظمه ترجمة لكتاب أولفرتْ دابر:

Beschreibung Van Africa und den gehörigen Königreichen und Landschaften (Amsterdam, 1670).

ويجرون وراء ملذّاتهم العابثة. أما البقية فكلهم ملكيون يعيشون في ظل القوانين والنظام والأمراء»(*).

لكن بعض العناصر الجديدة في هذه الروايات تستحق التنويه، رغم أن ضيق الأفق الثقافي والتحيز السلبي يظلان السمتين الغالبتين على روايات القرن السابع عشر. فهي، بشكل عام، تفيد كمصدر للمعلومات أكثر بكثير من سابقاتها، وتميل إلى أن تكون أطول، وأكمل، وأكثر اهتماماً بالأمور الثقافية. وهذه التحسينات مردّها – جزئياً – إلى زيادة المعلومات الخاصة بالثقافات الإفريقية، التي كانت نتيجة طبيعية لتوسيع الصلات بالأفارقة وتكرارها. لكن كانت هناك أفكار ومؤثرات جديدة أيضاً. فقد ظهر بين الرحالة وعيٌ يتنامى بأنهم كانوا يساهمون في إغناء نوعٍ أدبيٍ معين، فأخذوا يعنون بفنهم ويحسّون بالمسؤولية تجاه المعايير التي وضعوها لأنفسهم أثناء القيام بمهماتهم، وذلك بشكل يليق بقرنٍ شهدت فيه أوروبا ازدياداً هائلاً في الاهتمام بأدب الرحلات. لقد صار بعض الرحالة في القرن السابع عشر حريصين على أن يتخذوا لأنفسهم معيارين يوجهان رواياتهم، هما: أن يكونوا شهود عيانٍ لما يروون من حقائق، وأن يصدقوا فيما يروون عنها – وهذان معياران لم يكونا يشغلان بال كتّاب القرون السابقة(**).

على أن هناك رواية واحدة من روايات هذا القرن تختلف اختلافاً شديداً عن كل اتجاهات الماضي، وتشقُّ درباً جديدة إلى الثقافة الإفريقية البدائية، ألا وهي الرواية التي كتبها "غرافنبروك"، أول منافحٍ عن سكان جنوب إفريقية الأصليين أمام العالم. ويبين الاقتباس التالي من روايته (التي كتبها

---

(*) نفس المصدر، ص ٣١٨.

(**) انظر: بسمن، المصدر المذكور، المقدمة.

على شكل رسالةٍ طويلةٍ إلى صديقٍ أوروبي، مما جعلها تفتقر نوعاً ما إلى التنظيم) الطبيعة الثورية لنظرته بشكلٍ كافٍ :

«يدهشني أن تكون.. أنصاف الحقائق التي تنشر عن أفارقتنا قد وصلت أسماعك أنت أيضاً. لقد وجدت هذا الشعب يعيش حياة انسجام تام.. في حياته اليومية، وفي انسجام تام مع قانون الطبيعة، مضيافاً لأبناء كل الشعوب الأخرى، صريحاً، يُعْتَمَدُ عليه، محباً للحقيقة والعدالة، يمارس نوعاً من أنواع العبادة، سريع البديهة، متفتّح الذهن.. وكانت سيئات أبناء جلدتنا.. هي التي غيّرته نحو الأسوأ.. فتعلم منا جرائم لم يكن يعرفها من قبل، ومن أبشعها الشهوة الملعونة لجمع المال».

والحقيقة الهامة حول هذه العبارة الرائعة هي أن رواية غرافنبروك، رغم وضعها على شكل رسالة عابرة، هي قطعاً احدى أفضل روايتين أو ثلاث ظهرت في ذلك القرن.

نأتي إذن، مع نهاية القرن السابع عشر، إلى مبدأين جديدين أخذا يؤثران على من يكتبون حول الثقافة الإفريقية: الأول هو التأكيد على مسؤولية الرحالة في التثبت من صحة رواياتهم عن طريق المشاهدة العيانية كلما أمكن، والثاني هو الرأي الجديد تماماً والداعي إلى النظر إلى حياة البدائيين وعاداتهم من زاوية قيمها الايجابية وفضائلها.

في القرن الثامن عشر فاقت كتب الرحلات الإفريقية ما كتب في أية فترة سابقة من حيث عددها، وتنوع جنسيات كاتبيها، واهتماماتهم، ودراستهم، ومهنهم. فقد كان منهم المبشرون، والتجار، والموظفون، كما في الماضي، ولكن أضيفت لهم أعداد من أنواع أخرى من الرجال، رجالٍ أتوا إلى إفريقية للاستكشاف والملاحظة، معتمدين على حصيلة عظيمة من الفكر

الفلسفي والعلمي السائد في زمانهم. والروح الجديدة تظهر على أوضح ما تكون في روايات هذا النوع من الرجال، من أمثال ثَنْبرغ Thunberg، وشبارمان Sparman، ولفويان Le Vaillant، وبروس Bruce، ومنغو بارك Mungo Park، وسواهم، وهي روح لم تكد تظهر في روايات القرن السابع عشر. وقد كان لتلك الروح الجديدة من القوة والقدرة على الاقناع ما جعلها تشيع في معظم روايات القرن الثامن عشر عن الرحلات إلى إفريقية البدائية.

ينحو العنصران اللذان يميزان هذه الروح - الاهتمام بصحة الرواية والتعاطف مع البدائي وثقافته بشكل لا سابقة له - إلى دعم بعضهما لبعض وإلى العمل معاً على استثارة النقد الفعّال للأخطاء والتحيزات السابقة، وهو ما نجده بكثرة في روايات القرن الثامن عشر. كانت أخطاء الجغرافيين الكلاسيكيين قد كشفها الكتّاب السابقون، لكن لم يصبح انتقاد نواقص الروايات الماضية بمثل ذلك الشمول والاتساق والتعمق إلا في هذا القرن. ويتكرر في هذه الروايات ظهور الأفكار الخاصة بتفوق «الرجل الجديد» على المسرح الإفريقي في جمع المعلومات ونقلها أي تفوق المستكشف، أو دارس التاريخ الطبيعي على التاجر، أو الغازي، أو المبشر الذي كان، حتى ذلك الوقت، يحتكر ذلك الحقل رغم ميله الشديد للمبالغة والكذب، واعتماده الشديد على السماع، عدوّ الحقيقة اللدود.

ظهرت إذن أنماط جديدة من أنماط الوصف بعد إزاحة أنقاض الأخطاء القديمة جانباً. وأعيد بناء «شخصية» البدائي الإفريقي، وأضيفت فضائل أخرى إلى فضيلته التقليدية التي ظلت الوحيدة في بحر من الرزائل - ألا وهي فضيلة حسن الضيافة - فضائل مثل الاستعداد لمشاركة الغير فيما يملك، وتأكيده على تساوي كل أعضاء المجموعة في أوقات الوفرة

والمجاعات(*). وهذه كلها نظرات نافذة ليس مردها إلى الاهتمام بالعلاقات بين الأفارقة والأوروبيين فقط بل إلى الاهتمام بالعلاقات القائمة بين الأفارقة أنفسهم. بل إن الرذيلة التقليدية التي وصم بها البدائي الإفريقي، وهي ميله للسرقة من الأوروبيين، فُسرتْ بأن سببها هو غنى الرحالة الأوروبي الفاحش بالنسبة للإفريقي، وكون الأوروبي يقع خارج القواعد التي تنظم الوحدة القبلية، وقوة الإغراء الناتج عن ذلك الوضع الذي يتعرض له ابن البلد(**). أما تهمة أكل لحوم البشر فلم تعد تلعب دوراً بارزاً في الروايات، بينما اختفت قصة المسالخ البشرية(***). لكن هذا لا يعني أن البدائي الإفريقي تحوّل إلى قديس. إذ أنه ظل يحتفظ بنصيبه من الرذائل والحماقات غير أن الرحالة العاديّ في القرن الثامن عشر صار يرى ثقافته هو أيضاً كثقافة لا تنقصها الرذائل والحماقات. صار ينظر إلى نفسه ويقول:

«نحن الغربيين – عندنا من الأفكار والعادات السخيفة ما لا يقل عما عند وطنيي غينيا، إن لم يكن أكثر»(****).

---

(*) See Peter Kolben, **The Present State of th Cape of Good Hope** (London, 1731; trans. from the German original)., p. 165.

(**) Mungo Park, «Travels», in Pinkerton op. cit., XVI, p. 871.

(***) يقول كاتبان من القرن الثامن عشر إن كل الروايات الخاصة بأكل لحوم البشر في إفريقية كانت تعتمد على السماع، وينكران بشدة وجود مثل تلك العادة.. انظر:
**John Atkins, A voygate to Guinea, Brasil and the West Indies** (London, 1735), Preface; and Thomas Winterbottom, **Nachrichten Von der Sierraleona-Kuste und ihren Bewohnern**, aus dem Englischen... herausgegeben Van T. F. Ehrmann (Weimar, 1805), pp. 218 - 219. (Translation of Winterbottom's **An Account of the Native Africans in the Neighborhood of Sierra Leone** [London, 1803]).

(****) William Smith [FL. 1726], **A New Voyage to uinea** (London 1744), p. 267.

فما الذي حدث للأوصاف المعتادة للمؤسسات الإفريقية في هذا الجوّ الفكري الجديد؟ اختفت صورة المجتمع المتهتّك الذي لا يخضع لقانون مع اختفاء صورة البدائي الإفريقي الذي يحيا حياة الحيوانات. وأخذ الكتاب يدركون عمومية النظم التي تتحكم بالسلوك الجنسي. وأُخذوا يتحرّون الدقة في وصفهم للنظام الاجتماعي أو السياسي، سواء في «ممالك» الساحل الغربي، أو في «الجمهوريات الحرة»، أو في «القبائل المستقلة» في بقية أنحاء إفريقية. وانتقل الاهتمام والتفضيل بشكل عام، من الممالك إلى الجمهوريات والقبائل. ومع أن بعض روايات القرن الثامن عشر قد تصف بعض الجماعات الإفريقية بأنها لا دين لها(*). فإن الاتجاه العام هو نحو الاعتراف بوجود معتقدات دينية للشعوب الإفريقية، ونحو التأكيد أكثر من الماضي بأنها توصلت إلى نوعٍ من الإيمان بإله واحد. ولم يقتصر رحالة القرن الثامن عشر على قبول مؤسسات البدائي الإفريقي وعاداته بتسامح، بل أخذوا يعاملونها كنماذج تستحق الاعجاب والتقليد من قبل العالم المتمدن، ذلك أن «المتوحش النبيل» صار أحد أبطال هذه الروايات الجديدة. ومع أننا لن نتمكن هنا من استقصاء طبيعة الأفكار التي تكمن خلف هذه الصورة أو تاريخها، ففي استطاعتنا القول إنها تضم عنصرين على الأقل: الأول هو الاستياء الواضح من نواقص المدنية الغربية ومظالمها، والثاني هو الاستشهاد بجماعة بدائية حقيقية أو بثقافتها كمثالٍ على إصلاح ممكن أو علاج(**). أما صفات

---

(*) Andrew Sparrman, **A Voyage to the Cape of Good Hope.. 1772 - 1776** (London, 1786; translated from the Swedish original), I, p. 207.

(**) أول ما تظهر فكرة «المتوحش النبيل» بشكلها المتطور في مقالة من مقالات مونتاني، رغم وجود ارهاصات بها في تعليقات متناثرة هنا وهناك، كما عند تاكيتس. ورغم ما هناك من شبه ظاهري بين هذه الفكرة وفكرة العصر الذهبي، فإن الفكرتين مختلفتان.

-/-

الشخصية الإفريقية البدائية التي تصلح للاختيار فهي حسن ضيافته، وحبه لرفاقه، ومشاركته اياهم فيما يملك، وانعدام الحسد والجشع عنده. وبالمثل فإن صفات المجتمع الإفريقي البدائي التي تدعو للمديح أيضاً هي حريته ومساواته، واستجابته لحاجات كل أعضائه ورغباتهم. كذلك نقرأ كثيراً عن انعدام القيود والتحريمات التي تقف عقبة في مجرى الحياة الطبيعي في المجتمع المتمدن.

وعلى أساس هذه النظرة إلى البدائي الإفريقي، يتوقع المرء أن تصبح التهمة التي لم يرد لها ذكْر في الروايات القديمة، وأعني بها أن الصلات مع الثقافة الأوروبية تفسد ولا تنفع، هي الرأي السائد في روايات القرن الثامن عشر. وهذا هو ما حصل بالفعل. فكل ما فعله الأوروبيون في إفريقية من غزوٍ واتّجار واستعمار أخذ يوضع على المحكّ للتحليل والمهاجمة. وصارت كل الروايات المهمة عن الرحلات إلى جنوب إفريقية خلال هذا القرن تضمّ فقرات تنتقد السياسة الاستعمارية. ولم تعد تجارة الرقيق مجرد أمر واقع، بل أصبحت موضوعاً للجدل، وأخذ العديد من الكتاب يدعون إلى إلغائها، وصار لزاماً حتى على مؤيديها أن يجدوا لها تبريراً جديداً أكثر إقناعاً.

- صحيح أن فكرة العصر الذهبي تبدأ بالتعبير عن عدم الرضا عن القيود التي تفرضها احدى المدنيات وعما تسببه من توترات، ودغدغة العواطف الخاصة بالمساواة والحرية، إلاّ أنها تدعو إلى تأمل أرض خيالية لا وجود لها تقبع في ماضي المدنية السحيق، بدلاً من تشجيع الاعجاب بمجتمع بدائي موجود (فالأغلب أنها تصب عليه جام ازدرائها). ويصور شكسبير الهوة التي تفصل بين المفهومين بشكل بديع في مسرحيته العاصفة التي تصف سفينةً تتحطم قرب جزيرة، وتمثل رومانسية الحياة في الأرض اليباب. ففي هذه المسرحية يشير غونزالو، المستشار النبيل الذي أعياه العالم الشرّير الذي عاش فيه، إلى عصرٍ ذهبيّ كان فيه المجتمع بلا ملكية خاصة، وبلا فروق طبقية، وبلا تسلّط استبدادي، أي أنه مجتمع يشبه المجتمع الرواقي ذا الطبيعة المثلى، أو جنة عدن المسيحية. لكن كالِبنْ Caliban، الوحش الذي يظهر، رغم وصف شكسبير المتعاطف معه، على شكل شخصية حيوانية الجسد فاسدة الروح، هو البدائي الحقيقي في نظر شكسبير وغالبية معاصريه.

لكن لابدّ من الاعتراف بأن كل تلك الشبكة من الدوافع التي جندت للدفاع عن البدائي وتمجيده – خاصة منها ما تعلق بفكرة المتوحش النبيل – كانت بحد ذاتها نوعاً من التحيز، بل نوعاً من التمركز العرقي حول الذات ينشأ عن دينامية تفعل فعلها في بيئة الرحالة الأصلية، ويُعد في جوهره خارجاً عن المعلومات التي يلاحظها. أنها رومانسية قد تؤدي، وكثيراً ما أدت في حالاتها المتطرفة، إلى تشويه الواقع(*). لكن تظل هذه الأخطاء التي يمكن جمعها نتيجة لهذا التحيز الايجابي لصالح البدائي الإفريقي شيئاً لا يُذكر إلى جانب الأخطاء التي لا تحصى، سواء منها أخطاء الارتكاب أو أخطاء الاجتناب، والتي جاءت نتيجة للتحيز السلبي السابق.

ولابدّ أن نذكر أيضاً أن مفهوم «المتوحش النبيل» ظهر في نفس الفترة التي ظهرت فيها فكرة التقدم، وجاء حصيلة لكثير من المؤشرات التي أدت إليها. وقد كان هدفها الحقيقي تأكيد تفوق البدائية ككل على المدنية ككل، لا من أجل العودة بالمدنية إلى حالة البدائية، بل من أجل التخلص من بعض المساوئ أو إصلاحها عن طريق الدعوة إلى مفاهيم جديدة عن الحق الطبيعي من جهة، والاستشهاد بحقائق الحياة البدائية المجسدة من جهة أخرى. كان الهدف – كما قلنا – هو إزالة بعض المساوئ التي دخلت إلى المجتمع المتمدن وعرقلت نموه المطرد، أو إصلاحها. فصار مفهوم «المتوحش النبيل»، من زاوية الوظائف التي طلب منه أن يؤديها، عوناً، لا عقبة، في سبيل تقدم المعرفة عن البدائيين. ربما ظل مفهوماً متحيزاً، وربما

(*) Francois le Vaillant, **Travels from the Caps of Good Hope into the Interior Parts of Africa** (London, 1790; translated from the French original); and **New Travels into th Interior Parts of Africa** (London, 1796; Translated from the French original).

احتفظ بقدرته على التشويه؛ ولكن هذا التحيز الجديد أتى بحافز جديد للذهاب والمشاهدة العيانية، بينما أدت التحيزات السابقة إلى حجب المعرفة الحقة عن الثقافة البدائية.

لكن روايات القرن الثامن عشر - حتى في أحسن حالاتها - محدودة فَجَّةٌ بالمقارنة مع مستويات البحث الأنثروبولوجي المعاصر. وعندما تكون المقارنة مع شخص مثل هرسكوفتز أو "شابيرا سيبدو" حتى "شبارمان" أخرقَ لا رجاء منه في حقل المعلومات الثقافية. فهذه الروايات مثقلة قبل كل شيء بالمعلومات النباتية والحيوانية والجغرافية. وبقدر ما يوجد في روايات القرن الثامن عشر من ملاحظات على مستوى علمي حقيقي، نجد هذه الملاحظات متعلقة بالمعطيات الفيزيائية، والبيولوجية أكثر بكثير مما تتعلق بالمعطيات الثقافية أو الانسانية. وفضلاً عن ذلك فإن المعطيات الثقافية ظلت أسيرة التقييد الزائد بمشكلات الحكم الاخلاقي. والواقع أن أي حكم، سواء أكان إيجابياً أم سلبياً، يؤكد التمركز حول الذات ومن شأنه أن يهين كبرياء الثقافات البدائية برفضه إعطاءها حق الوجود وقابلية الدراسة بمعزل عن النظم التقويمية. فإذا جاز أن نقول عن مفهوم «المتوحش النبيل» إنه كان مدخلاً إلى الموضوعية، فإنه لم يكن الموضوعية ذاتها.

أما إذا شئنا مقارنة روايات القرن الثامن عشر بما كتب قبلها فسنلاحظ تغيراً جوهرياً. إذ حصل توسع حاسم في الاهتمامات الانسانية وفي القدرة على التعاطف والفهم. وتحقق تقدم حقيقي باتجاه فهم أكمل للانسان وثقافته. ولست أعرف مجموعة أخرى من المعلومات تفرض على المرء مثل هذا القدر من الاعجاب الشديد والمباشر بالروعة الفكرية والأخلاقية التي تميز بها القرن الثامن عشر.

# القبليون في التاريخ والأنثروبولوجيا(*)

كان هناك، قبل مدة ليست بالطويلة، عالَمان: بدائي ومتمدن. كان القَبَلِيون في جزر البحار الجنوبية، وغابات أمريكا الجنوبية، وسهول إفريقية الشرقية ما يزالون ينشئون صيغاً جديدة من نظام ثقافي كان في أوروبا ينتمي إلى عهد منسي. أما إذا تحدثنا اليوم عن «العالم المتمدن»، وكان المعنى الضمني هنا هو وجود ظلام بدائي خارجه، فإننا نتحدث بلغة التاريخ. فالمدنية الحديثة لا تعرف حدوداً وتلك الشعوب الغريبة الواقعة فيما وراء الحدود قد جذبها البحث الأوروبي على مستوى الكوكب الدؤوب بأكمله خلال القرون الأربعة الماضية إلى داخل الحدود. فما إن اكتشفت حتى استُعْمِرَتْ، وعُمُّدَتْ، وصُدِمَتْ حضارياً - أي أنها، حسب المصطلح الفني، قد «تكيفت».

تَهاوَتْ في خنوعٍ استوائي،
رَضِيَتْ أن تبْلَى حضارياً،
بنَتَتْ قُرىً داداَئيّةً من الكسَرِ الصدِئة
من الحديد المُغَضَّنِ وحنفيّات الماءِ المنفجرة.

أما الآن، بعد أن نهشت المدنية جزءاً كبيراً من العادات الوطنية، فإنها تمنح نفسها ترف القيام بعملية هضم فكري: فأصبح البدائيون، إلى حد بعيد، موضوعاً للأنثروبولوجيا، وهكذا صارت الأنثروبولوجيا، كما يلاحظ بسخرية أحد ممارسيها الهواة، تحقيقاً حول جثة مجتمع، يقوم به أعضاء مجتمع آخر).

---

(*) يعاد نشر هذا البحث هنا من كتاب Tribesmen للمؤلف بإذن من شركة بْرِنْتِس هول في إنغلوود كلِفس، بنيوجرزي التي نشرته عام ١٩٦٧، وتملك حقوق نشره.

**قيام الثقافة القبلية وسقوطها:**

إن كان عالمُ اليوم ملْكَ دول الشعوب تفعل به ما تشاء، فقد كان ملْكَ الشعوب القَبَلية قبل بضعة آلاف من السنين. ولقد شبَّه البعض انتشار المدنية الحديثة بعملية تطور ناجحة تتضمن نَيام نوعٍ متقدمٍ، وانتشارَه، وتنوُّعَه، وحلولَه محلَّ الأنواع البدائية. لكن هذا السيناريو كان قد أخرج من قبل على مسرحٍ من مسارحِ ما قبل التاريخ خلال فترة الانتقال من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث، وكان التفوّق آنذاك من نصيب الثقافة القَبَلية التي حلّت محلَّ الصيّادين الجامعين الأصليين، فصارت الشعوب القَبَلية، بسبب الزخم الذي خلقته زراعة العصر الحجري الحديث وتربية الحيوانات، هي المسيطرة على معظم البسيطة. وسرعان ما أصبح الصيد، الذي ظل عماد الحياة طوال مليونين من السنين، مجرد استراتيجية هامشية في معركة الحياة.

لقد تحكّمت القوة الاقتصادية في مسار التاريخ. وهذا يحدث بشكل منتظم إلى حد يوحي بوجود قاعدة – يفضل البعض دعوتها «بالقانون» – مؤداها أن السيطرة الثقافية إنما تكون للتفوق التكنولوجي. أي أن النمط الثقافي الذي يطور مزيداً من القوة والموارد في أي حيّز بيئي معني، سينتشر في هذا الحيز على حساب الثقافات الوطنية الأصلية المنافسة. ويفسر «قانون السيطرة الثقافية» هذا بشكل عام قصة النجاح القَبَلي في العصر الحجري الحديث. إذ لا يتمكن نظاما الصيد والجمع من الاحتفاظ بغالبية المناطق في صراعهما ضد الزراعة والرعي. ويعجز الصيادون في البيئات التي تخضع لتكنولوجيا العصر الحجري الحديث عن تجميع القوى البشرية وتنظيمها لمقارعة الزارعين الدخلاء، إلاّ إذا لجأ الصيادون أنفسهم إلى الاستقرار

وتجاوزوا وضعهم الذى كانوا عليه خلال العصر الحجري القديم. ولكن لم يمض وقت طويل على ظهور الزراعة والفلاحة، حتى اضطر جامعو الغذاء المتجولون إلى حصر أنفسهم في الحواف والمجاهل التي تسودها ظروف معيشية قاسية، ضمن تلك الرقعة الواسعة التي شهدت حياة العصر الحجري الحديث. وربما تمكن بعض المنتمين إلى العصر الحجري القديم من التشبُّث بمناطق منعزلة أو نائية، كالصحاري، حيث يجود جمع الطعام بمردود أفضل مما قد تجود به وسائل العصر الحجري الحديث. لكنَّ ذلك غدا مجرد ظاهرة تاريخية هامشية(١).

حدث كل ذلك بسرعة بمقياس التاريخ الانساني. واحتلَّ أول المزارعين، حسب السجلات الآثارية، الغابات التي تكسو التلال، وواحات الوديان في الشرق الأدنى، حيث يبدو أن فترة العصر الحجري الحديث قد تطورت ما بين سنة ١٠٠٠٠ و ٧٠٠٠ قبل الميلاد. وما إن حلت سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد حتى كانت مجتمعات العصر الحجري الحديث قد نشأت على طول أوراسيا [= أوروبا + آسيا] من أيرلندة إلى أندونيسيا. أما في العالم الجديد [الأمريكتين] فقد بدأ تدجين الطعام بعد بدئه في العالم القديم. ويبدو أن الذرة الصفراء، وهي العنصر الرئيسي في غذاء الأمريكي خلال العصر الحجري الحديث، صارت مادة زراعية مع حلول سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد وذلك في أواسط أمريكا. ثم انتشرت ثقافة العصر الحجري الحديث بسرعة في مناطق واسعة بعد فترة نمو قصيرة. وكانت عند ميلاد المسيح منتشرة من بيرو إلى الجنوب الغربي الأمريكي.

لقد سمحنا لأنفسنا حتى هذه النقطة باستعمال بعض المسلّمات الفجّة.

---

(١) دراسة مترجمة.

فقد ربطنا الشعوب والثقافات القَبَلية بأساليب الإنتاج في العصر الحجري الحديث كما لو أن هذه الأخيرة تؤذن بالضرورة بحدوث تطورات متقدمة تفوق قدرات الصيادين الثقافيّة. لكن من الأهداف التي ينبغي لهذا الكتاب أن يحققها، اضفاء الدقة على مثل هذه المعادلات والتمييزات التطورية، والأفضل من ذلك، رفع معلومات الدارسين إلى مستوى يمكنهم من انتقادها. وإذن فها هوذا أحد التحفظات: صحيح أن معظم القَبَليين مزارعون أو رعُاة، أي ينحدرون ثقافياً من فترة العصر الحجري الحديث، إلا أنهم لم يكونوا كلهم كذلك. ثم إننا نشك في أن الحضارة القَبَلية يرجع أصلها إلى الثورة التي حصلت في العصر الحجري الحديث. فمن الجائز أنها ظهرت قبل ذلك.

لقد حدث تطور معقد للعشائر والبطون يتجاوز ثقافة الصيادين المتنقلين، ويمكننا أن ندعوه «قَبَلياً»، منذ عهد ليس بالبعيد بين هنود الساحل الشمالي الغربي الأمريكي. وكانت قبائل الكواكيوتل والنوتكا والتِسمْشيان وغيرها من قبائل شمال غرب أمريكا من حسن التنظيم بما لا يقل عما تجده لدى معظم الهنود شمال المكسيك. هذا مثال واحد على جامعين للطعام تمتعوا في هذه الحالة بمصادر بحرية وفيرة، وعرف عنهم أنهم وصلوا المستوى الثقافي الذي بلغته جماعات العصر الحجري الحديث. إذن، قد يتجاوز الصيادون والجامعون الظروف الثقافية المعهودة في مثل ذلك النمط الاقتصادي(*) حيثما تكون الطبيعة سخية بشكل غير اعيتادي. ومن الجائز أن يكون نفس الشيء قد حدث هنا وهناك في الفترة المتأخرة من العصر الحجري الحديث. نستنتج من هذا أن فترة العصر الحجري الحديث لم تكن هي التي ولّدت الثقافة القبلية بالضرورة. كل ما فعلته أنها وفّرت تكنولوجية السيطرة القَبَلية.

---

(*) See Elman R. Seruice,s The Hunters (Englewood Cliffs: Prentice - Hall, 1965).

إن الأساليب العملية المستخدمة في العصر الحجري الحديث تُعِدّ المجتمعات لتغيير بيئاتها بشكل خلاّق. ولا تعمل جماعات العصر الحجري الحديث في ظل العوائق التي يعمل في ظلها الصيادون. إذ يتيح تدجين الطعام للمزارعين الاحتفاظ بدرجات عاليةٍ نسبياً من الاستقرار الثقافي في بيئات جغرافية متعددة، بينما لا يستطيع الصيادون عمل ذلك إلا إذا وفّرتْ لهم الطبيعة طعاماً برّياً وفيراً. وهكذا اعتمد التقدم العام الذى أحرزته الثقافة البدائية، على مستوى كوكبنا الأرضي ككل، على ثورة العصر الحجري الحديث، رغم أنه أمكن لعدد قليل من المجتمعات الصيادة ذات البيئات الملائمة في العصر الحجري القديم أن ترقى إلى المستويات القَبَلية. كذلك كانت معظم القبائل التي سنتناولها في هذا الكتاب تشتغل بالزراعة والرعي، أي أنها كانت منتجة للطعام رغم أن بعضها كان يشتغل بصيد الحيوانات البرية والأسماك وجمع الطعام.

كان العصر الحجري الحديث يومَ القَبَلِيين التاريخي. لكن شمس القبائل كانت في حالة كسوف في بعض المناطق الداخلية الهامة في الوقت الذي كان فيه ذلك اليوم يشرق على حواف أوروبا وآسيا والأمريكتين. فقد كانت المدنية في مرحلة الظهور منذ سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد في الشرق الأدنى، وكانت قبائل العصر الحجري الحديث تنزاح من أمامها مثلما أزاحت هي نفسها صيادي العصر الحجري القديم.

وبحلول عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد كانت المدنية قد تطورت في وادي نهر السند، ومع حلول عام ١٥٠٠ قبل الميلاد في وادي النهر الأصفر في الصين، ومع حلول عام ٥٠٠ قبل الميلاد في أمريكا الوسطى وبيرو. كانت المدنية

نمطاً جديداً سائداً يخلق أنواعاً جديدة في طريق تقدمه، ويعارض القبلية المحلية ويضعفها. وكانت الثقافة القبلية قد انكمشت كثيراً حتى قبل أن تبدأ أوروبا رسالتها المشؤومة الهادفة إلى «إعطاء عوالم جديدة للعالم»؛ أي قبل حلول القرن السادس عشر. كانت تلك الثقافة قد انحصر أغلبها في شمال أمريكا، وجنوب كندا، وشمال وادي المكسيك، ومنطقة البحر الكاريبي، ومنطقة أمازونيا، وأجزاء من إفريقية جنوب الصحراء، وفي أواسط آسيا وسيبيريا، وفي مجاهل جنوب شرق آسيا، وجزر المحيط الهادي[1].

هذه المناطق المنفصلة تشكل عالَمَ الأنثروبولوجيا الثقافية القَبَلِيَّ. إذ أن ما نجده فيها ليس ما قبل التاريخ، وإنما الإثنوغرافيا – أي روايات شهود عيانٍ عن قبائل تمضي في حياتها كالمعتاد. إن الأُنثروبولوجيين يحبّون بالفعل أن ينظروا إلى الوطنيين على أنهم ما يزالون يعيشون عيشتهم الأصلية، أو هكذا على الأقل يتكلم عنهم الأنثروبولوجيون، اللهمّ إلا إذا أصبح موضوع اهتمامهم هو بالتغيرات الثقافية الحديثة العهد. وهكذا نستعمل التعبير المصطلح عليه: «الحاضر الإثنولوجي»، فنبحث في قبائل "الإروكووي والهاواي" كما كانوا عندما اكتشفهم الأُوروبيون، أي عندما كانوا بالفعل هم "الإروكووي والهاوي". لكن استخدام هذا التعبير الاصطلاحي ينطوي، بطبيعة الحال، على ما هو أكثر من مجرد الحنين إلى القديم. إذ لابد، للقيام بالدراسات المقارنة، من وصف هذه الثقافات البدائية بمعزل عن التشويهات التي أدخلها عليها الأوروبيون. فهلاً سمح لنا القارئ بهذا الاستغلال الرومانسي للتاريخ وشاركنا في تأملاتنا حول القَبَليين، حول «الحاضر الإثنولوجي»؟.

---

(١) عرض تاريخي ودراسة مترجمة.

## القبائل والمدنيات: دولة(*) الطبيعة وطبيعة الدولة:

(من الواضح إذن أن البشر عندما يكونون بلا سلطة عامة يخضعون لها جميعاً يكونون في تلك الحالة التي نسميها الحرب، والحرب هذه حرب كل انسان ضد كل انسان آخر).

**توماس هوبز: اللوياثان**

تحتل القبائل مكاناً في تاريخ التطور الثقافي. فقد حلت محلَّ الصيادين الذين كانوا أبسط منها، وحلت محلَّها الثقافات التي تفوقها تقدماً، والتي ندعوها بالمدنيات. لكن ليست المدنية تقدماً على المجتمع القبلي لمجرد قدرتها على السيطرة، بل هي تقدم في التنظيم، وتحوُّلٌ نوعيٌ في النمط الثقافي.

والاختلاف بين القبيلة والمدنية هو في أبسط معانيه اختلاف بين الحرب والسلم. فالمدنية مجتمع قام خصيصاً للمحافظة على القانون والنظام. ويعتمد التعقد الاجتماعي والثراء الثقافي في المدنيات على ضمانات السلام المرتكزة، على مؤسسات. وبما أن القبليين يفتقرون إلى هذه الضمانات والمؤسسات التي تكفلها، فإنهم يعيشون في حالة الحرب. والحرب هذه تحدُّ من نطاق ثقافتهم وتعقُّدها وثرائها العام، وتفسر بعض عاداتهم الغريبة.

واسمحوا لي أن أفسّر هذا الكلام.

واضحٌ طبعاً أنني أقصد في استعمالي لكلمتي «الحرب» و «السلم» شيئاً يختلف عما يفهم منهما عادة. فأنا أستعمل كلمة «الحرب» كما يستعملها

(*) ربما كان الأصح أن تترجم كلمة State هنا بكلمة «حالة»، لكن المولف يلعب على تعبير معروفٍ آثرت الحفاظ عليه. ثم إن التعبير بالعربية غير بعيد عن المعنى المقصود. (المترجم).

هوبز، وأقصد بها ما قصد: ليس مجرد «معركة» بلا ميْلاً عاماً وحقاً للقتال إن دعت الضرورة.

«فالحرب ليست مجرد معركة أو قتال، بل هي وضع يمتد في الزمن تتكشف فيه ارادة القتال في المعركة، ولذلك لابدّ من اعتبار عنصر الزمن جزءاً من طبيعة الحرب مثلما هو جزء من طبيعة المناخ.. إذن فطبيعة الحرب ليس عمادَها القتالُ الفعليُّ بل "الميلُ للقتال" الذي يتبدّى طول الوقت الذي ينعدم فيه الضمان المؤدي إلى عكس ذلك. وكلُّ ما عدا ذلك من الزمن هو سِلْمٌ».

إن القوة في الحالة الاجتماعية للحرب ملاذ يلجأ إليه كل البشر بشكل مشروع. وليس من الضروري أن يرافقها عنف، لكن لا ضمانة لحدوث عكس ذلك. والواقع أن القتال قد لا يكون مرغوباً فيه في القبيلة، وربما كانت قرى قبيلة "الهوبي" من أشد الجماعات مسالمة في العالم، بينما تتميز الحياة اليومية في الولايات المتحدة الأمريكية بعنف قلّ مثيله في التاريخ أو الاثنوغرافيا. ومع ذلك فإن مواطني أمريكا يختلفون سياسياً عن قبيلة الهوبي من هذه الناحية، لأن عندهم «سلطة عامة يخضعون لها جميعاً، أي حكومة لا يسمح لأي فرد فيها أن يأخذ على عاتقه مهمة الحفاظ على القانون، وهي لهذا تحافظ على السلام. بينما لا نجد سلطة سياسية أو أخلاقية عليا عند قبائل كقبائل الهوبي. فحق استعمال القوة أو إعلان الحرب، إن لم يكن الميل لذلك، هو ملك كل الناس فرادى. وهذه، من الناحية الفنية، حالة «حرب» اجتماعية داخلية. ولو شئنا التعبير عن هذا الوضع بشكل آخر لقلنا، باستعمال لغة فلسفية أقدم عهداً، إن الولايات المتحدة دولة، وإن القبيلة حالة طبيعية، أو لقلنا إن الولايات المتحدة مدنية، وإن القبيلة مجتمع بدائي.

إن "الدولة" هي ما يميز المدنية عن المجتمع القَبَلي. ولم يكن ظهور

المدنيـة سوى التحـوّل الكيفي الذي طرأ على النظام الاجـتـماعي. ولذا فـإن التضاد بينها وبين القَبَلية لا يتضح إذا اكتفينا بالإشارة إلى إحدى السمات البسيطة أو إلى عدد قليل منها. فمن العبث أن نبحث عن اختراعٍ حاسمٍ يقع على الخط التطوري الفاصل بينهما. فالكتابة لا تصنع المدنية. صحيح أن البدائيين يعرفون عادة «بالشعوب قبل الكتابية»، لكن الافتقار إلى الكتابة وحده ليس هو ما يميزهم، كما تدل على ذلك الممالك الوطنية في بيرو وغرب إفريقية، وهي الممالك التي اتسمت بالرقي النسبي رغم أميّتها. ولا يعتبر التحضّر بمعناه الحرفي (أي العيش في المناطق الحضرية) هو ورقة عباد الشمس(*) التي تستعمل للكشف عن المدنية. إن معايير المدنية، من أمثال الكتابة أو المدن، لا تجد استجابة إلا في ظل الاعتقاد السائد قبل ظهور علم الأنثروبولوجيا، وهو الاعتقاد بأن الشعوب البدائية هي في جوهرها مجموعة من الأجلاف.

وهناك صيغة اصطلاحية أخرى، هي «من القرابة إلى الأرض» - تفترض أن المجتمع البدائي يقوم على القرابة، بينما تقوم المدنية على الصلة بالأرض - وهذه الصيغة تعد تعبيراً أفضل عن التحول التطوري لكنها صيغة شديدة الايجاز، ولذا فهي عرضة للانتقادات الساذجة. إذ أن بوسع أبسط مبتدئ في الأنثروبولوجيا أن يبين أن الكثير من المجتمعات البدائية تسكن أقاليم معينة وتدافع عنها، أو أن جماعات قبلية صغيرة كالعشائر والعائلات كثيراً ما تحتل "ضيعات" محددة، وأن العشيرة بدون أرضها تموت. إن هذا النقد يرتكز على معرفة كافية بالمجتمع البدائي، ولكن ليس على معرفة كافية بمعنى «من القرابة إلى الأرض»، الذى هو بمثابة مثل شعبي تطوري، أو

(*) الإشارة هنا إلى الصفة المعروفة لورقة عباد الشمس، التي تجعلها تستخدم كيميائياً في التمييز بين الأحماض والقلويات.

يركز مجازياً عملية تطور معقدة. فكلمة الأرض هنا يجب أن تفهم بمعنى "الاقليم"، والمملكة التي يحكمها حاكم. وهذا يعني أن التطور الأساسي لم يكن استحداث نزعة التعلق باقليم معين في المجتمع، وإنما استحداث المجتمع «بوصفه» اقليماً. إن الدولة وأجزاءها تنظم هنا كأقاليم – ككيانات إقليمية تحت إمرة سلطة عليا[1]، تختلف عن الكيانات القربوية. وقد عبر السير هنري مين الذي أشاع تعبير «من القرابة إلى الأرض» عن الفكرة بقوله: حدَثَ الانتقال إلى المدَنيّة عندما اتّخذَ «ملك الفرنج» لَقَبَ «ملك فرنسا».

ثمّة في الدولة حكومة عامة منفصلة من الناحية البُنْيَويّة عن بقية السكان وتتخذ موقعاً يعلو عليهم. وهذه السلطة هي العليا داخل إقليم الدولة. إذ أن السيطرة على القوة أدت إلى ترسُّب السلطة من المجتمع ككل إلى أيدي الحكومة[2]. ولا يسمح لأحد، بشكل عام، باللجوء الى القوة، بل إن الحكومة، بشكل خاص هي وحدها التي تتمتع بحق وضع قواعد النظام وتطبيقها. وهكذا فإن السلام هو الشرط الداخلي لهذا النظام القائم. وإن شئنا التفصيل قلنا إن الدولة أو المجتمع المتمدن هو مجتمع (١) فيه سلطة عمومية رسمية، ومجموعة من الوظائف تشمل المجتمع ككل تمارس السلطة على المجتمع ككل، (٢) يحدد فيه «المجتمع ككل»، أي ميدان السلطة، ويقسم إقليمياً، (٣)تحتكر فيه الهيئة الحاكمة السلطة، إذ لا يملك أي فرد أو هيئة حق التمتع بالسلطة (أو القوة) إلاّ بتفويضٍ أو إذنٍ أو موافقةٍ من الحاكم، (٤) يخضع فيه كل الأشخاص والجماعات داخل الاقليم – بحكم سكناهم في ذلك الميدان – لصاحب السلطة، ولسلطته القضائية وقدرته على القسر والاكراه، بحكم اقامتهم داخل مجال سلطته.

لكن قد يقول قائل بحق إن «المدنية» أوسع من ذلك، إنها أكثر من مجرد

---

(١) معالم الدولة القومية – هشام محمود الأقداحي – مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية.

(٢) نفس المصدر.

جهاز سياسي رسمي، إنها ثقافة واسعة معقدة. فالكلمة تستحضر إلى الذهن صوراً لمدنٍ عظيمةٍ، ولأبنيةٍ رائعة، ولجماهير كثيفةٍ من السكان، ولكميات كبيرةٍ من السلع. وعندما نسمع هذه الكلمة يطرأ على ذهننا نظام اجتماعي بديع النسيج يظهر فيه الفنانون، والتجار، والفلاحون. والرهبان، والعمال والأمراء. كلُّ هذا صحيح. لكنَّ هذا الاعتراض قد يؤكد فكرتنا أيضاً، ويؤكد صحة استخلاصنا للدولة باعتبارها المعيار الحقيقي للمدنية. فالمدنية مجتمع هائل، ومنقسم من الداخل في نفس الوقت، سكانه كثيرون، وقد يكونون مختلفين عرقياً، منقسمين وظيفياً إلى مهنٍ متخصصة، ونظراً إلى اختلاف درجات اكتسابهم لوسائل السلطة، فإنهم ينقسمون إلى طبقات متفاوتة الحظوظ. وتعتمد كل منجزات المدنية الثقافية على حجم هذا التنظيم وتعقده. لكن مثل هذا المجتمع الضخم، المختلف العناصر، المنقسم من الداخل، لن يدوم بلا وسائل للتحكم والالتحام. تأمَّلْ ماذا تكون عليه الحال لو ترك كل امرىء لحماية نفسه ومصالحه على خير ما يشتهي، لو أعلن كل فردٍ في الدولة: «L'état, C'esst moi!» [الدولة أنا]. سينهار النظام إلى تحزبات فوضوية، وسيكون عرضة للتخريب والحرب الأهلية. إذن لابدّ أن يتّخذ الغنى الثقافي الذي ندعوه بالمدنية شكل الدولة.

إن الحكومة(١) بالنسبة للكائن الاجتماعي كالجهاز العصبي للكائنِ الحيّ. وكما هي الحال في التطور البيولوجي، لم يكن بالامكان حصول أكثر من حدٍ أدنى من التعقد الثقافي قبل تطور الآليةِ المركزيةِ التي تتحكم بالسلطة. فتلك الآلية تضع الجميع تحت سيطرتها، وبذلك تحافظ على أجزاء المدنية المختلفة ضمن نظام تعاوني، لا بالغاء العنف، بل بجعله خارجاً على القانون. ولاكمال التشبيه نقول: إن القبيلة حيوان بدون جهاز تنظيمي مركزي. ولذا

---

(١) النظم والحياة السياسية – د. محمد طه بدوي – د. ليلى أمين مرسي – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية.

فهناك حدود تفرض بالضرورة على مستوى القبيلة ودرجة تعقدها وتوسعها الثقافي الكلي. تلك هي مساويء «الحرب..».

> كلُّ ما يترتب على عصر الحرب، حيث يكون كل انسان عدواً لكل انسان آخر، يترتب أيضاً على العصر الذي يعيش فيه البشر بلا أمنٍ إلاّ ما وفرته لهم قوتهم الذاتية وذكاؤهم الشخصي. وفي حالة كتلك لا مكان للجد والمثابرة لأن ثمارها غير مضمونة، ولا زراعة، ولا ملاحة، ولا استفادة مما يستورد عن طريق البحر من بضائع، ولا بنايات مريحة، ولا وسائل للنقل أو لإزالة ما يحتاج لقوةٍ عظيمة من أشياء، ولا علم بسطح الأرض، ولا قياس للزمن، ولا فنون، ولا آداب، ولا مجتمع. وأسوأ ما في الأمر أنه سيكون هناك خوف دائم من خطر الموت العنيف، وستكون حياة الانسان منعزلةً فقيرةً، كريهةً، فظةً، قصيرة».

هوبز: اللوياثان

لقد تعلمنا الكثير عن الشعوب البدائية منذ القرن السابع عشر. وفي وقتنا هذا يبدو "هوبز" لمسامعنا وكأنه يسخر من كاتب آخر. ولقد صار هذا الاقتباس «الكريه، الفظ، القصير» فعلاً موضوعاً مفضلاً للسخرية في الكتب المدرسية الحديثة. ولكن يظل عندنا – بعد أن نهنيء أنفسنا هكذا على حساب "هوبز" على أمور صرنا نعلم عنها أكثر منه، نتيجة لبحوثِ عددٍ لا يُحصى من الناس خلال ثلاثة قرون – مَيْلٌ للتغاضي عن أمور كان هوبز يعرفها أفضل منا، وبذا ننجح في ألاّ نتعلم شيئاً. إن فحوى الفقرة التي اقتبسناها تواً هو أن المجتمع سيظل مفتقراً للنظام الكافي لتحمل التطور الثقافي المعقد ما دامت القوة تمارس بشكل فردي. وهذا هو مفتاح الحدود النسبية للمجتمع

القبلي وللأهمية التطورية التي تتصف بها الدولة. وكما يقول عامة الناس في غينيا الجديدة بعاميتهم المكسّرة: «شيء صحّ هنا!».

كذلك فإن حالة الحرب - «حرب كل انسان ضد كل انسان آخر» هي أيضاً «صح» - **رغم انها لم تحدث أبداً**(*). إذ يحافظ أفراد المجتمع القبلي وأقسامه الصغيرة على الحق الأكيد والميل الممكن لتأمين سلامتهم ومكاسبهم ومجدهم بالقوة. والحرب موجودة إذا دعت الحاجة. لكنها موجودة، بالدرجة الأولى، على شكل ظرف كامنٍ. أما في الواقع فإن القَبَليين يعيشون في جماعات قربوية تكبت فيها نزعة الثأر في العادة، وينعمون، تحت ظلها، بفوائد اقتصادية وشعائرية وبمؤسسات اجتماعية تؤدي إلى استقرار جيد. وهكذا يكون الكلام عن الحرب بمثابة الكشف بالتحليل عن ميولٍ تكون مخفيةً عادة بأمور مفروضة من قبل النظام الثقافي بقوة. أي أن الفوضى البدائية ليست هي ظاهر الأشياء، بل هي لا وعي النظام. إذ قد لا يكون التنظيم الموضوعي للمجتمع القبلي أكثر من تحولٍ رمزيٍ كابتٍ للفوضى الكامنة تحت السطح، مثلما قد لا يفهم سلوك الفرد الظاهري إلا باعتباره تحولاً رمزياً للرغبات اللاواعية. إن العديد من الأنماط الخاصة بالثقافة القبلية لم تصبح ذات معنى إلا كآلياتٍ دفاعيةٍ وكوسائل لالغاء الحرب(**).

ففي حالة الحرب، حيث يحق لكل فرد أن يمضي في حربه ضد كل فرد آخر، لا يجوز أن يكون السلام مجرد حادثة تحصل بين الفينة والفينة وبين

---

(*) لم يكن هوبز يصرّ على أن الحرب كانت حالة فعلية عامة في يوم من الأيام، أو يؤمن بذلك. انظر اللوياثان، الجزء الأول، الفصل ١٣.

(**) قد يفسر هذا نجاح أحد أشكال «الوظائفية» في علم الأنثروبولوجيا: أي تفسير بعض العلاقات والعدات الاجتماعية بالرجوع إلى ما تسهم به في «التضامن الاجتماعي» أو «التوازن». إن المجتمع البدائي في حرب على الحرب. ولذا كان للوظائفية قوة غير عادية في النظرية الأنثروبولوجية، وتجدها تروق لكثيرين من المشتغلين بها.

قبيلة وقبيلة، بل يجب أن يكون عملية مستمرة تعمل عملها داخل المجتمع نفسه. وكلما غدت الحرب ظرفاً مقبولاً ضمناً غدا العمل للسلام ضرورياً صراحة..

«لما كان الوضع الانساني .. هو وضع حرب يشنها كل انسان ضد كل انسان آخر، أي أن كل انسان في هذه الحالة لا يحكمه إلا عقله الخاص، ولا يتورع عن استعمال أي شيء يعينه على الحفاظ على حياته ضد أعدائه، فإن كل فرد في ذلك الوضع يكون له الحقّ في كل شيء، حتى في جسد الفرد الآخر[1]. وما دام هذا الحق الطبيعي لكل فرد في كل شيء موجوداً فلا يمكن أن يتمتع أحد بالأمان مهما كان قوياً أو حكيماً ليعيش حياته التي منحته إياها الطبيعة. ولذلك فإن من أحكام العقل العامة أن على كل فرد أن يسعى للسلام ما دام يحدوه الأمل بالحصول عليه، وإذا عجز عن الحصول عليه صار له الحق في السعي وراء مكاسب الحرب وفوائدها. والجزء الأول من هذه القاعدة يضمّ القانون الجوهري الأول من قوانين الطبيعة، ألا وهو: «اسعَ للسلام واتبعه».

هوبز: اللوياثان

إن الانسان، في الحقيقة، لا أمل له في البقاء ما لم تنظم الحرب. لذلك عدّ هوبز السعي للسلام أحد أحكام العقل. والنقطة التي تهمني هنا هي أن السعي للسلام هو حكمة المؤسسات القبلية. ولما كان على المؤسسات القبلية أن تحمل هذا العبء السياسي فإنها تختلف أحياناً عن الموسسات المماثلة لها في المدنيات. فالسلام في المدنيات لا داعي لإدخاله ضمن العلاقات الاقتصادية

---

(١) نعترض على هذا الرأي.

مثلاً، إذ يتم فيها الحصول على الاستقرار وسيادة القانون بواسطة تنظيم سياسي متخصص، هو الحكومة، وهذه تفرضهما على النظام الاقتصادي. وهكذا فإن العقاب الوحيد الذي يواجهه شخص يغالي في السعر هو عقاب اقتصادي.

وبالطبع لم تكن القبائل وحدها هي التي يتعين عليها السيطرة على الحرب. فالصيادون يعيشون حياة لا تقل عن حياة القبليين طبيعية، بل لقد عاشوا في أحضان الطبيعة مدة أطول بكثير. ولذلك فإن العديد من الترتيبات التي اتخذتها الثقافة القبلية للحفاظ على السلام تشبه تلك التي اتخذها الصيادون والجامعون. لكن لاشك أن احتمالات شن الحرب تزداد كلما تقدمنا نحو القبلية. فوسائل الانتاج القبلية ذات قدرة أكبر، بالقياس إلى الصيد وحده، على إعالة أعداد أكبر من الناس، أعني من السكان الذين يعيشون بشكل أكثر كثافة وتركيزاً. وهذا يعني أن العدد البحت للاحتكاكات، ومن ثم للصراعات الممكنة، يزداد. وتحدد التكنولوجيات القبلية المصادر المهمة والثابتة والنادرة: كالأراضي القابلة للزراعة، وقطع الأراضي التي تصلح للتشجير بشجر يصلح خشبه للبناء، والمراعي والماء للماشية. ثمإن هناك سلعاً أكثر عند المجتمع – فإلى جانب وسائل الانتاج الجديدة يجعل استقرارُ القبيلة جمعَ الأموال أمراً ممكناً ومفيداً – أي أن هناك أشياء أكثر تغري بالسرقة أو بالسطو أو بالتنازع عليها. ولذا تأخذ الحرب أبعاداً جديدة عند القبليين، وتزداد بالتالي مقاومة القبليين للحرب بنسبة كبيرة.

خذ العلاقات الاقتصادية على سبيل المثال. يتم التبادل في المجتمعات القبلية بشكل عام في ضوء بعض الضوابط. وغالباً ما يستبعد الربح والمنافسة، اما بهدف إقامة علاقات ودية أو لتفادي العلاقات العدائية. وفي العديد من المعاملات الاقتصادية القبلية يقلل من شأن المنفعة المادية بحيث

تبدو الفوائد الرئيسة اجتماعية الطابع، أي أن الكسب يأتي على شكل علاقات جيدة، لا على شكل أشياء جيدة. وأنا أشير هنا إلى الأنواع المختلفة مما يدعونه بـ «التهادي» الذي يتراوح ما بين حسن الضيافة العادية إلى تبادل الهدايا الفعلية الذي يؤكد مراسيم الزواج أو التآخي بالدم. إن هذه المبادلات وسائلية، أي أنها تخلق الوحدة بين الناس باستعمال الأشياء كوسائل (وكما نقول نحن - في مناسبات نادرة نسبياً: «المهم هو الشعور»). وفي هذه المبادلات الوسائلية قد يتبادل جانبان سلعاً لا يفتقر أيهما لها. وقد يتهادى الجانبان في بعض الأحيان - كما في مناسبات التآخي بالدم أو إنهاء الثأر والترتيب لزواج - كميات متساويةً من السلع فهل هذا مضيعة للجهد والوقت؟ «لقد كان الهدف - كما لاحظ الأنثروبولوجي المشهور رادكلف - براون عن معاملات مماثلة بين الصيادين الأندامانيين - هدفاً أخلاقياً. فقد كان القصد من التبادل خلق شعور المودّة بين الشخصين المتبادلين، وما لم يحصل ذلك يكون التبادل قد فشل في تحقيق الغرض المقصود منه»(*) إن المكسب المادّي ليس هو المهم إلا إذا كـان الرابح هو الطرف الآخـر، لأن التضحية محمودة من أجل السلام. فالقضية هي قضية السلام.

لكن إبداء الاحترام للشخص الآخر أمر مرغوب فيه حتى حين يقصد الاستفادة من التبادل. فلكل معاملة معادل وسائلي، يكون إما سلبياً أو إيجابياً من الناحية الاجتماعية تبعاً لمدى الالحاح على المنفعة المدية أو لمقدار ما يقدم المرء في مقابل ما تلقى من عطايا. إن التبادل هو، في نهاية المطاف، استراتيجية اجتماعية. والبديل الاستراتيجي في حالة الحرب هو إما أن تكون لطيفاً أو تستعد للقتال. وهكذا فإن التعامل بالمثل، أو شيء يقاربه، يسود الحياة

---

(*) A. R. Radcliffe - Brown, **The Andaman Islanders.** (New York: The Free Press, 1948, p. 48).

الاقتصادية القبلية. والمعاملة بالمثل في المبادلات دبلوماسية واقتصادية. إذ يرمز تدفق المنفعة المادية في الاتجاهين إلى الرغبة في مراعاة سعادة الآخر، والنفور من السعي إلى الفائدة الشخصية بشكل أناني. وهنا أيضاً يستبق هوبز الإنثوغرافيا؛ فقد أدرك أن التعامل بالمثل في وقت الحرب هو أحد قوانين الطبيعة، وهو ينتج عن القانون الأول الذي يفرض على البشر أن يسعوا إلى السلم :

«يعتمد العرفان بالجميل على فضل سابق، أي على عطية سابقة، مثلما تعتمد العدالة على عهد وميثاق سابق، وهذا هو القانون الرابع من قوانين الطبيعة الذي يمكن أن نصوغه على الشكل التالي: مَنْ يَتَلَقَّ منفعةً من غيره تَفَضُّلاً فلْيَسْعَ إلى ألاّ يجعلَ معطيها يندم على فضله. إذ لا يعطى المعطى إلا لخير نفسه، لأن العطية فعلٌ طوعيٌ، وهدف كل الأفعال الطوعية خيرُ فاعلِها. فإذا ما رأى المعطي أن الخير لن يحصل له فلن تكون هناك بداية بالكرم أو الثقة، ومن ثم لن يكون هناك تعاون ولا تصالح، وسيظل الجميع في حالة الحرب. وهذا مناقض لأول قانونٍ من قوانين الطبيعة الذي يأمر البشر بالسعي للسلم».

**هوبز، اللوياثان**

وهكذا تصبح المبادلاتُ معاهدات سلامٍ. وتدلّ المعاملات التي ترافقها على الرغبة في العيش بسلام من قبل الطرفين. وكما قال مارسيل موصّ Mauss في مقالته المعروفة عن "الهدية"، بعد أن أخذ الظروف التي أشار إليها هوبز بنظر الاعتبار، إن هناك سبباً آخر لها، وهو أن على الناس أن «يتفاهموا»:

لا يوجد حلٌ وسط في هذه المجتمعات البدائية القديمة. فإما أن تكون

هناك ثقة تامة أو لا تكون. والمرء قد يلقي السلاح، أو يتخلّى عن السحر، أو يعطي كل شيء لمجرد حسن استضافة ابنته أو أمواله. وقد تعلم الناس في تلك الظروف رغماً عنهم أن يتخلوا عما هو ملكهم، واتفقوا على أن يعطوا ويدفعوا ما عليهم. لكن لم يكن أمامهم خيار في الواقع. فعندما تلتقي مجموعتان من الناس يكون عليهما إما أن تمضيا في حال سبيلهما أو أن تلجأ إلى السلاح في حالة الشك بحسن النوايا أو التحدي، أو قد تتفاهمان»(*).

والبدائيون ليسوا جاهلين بما تتضمنه تجارتهم من سلام. فكلمتا «تجارة» و «مقايضة» تعنيان في بعض لغات إفريقية الشرقية «السلام» أيضاً. وربُّما عبّر هذا البشْمان الإفريقي عن هذه الفكرة أفضل تعبير:

«قال ديمي: أسوأ شيء هو ألاّ يتبادل الناس الهدايا. قد لا يحبّون بعضهم، ولكن عندما يعطي أحدهم هدية ويكون على الثاني أن يقبلها يحل السلام بينهما. نحن نتبادل الهدايا دائماً. نعطي ما عندنا. هكذا نعيش مع بعضنا»(**).

انظر الآن إلى العلاقات الاجتماعية القَبَلية بوجه عام، انها علاقات تسودها القرابة، كما يقول المثل التطوري (الذي أوردناه من قبل) والقرابة علاقة اجتماعية تقوم على التعاون واللاعنف (في العادة). فصلة الرحم متصلة بالرحمة، كما يقول تايلر، «ويعبر اشتقاقهما من نفس الجذر أفضل تعبير عن المبادئ الأساسية للحياة الاجتماعية»(***).

---

(*) Marcel Mauss, The Gift. London: Cohen and West, 1954, p. 79.

(**) Lorna Marshall, "Sharing, Talking, and Giving: Relief of Social Tensions Among Kung Bushmen", **Africa**, xxxl (1961), p. 245.

(***) Sir Edward Tylor, **Anthropology** (Ann Arbor: Ann Arbor Paperbacks, U. of Michigan Press, 1960), p. 249.

(الكلمات المعنيتان هما Kindred و Kindness، وتعنيان القربى والعطف على التوالي. وقد فضلّت ترجمتهما كما في النص حفاظاً على ما بينهما من جناس. [المترجم]).

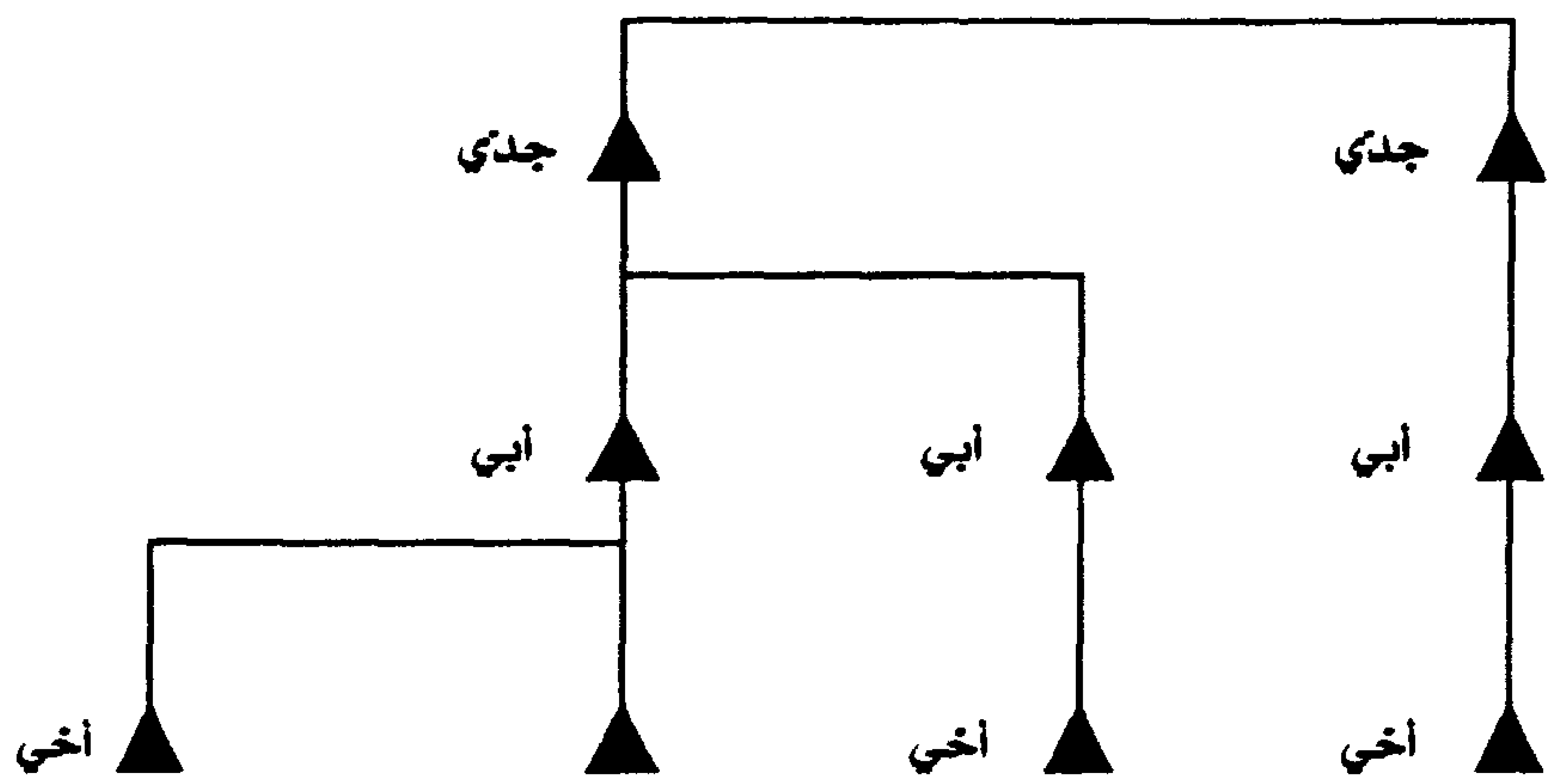
وتضم لغات القبليين جناسات شبيهة بهذه. فالكلمة التي تعني «القربى» عند النوير في شرق إفريقية هي أيضاً الكلمة التي تعني «السلام». وفي اللغة الفيجية يطلق تعبير «تيكو فاكافيوكاني» (أي أن يكونوا أو يعيشوا أقرباء) على اقامة «حياة السلم» أو حالة «العيش بسلام». وهناك كلمة معناها «يتعارفان» تستعمل كمرادف لكلمة معناها «بينهما صلة قربى». أما الكلمة التي تعني «غريب» فمعناها أيضاً «غير قريب»، ولها عند الفيجيين وعند غيرهم من القبليين معنى شرير، إن لم يكن معنى «العدُو» - أعني شخصاً يمكنك أن تأكله. أما القربى فهي سبب أساسي للتفاهم الانساني السلمي. وتدل كثرة التعبيرات الخاصة بالقربى وبالعلاقات والجماعات عند المجتمعات القبلية على سعيها الدائب للسلام.

لكن ليس معنى هذا أن القربى تسود في المجتمع القبلي بسبب وظائفها السياسية فقط. فالتعاون الاقتصادي الذي تدعمه لا يقل عن ذلك أهمية، كذلك فإنني أقصد أن القربى هي المبدأ القبلي الوحيد. إذ أن الارتباطات العسكرية، والدينية، والعمرية [نسبةً إلى العُمْر]، وهي التي لا تنظمها صلة القربى، واسعة الانتشار في إفريقية وأوقيانوسيا وعند سكان أمريكا الأصليين. لكن يجدر بنا أن نلاحظ أن هذه الارتباطات، من حيث هي مؤسسات ذات موقع ثانوي بالنسبة لنظام القرابة، وأن علاقة القربى الشخصية بأحد أعضاء الرابطة هي أساس شائع للانضمام لها، وأن لغة التضامن من بين أفراد الجماعة غالباً ما تكون مستمدة من لغة القربى، أي أن الروابط هنا «جمعيات أخوية». ويمثل هذا التعبير ميل القبليين بشكل عام إلى إلباس التحالفات المفيدة لباس القربى، فحيثما كان السلام ضرورياً أو مرغوباً فيه امتدّت القربى لتخلقه.

تمتد القربى، على صعيد العلاقات الشخصية، امتداداً بعيد الغور في

القبيلة. وربما كان القارئ على علمٍ بالقربى التصنيفية، فهذه خاصية تتميز بها الغالبية العظمى للقبائل. وحسب هذه التصنيفات يكون بعض الأقرباء المنحدرين من نفس الخط منتمين لصنفٍ واحدٍ يضمهم هم وأقرباء آخرين في خط آخر. وفيه يكون أخو أبي قريبي مثل أبي فأدعوهما كليهما بنفس الاسم – الذي ترجمته «أبي» – وأتصرّف بنفس الطريقة نحو كل منهما. وبتعبير آخر، يكون الأقرباء المنتمون لنفس المكانة الاجتماعية العامة من صنف واحد، ويكون أبي وأخوه من بعض النواحي الاجتماعية الأساسية بنفس الدرجة: ذكرين من سلالتي ينتميان إلى نفس الجيل. ويعبّر عن التماثل الاجتماعي بينهما باستعمال نفس تعبير القربى لكليهما. لكن المهم هو أنه ما إن تعرّف التصنيفات القُرْبَويّة بهذا الشكل الواسع حتى تتوسع فعلاً. فإذا كان أبي مساوياً لأخيه في الناحية الاجتماعية فإن ابن أخيه يكون مساوياً لأخي، وطبقاً لنفس المبدأ يكون أبو أبي وأخوه متساويين: أي أن ابن أخي أبي هو «أبي»، وابنه أخي، وهكذا. فمنطق القربى التصنيفية هو منطق التوسيع. ومهما بعدت قربى الأقرباء على «شجرة العائلة» فإن قرباهم لا تضيع، ولا تعتبر بعيدة في طبقة القربى. صحيح أن الناس يفرقون بين زوج الأم وغيره من «الآباء»، وبين الأقرباء الأقربين والبعيدين في أي طبقة من طبقات القربى. لكن توسيع طبقات القربى وتسميتها باصطلاحات عائلية أمر يساعد على إحلال السلام.

أما على مستوى تنظيم الجماعة، فيما وراء مستوى العلاقات الشخصية، فقد قدمت القبائل إسهاماً جوهرياً في مجموعة العلاقات القُرْبَويّة. وأغلب الظن أن «الجماعات المنحدرة من سلالة واحدة» نشأت مع نشوء القبائل، إذ أنها بلاشك ليست من صفات الصيادين، بينما تعتبر أمراً عادياً في الوسط القبلي. والجماعة (السلالة الواحدة) هي جماعة من الأقرباء يوحدها أصل




**درجــات القــربى التصنيفيّـة**
**(على أساس تساوي الإخوة)**

واحد. وهي عند القبائل تتباين تبياناً كبيراً، من حيث احتساب الأصل المشترك الذي قد يكون من جهة الذكور فقط أو من جهة الإناث فقط، أو من كلتا الجهتين معاً. لكن ينصبُّ اهتمامنا الآن على الجماعات المشتركة، أي الجماعات التي تشكل وحدات دائمة داخل النظام القبلي، رغم أن أعضاءها كأفراد يأتون ويذهبون من خلال الولادة والوفاة، ذلك أن لهذه الجماعة مصيراً وواقعية يتجاوزان مدى حياة الأشخاص. إنها شخص أعلى، أفرادها مثل شخص واحد، وصلتهم ببعضهم من القوة بحيث يحتسبون «إخوة» و «أخوات» إن كانوا من نفس الجيل، وربما حرّم عليهم التزاوج. والحرب التي يشنها كل انسان ضد كل انسان آخر لا وجود لها داخل مثل هذه الجماعات. إذ أن استعمال القوة ضد فرد آخر من أفراد العشيرة كاستعمالها ضد النفس، وهذا يتعارض مع قوانين الطبيعة، وهو خطيئة، وربما استحق غضب الأسلاف بكل ما له من عواقب وخيمة. وفي بعض القبائل يحف الخطر بالفرد في كل مكان باستثناء الأماكن التي يمكن فيها تبيان الانتساب

العشائري. وخير له، فيما عدا ذلك، أن يقبع في بيته إلا إذا كان يود أن يقاتل. أي أن «جماعة السلالة الواحدة» إذ تأخذ على عاتقها مهمة الدفاع عن أعضائها واستبعاد العنف الداخلي، تدفع محيط دائرة الحرب بعيداً عن المركز، على الأقل إلى القطاع الذي تتلاقى فيه جماعتان أو أكثر.

إلا أن الترتيبات الدبلوماسية تظل ممكنة حتى هنا. إذ يمكن لجماعات السلالة الواحدة نفسها، عن طريق زيادة توسيع مبدأ القربى، أن ترتبط برباط القربى. فالتزاوج يخلق المصاهرة، أي أن الزيجات بين أعضاء الجماعات المختلفة، باعتبار أن كل جماعة وحدة متماسكة، يمكن أن تترجم إلى تزاوج بين الجماعات نفسها، ومعنى ذلك أن المرء يستطيع أن «يصنع» لنفسه عن طريق التزاوج أقرباء، لا أن يولد بهم فحسب. والزيجات لا تتم في السماء، بل تتم وفقاً لقواعد. والقاعدة التي تحرم الزواج داخل الجماعة تفرضه من داخل جماعة أخرى. أما فيما وراء ذلك فقد تحدد القواعد نوع الأقرباء الذين ينبغي التزوج منهم: فقد يتوجب الزواج مثلاً من بنت الخال. وهذا النوع من الغرض ينظم السلالات كما سنرى. وتطور كل قاعدة كهذه نمطاً منظماً من المصاهرة بين جماعات السلالة الواحدة. وتشغل المناورات الزيجية بال القبليين إلى آخر الحدود. إذ يعتبر الزواج، في خضم عملية مكافحة الحرب عند القبائل، استراتيجية مؤسساتية ذات أهمية قصوى.

إن بإمكاننا أن نستخلص هذه الدروس التي تعلمناها من الاقتصاد ونظام القربى القَبَلِيين من قطاعات ثقافية أخرى أيضاً. فالطقوس عند القبائل (مثل غيرها من أنماط الثقافة) قد تستغل للسعي من أجل السلام. وقد قال كُنْفوشيوس: «إن الاحتفالات هي الآصرة التي تربط الجماهير ببعضها. وإذا انقطعت دبّت الفوضى فيها». والطقوس الجماعية تزداد شيوعاً على المستوى القبلي. وهي على أقل تقدير تفرض سلماً احتفالياً، وتزرع في الناس،

بإشاعتها روح الاعتماد الجماعي على القوى الخارقة للطبيعة، شعوراً بالجماعية وباعتماد كل فرد على كل فرد آخر. وقد يتعزز هذا الشعور بالتوزيع الاحتفالي للأعمال بين الجماعات القُرْبَوِيّة التي يكون على كل منها أن تقوم بوظيفة شعائرية معينة، بحيث يصبح التعاون ضرورياً للحصول على المنافع المرجوّة من القوى الخارقة للطبيعة. ويعتمد إحلال السلام في بعض القبائل – مثل شعوب الفولتا في غرب إفريقيا وهنود البويبلو – على الشعائر بشكل أساسي، وكأن الوسائل الدنيوية العادية لإحلال النظام والاستقرار تثبت دائماً عدم كفايتها في هذه المناطق الآهلة بالسكان، المجزأة اجتماعياً.

لكن ما قلناه يكفي. فالمعنى واضح ولا يحتاج إلى تكرار. لقد حاولت أن أبيّن أن المدنيات تختلف عن القبائل بمؤسساتها السياسية المتخصصة، أي بحكوماتها التي تستحوذ على السلطة العليا وعلى حقٍّ حماية المواطنين والحفاظ على السلام داخل الدولة. أما في المجتمعات القَبَلية فإن السيطرة على القوة ليست بعيدة عن متناول الناس. فالقبائل تعيش في الحالة التي دعاها هوبز حالة الحرب، وهي حالة قاتلة إن لم تتم السيطرة عليها. لذا لا تجدُ القبائلُ بدّاً من أن تُجنّدَ مؤسساتِها العامة التي تملكها لمجابهة التهديد بالحرب بسبب افتقارها للمؤسسات المتخصصة في إعلاء كلمة القانون وإحلال الاستقرار. وهكذا فإنها تجند "الاقتصادَ والقُربى والطُقوس وغيرَها" لهذا الغرض، وإذ تأخذ المؤسسات القبلية هذه الوظيفةَ السياسية على عاتقها فإنها تتخذ أشكالاً خاصةً وتعبيراتٍ خاصةً تختلف عما نعهده، وقد تكون غريبة علينا، لكن يمكنُ فهمُها جميعاً باعتبارها ترتيباتِ دبلوماسيةً للحفاظ على السّلام. تلك هي حكمةُ المؤسساتِ القَبَلِيَّة.

# الفصل الخامس

# تاريخ الإنسان السلالي

# الفصل الخامس

# تاريخ الإنسان السلالي منذ ١٤٩٢

## «رحلة كولومبس»(١)

لقد حددنا عام ١٤٩٢ تاريخاً لبداية الاضطراب الذي تعيش فيه السلالات اليوم، مختلطة بعضها ببعض، لأنه تاريخ واضح معروف لدى الامريكيين والاوروبيين، ولأن ما حدث خلال قرنين من رحلة مواطن جنوة العظيمة قد وضع النمط الذي تسير عليه حركة الامتزاج السلالي الحالية في العالم اليوم.

ولو اختار عربي هذا التاريخ لفضل عام ٦٢٢م، وهو عام الهجرة الذي هاجر فيه الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة، والتي بدأت من عندها حركة انتشار الاسلام، أما المغولي فقد يختار عام ١٢٠٦م – وهو عام ميلاد جنكيز خان. ورغم أن كلاً من العرب والمغول قد تحركوا بسرعة البرق وحققوا انتصارات حربية رائعة، إلا أن أياً منهم لم يغير تغييراً يذكر في تركيب السلالات، أو أحدث قلقلة سلالية في العالم تعادل ما احدثته رحلة كولومبس، بما فيها من خير وشر.

وقد كان كولومبس يعتقد اعتقاداً راسخاً في كروية الأرض، ولو أنه لم يكن مبتدع هذه الفكرة، إلا أنها لم تكن شائعة. كما أنه قبل تقدير بوسيدونيوس (١٣٥–٥٠ ق.م) لمحيط الكرة الارضية، وهو تقدير خاطئ، إذ ظن أن محيط الأرض ١٨ ألف ميل. ولو كان كولومبس قد علم بالتقدير الصحيح لهذا المحيط، وهو التقدير الذي سبق إليه ايراتوستين (٢٧٤–١٩٤

---

(١) دراسة مترجمة.

ق.م) قبل بوسيدنيوس بقرن تقريباً، لجعله هذا يتردد في ارتياد المحيط الهائج كثير الاعاصير. ومهما يكن من أمر فقد كان مقدراً إن آجلاً أو عاجلاً، لهذه الرحلة أن تتم، بسبب التقدم العظيم في فنون الملاحة في مدرسة الامير هنري الملاح في ساجريس بالبرتغال(١).

وفي عام ١٤٩٥ استطاع كولومبس - الذي مات وهو يعتقد أنه اكتشف فعلاً جزير الهند الشرقية - أن يؤسس مجلة اسبانية صغيرة في سانتو دومنجو على جزيرة هسبانيولا، حيث توجد الآن جمهورية الدومنيكان، وهي جمهورية لا تزيد نسبة البيض فيها على ٢٨٪، أما الهنود الذين وجدهم كولومبس فيها فقد اختفوا من وقت طويل. وتحتل هايتي الثلث الآخر من الجزيرة، وهي الجمهورية الوحيدة خارج إفريقيا التي تتكون من الزنوج حسب المفهوم الأمريكي بنسبة ١٠٠٪، بما في ذلك نسبة ٥٪ من المولدين. وما حدث فى هسبانيولا بعد كولومبس هو مثال متطرف لاحلال سكان محل آخرين، وهو ما حدث في أجزاء عديدة من العالم في اثناء القرون الخمسة والنصف الاخيرة، أي خلال عشرين جيلاً تقريباً.

وقد ذهب الفاتحون والمستغلون والمستوطنون إلى القارات والجزر الجديدة وفي اذهانهم سبعة اهداف رئيسية. فقد رغبوا في انشاء محطات تجارية في المدن الغنية المتمدينة، مثلما فعلوا في جوا وكلكتا، أو انشاء محطات تموين على طريق الملاحة الرئيسية مثلما فعلوا في مدينة كيب تاون، أو يحولوا الوثنيين إلى المسيحية، أو ليسلبوا الوطنيين أراضيهم ومعادنهم الثمينة،

---

(1) Horbes: Man the Maker (New York: Henry Schumman: 1950
H. Penrose: Travel and Discovery in the Renalssance (Cambridge, Mass.: Harvard University Press: 1952).
Coon: The Story of Man, 2nd ed. (New York: Alfred A. Knopf; 1962). Chapters 9 and 10.

بمصادرة أصنامهم وحليهم الثمينة، وبالتعدين، أو لانشاء المزارع الكبيرة مستخدمين اليد العاملة المحلية أو المستوردة أو بهما معاً، أو ليخلوا بلادهم من العناصر المجرمة أو المشاغبة، أو لانشاء يوتوبيات (مدناً مثالية) للمضطهدين بسبب عقائدهم الدينية أو السياسية. وسواء أكان هدفهم أن يسرقوا وينهبوا، أو يبشروا، أو يزرعوا القطن، أو يعبدوا الله في مكان جديد باسلوبهم الخاص، فقد كانت النتيجة واحدة على كل حال. فقد تأسست مستعمرات راسخة، بعضها نما وكون أمماً جديدة، بل دولاً أقوى من الدول التي وفد منها هؤلاء المستعمرون.

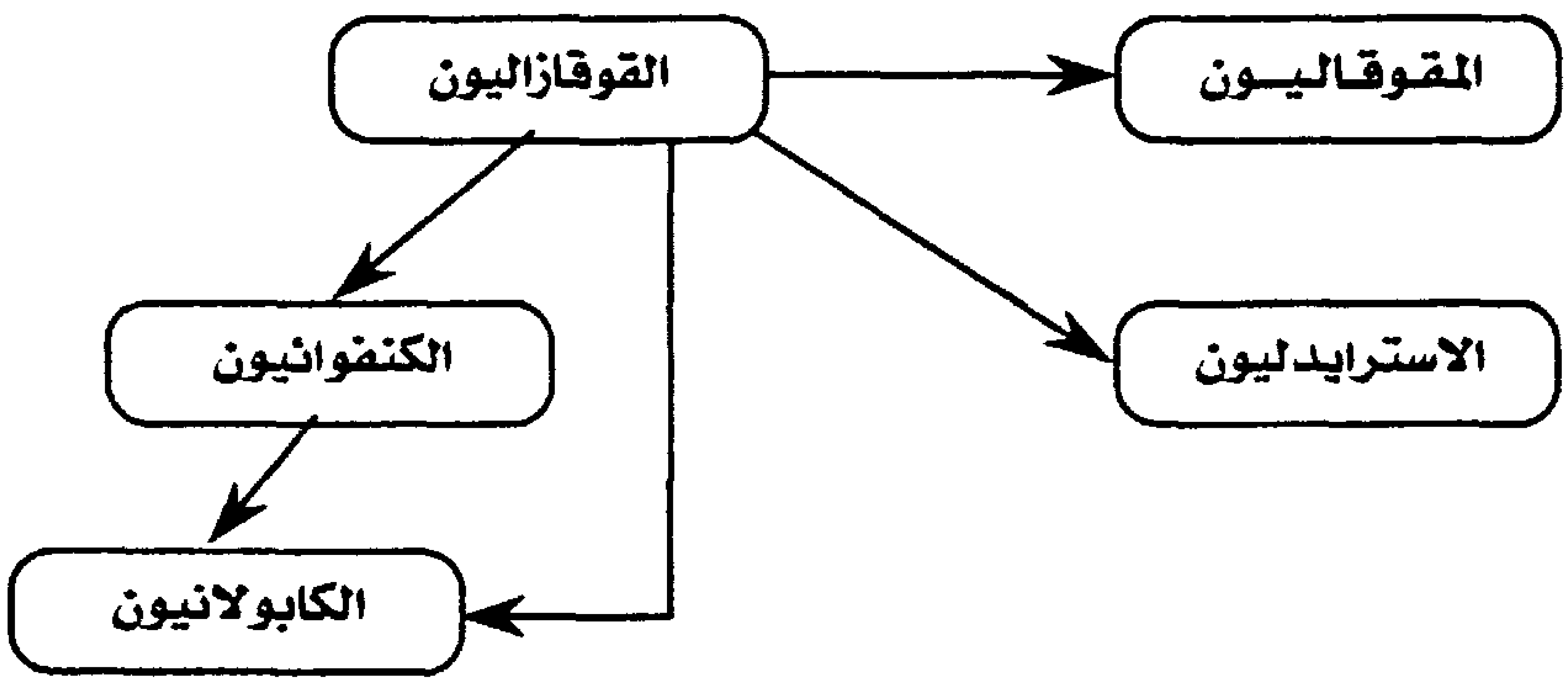
وقد لاقت المستعمرات التي يناسب مناخها الاوروبيين نجاحاً كبيراً، وفي هذه المستعمرات جاء المستوطنون بزوجاتهم وأطفالهم، وكان الوطنيون مجرد جماعين للقوت أو ممارسين للزراعة البسيطة، وحيث تعرضوا أيضاً لامراض جديدة ليس عندهم مناعة ضدها. أما حيث كان المناخ شديد الحرارة والرطوبة بالنسبة للاوروبيين فقد جلبوا الزنوج، وجاء هؤلاء بالملاريا. أما حيث كان الجو رقيقاً للغاية والشتاء قارس البرد، والصحراء قاحلة جداً، مما لا يتناسب مع راغبي الربح من المشتغلين، فقد ترك المستعمرون أهلها وشأنهم. وحيث كان السكان الاصليون يمارسون الزراعة الكثيفة والراقية على نطاق واسع وكانوا مهرة في الفنون والحرف والتجارة، ولهم مدنية وحياة حضرية وثقافية، وحيث كانوا مستقرين في الأرض متكاثفين فيها، يقاومون الامراض الوبائية، فقد بدأ الاوروبيون بانشاء شركات تجارية، ثم حكومات استعمارية، اختفى معظمها الآن أو تلاشى.

ومنذ عام ١٤٩٢[١] اشتركت عناصر اقليمية معينة من مجموعتين

---

(١) دراسة مترجمة.

بشريتين كبيرتين اشتراكاً فعالاً بصفة خاصة في هذه العمليات التي تمت عبر البحار. هذه العناصر هي الاوروبيون الغربيون والزنوج. كما اشتركت بدرجة أقل عناصر الهندوس والمسلمين الهنود، والعناصر الصينية واليابانية. أما الأقزام فقد تركوا وشأنهم منعزلين في بيئتهم الرطبة الظليلة. ولم يحدث أن تعرضت بلاد البابوان أو الجزر الميلاليزية لهجرات ضخمة، كما لم يحدث أنهم ازيحوا عن اوطانهم. أما ضحايا هذه الحركات بصفة اساسية فقد كانوا الهوتنتوت والبوشمن والهنود الامريكيين والبولينيزيين والاستراليين الاصليين.




شكل الاتجاهات الرئيسية لحركة تدفق المورثات منذ ١٤٩٢

ويبين الشكل ٨ الاتجاهات الرئيسية لحركة تدفق المورثات منذ عام ١٤٩٢، حيث يظهر أن الصفات الكنغوانية مقصورة على الزنوج، والصفات المغولانية مقصورة على الهنود الامريكيين. وقد كان الصينيون بطبيعة الحال يتسللون بأعداد كبيرة إلى جنوب شرق آسيا واندونيسيا والتبت ومنشوريا، ولكن هذه المناطق كانت مغولانية الصبغة بصفة عامة إن لم تكن مغولانية تماماً. كما هاجر الهندوس والمسلمون من شبه جزيرة الهند إلى

شرق إفريقيا وجنوبها، وإلى فيجي وترينداد والغيانات، ولكنهم من وجهة نظرنا قوقازانيون تماماً، أو معظمهم كذلك.

وقد تلاقت شعوب لم تتلاق من قبل منذ آلاف السنين، أو على الاقل منذ نهاية عصر البلايستوسين، تلاقت وتزاوجت ونشأت منها اجيال خلاسية خلال القرون العشرين الاخيرة منذ أن بدأت مستعمرة سانتو دومنجو على يد الاسبان. ويستطيع علماء الوراثة، بملاحظاتهم الدقيقة للنتائج التي حدثت عن هذا الاختلاط، أن يدرسوا أثر قوانين الوراثة على الإنسان، كما أنها تمكن الانثروبولوجيين الطبيعيين من معرفة اصول عدد من الشعوب الخلاسية التي كانت لغزاً بالنسبة لهم من قبل. وسيجد الدارسون للعلاقات المتبادلة بين السلالات، التي تحدث في الوقت الحاضر، الادلة على أن الطبيعة البشرية لم تتغير، على الاقل في هذا النمط من العلاقات.

## أمريكا اللاتينية(١)

في عام ١٤٩٣ – على أثر اكتشاف كولومبس لأمريكا – قسم البابا الكسندر السادس، وهو اسباني الاصل، المناطق التي تقع فيما وراء البحار والتي لم تكتشف بعد بين أسبانيا والبرتغال، بخط على الخريطة، يمتد شمالاً وجنوباً على بعد ١٠٠ ميل بحري غربي جزر الأزور، ومعنى هذا أن البرتغال لن تحصل إلا على جزء صغير من أمريكا اللاتينية حول برنامبوكو

---

(١) المراجع عن الاستيطان في أمريكا اللاتينية وتاريخها ضخمة جداً. ونحن نوصي بالآتي:
James: Latin America. G. M. Foster: Culture and Conquest: America's Spanlsh Heritage, VFPA, No. 27 (1960). J. A. Crow. The Epic of Latin America (New York: Doubleday, 1946).

فاحتج جون الثاني ملك البرتغال على هذه القسمة، ولاسيما وهو يمتلك اسطولاً أقوى من اسطول الاسبان، ومن ثم تزحزح هذا الخط غربي الازور بنحو ٣٧٠ ميلاً بحرياً، وذلك طبقاً لمعاهدة توردسيلاس التي وقعت في العام التالي وقد سمح هذا للبرتغال بأن تضع يدها على الجزء الشرقي من البرازيل الحالية.

وكان الاسبان تحت قيادة فرديناند وايزابيلا قد نجحوا في طرد آخر العرب واليهود من أسبانيا عام ١٤٩٢، فيما عدا اولئك الذين آثروا اعتناق الكاثوليكية، ورغم ذلك فقد كانت الحياة غير مستقر، وخصوصاً بالنسبة لليهود السابقين، الذين خشى الكثير منهم مواجهة محاكم التفتيش، فانتهزوا الفرصة للفرار إلى العالم الجديد، حيث يوجد احفادهم الآن بين أعرق الاسر الاسبانية الارستقراطية، مثل المدينا في شيلي.

وبعد مغادرة العرب للاندلس، انتشر الاسبان والبرتغاليون الشماليون نحو الاندلس وجنوبي البرتغال التي فقدت جزءاً من سكانها المسلمين السابقين وهنا أسسوا ضياعاً واسعة (لاتيفونديات)، وبذلك وضعوا اساس نمط من الاستقرار الزراعي والحياة الايبيرية نقلوه معم عندما فتحوا العالم الجديد. وزاد تحمس الاسبان نحو التبشير بالمسيحية، ولاسيما بعد انتصارهم على المسلمين، وزاد هذا التحمس، ما وجدوه من عادات هندية اصلية، مثل التضحية بالبشر وأكل لحومهم. هذا إلى أن النظام الاجتماعي للاسرة الايبيرية لم يجد غضاضة في الاتصال الجنسي خارج نطاق الاسرة، ومن ثم نمت بسرعة طبقة مولدة جديدة تعرف بالمستيزو. ولما كان المستيزو طبقة وسطى تعبر الهوة بين الهنود والاسبان، فقد عمل الاسبان على الاكثار منها بالتزاوج أو الاتصال الجنسي بالهنديات. لأن ذلك كان يتفق مع مصلحتهم.

وكان هناك – حسب التقدير المعقول – عام ١٤٩٢ نحو ٤,٥٠٠,٠٠٠

هندي في المكسيك، و ٨٠٠,٠٠٠ في أمريكا الوسطى، و ٦,٧٨٥,٠٠٠ في أمريكا الجنوبية. وكان معظم هؤلاء الاخيرين يتركزون في المرتفعات الممتدة من كولومبيا حتى شيلي. وكان يسكن امبراطورية الانكا وحدها نحو ٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، أما تقدير عددهم في البرازيل فكان مليون نسمة واحدة، أي أكثر من عشرة امثال عدد الهنود الموجودين الآن في البرازيل وقد ضاعف الهنود عددهم مرة واحدة على الاقل في جبال الانديز منذ عهد بيزارو.

وفي خلال نصف القرن الاول من الاستعمار هاجر ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ اسباني من مختلف الطبقات الاجتماعية وانتشروا في أمريكا اللاتينية. ورغم أن اوائل المستوطنين جاءوا من أسبانيا كلها، إلا أن معظمهم كانوا من الاندلس واسترامادورا. ولكن الريادة انتقلت بعد ذلك إلى القشطالانيين والباسك. وقد ظل العنصر الاوروبي في المستعمرات الاسبانية – التي اصبحت فيما بعد جمهوريات أسبانيا، فيما عدا شيلي – حيث استقر المان كثيرون بين فلباريزو وبورتومونت. وهنا حلوا محل الهنود الارواكان، الذين لم يقهرهم السلاح بعد ١٨٥٠، بقدر ما قهرتهم الخمر. وتكاد تخلو سيلي من السكان فيما بين بورتومونت ومضيق ماجلان. ويوجد في مقاطعة ماجلاني، وهي أغنى مقاطعات البلاد، عناصر كبيرة من البريطانيين، والدلماشيين، والاسكنديناويين، والبولنديين، وغيرهم من شعوب شمالي أوروبا وشرقها، الذين لا يعبأون بقسوة المناخ في هذا الاقليم.

وفي بدء الاستعمار لم يكن في استطاعة البرتغاليين، وعددهم لا يزيد على المليون حينئذ، أن يرسلوا عدداً كبيراً من المستعمرين إلى أمريكا اللاتينية ورغم أن الملك عمانويل جعل النفي عقوبة لعدد من الجرائم، إلا أنه لم يستطع أن يرسل إلى البرازيل أكثر من ٤٠٠ مستوطن عام ١٥٣١، حيث

سبقهم عدد ضئيل من المغامرين معظمهم من المتحولين من اليهودية إلى المسيحية. بل أنه حتى عام ١٥٨٥ لم يكن هناك أكثر من ٤٣٠٠٠ اوروبي و ١٤٠٠٠ زنجي في البرازيل. أما أكبر زيادة في عدد سكان البرازيل فقد حدثت في بدء القرن التاسع عشر عندما بدأ الايطاليون والالمان والبولنديون والروس والاسبان واليابانيون واللبنانيون يتدفقون عليها. وفيما بين ١٩٠٠ و١٩٥٧ فقط وصل إلى البرازيل أكثر من أربعة ملايين من أصل غير برتغالي.

وقبل الغاء الرق عام ١٨٨٨ وصل إلى البرازيل أكثر من ٤ ملايين زنجي، من أربعة اجزاء مختلفة من إفريقيا. الهاوسا والفولا والماندنجو من السودان واليوروبا والاشانتي والفون وغيرهم من غرب إفريقيا. والبانتو من انجولا وموزمبيق. وهكذا حصلت البرازيل على عدد كبير من أشد القبائل حباً للقتال، واكثرها مهارة وتقدماً في إفريقيا.

ويبين الجدول التالى النتيجة السلالية لهذا الاستعمار، ولانشاء الضياع، واختلاط السلالات، والانتخاب الطبيعي للبيئة، وللانتخاب الاجتماعي الذي تم في أمريكا اللاتينية منذ وصول اوائل الايبيريين اليها. ومن هذا الجدول يتضح أن الهنود لا تزال نسبتهم تتراوح بين ٤٦ و ٦٠٪ في الدول الجبلية وهي جواتيمالا واكوادور وبيرو وبوليفيا. أما الخلاسيون Mestizo فهم الاغلبية فى كل الاقاليم ذات التقاليد الاسبانية، فيما عدا كوستاريكا واوروجوي وارجنتينا، هذا بالاضافة إلى أن جنوبي البرازيل يعتبر هذه المناطق أكثر الاقاليم ذات الصبغة الاوروبية في أمريكا اللاتينية، وكذلك أقل الاقاليم استقطاباً للهنود في عصر ما قبل الاستعمار، وهي أيضاً من الناحية المناخية، أكثر الاقاليم ملاءمة للاوروبيين.

وتبدو شيلي للمسافر انعابر أوروبية الصبغة، حيث يجد امامه كثيراً من

## جدول يبين التوزيع السلالي في أمريكا اللاتينية(*)

| | عدد السكان بالألف (١٩٥٧) | اوربيون | هنود | خلاسيون مستيزو | مولدون زنوج + مولدون | آخرون |
|---|---|---|---|---|---|---|
| المكسيك | ٣١,٤٢٦ | ١٥ ٪ | ٢٩ ٪ | ٥٥ ٪ | أقل من ١ ٪ | |
| جواتيمالا | ٣,٣٤٩ | ٥ | ٦٠ | ٣٥ | أقل من ١ ٪ | |
| هندوراس | ١,٧١١ | ٢ | ١٠ | ٨٦ | ٢ | |
| السلفادور | ٢,٢٦٨ | ١١ | ١١ | ٧٨ | - | |
| نيكاراجوا | ١,٣٠٢ | ١٧ | ٥ | ٦٩ | ٩ | |
| كوستاريكا | ١,٠١٤ | ٨٠ | أقل من ١ ٪ | ١٧ | ٢ | |
| بناما | ٩٣٤ | ١١ | ١٠ | ٦٥(١) | ١٣ | |
| كولومبيا | ١٣,٢٢٧ | ٢٠ | ٧ | ٦٨ | ٥ | |
| فنزويلا | ٦,١٣٠ | ٢٠ | ٧ | ٦٥ | ٨ | |
| اكوادور | ٣,٧٧٧ | ١٥ | ٦٠ | ٢٢ | ٣ | |
| بيرو | ٩,٩٢٣ | ١٥ | ٤٦ | ٣٨ | - | |
| بوليفيا | ٣,٢٣٥ | ١٥ | ٥٣ | ٣٢ | - | ١ ٪ |
| تشيلي | ٧,٠٠٥ | ٣٠ | ٥ | ٦٥ | - | |
| البرازيل | ٦١,٢٦٨ | ٦٢ | ١ | ٢٦(١) | ١١ | |
| باراجواي | ١,٦٣٨ | أقل من ١ ٪ | ٣ | ٩٧ | - | |
| اوروجواي | ٢,٨٠١ | ٩٠ | - | ٣ | - | |
| الارجنتين | ١٩,٦٧٨ | ٩٧ | ٠ | ٣(٢) | - | |

(*) معتمد اساساً على كتاب ب. أ. جيمس «أمريكا اللاتينية» ١٩٥٧.

(١) يشتملون على بعض الزنوج.

(٢) لا يشمل ذلك الشيلوئيين الذين يعملون في الارجنتين ويحملون الجنسية الشيلية.

الشقرة الالمانية والاسكندينـاوية حول سانتياجو، وكثيراً من اليوغوسلافيين واصحـاب البشرة الفـاتحـة في بونتـا أريناس. هذا إلى أن بعض الهنود الذين اختلط بهم الاسبان كانوا فـاتحي البشرة. ويصـدق هذا بصـفة خـاصـة على الشيلوئيين وهي سـلالة نشطة جـاءت من جـزيرة شيلو، وكـان يسكن هذه الجـزيرة المعـتدلة البـاردة الرطبة، في الاصل هنود الشونو، وهم على صلة قـرابة بالالاكالوف. وقد اسـتطاع المسـتوطنون القـادمون من شمال غـرب أسبانيا أن يستوعبوهم، ثم دخل في هذا المزيج بعد ذلك الهنود الاراكوانيون من أرض شيلي، وربما كان الشولو اصحاب بشرة فاتحة، متلائمين مع البرد مثل الالاكالوف، أما الاراكوانيون فهم قصار القامة عراض المناكب.

ويزرع الشـيلوئـيون البطاطس، ومن ثم شـهـدوا – مـثل الايـرلنديين قـبل مـجاعـة البطاطس – انفجـاراً سكانياً. وهم قـصار القامـة مـسـتديرو الصـدور، اقوياء العضلات، سود الشعر، مـوردو الخـدود، تصدر عنـهم طاقـة كبـيرة، ويتحملون المناخ العاصف. ولا يمكن أن يقال عنهم أنهم مستيزو لأول وهلة، نظراً للون بشـرتهم الفـاتح. وهم يقـومـون بكل الاعـمـال خـارج المنازل، من الملاحة في السفن الصغيرة إلى رعي الماشية والأغنام أو العمل حول حقول الزيت، وذلك على جـانبي جبـال الأنديز من الدرجـة العـرضـيـة الاربعين جنوباً. ومعظم سود الشعر الذين يرون بين الشقر في بونتا اريناس شيلوئيون.

ويعتبر الشيلوئيون موضوعاً شائقاً لدراسة الاختلاط السلالي. والدراسة الوحيدة للاختلاط بين الهنود والاسبان هي التي قام بها ج. د. وليامز على المايا في يوكـاتان(1) وقد قام وليامز عام ١٩٢٧ بعمل قياسات على ٨٨٠ من ذكـور المايا و ٦٩٤ من اناثهم في يوكـاتان، كـمـا تثبت مـلاحظات عـديدة

---

(1) G. D. Williams: Maya-Spanish Crosses in Yucatan", PMP, Vol. 13, No. 1 (1931), pp. 1-256.

عنهم، وحدد فصائل دمائهم. ولما كان الهنود قد اختلطوا بالاسبان ما يزيد على ٤٠٠ عام، دون الاحتفاظ بالانساب، فإن وليامز اضطر إلى تقسيمهم إلى عدة اقسام فرعية حسب ١٤ ملاحظة. منها لون البشرة ولون الشعر، وشكل الشعر ولون العين ونمو شعر اللحية. ثم اخضع الاقسام الفرعية الخمسة التي حددها لاثنين وخمسين قياساً.

وقد وجد أن متوسط قياساتهم تختلف باستمرار اختلافاً مطرداً له دلالة بين الهنود والاسبان. وهذا واضح في كل المقاييس والنسب التي يختلف فيها كل من العنصرين اختلافاً واضحاً. ثم قارن فصائل الدم أ، ب، والسائدة في الاقسام الخمسة، واكتشف أن توزيع الفصيلة ويتراوح بين ٩٥٪ في أكثر الناس شبهاً بالهنود إلى ٥٤,٢٪ في اكثرهم شبهاً بالاوروبيين. وأن فصيلة أ تتراوح بين ٢,٥٪ إلى ٢٥٪، وأن فصيلة ب تتراوح بين ٢,٥٪ إلى ١٢,٥٪، وأن فصيلة أ ب تتراوح بين صفر و ٨,٣٪.

وهكذا أكدت نتائج وليامز عام ١٩٢٧، عندما كان تحليل فصائل الدم يستخدم لأول مرة في الدراسات السلالية، أن كل عنصر من العناصر المختلطة اختلاطاً طويلاً مستمراً يحتفظ بمكوناته الموروثة دون طغيان ودون تغير غير عادي. وليس هناك دليل على اختيار الزوجة، إلا في المزارع حيث يميل الرجال فاتحو البشرة إلى أن يتزوجوا من نساء فاتحات البشرة. أما في القرى حيث طرق الزواج التقليدية سائدة فلا اختيار أو تفضيل في الزواج.

أما العنصر الثالث في أمريكا الجنوبية وهو الزنوج فتاريخه قديم، وله توزيعه الجغرافي الخاص. وهو أيضاً في بعض المناطق تاريخ الاستيعاب. فمثلاً زاد عدد الزنوج على عدد الاسبان في المكسيك في منتصف القرن

السادس عشر وزاد الزنوج على الاسبان ثلاث مرات. أما اليوم فالزنوج قد استوعبوا تماماً في المستيزو(١).

وقد جلب الزنوج بصفة خاصة، من كولومبيا حتى البرازيل، إلى الاقاليم الحارة الرطبة لكي يعملوا في مزارع قصب السكر، ثم في مزارع السيسال والطباق. وبعد ذلك صحبوا الباحثين عن المعادن من البرتغاليين إلى ميناس جرائيس وماتو جروسو، حيث يوجد احفادهم الآن في مزارع البن ومراعي الماشية(٢). وقد اختلط الزنوج بالاوروبيين والهنود اختلاطاً تاماً، حتى أن رجال التعداد البرازيليين يجدون صعوبة تجري في تقسيم السكان حسب سلالاتهم. ويرون أن المولدين يفرقون الزنوج عدداً بنسبة ٢,٥ إلى ١ وقد أزال علماء الوراثة حيرة رجال التعداد، ففي احدى مناطق الاختلاط السلالي الكبرى، منطقة نوردستينوس في ولاية ساوباولو، قرر د. ف. روبرتس و ر. و. هيورن أن نسبة الافريقيين (من غرب إفريقيا) ٢٥٪، ونسبة الهنود ٩٪ ونسبة البرتغاليين ٦٥٪(٣) من السكان. وهؤلاء قالوا في التعداد أنهم لا يعرفون اصولهم.

## برمودا، وبهاما، وجزر الهند الغربية، وهندوراس البريطانية، والجيانات

لا توجد دولة واحدة في أمريكا اللاتينية حتى ولا البرازيل أو بنما زنجانية الصبغة، أو أكثر زنجانية من الولايات المتحدة. فجزر المحيط

(1) O. Pl-Sunyer: "Historical Background of the Negro in Mexico", JNH, Vol. 42, No. 4 (1957), pp. 237-46.

(2) G. Freyre: The Masters and the Slaves (New York: Alfred A. Knopf: 1946).

(3) D. F. Roberts and R. W. Hiorns: "Methods of Analysis of a Hybrd Population" H. B., Vol. 37. No. 1 (1965) pp. 38-43.

الاطلنطي، فيما عدا كوبا، وبورتوريكو، من برمودا حتى توباجو، وهندوراس البريطانية، يسكنها اساساً الزنوج والمولودون، وهو تعبير مغرق في التبسيط لحالة اختلاط وراثي كبير، حدثت خلال ٤٠٠ عام.

ويزداد الاختلاط السلالي تعقيداً في ترينداد وغيانا البريطانية، وذلك لوجود عدد كبير من الناس جلبوا من الهند للعمل في مزارع قصب السكر وفي سورينام (غيانا الهولندية سابقا) يوجد كل من الهندوس والاندونيسيين كما يوجد في داخل الغيانات قرى باكملها يسكنها ما يسمى بزنوج الادغال، احفاد العبيد الفارين. وقد تمت دراسات عديدة لسكان جزر الهند الغربية المختلفة الاخرى، حيث الاختلاط السلالي أبسط مما هو عليه في ترينداد والغيانات، وهي جزر يكثر البيض في بعضها ويكثر السود في بعضها الآخر.

ففي بورتوريكو حيث معظم السكان من أصل اسباني، وجد ف. ب. ثيم نظاماً اجتماعياً محكماً يمنع اختلاط السكان مختلفي الاصول السلالية، وأن لون البشرة هو أهم عامل في اختيار الزوجات(١). كذلك في جاميكا حيث تنعكس نسبة السود والبيض تماماً عما هي عليه في بورتوريكو هناك أيضاً نظام اجتماعي قائم على لون البشرة(٢).

أما في المارتنيك فليس الامر كذلك تماماً(٣). فمن بين سكانها البالغ عددهم ٢٥٠,٠٠٠ نسمة، لا يقيم في الجزيرة اقامة دائمة سوى ١٧٦٠

(1) F. P. Thieme: The Puerto Rican Population: A. Study in Human Biology, APAM-M (1959).

(2) C. B. Davenport and M. Steggerda:Race Crossing in Jamaica CIP; No. 395, 1929.

(3) J. Benolst: "Les Martiniquais: Anthropologie d'une population metisse". BSAP. Vol. 4 (1963), pp. 241-432.

جدول يبين التوزيع السلالي في برمودا، وبهاما، وجزر الهند الغربية، وهندوراس البريطانية والغيانات(*)

| | عدد السكان بالألف (١٩٥٧) | بيض | زنوج | هنود امريكيون | هنود شرقيون | آخرون |
|---|---|---|---|---|---|---|
| برمودا | ٤٣ | ٪٤٠ | ٪٦٠ | | | |
| بهاما | ١١١ | ١٥ | ٨٥ | | | |
| كوبا | ٦,٤١٠ | ٧٣ | ٢٦(١) | | | ١٪(٢) |
| هايتي | ٣,٣٩٠ | - | ١٠٠ | | | |
| جمهورية الدومنيكان | ٢,٦١٣ | ١٥ | ٨٥ | | | |
| بوراوريكو | ٢,٣٥٠ | ٧٥ | ٢٥ | | | |
| جاميكا | ١,٦٨٧ | ٢٣ | ٧٧ | | | |
| الانتيل الصغرى | ١,٥٤١ | ١-٢٣ | ٧٧-٩٩ | أقل من ١٪ | | |
| ترنيداد وتوباجو | ٨٩٤ | ٢٩ | ٤٥ | | ٪٢٦ | |
| هندوراس البريطانية | ٩٦ | أقل من ١٪ | ٧٩ | ٢١(٣) | | |
| غيانا البريطانية (سابقاً) | ٥٩٨ | ٣ | ٣٥(٤) | ٤ | ٤٦ | ١٢(٥) |
| غيانا الالمانية | | | ٤٧(٦) | ٣ | ٤٨ | |
| سوريتام | ٣٤٠ | ٢ | | | | |
| غيانا الفرنسية | ٣٥ | ٥ | ٦١ | ٤ | | |

(*) من كتاب ب. أ. جيمس «أمريكا اللاتينية» (١٩٧٥) وغيره من المراجع.
(١) يشتملون على ١٤٪ مما يسمى بالمستيزو في التعداد الكوبي.
(٢) صينيون.
(٣) هنود المايا. الكاريب السود يوضعون تحت الزنوج.
(٤) و (٦) يشتملون على زنوج الادغال.
(٥) خلاسيون غير مصنفين.

شخصاً وهم سلالة لم تختلط، مكونة من الاسر الفرنسية القديمة، وهؤلاء يكونون ٠,٧٣ ٪ من مجموع سكان الجزيرة. وهؤلاء الكريول كما يسمون انفسهم يمتلكون ٨٠٪ من مزارع الجزيرة، ويمارسون الاضواء (نظام زواج داخلي) باحكام. وكان اسلافهم يكونون في عام ١٧٤٠ ٢٠ ٪ من سحان الجزيرة. ولكن مع تدفق سيل جديد من الرقيق الاسود إلى الجزيرة تضاءلت نسبتهم كثيراً، وأصبح عددهم من القلة بحيث لم يكن له تأثير يذكر ولم يعد تدفق المورثات منهم إلى السكان الملونين، ذا قيمة، فهبط كثيراً وثبت حيث هو الآن.

ويمكن تمييز مجموعتين بين السكان الملونين: بورجوازية حضرية، وهؤلاء تنعكس عليهم صفات الكريول إلى حد كبير، والاغلبية الكبرى من السود الافريقيين. وقد سجل من بين هؤلاء ٥٠ ٪ من الاطفال غير الشرعيين عام ١٩٤٥، كما كان ٥٩ ٪ من السيدات الحوامل غير متزوجات. وتلتف الاسرة في هذه المجموعة حول الام، متزوجة أو غير متزوجة، وهذه يغشاها الرجل بعد الآخر، حتى أن الحال تصل إلى درجة من الفوضى من العسير معها معرفة آباء الاطفال، وهي أيضاً فوضى وراثية(١).

وقد درس ج. بنواست السكان الملونين على أساس توزيع خمس فصائل للدم وتذوق الـ PTC، ووجد أن الاصل الاوربي في الجزيرة يتراوح بين ١٥ و ٢٥ ٪ من السكان. أما عن مقاييسهم فقد وجد أنهم وسط بين الفرنسيين الاوروبيين والافريقيين الغربيين، ودرجة التنوع فيما بينهم لا تختلف كثيراً عما هي عليه في سكان العالم الآخرين، مخلطين أو غير مخلطين. ولكن هناك بعض صفات أكثر تنوعاً من غيرها. وأكثر الصفات تنوعاً، من بين

(١) لا يوجد في كتب الاثنوجرافيا الافريقية مثيل لهذه الحالة من الفوضى العائلية، حتى يعتقد أنها من مخلفات حالة تقدم الاسر بين العبيد الذين كانوا يعملون في المزارع الواسعة.

١٧ صفة هي على الترتيب ارتفاع الأنف، النسبة الانفية، عرض الأنف، ارتفاع الوجه، اتساع الفم، المسافة بين الركنين الانسيين للعين، أما وصف صفات لون البشرة وشكل الشعر فهي تنبئ بصفات الوالدين.

وقبل أن يحاول بنواست تقسيم المجموعة التي أجرى عليها قياسات، حسب معاملات الارتباط بين مختلف الصفات التي درسها، سواء كانت قياسية أو وصفية، ووجد ٢٣ علاقة ذات دلالة احصائية، كما هو مبين في الجدول التالي.

**جدول يبين معامل الارتباط بين لون البشرة وغيره من الصفات في السكان الملونين بجزيرة المارتنيك**

| وصفية | r | قياسية | r |
|---|---|---|---|
| شكل الشعر | + ٠,٥٣٠ | عرض الأنف | + ٠,٤١٦ |
| شكل الشفة العليا | + ٠,٣٧٢ | النسبة الانفية | – ٠,٣٥٥ |
| لون العين | + ٠,٣٥٠ | عرض الفم | – ٠,٢٨٢ |
| لون الشعر | + ٠,٣٣٥ | البعد بين ركني العين الخارجيين | – ٠,٢٦٠ |
| شكل الشفة السفلي | + ٠,٢٥٧ | النسبة الاذنية | – ٠,٢٣٩ |
| نمو اللحية | + ٠,٢٥٣ | طول الذراع النسبي | – ٠,١٦٨ |
| | | طول الجذع النسبي | – ٠,١٥٩ |

معامل الارتباط بين النسبة الانفية وغيرها

| وصفية | r | قياسية | r |
|---|---|---|---|
| شكل الشعر | – ٠,٣٦١ | عرض الفم | – ٠,٤٤٥ |
| شكل الشفة العليا | – ٠,٣٤٩ | البعد بين ركني العين الانسيين | – ٠,٢٥٧ |
| شكل الأنف الجانبى | – ٠,٣١٨ | البعد بين ركن العين الوحشيين | – ٠,٢٣٣ |
| لون العين | – ٠,١٨٨ | طول الرأس | + ٠,٢٠٤ |
| شكل الشفة السفلي | | | |

لون البشرة كما يبدو هو أكثر الصفات حساسية من حيث الدلالة السلالية عموماً، حيث أنه يرتبط ارتباطاً ذا دلالة بست صفات وصفية أخرى وثمان صفات قياسية. أما الصفة التالية في الاهمية فهي النسبة الانفية، إذ هي ترتبط ارتباطاً له دلالة بخمس صفات وصفية أخرى، إلى جانب لون البشرة، وإلى أربع صفات قياسية أخرى كذلك. وبهذه الوسيلة القياسية والاحصائية استطاع بنواست أن يجد أن الصفات الافريقية تتحد معاً، وكذلك الصفات الاوروبية.

هذه الارتباطات يمكن أن تكون الاساس الذي تبنى عليه الطبقات الاجتماعية داخل مجموعة سكانية يختلط فيها الاوروبيون والزنوج، وحيث حث أن فصلت كل سلالة نفسها عن الاخرى، ليس فقط في جزر الهند الغربية، بل أيضاً إلى حد كبير في الولايات المتحدة الامريكية.

وقد رأينا في الفصل السابع من دراسة ج. اوليفر عن التاميل أن نفس هده المبادئ تنطبق على الاختلاط بين السلالات الذي حدث بين القوقازانيين والاسترالانيين في جنوبي الهند، حيث يعتبر لون البشرة،

وضيق الأنف، علامة اجتماعية. إذن فليس عمل بنواست مجرد دراسة للمارتنيك، ولكنه مثال لأي دراسة عن الاختلاط السلالي في أي جزء من العالم.

## الروس في سيبيريا وأمريكا الشمالية

بينما كان الأسبان والبرتغال يبدأون تعميرهم للعالم الجديد، كان الروس قد بدأو أيضاً الاتجاه نحو الشرق عبر سيبيريا، مع هذه الحركة التي قادتهم إلى الاسكا ثم جنوباً إلى كليفورنيا، حيث وجدتهم طلائع الباحثين عن الذهب قد ثبتوا اقدامهم بها قبل عام ١٨٤٩(١).

بعد أن حطم الروس قوة التتار الذين كانوا قد احتووهم من الشرق ارسلت دولة الموسكو فيت في القرن الخامس عشر بعثات عبر الأورال. وما لبثت هذه البعثات أن تضخمت خلال القرون الثلاثة التالية واصبحت سيلاً عارماً، بعد أن كانت مجرد قطرات متقطعة. وفي عام ١٦٩٧ كان يسكن سيبيريا نحو ١٥٠,٠٠٠ روسي و ١٢٥٠٠٠ وطني. وفي عام ١٧٦٣ وصل المستوطنون الروس إلى المحيط الهادي. ووصلوا جزيرة كوديات عام ١٨٩٤ وبنوا قلعة روس بالقرب من خليج فرانسيسكو عام ١٨١٢ . وقد تمت هذه الحركة عبر المحيط الهادي بأقل عدد من الاشخاص.

وعندما اشترت الولايات المتحدة الاسكا من الروس عام ١٨٦٧ لم يكن يسكنها سوى ٤٠٠ روسي. ولم يصل أقصى عدد لهم إلا إلى ٧٠٠ شخص فقط. كما كان عدد الروس في قلعة روس أقل عدداً. وليس لهذه الحركة من

---

(1) L. P. Potapov: "The Discovery and Occupavon of Siberia in M. G. Levin and L. P. Potapov, eds; The Peoples of Siberia Chicago: University of Chicago Press: 1964), pp. 105-34.

قيمة إلا أنها تضمنت اختلاط الروس بالألوت Aleuts في أمريكا الشمالية. ولولا ذلك لكانت مجرد حادث حدث في التاريخ.

وربما كان المهم أن يعرف ماذا حدث للروس تشريحياً وفسيولوجياً في سيبيريا. إلا أنه ليست لدينا معلومات عن هذا. وكل ما نعلمه أن عدد سكان سيبيريا الحاليين حوالي ٣٠ مليوناً، أو ١٥ ٪ من سكان الولايات المتحدة. وأن معظم هؤلاء من أصل اوروبي. وليس للوطنيين من قيمة تزيد على قيمة الهنود أو الاسكيمو في خطوط العرض المقابلة في الولايات المتحدة الامريكية وكندا.

## التكوين السلالي لشعب الولايات المتحدة

تاريخ التعمير الاوروبي للولايات المتحدة بعد الكشف الكولومبي من عمل المؤرخ المحترف. وربما لم تعرف عنه أكثر ما يعرفه هذا الشخص الخرافي، أو الشخص العادي الذي تحرر من أجله الكتب والمجلدات(١). أما اهتمامنا فهو ينصب على تتبع آثار من سكن الولايات المتحدة - متى جاء وكيف استقر، وأين استوطن، وإلى أي حد كان اختيارهم خاضعاً لقوى البيئة قبل أن يغادروا اوطانهم الاصلية وعندما وصلوا إلى أرض أمريكا، ومن اختلط معهم.

(١) لأجل غرضنا ننصح بقراءة ما يلي على سبيل المثال :

S. E. Morison: The Oxford History of the American People (New York: The Oxford University Press; 1965), O. Handlin: Boston's Immigrants, 1790-1860 (Cambridge, Mass.: Harvard University Press; 1941). M. L. Hansen: The Atlant'c Migration, 1607-1860 (Cambridge, Mass.: Harvard University Press; 1941). M. Grant: The Conquest of a Contiment (New York: Charles Scribner's Sons; 1933). Our recommendation does not extend to any opintons or special pleadings presented in these books.

يتكون شعب الولايات المتحدة في الوقت الحاضر من احفاد ثلاثة عناصر سلالية رئيسية: الاوروبية، والزنجية، والهندية الامريكية، حسب ترتيبهم العددي. وقد اضيف إلى ذلك الاسكيمو في الاسكا، والبولينيزيون واليابانيون والصينيون في هاواي، كما يوجد يابانيون وصينيون آخرون في الولايات الاصلية.

ولم يكن اختيار المهاجرين إلى الولايات المتحدة اعتباطاً.. فقد هاجرت شيع بأكملها ومعها رؤساؤها الدينيون إلى نيو انجلند، واستقروا على رؤوس الخلجان ومصبات الأنهار. وبعد ذلك بثلاثة قرون استطاع عملاء مصانع النسيج في نيو انجلند تجنيد أيد عاملة رخيصة من قرى صقلية، وكان معظم الالبانيين الذين جاءوا للعمل في المصانع الاقلية الارثوذكسية في كورسا.. وسادت طبقة الصناع الوسطى والعمال الفنيين في نيو انجلند في بادئ عهدها بالتعمير. أما الارستقراطية الانجليزية فكانت ترى في قصورها الفاخرة في فرجينيا. وكان الصقليون عمالاً متواضعين وفلاحين مهرة نشيطين. بينما كان من بين هؤلاء الذين هربوا من بوليس هتلر أخيراً، ويبحثون عن الأمن في الولايات المتحدة كثير من العلماء والباحثين.

كان إذن هناك اختيار في المهاجرين منذ البداءة. ففي عهد الاستقرار الأول، كان من الطبيعي أن مواطني الشعوب البحرية على ساحل المحيط الاطلنطي في أوروبا هم الذين يغامرون بالهجرة باعداد كبيرة. ومن هذه الشعوب الأسبان والبرتغال. إلا أنه لم يكن ثمة ذهب يلمع، أو فضة، أو اكوام من الحجارة الكريمة تلعب بلب هؤلاء المكتشفين.

فسواحل أمريكا الشمالية الباردة كانت كثيفة الغابات، صعبة المعالم للهنود المعادين. فكان من البديهي ألا يصل اليها سوى الانجليز والفرنسيين والهولنديين.

وينقسم تاريخ تعمير الولايات المتحدة عادة إلى أربع فترات: من ١٦٢٠–١٧٩٠ ومن ١٧٩٠ – ١٨٦٠ ومن ١٨٦٠ – ١٩٢٤ ومن ١٩٢٣ حتى الوقت الحاضر. ويحدد التاريخ الأول فترة هبوط الحجاج، ورغم تقدم جيمستاون فإن أول تعدادين قد تما في العامين التاليين لهذا التاريخ. وعام ١٩٣٤ هو تاريخ اصدار قانون الهجرة التي حددت حجم الهجرة السنوية ووزعت حصصها على الدول المختلفة، بحيث لا تزيد على ٢٪ من عدد مواطني هذه الدول في البلاد عام ١٨٩٠ . وجاء المهاجرون اساساً خلال الفترة الاولى من انجلترا، ثم ثانياً من اسكتلندا والمجتمعات الاسكتلندية في شمال ايرلندا. أما الهولنديون في وادي هدسون أو السويديون والفنلنديون في وادي ديلاوير الاسفل فلم يكونوا قط اغلبية. وظل الانجليز عامة بالقرب من الساحل. أما الاسكتلنديون – كما هو متوقع – فقد شقوا طريقهم نحو الداخل في الأرض المرتفعة الاكثر خطورة.

وقد وصلت الموجة الاولى من المهاجرين، خلال العقود القليلة الاولى لهذه الفترة وكان السفر في البر عندئذ بطيئاً، كما كان الانتقال عبر البحار متقطعاً. وعندما حل عام ١٧٩٠ وجد المواطنون في كل مستعمرة الوقت اللازم والعزلة الضرورية لخلق ثقافتهم الخاصة، وتقاليدهم المميزة، وشعورهم بالعزة القومية، وشعور عام نحو الانتماء إلى أمة جديدة.

وقد سجلت في تعداد عام ١٧٩٠ اسماء رؤساء الاسر القاطنين في المقاطعات وزمامات المدن. ولاتزال اسماء أسر ماساشوستس، وهي من أعرق معاقل الانجليز في الولايات، ظاهرة في أدلة تليفونات عام ١٩٦٥(١).

---

(1) S. N. D. North (Director. Bureau of the Census): Heads of Famllies at the First Census of the United States Taken in the Year 1790, Massachusetts (Washington, D. C. Government Printing Office: 1908).

فقد ظهر في ذلك الحين ٩٨٩ يحملون اسم سميث، و ٣٤٠ يحملون اسم هوايت، و ١٨٧ يحملون اسم آدامز. أما بوتنام فشمل ٨٠ اسماً، واليوت فشمل ٥٨، ٦٢ يحملون اسم ايمرسون، وعلى قمة أسر البراهمة البوسطونيين يوجد ٢٧ يحملون اسم فوريس، و١٦ يحملون اسم لوويل، ٩ نابوت وظهر واحد فقط يحمل اسم سالتونستول. وأما العنصر الغالي فيظهر في ١٥٠ اسماً يبدأ بالمسابقة ماك و ٦٠ يحملون اسم كيلي، و ٨ يحملون اسم موري و ٦ يحملون اسم اوبرين و ٣ يحملون اسم سوليفان. ورغم اختلاف نسب العناصر المختلفة في الولايات المتحدة إلا أنها واحدة لا تختلف.

أما الفترة الثانية فتمتاز بوصول كثير من الالمان والاسكنديناويين والايرلنديين مع الانجليز. وقد تكرر التاريخ الانجليزي في الولايات المتحدة، حيث أنهم يتكونون من الكلت والالمان والاسكنديناويين. ومن ثم ظلت الصفات الوراثية كما هي.

تغير نمط المهاجرين بعد عام ١٨٦٠، فوفد الصقالبة والروس والبولنديون واليهود والايطاليون من شمال ايطاليا وجنوبها واغريق جزر البلوبونيز واللبنانيون، ولحقوا بجدول المهاجرين، الذي تحول بعد ذلك إلى سيل جارف فيما بين عامي ١٨٩٠-١٩٢٤، عندما أوقف فجأة. ومنذ ذلك الحين كان أهم ما يصل الولايات المتحدة من اللاجئين الفارين من وجه الظلم في احدى صوره، وقد افادت الولايات المتحدة من كل صور الاستبداد عبر الاطلنطي.

وتدل دراسة مناطق استقرار الجماعات القومية المختلفة في البلاد على ميل الإنسان عادة إلى استيطان مناطق تشبه بلاده الاصلية، حيث ظروف العمل تشبه ما تعود عليه في وطنه الاصلي. ومثله في ذلك مثل الصياد القديم الذي يقتفي أثر الصيد، سواء كان ذلك حصاناً برياً أو وعل الرنة. وبعد

أن استقر المستوطنون كونوا جماعات أو جيوباً محلية صغيرة، محتفظين بنوع من الروابط مع مجتمعاتهم الاصلية التي وفدوا منها، واستمروا عدة اجيال في هذه الجيوب يتحدثون لغاتهم الاصلية، على الاقل داخل منازلهم، ولا تزال الالمانية تسمع حتى الآن في مزارع بنسلفانيا ووسكونسين الانيقة، والسويدية في مينسوتا، والباسك في مراعي نيفادا، والارمينية في تلال فريزلو المغطاة بأشجار الكروم، والبرتغالية حيث يوجد قارب مستعد للايجار والكوكني (لغة أهل شرقي لندن) في شوارع فيلادلفيا. وكانت أمريكا أقرب إلى أن تكون مقصفاً يضم انواع الطعام المختلفة منها إلى بوتقة تنصهر فيها هذه الاطعمة.

في خلال القرنين الاخيرين ازداد طول الامريكيين المنحدرين من أصل بريطاني - وهم أسهل في التعرف اليهم - في المتوسط ٣,٥ بوصات، كما ازداد وزنهم عن آبائهم. وما أن حلت الثلاثينيات حتى بدا تعادل هذه الزيادة. ويرى ج. ت. باولز أن التوازن - إذا استخدمنا الفاظه - بين الامريكيين سيتم الوصول إليه فيما بين عامي ١٩٧٠-١٩٨٠ بحيث يصل متوسط الطول للذكور إلى حوالي ست اقدام أو أكثر من ذلك قليلاً(١). وهذا هو الطول الاقصى الذي وصلنا إليه حتى الآن. ولقد اصبحنا الآن في العقد الذي تنبأ باولز بأن الطول سيصل فيه إلى اقصاه، والذي سيكون عيداً لصناع الاحذية.

وقد ازداد امريكيون آخرون طولاً، بل أن بعض الذين وصلوا حديثاً جداً اصبحوا أسرع في الطول. وقد كان متوسط طول الجنود الامريكيين في الحرب العالمية الثانية من أصل ايطالي وبرتغالي أو غيرهما من بلاد البحر

---

(1) G. T. Bowles: New Types of Old Americans at Harvard (Cambridge: Mass.: Harvard University Press: 1932).

المتوسط خمس اقدام وست بوصات ونصف البوصة (١٦٩ سنتيمترا)، وهذا أطول من اسلافهم، كما أنهم أقصر من الامريكيين الاسكنديناويين ببوصتين ونصف بوصة فقط[1]. وتختلف معدلات الطول في اسكنديناوة وبلاد البحر المتوسط الاوروبية بما يزيد على ضعف هذا الرقم.

كما حدث تغير في النسب الرأسية، ولكن بمعدل طفيف. فكل الامريكيين الذين انحدروا من اصول ذات رأس عريض يميلون الآن لكي يصبحوا أصحاب رءوس متوسطة أو مستطيلة. وقد تهبط النسب الرأسية فجأة في جيل واحد عند هؤلاء الذين تركوا عادات المهد التي كانوا يتبعونها في بلادهم الاصلية مثل الالبانيين، والارمينيين واللبنانيين، وأكثر تدرجاً بين البولنديين، والتشيك، والمجر، الذين تزداد رءوسهم طولاً كما تزداد اجسامهم أيضاً طولاً. ومن الممكن أن تقل القوى الانتخابية التي كانت تعمل على انتخاب صفات معينة كان قد اكتشفها ت. بيلكي و ذ. ويلون[2] فهذه قد خفت حدتها في العالم الجديد.

لقد تركز اهتمامنا حتى الآن على ما نسميه بالسكان البيض في الولايات المتحدة، الذي كان يضم ٨٧,٥٪ من مجموع السكان في تعداد ١٩٦٠. أما الزنوج فكانت نسبتهم عندئذ ١٠,٤٪ ونسبة اليابانيين والصينيين وكل الآخرين ٢,١٪.

وسنستخدم تعبير البيض والزنوج في الصفحات القادمة من حيث شيوعها فقط لأن البيانات الاحصائية مبينة على هذا النحو. ويختلف تعبير

---

(1) A. M. Brues: “Regional Differences in the Physical Character sties of an American Population”, AJPA, Vol. 4, No. 4 (1946), pp. 463-82.

(٢) انظر ص ٩٩ من الفصل الثالث.

الزنجي من ولاية إلى أخرى. وتتراوح نسبة الاسلاف غير الزنوج في أي مجموعة زنجية ما بين الصفر و ٧٥٪، أما نسبة البيض الذين دخل في تكوينهم العنصر الزنجي فهو غير معروف.

وقد تدهورت نسبة الزنوج، حسب تعريفنا السابق، باطراد ما بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٢٠، من عقد إلى آخر، من ١٩,٥٣ إلى ٩,٩٦ ٪(١)، وذلك بسبب الهجرة الاوروبية اساساً. وفي نفس الوقت زاد العدد الاجمالي للزنوج اربعة عشير مثلاً. ثم بدأت النسبة في الارتفاع بعد ضبط الهجرة عام ١٩٢٤ حتى وصلت إلى ١٠,٤٪ عام ١٩٦٠. وهي أكثر من ذلك لاشك.

وقد صاحب هبوط الهجرة، هبوط في زراعة القطن في الولايات الجنوبية ومن ثم بدأ الزنوج في الخروج عن نطاق القطن. ويدل تعداد ١٩٦٠ على أن نيويورك بها أكبر نسبة من الزنوج، وأقل ولاية في نسبة الزنوج كانت فرمونت وعاد الزنوج لكي يصبحوا جزءاً من سكان الولايات المتحدة جميعها، موزعين وليسوا مركزين اقليمياً.

نحن علماء الانثروبولوجيا الطبيعية يهمنا أن نعرف خمسة اشياء عن الزنوج الامريكيين :

١- مقارنتهم جسمانياً بزنوج غرب إفريقيا.

٢- مقدار «الدم الابيض» الامريكي الذي اكتسبوه.

٣- أي نسبة منهم خليط مع البيض ومع الهنود ومعهما معاً؟

٤- كم من الاسلاف البيض يحتاج إليه الزنجي لكي يصبح محسوباً ضمن المجتمع الابيض.

---

(1) M. Gover: "Increase of the Negro Population of the United States", HB, Vol. I, No. 3 (1929), pp. 263-73.

٥- كم من «الدماء الزنجية» موجود في السكان الامريكيين البيض نتيجة لهذه العملية. ومن الصعب أن نجد اجابة بعض هذه الاسئلة، لأن الزنوج كانوا في أمريكا منذ تأسيس مدينة جيمستاون، كما أن الرجال البيض لا يتركون عادة سجلات بعلاقاتهم الجنسية خارج نطاق الزواج، وما أن يبدأ الاختلاط حتى تصبح للمورثات الاوروبية فرصة واسعة للانتشار، فكما رأينا في المارتنيك تؤدي حياة المزارع الواسعة إلى ما يقرب من الفوضى الجنسية. وفي معظم العلاقات الجنسية بين السلالات، يكون الوالد ابيض والام زنجية. وبعض المورثات التي يحملها الكروموزوم السيني قد تفضل الجانب الافريقي في الاختلاط به ولكننا لا نعرف بالضبط هذه المورثات.

والاجابة عن السؤال الاول هي أن الزنوج الامريكيين أطول من الزنوج في غرب إفريقيا ببوصتين أو ثلاث بوصات، كما أن الزنوج الامريكيين الذكور أقصر قليلاً من الامريكيين البيض، في حين أن النساء الزنجيات الامريكيات أطول من الامريكيات البيضاوات. ورؤوس الامريكيين الزنوج أطول وأعرض من رؤوس الزنوج. وإذا قارنا بين الافريقيين والزنوج الامريكيين نجد وجوه الاخيرين أطول وأعرض، وانوفهم أطول واضيق. بل أن بعض الزنوج الامريكيين أفتح لوناً من الزنوج(١).

أما عن السؤال الثاني، فقد قدرت. جلاس و س. س. لي عام ١٩٥٣ أن الزنوج الامريكيين تجري في عروقهم ٣٠٪ من دماء الاوروبيين، وذلك على اساس تحليل فصائل الدم أ، ب، و وفصائل دم ريسوس Rh وتذوق مادة

(1) Herskovits: The Anthropometry of the American Negro (New York: Columbia University Press: 1930).

الـــ PTC[1] وفي نفس العام، وعلى أساس تحليل أدق، وجد س. ستيرن أن نسبة الدماء الاوروبية في الزنوج الامريكيين ٢٠٪[2]. وفي عـــام ١٩٥٥ وصل د. ف. روبرتس إلى نفس النسبـة[3]. وتعطى هذه النسب للزنوج الامريكيين عامة. أما في عام ١٩٦٣ قصر ب. ل. وركمان Workman ورفاقه بحثهم على زنوج ايڤانز وبللوك في جورجيا، وهما منطقتان يتركز فيهما الزنوج بصفة خاصة. واستخدموا خمسة عشر مورثاً، فوجدوا أن العنصـر الاوروبي في هؤلاء الزنوج لا يزيد على ١٠,٤٪[4]. وفي عـــام ١٩٥٥ وجد جلاس أن الزنوج الامريكيين لا تجري في عروقهم أي دماء هندية امريكية[5].

أما عن السؤال الثالث فلا يعرف أحد الاجابة عليه؛ لأن محللي الدماء لا يستطيعون تحديد الاصول السلالية لكل فرد، ولاسيما في حالة الخلاسيين

---

(1) Glass and C. C Li: "The Dynamics of Racial Intermicture and Analysis Based on the American Negro:, AJHG, Vol. 5 No. I (1953), pp. 1-20.

(2) C. Stern: "Model Estimates of White and Near-White Segregants in the American Negro:, AGSM, Vol. 4 (1953), pp. 281-98.

(3) D. F. Roberts: "The Dynamics of Racial Intermixture in the American Negro-Some Anthropological Consideration", AJHG, Vol. 7 No. 4 (1955), pp. 361-7.

(4) P. L. Workman, B. S. Blumberg, and A. J. Cooper: "Selection Gene Mgration, and Polymorphic Stability in a U. S. White and Negro Population", AJSG, Vol. 15, No. 4 (1963), pp. 429-37.

(5) B. Glass: "On the Unlikelihood of Significant Admixture of Genes from the North American Indians in the Present Composis on of the Negroes of the nited States", AJHG, Vol. 7, No. 3 (1955), pp. 368-85.

بين الاوروبيين والزنوج، وقد سأل م. ج. هوسكوفنس كل شخص كان في مجموعة دراسته عن التركيب السلالي لاسلافه؛ وذلك عندما كان يجمع مواد بحثه في جامعة هوارد وفي حي هارلم. وقد ذكر ٢٢ شخصاً فقط أنهم من سلالة زنجية صرفة. أما عن بقية العينة التي درسها وتشتمل على ٧٨٪ من العينة، فقد ذكر ٦,٣٪ أنهم مختلطون بالهنود والبيض. وأما عن ٧١,٧٪ الذين يظنون انفسهم بيضاً جزئياً فتوجد نسبة ٢٠,٩٪ منهم تذكر أن الدماء الهندية تجري أيضاً في عروقهم. كما أن منهم ٣١,٧٪ يذكرون أنهم أقرب إلى الزنوج منهم إلى البيض ٠ و ٢٥,٢٪ تعتقد أنهم نصف زنوج ونصف بيض و ١٤,٨٪ قالوا أن نسبة العنصر الابيض فيهم أكثر من نسبة العنصر الاسود.

ثم قسم هرسكوفتس مجموعاته على أساس الاجابة التي يصل اليها حسب نسب الاسلاف الزنوج والبيض والهنود كما ادعى الذين سئلوا. ثم قسمهم مرة أخرى حسب الصفات الجسمانية كلها بما في ذلك لون البشرة. وقد اتفقت نتائج دراسته مع النتائج التي وصل اليها بنوا، الذي درس المارتنيك بوسائل مختلفة. ويتراوح أفراد العينة موضع الدراسة بين الزنجي الصرف إلى ما يقرب من الاوروبي، ولكن لم يكن من السهل التوصل إلى الاصل الهندي المفترض على أساس دراسات فصائل الدم.

والسؤال الرابع - كم من «الدماء البيضاء» يحتاج اليها الزنجي لكي يعبر حاجز اللون ويقال أنه ابيض - فهو صعب الاجابة عليه، لأن مسألة عبور هذا الحاجز تتم في سرية تامة. كما أنه لا يفلح في ذلك إلا الاثرياء، فالزنجي الثري يميل إلى التزوج من امرأة أكثر بياضاً منه.

وقد قامت مسز س. ب. داي Day بدراسة دقيقة معقدة لنحو ٣٤٦ أسرة

وقرنت دراسة الاصول الاسرية بالبيانات الانثروبولوجية[١]. وقد افرزت بعض تلك الاسر التى درستها اشخاصاً مرموقين في حياة أمريكا الوطنية، مثل والتر هوايت و و. أ. ب. ديبوا ولم تجد مسز داي فرصة لدراسة الجيل الأول (أ١) وما اختلطت به وكان موضوع بحثها يقتصر على نتائج عدة اجيال من الاختلاط، وكان بعض الأفراد يذكر اسلافه في ظرف ثلاثين دقيقة.

وقد وجدت – فيما وجدته – أنه في حالات قليلة، يستطيع نصف الزنجي بعد عدة اجيال من الاختلاط أن يعبر الحاجز اللوني، في حين أن فرصة الشخص الذي يتكون من ثلاثة ارباع ابيض للعبور أكبر. ويقول س. ستيرين أن ٢٥ ٪ من هؤلاء الاخيرين يستطيعون العبور[٢]. وتقول مسز داي أن من الاشخاص الذين يعرفون اسلافهم لاربعة اجيال كثيراً ما يقولون أنهم هنود جزئياً.

أما السؤال الاخير فهو اعوصها جميعاً، لأن الشخص الذي يفلح في العبور تحت بصر الامريكي الحاد، مكون من مورثات بيضاء بنسبة كبيرة. كما يبدون من نمط الدم cDc، الذي يقال أنه زنجي، فهذا النمط ليس أكثر انتشاراً بين الامريكيين البيض منه بين كثير من المجتمعات الاوروبية، ويرى جلاس ولي أن الأثر الوراثي لعملية العبور هذه على السكان الامريكيين، مهما يكن هذا العبور ضئيلاً، تافه للغاية[٣].

أما عن الاختلاط بين الزنوج والهنود، فمن المحتمل أن نسبة الدم الزنجي في الهنود الامريكيين في الولايات الشرقية أكبر من نسبة الدم

(1) C. B. Day: A Study of Some Negro-White Families in the United States, HAS, Vol. 10, Part 2 (1932).

(2) Stern: op. cit.

(3) Glass and Li: op. cit.

الهندي في الزنوج. وقد تتبع بري Berry ٢٠٠ مجتمع على الاقل في شرقي الولايات المتحدة، تتكون من خلاسيات ثلاثية العناصر، من اختلاط الهنود والزنوج والبيض(١). وتصنف الحكومة بعض هذه المجتمعات على أنها هندية. وبعضها يسجل على أنه غير معروف الاصل في الولايات التي تمارس التفرقة العنصرية. وهؤلاء الخلاسيون من العناصر الثلاثة أقرب إلى أن يندمجوا في السكان الملونين في أي مدينة.

وقد سجل أكثر من ٥٢٣,٠٠٠ شخص على أنهم هنود، وكانوا ٤٤٠٠٠ عام ١٨٦٠. ويتضمن الرقم بعض الخلاسيين من العناصر الثلاثة التي ذكرناها بل ومعظم من يطلق عليهم هنود هم خلاسيون في واقع الامر. وأكبر القبائل عدداً هي قبيلة نافاجوس ويبلغ عدد أفرادها ٨٠,٠٠٠ تقريباً وكان عددهم عام ١٨٦٠ نحو ١٢٠٠٠ ولم يزد عددهم عن طريق الاختلاط بغيرهم بل بتطوير اقتصادهم، وتحولهم من الصيد إلى تربية الماشية. وهذا قد يوحي بما حدث في العالم القديم من تزايد عدد بعض الجماعات الصغيرة بسبب تحولها من الصيد إلى الرعي مثلاً.

والبيض اقلية في ولاية واحدة، هي ولاية هاواي، وذلك إذا اغفلنا عدد رجال القوات المسلحة وهو ١٢٥,٠٠٠ الذين سيعودون يوماً ما إلى اوطانهم ويكون الامريكيون القوقازيون في هذه الولاية ١٥ ٪ من سكانها، واليابانيون ٣٥ ٪، وهم أكبر العناصر عدداً. أما الهاوائيون الانقياء فلا يكونون سوى ١٣ ٪ وبقية السكان نسبتهم ٣٧ ٪ فهم فلبينيون، وصينيون، وغيرهم من الجماعات المهاجرة المختلطة(٢).

---

(1) B. Berry: Ahnost White (New York: The Macmillan Co. 1963).

(2) R. Adams: Interracial Marriage in Hawaii (New York: The Macmillan Co.; 1937), and recent census reports.

ويقال أن نحو ثلث الاطفال الذين ولدوا في العقد الاخير جاءوا من زواج مختلط. وأن هذا الاختلاط غالباً ما يكون معقداً. وينحدر من يدعون انفسهم الهاواثيين حسب دراسات فصائل الدم من آباء نسبتهم ٨,٥٪ قوقازيون و ١٣,٧٪ صينيون. بينما من يدخل في تكوين من يسمون بالهاوائيين الصينيين نسبة ١٣,٧٪ من الاصول القوقازانية(١).

ونحن نرى من دراسة ل. س. دن Dunn التي حلل فيها الهاوائيين القوقازانيين والهاوائيين الصينيين، ومن الدراسات والقياسات التي قام بها عليهم عامي ١٩١٦ و ١٩٢٠ أن هذا الموقف أي اختلاط الهاوائيين بغيرهم كان قائماً منذ أكثر من نصف قرن(٢). وقد ظهر من دراسة كل مجموعة أن الجيل الاول بعد الاختلاط لم يظهر فيه التجانس المنتظر في الصفات المختلفة سواء كانت من الصفات التي تقاس أو التي توصف. والتي تدل على أن آباءهم انفسهم كانوا مخلطين، ووجد أيضاً أنه بينما كان الأفراد المخلطون وسطاً في صفاتهم بين آبائهم وامهاتهم في معظم الصفات، فإن الهاوائيين القوقازانيين كانوا أقرب إلى الصفات الاوروبية في شكل ارنبة الانف ولكن ليس في طرفها، وأن الهاوائيين الصينيين يحملون صفة ثنية جفن العين الثقيلة بشكل مبالغ فيه. ورغم أننا ركزنا الضوء على صفة الاختلاط السلالي في الهاوائيين الصينيين، إلا أننا ينبغي أن نذكر أن ثلثي مواطني هاواي غير مخلطين على الاطلاق؛ فهم امريكيون من اصول اوروبية ويابانية وصينية وفليبينية وغيرهم.

---

(1) N. E. Morton and C. S. Chung: “Genetic Effects of Interracial Cmosses”. ANYAS (1965), in press.

(2) L. C. Dunn: An Anthropometric Study of Hawaiians of Pure .. Blood, PMP, Vol. II, No. 3 (1928).

## الكنديون

يرتبط تاريخ كندا الانثروبولوجي ارتباطاً وثيقاً بالولايات المتحدة، إذ أن كثيراً من الامريكيين والكنديين عبروا الحدود ما بين كندا والولايات المتحدة ذهاباً وجيئة. ولكن تاريخ كندا الاثنولوجي يختلف عن تاريخ الولايات المتحدة الاثنولوجي، إذ أن كندا لم تصل بعد إلى شيء من التجانس الذي حققته الولايات المتحدة.

استقر البريطانيون في نيو فوندلاند عام ١٥٨٣، قد ثبت الفرنسيون اقدامهم في كويبك عام ١٦٠٨. وقد ظل هذان العنصران منذ ذلك الحين دون امتزاج. ويدل تعداد ١٩٦١ على أن أكثر من ٣٠٪ من سكان كندا البالغ عددهم ١٨ مليوناً، أي حوالي ٤,٥ ملايين نسمة قد انحدروا مباشرة من ١٠,٠٠٠ فرنسي كانوا قد استقروا في وادي السانت لورانس خلال القرن السابع عشر. وفي عام ١٧٥٥ طرد البريطانيون، ومنهم جنود من نيو انجلند، الفرنسيين من المقاطعات البحرية. واعاد البريطانيون تعميرها بسكان من نيو انجلند واسكتلنديين وقليل من الالمان. وتركز الاسكتلنديون في جزيرة كان بريتون، حيث اللغة الغالبة أكثر شيوعاً الآن منها في اسكتلندا نفسها.

بعد ذلك بقليل عاد بعض الفرنسيين ونفى بضع مئات منهم إلى لويزيانا. ويبلغ عدد احفادهم الآن، وهم الاكاديون أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ نسمة. ويكون الفرنسيون الكنديون الآن كتلة واحدة قوية متماسكة في مقاطعة كويبك وما يجاورها من أجزاء أونتاريو ونيوبرنزويك. وفي عام ١٩٥٣ كان ٣ ٣/٤ ملايين شخص في مقاطعة كويبك يتحدثون الفرنسية وحدها، وتزداد قوميتهم اشتمالاً بتشجيع فرنسا. أما من الناحية الانثروبولوجية، فإن الكنديين الفرنسيين شعب جدير بدراسة بيولوجية جادة لم تتم حتى الآن.

ويوجد بين الكنديين المتحدثين بالانجليزية أكثر من ٤٠,٠٠٠ نسمة[١] من الامريكيين الذين هاجروا اليها في وقت الثورة الامريكية. وذهب كثير من أهل نيو انجلند إلى المقاطعات البحرية. أما أهل نيويورك ففضلوا أونتاريو السفلى حيث لحق بهم قليل من أهل الجنوب مع رقيقهم. وقد زاد عدد الامريكيين المهاجرين إلى كندا فيما بين الثورة وعام ١٨١٢ على عدد الاوروبيين المهاجرين إلى الولايات المتحدة. وأصبح بذلك معظم الكنديين المتحدثين بالانجليزية من أصل امريكي مع قليل من الاسكتلنديين.

وقد تحرك في الولايات المتحدة فيما بين عامي ١٨٤٦ - ١٨٥٤ نحو نصف مليون مهاجر إلى كندا، وشمل هؤلاء كثيراً من الايرلنديين ولكن بعد عام ١٨٦٠ عاد كثير من الكنديين للهجرة نحو الولايات المتحدة واستمروا في ذلك. وفي عام ١٩٠٠ عاش خمس الكنديين جنوبي خط الحدود. ونال كندا نصيب من الهجرة الاوروبية التي قدمت إلى الولايات المتحدة من شرق أوروبا ووسطها. وقد عزل كثير منهم ولاسيما الروس انفسهم لغوياً وثقافياً.

ولم يهتم الانثروبولوجيون الكنديون بانفسهم، ولهم العذر في ذلك، فقد شغلوا بالهنود والاسكيمو. ورغم أننا لا نعرف كثيراً من الصفات الجسمانية للكنديين الفرنسيين، كما لا تزيد معرفتنا بصفات الكنديين الانجليز الجسمانية عما نعرفه عن مواطنيهم المتحدثين بالفرنسية، إلا أن حالة الكنديين المتحدثين بالانجليزية أوضح لدينا لانهم والامريكيين شعب واحد.

---

(١) عرض تاريخي.

## الاستراليون والنيوزيلنديون

في عام ١٧٨٨ رست سفينة في ميناء سدني وافرغت حمولتها من المحكوم عليهم بالسجن المؤبد من البريطانيين، وكان معهم ٥٠٠ من الثوار الايرلنديين على التاج البريطاني. ومنذ ذلك الحين حتى عام ١٩٤٥ استمرت استراليا ونسماليا تستقبل المستوطنين من الجزر البريطانية. ولكن منذ عام ١٩٤٥ بدأ الايطاليون والهولنديون والبولنديون وغيرهم من سكان أوروبا في الهجرة إلى استراليا، حيث يكونون الآن ١٠ ٪ من السكان البيض.

لم تعد دراسة منتظمة عن الانثروبولوجيا الطبيعية للاستراليين البيض. غير أن أ. أ. أبي Abbie، أهم باحث في السلالات في استراليا، لاحظ أنه ليس هناك فرق جوهري بينهم وبين اقربائهم في الجزر البريطانية(١). ولاحظ أن الأطفال ازداد طولهم ٣,٥ بوصات منذ الحرب العالمية الاولى، ولكن متوسط طول الرجال ٥ اقدام و ٧,٥ بوصة (١٧١,٥ سنتيمترا) وهو نفس معدل الطول في معظم الجزر البريطانية، ولكنهم أقصر من سكان شمالي انجلترا واسكتلندا.

أما تعمير نيوزيلندا الرسمي فلم يبدأ حتى عام ١٨٤٠، رغم أنه قد سبق إلى هناك عدد من صيادي سبع البحر الابيض، وعدد من الهاربين من خدمة البحرية وغيرهم من المغامرين، وهناك من بين سكانها البالغ عددهم مليونين ونصف مليون نسمة ٩١,٨٠ ٪ من أصل اوروبي، ويكون البريطانيون ٩٨ ٪ من هؤلاء. أما الباقون فمن الماؤوري المخططين والبولينيزيين وغيرهم من اهالي الجزر الاخرى. ولم يدرس انثروبولوجيا من هؤلاء سوى الماؤري.

---

(1) Abbie: "Physical Characters:, in The Australian Encycl. Vol. 7 (1958), pp. 106-8.

ولا نعرف إلا القليل عن الخلاسيين البالغ عددهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة في استراليا وهؤلاء عددهم على حساب الاستراليين الاصليين البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ نسمة[1] وهناك مشكلة عبور بالنسبة للاستراليين المخلطين كما هي الحال بالنسبة للخلاسيين في أمريكا. ولكنها مشكلة من نوع آخر ففي أمريكا اشترك الماوي الذي يشبه القوقازي في ثقافة الرجل الابيض.

والعقبة الوحيدة أمام الملون الامريكي هو مجرد تسميته بالملون. أما في استراليا فالعقبة ثقافية، فالهوة النفسية واسعة وعميقة بين من يعيش في مستوى العصر الحجري القديم والحياة اليومية لافقر متشرد[2]. فإذا أمكن عبور الهوة الثقافية فإن الحاجز البيولوجي سهل التغلب عليه، لأن الاستراليين الاصليين أقرب إلى الاوروبيين من الزنوج. فبينما لا يفلح إلا واحد من كل اربعة من ارباع الزنوج في أمريكا من العبور إلى جانب البيض، فإن معظم ارباع الاستراليين الاصليين يعبرون بسهولة إلى المجتمع الاوروبي. ويبدو أن لون البشرة عند الاستراليين الاصليين يعتمد على عدد أقل من المورثات مما يعتمد عليه لون الزنوج. وربما كان هذا اللون يعتمد

---

(1) N. B. Tindale: "Growth of a people: Formation and Development of a Hybrid Aboriginal and White Stock on the Islands Bass Strait, Tasmania, 1815-1949:, RQVM-NS, No. 2 (1953), 1-64. Gates, "The Genetics of the Australian Aborigines AGMG, Vol. 9 (1960), pp. 1-50; "Studies in Race Crossing IX, Crosses of Australians With Caucaslans, Chinese and other races: AMGH, Vol. 9, pp. 165-84; Race Crossing (Rome Edizione dell' Istituto Gregorio Mendel) no date, but probably 1960.

(2) Tindale: "Survey et the Half. Caste Problem in South Australia". PRGS-SAB 91940-41, pp. 66-161.

على مورثتين فقط، واحدة منهما تشترك مع أحد مورثات البيض إذا كانوا سمراً. وليس هناك فرق واضح في شكل الشعر بين السلالتين. وهم - مثل كثير من البريطانيين - تنمو لهم لحى كثة كما يشتعل الشيب في شعورهم مبكراً. وبنيان اجسامهم يشبه بنيان اجسام البيض النحلاء. والفرق الوحيد الذي يبده العين لأول وهلة هو: غلظ الحواجب، وعمق الفجوة الانفية (التي تقع بين العينين)، وعمل فجوات العيون، والانوف المدببة، والاسنان الضخمة السليمة. وهذه صفات ليست غائبة مطلقاً في السكان البريطانيين. ولما كانت هذه الصفات الوجهية تطورية أكثر منها سلالية، فانها سرعان ما تخف حدتها في الاجيال الخلاسية.

ومن المناقضات أن تبين دراسة فصائل الدم وغيرها من الصفات الوراثية أن الاستراليين الاصليين أبعد قرابة للاوروبيين، في حين أن الزنوج أدنى قرابة منهم، ومع ذلك فإن الاستراليين الاصليين أقرب شبهاً للاوروبيين من حيث الصفات التي يستطيع أن يدركها الرجل العادي. ولهذا السبب أصبح عدة آلاف من الخلاسيين استراليين بيضاً، خلال الاعوام المائة والثمانين الماضية، وسيعبر الحاجز غير المرئي عدد أكبر في المستقبل.

## افريقيا مقبرة المستعمرين .

لم يبدأ استعمار الاوروبيين وشعوب غرب آسيا لإفريقيا منذ عام ١٤٩٢ فقط، ولكن هذا الامر بدا منذ عهد الفينيقيين، الذين غامر بعضهم بالابحار حولها. ولكنها لم تستعمر قط استعماراً دائماً. فالمعابد الاغريقية تزين خط السماء في برقة، كما تنهض بعض المباني الرومانية المتهدمة كالطيور الضخمة في الصحراء بالقرب من ممر كاسرين تنعي ماضياً لن يعود. وفي

وادي داديس بالمغرب يسكن أحد زعماء البربر في قلعة فرنسية. وقد غادر ١ ١/٣ مليون فرنسي الجزائر بعد أن ظلت تحت الحكم الفرنسي أكثر من مائة عام دون أن يتركوا ذرية تملأ مدرسة. أما المستعمرة الوحيدة ذات الحجم الكبير في إفريقيا فهي جمهورية جنوب إفريقيا.

## البويروالملونون

تتكون جمهورية جنوب إفريقيا من جمهوريتين سابقتين هما: دولة اورانج الحرة، وترانسفال. ومن مستعمرتين بريطانيتين سابقتين، هما: مقاطعة الكاب وناتال. كما أنها تسيطر على جنوب غرب إفريقيا التي كانت مستعمرة المانية، ولكنها لا تحكم باسوتولاند أو سوازيلاند أو بتسوانا. وكان عدد سكان جنوب إفريقيا عام ١٩٦٠ أكثر من ١٦ مليوناً بقليل، منهم ٣ ملايين من البيض، و ١١ مليوناً من البانتو و ١,٥ مليون من الملونين (وهو تعبير محلي سنشرحه حالاً) و ٤٧٧,٠٠٠ اسيوي. أما أصحاب الأرض السابقون وهم البوشمن والهوتنتوت فلم يكن لهم ذكر في التعداد.

ولا يهمنا من هذا الموضوع سوى عنصرين. عنصر المتحدثين بالافريكانية البيض وعددهم ١,٨ مليون نسمة، وعنصر الملونين، وعددهم ١,٥ مليون نسمة. وهذان العنصران هما أقدم عناصر السكان فيما عدا البوشمن والهوتنتوت. وقد نشأ هذان العنصران تحت ظروف تاريخية واحدة، وهناك ارتباط معين يربط بينهما. ففي عام ١٦٥٢ وضعت شركة الهند الشرقية جان فان ريبيك و ٦٠ موظفاً آخرين من موظفي الشركة في مدينة الكاب لكي يزرعوا الخضراوات ولكي يشتروا لحم البقر من الهوتنتوت، لكي يمونوا سفن الشركة؛ كما ارسلت عدة جماعات من الفتيات الهولنديات من ملاجيء اليتامى لكي يتزوجهن الرجال العزاب. ثم تبعهم بعد ذلك

المستوطنين الهولنديين وبعد ذلك وصل إلى هذه المستعمرة ٢٠٠ من الهوجنوت الفرنسيين عام ١٦٨٩، ثم تبعتهم جماعة صغيرة من الالمان المتحدثين بلهجة البلات دون نسائهم. ثم منعت شركة الهند الهولندية الشرقية الهجرة بعد ذلك عام ١٧٠٧، ومن ثم نشأت عزلة وراثية بالمجتمع الاوروبي في هذه المستعمرة حدث فيها نقص كبير في النساء.

وعندما استولى البريطانيون على الكاب عام ١٨١٥، وجدوا بها ١٥,٠٠٠ من البوير و ٢٠,٠٠٠ من الرقيق، هذا غير البوير ورقيقهم الذين غادروا الكاب في طريق مسيرتهم نحو الشمال. وكان الرقيق مكونين من الاسرى المسلمين من الهند والملايو وأهل مدغشقر، ومن زنوج غرب إفريقية، كما كان من بينهم ولاشك بعض البوشمن والهوتنتوت وقد اختلط هؤلاء جميعاً بمورثات اسيادهم من الهولنديين.

ونما عدد البوير في ستة اجيال منذ عام ١٨١٥ إلى ١,٨ مليون نسمة، كما يبلغ عدد احفاد الرقيق الذين اعتقهم البريطانيون عندما احتلوا الكاب، وأصبح يطلق عليهم اسم الملونين، ١,٥ مليون. ولم يكن في الامكان المحافظة على العزلة الوراثية طول هذه الفترة. ومن ثم يقدر عدد من عبر من مجتمع الملونين إلى مجتمع البوير خلال هذه الفترة بنحو نصف مليون شخص(١).

ولم يخضع البوير – على قدر علمنا – للفحص الانثروبولوجي الطبيعي، على حين اجريت بعض الفحوص على الملونين. وقد اجتذبت جماعة مولدي الرحبوت Rehobother Bastaards بصفة خاصة انتباه العالم الراحل أيوجين فيشر، الذي أصبح كتابه عنهم علماً في ميدان الاختلاط بين

(1) S. G. M.: The People of South Afaca (New York: Alfred A. Knopf; 1954).

السلالات وكلمة باستارد أو ابن زنا كلمة افريكانية يستطيع أي شخص أن يتلفظ بها دون حياء. وهي تعني ببساطة الشخص الذي يفخر بجزء من الدماء الهولندية تجري في عروقه. وعندما درس فيشر جماعة الرحبوت في اوائل هذا القرن كانوا يتكونون من نحو ٣٠٠٠ شخص يعيشون في تسعين منزلاً، تحيط بكنيسة كبيرة، بالقرب من رحبوت، وهي مدينة صغيرة تقع فيما كان يسمى بجنوب غرب إفريقيا الالماني. وكانوا جماعة على قدر من الرخاء تعمل بالزراعة وتربية الماشية.

وقد تأسس هذا المجتمع في اواخر القرن الثامن عشر من نحو ٤٠ شخصاً من البوير وزوجاتهم من الهوتنتوت، رغم أن عدداً قليلاً من البيض لحق بهم فيما بعد، ومن بينهم شخص يدعى ماكناب. وظل أفراد هذا المجتمع في التزاوج فيما بينهم.. وليس مجتمع الرحبوت هو الوحيد من نوعه في جنوب إفريقيا ولكنه اكثرها شهرة. ورجال هذا المجتمع في مثل طول الهولنديين، وسيقانهم أطول من سيقان الهولنديين والهوتنتوت، ولنصف نساء هذا المجتمع افخاذ الهوتنتوت الضخمة واردافهن الثقيلة. ولخمسهم آذان البوشمن. وهناك تراوح كبير في تشريح الاجزاء اللينة للرحبوت. ونحو نصفهم في لون بشرة الرجل الابيض، ولا يبلغ واحد منهم سمرة الهوتنتوت. ولكنهم عندما يتعرضون لاشعة الشمس يكتسبون سمرة شديدة. أما شكل الشعر فتظهر فيه كل صفات الشعر المختلفة، من الشعر المستقيم إلى الشعر المفلفل ويتراوح في اللون عن اللون الاسود إلى اللون البني الفاتح. ولكن ٥٠ ٪ منهم شعرهم اسود. أما عن الاطفال فنحو ٤٣ ٪ منهم شقر، ولكن سرعان ما تسمر شعورهم فيما بعد. و٨٢٪ من الرجال اصحاب عيون سوداء، و١٤ ٪ منهم ذوو عيون مختلطة، و٤ ٪ منهم فقط ذوو عيون زرق أو رمادية وتنمو لحى الرجال في وقت متأخر، ولكن كثيراً منهم تنمو لحاهم كثة مثل لحى الاوروبيين عندما

يبلغون الخمسين من اعمارهم. ويستطيع كثير من الرحبوت - من فحص الصور الفوتوغرافية التي اخذها لهم فيشر - أن يعبروا حاجز اللون ويعتبروا بويرا. والعكس صحيح. كما أن قليلين منهم لا يمكن تمييزهم عن الهوتنتوت.

ولو أن الحكومة البريطانية منعت دخول أي هجرة جديدة إلى أمريكا الشمالية عام ١٧٠٩، ولو أن دولة اوروبية ذات ثقافة ولغة غريبتين عن ثقافة ولغة الامريكيين قد هزمتهم، وادخلت بديلاً عن ذلك اهلها وفرضت لغتها دون أن تختلط بالسكان، ولو أن فوق ذلك كله تعرضت أمريكا لطوفان من القبائل المحاربة الرعوية، تطغى على جزء كبير من البلاد، فإن الامريكيين القدامى كانوا سيجدون انفسهم في موقف مشابه لموقف البوير، ولأصبح بعضهم أقرب إلى البوير عن البعض الآخر، ومجمل القول أن التكوين السلالي لجنوب إفريقيا إنما هو من صنع التاريخ، فلقد قاومت إفريقيا التغلغل الاوروبي لأنها كانت منذ زمن بعيد اوروبية جزئياً.

ولا تعليق لنا عن فلسفة التاريخ السلالي. فإننا نرى أن الدرس واضح.

# الفصل السادس

# توزيع السلالات في إفريقيا

# الفصل السادس

# توزيع السلالات في إفريقيا(*)

كانت إفريقيا – على مدى العصور التاريخية – وطناً لشعوب تنتمي إلى السلالات الرئيسية الثلاث، منها اثنتان، وهما: الكونجوانية والكابوانية، تطورتا في إفريقيا ولم تغادراها، أو تقطنا في غيرها في العصر الحديث. أما الثالثة فهي القوقازانية؛ وتشمل السلالات المختلطة التي دخلت إفريقيا من غرب آسيا، وربما أيضاً من أوروبا في الفترة الواقعة بين عامي ١٢٠٠٠ ق.م و١٢٠٠م. وهؤلاء هم: العرب، والبربر، والكوشيون الذين يسكنون القرن الافريقي، وتشمل أيضاً بعض الشعوب التي تسكن شرق إفريقيا والسودان.

ولدينا من الاسباب ما يجعلنا نعتقد أن الكابوانيين كانوا يعيشون في اقليم الصحراء الحالي وشماله خلال عصر البلايستوسين، وأن الكونجوانيين كانوا يعيشون إلى الجنوب من ذلك. وطبقاً لهذا الفرض الذي عرض في «أصول السلالات» تحرك الكابوانيين إلى جنوب إفريقيا سائرين بحذاء مرتفعات شرق إفريقيا تحت ضغط القوقازانيين، وأنهم في طريق هجرتهم هذه تمثلوا ما وجدوه من سكان كونجوانيين أكثر بدائية منهم. وقد ظهرت خلال السنوات الاخيرة دراسات عديدة عن إفريقيا، ومعلومات وافرة منها، وإذا استمر الامر كذلك، فإننا سنكون في وضع يهيئنا لكي نختبر هذا الغرض، ونثبت بالبراهين التاريخ السلالي لإفريقيا بوجه عام.

ومعظم شعوب إفريقيا في الوقت الحاضر خلاسية. ففي السودان، وشرق

---

(*) دراسة مترجمة.

إفريقيا، يختلط القوقازيون بالزنوج، كما توجد بعض جماعات كابوانية متفرقة ومنعزلة لاتزال تعيش في السودان وعلى طول حافته الشمالية. وقد تمكن البانتو في جنوب إفريقيا من امتصاص بعض الكابوانيين (غير الأقزام) القدماء، بل لا تزال توجد في الحافة الشمالية لصحراء كلاهاري بعض الزنوج، من جامعي القوت، وممن يتحدثون لغة البوشمن. إن إفريقيا من ناحية السلالات، أكثر القارات غموضاً، ويمكن تبديد بعض هذا الغموض إذا تذكرنا القدر الضئيل مما نعرفه عنها في عصر ما قبل التاريخ، بل والعصر التاريخي، وبمعرفة جغرافيتها.

## جغرافية إفريقيا ومناخها

إفريقيا ثانية قارات العالم.. وهي أقرب للاستدارة في شكلها من أي قارة أخرى غير استراليا والقارة القطبية الجنوبية. وهي صاحبة أقصر سواحل بالنسبة لمساحتها، أكثر من ثلاثة ارباعها بين المدارين. وهذه أكبر نسبة مدارية موجودة في أي قارة أخرى. وتبدو وحدتها في أنها - حتى آخر عصر البلايستوسين - لم يكن بها سوى حيوانات أثيوبية فقط. وكانت الحيوانات الافريقية الاصل، مثل الفيل، والزرافة، وفرس النهر، ترعى وتمرح من طنجة حتى الكاب. وكان جزء كبير من الصحراء - وهي الآن حاجز طبيعي كالعهد بها دائماً - تسقط عليها الامطار، وتتمتع بقدر لا بأس به من المياه الجارية، وتزخر باعداد ضخمة من انواع الحيوانات المختلفة، حدث هذا في اثناء الفترات المطيرة في عصر البلايستوسين - التي يمكن مقارنتها بفترات تقدم الجليد في أوروبا. ولم يكن ثمة نيل يجري شمالي بطن الحجر، التي تقع على بعد خمسين ميلاً جنوب غربي وادي حلفا في السودان

حتى عام ٢٥٠٠ ق.م(١). وكان الماء الذي يصب الآن في البحر المتوسط، منحدراً من شرق إفريقيا، ومن بحيرة تانا في أثيوبيا، ينتهي في سلسلة من البحيرات الضحلة (من بقاياها مستنقعات السد وبحيرة تشاد). وكان هذا الماء حاجزاً مائياً بين السلالة الكابوانية والسلالة الكونجوانية، كما أن لطف جو الصحراء الجنوبية.

وتتكون إفريقيا الشرقية – ما بين الصحراء الكبرى واقليم الكاب – من هضبة كبيرة، تبدأ من مرتفعات الحبشة وتمر عبر: كينيا، وأوغندا، ورواندا، وبوروندي، وتنزانيا، وزامبيا، وروديسيا، ومعظم جنوب إفريقيا، وتلتف غرباً إلى كاتنجا وانجولا. وسبب تكون هذه الهضبة هو انتفاخ الكتلة الافريقية القديمة المكونة من البازلت والجرانيت. وتتكون معظم ترية هذا الاقليم من صخور الجرانيت المفتتة، وهي مليئة بحبيبات الكوارتز.

والهضبة – فيما عدا أثيوبيا – أعلى ما تكون فى الاقليم الاستوائي، إذ أن الهضبة الاستوائية تنحدر انحداراً هيناً نحو الجنوب، ومن ثم فإن متوسط درجات الحرارة في اقليم الهضاب الافريقية يكاد يكون واحداً. وإلى الشمال والشمال الغربي من هضاب إفريقيا الشرقية يمتد السودان، وهو اقليم انتقالي بين الصحراء والغابات الاستوائية، ويمتد امتداداً شرقياً غربياً – ما بين المحيط الاطلنطي والبحر الأحمر – اقليم حشائش تتناثر فيه اشجار الاكاشيا

(1) T. Monod: "Late Tertiary of Pleistocene in the Sahara: VFPA, No. 36 (1963). p. 117-229. P. Said and B. Issawi: Preliminary Results of a Geological Expedition to Lower Nubia and to Kurkur and Dungal Oases, Egypt, SMU-CPN, No. 1 (1964). J. de Heinzelin and R. Paepe: The Geological History of the Nile Valley in Sudanese Nubla: Preliminary Results, SMU-CPN, No. 2 (1964).

واكمات الاحراج. وبعد الحشائش جنوباً تمتد الغابات المكشوفة من النوع الذي ينفض اوراقه في الفصل الجاف، ووراء الغابات المكشوفة تمتد الغابات الكثيفة ذات الفروع المتشابكة، والنباتات المتسلقة، حيث تسقط الامطار الغزيرة طول العام، والظل الدائم. وتقتصر هذه الغابات المدارية على شريط ضيق في ساحل غرب إفريقيا، وفي حوض الكونغو الذي يمتد حتى بحيرة فكتوريا.

ورغم أن معظم إفريقيا يتكون من الصحاري والحشائش والغابات النفضية، إلا أنه توجد عدة استثناءات. فمناخ البحر المتوسط الذي يشبه مناخ جنوبي أوروبا، يمتد على طول الساحل الشمالي من المغرب إلى تونس، ويوجد في برقة كما يوجد في جزر كناريا. ويوجد على الساحل الاطلنطي للمغرب شريط ضيق من مناخ Csb، وهو من نوع مناخ البحر المتوسط، ويمتاز بصيف لطيف الحرارة جاف، كما في البرتغال. ومثل هذا المناخ أيضاً يوجد فيما حوالي مدينة الكاب، حيث يوجد شريط كبير من المناخ الجزري الاوروبي، Cfb على ساحل ناتال. أما هضبة أثيوبيا ومرتفعات شرق إفريقيا فتمتاز بمناخ لطيف، وأمطار صيفية، كما هي الحال أيضاً في اليمن. ومن ثم لم يكن مستغرباً أن تشبه هذه الاشرطة من المناخ اللطيف اوطان القوقازانيين، أو أن يستقر فيها الغزاة القوقازانيون.

## إفريقيا قبل التاريخ

كانت إفريقيا خلال عصر البلايستوسين وما بعده تقع من الناحية الأثرية في نطاق العالم الغربي. وكان الافريقيون يصنعون نفس الآلات تقريباً التي يصنعها الاوروبيون وسكان جنوب غرب آسيا، باستثناء بعض التخصصات الاقليمية، والقصور القليل.

ومفتاح هذا العصر في إفريقيا هو المعدل البطيء الذي كان ينتقل فيه كل اختراع جديد في صناعة الآلات الحجرية من الشمال إلى الجنوب. وظهرت هذه الفجوة الزمنية بين الشمال والجنوب بوضوح كبير عندما حل التاريخ المطلق محل التاريخ النسبي القائم على تبادل الفترات الجافة والفترات المطيرة، التي كانت تتفق إلى حد ما مع الفترات الدفينة والفترات الجليدية في أوروبا. وقد أمكن معرفة أربع فترات مطيرة هي كاجيرا، كاماسيا، كانجيرا (في شرق إفريقية) والفترة الجامبلية. وقد استطاع كل من ديزموند كلارك وفان زندرن باكر[1] - باستخدام طريقة كربون ١٤ في التاريخ - أن يحددوا الفترة الجامبلية بفترة ڤورم الجليدية الرئيسية وفترة كانجيرا بالفورم المبكر. وهذا يضع الفترة الكاماسية في مقابل فترة الرس وفترة كاجيرا بفترة مندل الجليدية. وربما لم يكن هناك مقابل مطير لفترة جنز التي لم يكن الجليد قد غطى فيها أوروبا بعد.

وأقدم الآلات الحجرية في شمال إفريقيا هي آلات الحصا والحجارة المنتقاة؛ مثلما وجد في طبقات فيلا فرانشيا في الجزائر والمغرب، والتي يقال أن عمرها يرجع إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ سنة. ثم تلتها الفئوس اليدوية الابيفيلية، ثم الفؤوس اليدوية الاشيلية، وفؤوس مع شواطير كبيرة من الحجارة، وهي قطع من الحجارة ضخمة، ذات حافة مشظاة قاطعة بدلاً من الطرف المدبب. ولم يكن هناك في شمال إفريقيا ما يقابل الصناعة الكلاكتونية القياسية في أوروبا.

---

(1) J. D. Clark and E. M. van Zindered Bakker, "Prehistoric Culture and Pleistocene Vegetation at the Kalambo Falls, Northern Rhodesia", Nature, Vol. 201, No. 4923 (1964). pp. 971-5.

بعد الحضارة الأشيلية جاءت الحضارة الليفالوازية موستيرية، التي تطورت إلى الصناعة العاطرية، هي المقابل الافريقي الشمالي للعصر الحجري القديم الاعلى في أوروبا وغرب آسيا. وكانت الآلة العاطرية الاساسية سهماً مدبباً؛ كانت احياناً تصنع لها قاعدة مثقوبة لكي توضع في قطعة خشب. وكان هذا مصنوعاً من شظية رقيقة، اعيدت تشظيتها من الوجهين بالضغط؛ وهي طريقة كانت تستخدم استخداماً واسعاً في أوروبا، واستمرت في العالم حتى العصر الحجري الحديث.

ودخلت صناعة الشظايا إلى شمال إفريقيا قبل نهاية البلايستوسين. وأقدم مكان عثر فيه على هذه الآلات حتى الآن هو كوم امبو، في مصر العليا، ويرجع تاريخها إلى عام ١٢٢٠٠ ق.م(١) أي قبل المكان القديم في مولوية، والذي يرجع إلى ١٠١٢٠ ق.م. وهو تافورانت بالمغرب(٢)، أما العصر القفصي في تونس فيرجع تاريخه إلى عدة آلاف من السنين بعد ذلك.

وفي إفريقيا جنوبي الصحراء بدأ التتابع الحضاري أيضاً بآلاف من الحصى الفيلافرانسي، ولكن هذه الآلات استمرت في جنوب الصحراء على طول المدى الذي استغرقه العصر الابيفيلي في شمال إفريقيا. ولم توجد هذه الصناعة الاخيرة جنوبي الصحراء؛ ففي قمة الطبقة ٢ في خانق اولد وفاي في تانتزانيا، أي الطبقة الثانية فوق القاع - وجدت الفئوس الاشيلية والشواطير بين قطع الحصى التي كانت تستخدم كأدوات؛ وذلك في أعداد قليلة كذلك(٣) ولابد وأن هذه الصناعة الجديدة قد جلبت من مكان آخر؛ إما

---

(1) P. E. L. Smith: “Radiocarbon Dating of a Late Paleolithic (1-1291 and I-1232) Culture”, Science, Vol. 145. No. 3634. p. 811.

(2) Ferembach: La Nécropole Epipaléolithique de Taforalt.

(3) Reported at the Wenner-Gren Conference on the Origin of Man Chicago, April 2-5, 1965.

من شمال إفريقيا وإما من بلاد العرب الجنوبية، وهذا هو أقرب الاحتمالين. حيث وجدت آلات مشابهة كثيرة في الربع الخالي. وقد عثر معها على غطاء جمجمة تعرف الآن بالحروف (LLK) ل ل ك(١).

وتستمر الهياكل العظمية التي تنتمي للقرد الجنوبي Australopithecine من هذا المستوى الذي اكتشفت فيه بادئ الامر حتى المستوى الذي عثر فيه على الآلات الحجرية الأشيلية وجمجمة ل ل ك، وبعد ذلك تختفي. وهذا يدل على أن الآلات الحجرية الحصوية كان يستعملها الفرد الجنوبي، أو اشباه البشر الجنوبيون، وأن المخلوقات البشرية دخلوا القارة من هذا الباب يحملون آلات أشيلية. ويؤرخ مستوى ٢ بنحو ٥٠٠,٠٠٠ سنة مضت، أما الحضارة الأشيلية وغطاء الجمجمة التي صحبتها فهي أقدم من ذلك بقليل. وهذا شيء معقول جداً، فنحن نعرف أن الحضارة الأشيلية بدأت في أوروبا منذ حوالي ٦٠٠,٠٠٠ سنة.

ويوجد عند شلالات كلامبو Kalombo في روديسيا تتابع كامل لعصر البلايستوسين، وفيه نجد أن الحضارة الأشيلية استمرت حتى ما بعد عام ٥٥,٣٠٠ ق.م. أي حتى قرب نهاية الوقفة بين فترتي الفرم في أوروبا. ثم تبعتها الحضارة السانجوانية Sangean وهي تتكون من رؤوس حراب، وقطع مدببة، وآلت غير مهذبة، ومشتقة من الصناعة الأشيلية، وهذه استمرت حتى عام ٣٨٧٥٠ ق.م، ومن المعتقد أنها صناعة نشأت في الغابة، ومصممة لأجل قطع الاخشاب، وأنها ظهرت في فترة مطيرة. وبعد الحضارة السانجوانية جاءت الحضارة الماجوسية Magosian، وهي حضارة

(1) Originally designated as Chellian-3 Man, and so-cailed in The Origin of Raoes.

شظايا ليفالوازية، يمكن مقارنتها بالصناعة الليفالوازية موستيرية في أوروبا وغرب آسيا. وقد ارخت في موضع من المواضع بعام ٧٥٥٠ ق.م أي في العصر التالي للجليد. وهذه بدورها تطورت إلى حضارة حجرية متوسطة محلية، تمتاز بالآلات الصغيرة المصنوعة من الشظايا، وهذه استمرت في جنوب إفريقيا في العصر الحديث.

هذا التتابع سائد على وجه العموم في إفريقيا، من مصر حتى جنوب إفريقيا، قبل ادخال المدى الحجرية. وقد استمرت الآلات الثاقبة في غابات الكونغو بشكل مميز حتى غزو البانتو لها. أما في غرب إفريقيا فالادلة قليلة؛ إذ لم يعثر على شيء كثير من الآلات الحجرية. وقد عثر ديفيز O. Davies في هذه البلاد على آلات حصوية وآلات قاطعة ومثاقيب سانجوانية وآلات من الشظايا، تردد في أن يقارنها بالصناعة الماجوسية، كما عثر بعد ذلك على آلات حجرية قزمية كثيرة(١).

ويتكون تاريخ ثقافات جمع الطعام الافريقية في الفترة التالية للجليد، كما قد بينا من قبل، من التحرك التدريجي نحو الجنوب، لثقافات نشأت في الشمال. وهذا التحرك أدى في النهاية إلى بقاء أو تعمر ثقافة «ولتون» بين البوشمن، وهي ثقافة حجرية تمتاز بصناعة الاسلحة القزمية، وهي مشتقة من الحضارة القفصية، التي كانت قد دخلت إفريقيا من غرب أوروبا منذ ثمانية أو تسعة آلاف سنة، وحتى هذه كانت بدورها مشتقة من الحضارة الاورنياسية. بل أن فان ريت Van Riet ليذكر أن استعمال آلات قاطعة وشاطرة ضخمة مصنوعة من النواة كان لا يزال معمراً بين بعض البوجيسو

---

(1) O. Davies: "The Climatic and Cultural Sequence in the late Pleistocene of the Gold Coast," PTPA. 1957, pp. 1-5.

Bugisu (أو الباجيشو Bagishu) الذي كانوا يعيشون بالقرب من جبل الجون في أوغندا، حتى بداية القرن الحاضر(١).

## ثقافات انتاج الطعام في العصر الحجري الحديث وعصر البرونز وعصر الحديد في إفريقيا

منذ حوالي ٤٥٠٠ ق.م، كانت ثقافات الصيد التي يمتاز بها العصر الحجري تدفع نحو الجنوب، وفي داخلية الغابات، وذلك أمام انتشار الزراعة وتربية الحيوان. وفي هذا الوقت، ادخلت النباتات الغذائية والحيوانات المستأنسة إلى مصر وشمال إفريقيا من غرب آسيا، حيث بدأت الزراعة، واستأنس الحيوان لأول مرة(٢). وفي مصر استقر الفلاحون الاوائل فوق المدرجات المرتفعة التي تحف بوادي النيل، وبحيرة الفيوم. أما قاع الوادي الممتلئ بالمستنقعات والغابات الكثيفة فقد تركوه للوطنيين الذين كانوا يعيشون في مستوى العصر الحجري المتوسط، وكانوا يعتمدون في غذائهم على وفرة من الطيور المائية والأسماك، وفرس النهر وغيره من حيوان الصيد. وبعد ذلك امتزج الشعبان، وقاما باقتطاع الأشجار وزراعة الضفاف التي كانت تغمرها مياه الفيضان سنوياً.

---

(1) C. Van Riet Lowe: The Vaal River Chronology, SSAB, No. 28 Vol. 7 (1952). P. 103 Cited by Senia Cole in the Prehistory of East Africa (Baltimore, Md.: Penguin Books: 1954), p. 115.

(٢) يمكن الرجوع في هذا الموضوع الذي عرض عرضاً عاماً إلى كتاب :
R. Oliver and J. D. Fage: A short History of Africa (Baltimore, Md.: Penguin Books; 1962, and in G. P. Murdock: Africa (New York: McGraw Hill Book Co.; 1959).

ولم تكن النباتات الغذائية القادمة من غرب آسيا صالحة للاقليم الذي تسقط أمطاره صيفاً جنوب الصحراء، ولاسيما نباتات: القمح، والشعير، والفول، والكتان، أما بالنسبة للحيوان المستأنس فلم تكن هناك صعوبات بيئية تواجهه في اقليم السافانا والحشائش، اللهم إلا ذبابة تسي تسي في بعض المناطق. وقد انتشرت هذه الحيوانات - ولاسيما الماشية - بالتدريج نحو الجنوب، من فزان حتى رأس الرجاء الصالح، كما تبين آلاف النقوش التي تغطي الصخور، ولكنها تقع على طريق المرتفعات الشرقي(١).

وما لبثت زراعة غرب آسيا وحيوانها أن وصلت إلى المحيط الاطلنطي في شمال إفريقيا، وسرعان ما تعلمها اسلاف البربر، كما أنها وصلت أيضاً إلى جزر كناريا، حيث كان اهلها المتحدثون بلغة البربر لا يزالون يعيشون في مرحلة العصر الحجري الحديث عندما غزا الاسبان ديارهم.

ولا يمكن زراعة نباتات غرب آسيا جنوبي الصحراء. وكان الموقف حينئذ شبيهاً بما كان في الصين في نفس الفترة تقريباً. وكان لابد من استئناس نباتات جديدة محلية. ويبدو أن هذا حدث في ثنية النيجر، وفي اقليم الخرطوم، وربما كانت الزراعة السودانية قد بدأت في وقت مبكر يقدر

(1) Coon: The Rock Art of Africa, "Science, Vol. 142, No. 3600 (1963). pp. 1642-5. This is a review of four extensively iliustrated Books: L. Frobenius: Madsimu Dsangara Sudafrikanische Felsbilderchronik (Graz: Akademische Druck 1962, first published 1932); Ekade Ektab, Die Felsbilder Fezzans (Graz: Akademische Druck und Verlagsgesellschaft; 1963. first published 1937), H-G. Bandi. ed.: The Art of the Stone Age (New York: Crown Publishers; 1961). R. Summers. ed.: Prehistoric Rock Art of the Federation of Rhodesia and Nyasaland (New York: Humanities Press; 1961).

بنحو عام ٤٥٠٠ ق.م.، كما يعتقد مردوك[1]، ولكن لا توجد أية أدلة على قيام الزراعة في ثنية النيجر قبل عام ١٠٠٠ ق.م. كما يقترح أوليفر وفيج[2] بحرص أشد. فهما يعتقدان أن الزراعة بدأت هناك خلال الالفين الثالثة أو الثانية ق.م.

وقد شملت الزراعة التي قامت في السودان انواعاً عديدة من: الذرة الرفيعة، والفاصوليا، والأوكرا، والبطيخ، والسمسم، كما استأنس الزنوج الذين كانوا يعيشون في ثنية النيجر نوعاً محلياً من الرز (Oryza glaberrina) وهذه المجموعة من النباتات كانت تلائم الحزام الضيق من الأرض الذي يمتد من السنغال غرباً حتى النيل شرقاً، وجنوباً حتى أوغندا، وكينيا. ولم يكن ملائماً لاقليم الغابات في الجنوب، الذي ظل ميداناً للصيادين وجامعي القوت حتى العصر المسيحي.

وهناك مركز آخر للزراعة الافريقية الاصلية، هو مرتفعات أثيوبيا حيث زرع نبات الوزين (Elusine coracana)، تيف وهو (Eragrostis abyssinica) وموز جذوره صالحة للأكل (Ensete edulis) هذه النباتات زرعت منذ عهد يرجع إلى عام ١٥٠٠ ق.م على الأقل وفي هذا الوقت كان الاقليم قد وثق علاقاته مع مصر إلا أن الزراعة الاثيوبية كانت منحصرة تقريباً في بيئتها الخاصة التي تتلاءم معها، ولم تنتشر إلى أجزاء إفريقية أخرى.

وحتى الآن لا نزال نناقش زراعة العصر الحجري الحديث وتربية الحيوان التي تتم بآلات العصر الحجري الحديث، إلا أن هذه الآلات مع مرور الزمن استبدل بها آلات مصنوعة من المعدن. ولم يكن هناك عصر برونز في إفريقيا باستثناء مصر وبعض محلات قليلة في حوض البحر

(1) Murdock. op. cit., p. 183.

(2) Oliver and Fage. op. cit., p. 28.

المتوسط. وقد دخل الحديد مصر من آسيا الصغرى في الالف الاولى ق.م. وكانت في مرو ببلاد النوبة، صناعة حديد كبيرة حوالي القرن السابع ق.م[1] وبسبب وفرة خام الحديد في إفريقيا المدارية ازدهر فن صهر الحديد وطرقه وانتشر على طول حزام الزراعة في السودان، ولكنه لم يصل إلى روديسيا حتى عام ٥٥٠م[2]. وفي شمال إفريقيا كان معظم البربر لا يزالون يستعملون آلات العصر الحجري الحديث حتى العصر الروماني، عندما أدخل اليهود، ومن بعدهم الزنوج القادمون من الجنوب صناعة الحديد في داخل البلاد. ولا يزال معظم الحدادين حتى الآن من الزنوج في شمال إفريقيا.

وحلت السلوكة «المجرفة» والفأس الحديدية محل الحجرية في السودان، وهذه سهلت دخول الزراعة في النطاق الغابي عندما أصبح من الممكن الحصول على نباتات غذائية يمكن أن تزرع في الغابة. وقد وصلت هذه النباتات مع الملاحين الاندونيسيين، الذين وصلوا إلى سواحل المحيط الهندي الافريقية أي سواحل شرق إفريقيا في الوقت الذي وجد فيه المسيح. وقد جلبوا في سفنهم نباتات: القارو Taro واليام الآسيوي والكوكويام والموز وقصب السكر والرز الآسيوي وجوز الهند. وبعد اكتشاف أمريكا أحضر الاوربيون معم الذرة والمانيوق والبطاطا والبازلاء Pumpkin, squash والكاكاو والتبغ. وهذه الزراعات كانت ملائمة تماماً للبيئة الافريقية. ومنذ ذلك الحين أخذت الزراعة الافريقية سماتها الحالية.

---

(1) R. J. Forbes: The History of Technology (New York: Oxford University Press; 1954), p. 597.

(2) J. D. Clark et al.: op. cit.

## التاريخ السلالي لإفريقيا
## فى عصر ما قبل التاريخ

إفريقيا، مثل آسيا، من الضخامة بحيث تكون مهداً لأكثر من نوع فرعي واحد من البشر. ولكنها إذ تقع على جانبي خط الاستواء، ولأنها أقل تضرساً من آسيا فإنها لم تستطع أن تحتفظ بسلالاتها، سواء ما كان منها اصلياً فيها أو دخيلاً، منفصلة بعضها عن الاخرى، كما لا توجد بها فواصل اركيولوجية، وليس بها ما يماثل خط موفيوس الذي يفصل الثقافات بعضها عن البعض الآخر. ويكمن سر التاريخ السلالي والثقافي لإفريقيا إلى مقاومتها للتغلغل واستغلالها لعمقها، أو كما قال ل. فروبنيوس منذ عهد بعيد أن الشعوب والثقافات الافريقية لا يحل بعضها محل البعض الآخر، بل يعيش معظمها بجوار البعض الآخر[1].

ويبدو أن هناك تتابعين سلاليين مختلفين في إفريقيا؛ احدهما شمال الصحراء، والآخر جنوبها. أما الأول فأنتج السلالة الكابوانية، كما أنتج الثاني السلالة الكونجوانية وقد نوقشا معاً في كتاب أصل السلالات. غير أن عدداً من الكشوف الجديدة قد تم الوصول إليها، ولا يزال بعضها لم ينشر بعد - وهي تؤيد بغض نظريات هذا الكتاب وتفند أخرى.

## التتابع الكابواني

يبدأ التتابع الشمالي بثلاثة افكاك تنتمي إلى إنسان الاطلنطي Atlanthropus التي عثر عليها في ترنفين بالجزائر، ثم العينات التي عثر عليها في الدار البيضاء والرباط وطنجة. ثم اضيف اليها اكتشاف جمجمتين

(1) Frobenius: Ekade Ektab.

جديدتين؛ احداهما تكاد تكون كاملة، وجد ثاني جبل اغود في المغرب[1] وهذه الاكتشافات ترجع إما إلى الفترة غير الجليدية الثالثة أو القرم ١، وهي أقدم من الصناعة العاطرية، كما أنها أقدم من أي جمجمة شبيهة بالبوشمن وجدت حتى الآن سواء في شرق أو جنوب إفريقيا. إلا أن هذه الجماجم تشبه مورفولوجيا ما عثر عليه من جماجم في سنجا بالسودان، كما تشبه ما عثر عليه في تل هوما بكينيا وموقع بوسكوب في جنوب غرب ترانسفال، وفلوريسباد في الاورانج الحرة وفش هويك Fish Hoek في مقاطعة الكاب، وفيما عدا الجمجمة الاخيرة، فهي جماجم كاملة الحجم، لاسلاف البوشمن. وقد ظل مثلاً هؤلاء السكان موجودين حتى ما بعد عام ١٠٠٠م في شمالي ترنسفال رغم أن الانكماش الغامض والتقزم الذي انتج البوشمن الحاليين كان قد بدأ منذ ذلك الحين في غير هذه الاماكن.

## التتابع الكونجواني

لا يعرف التتابع الكونجواني إلا جنوبى الصحراء قبل العصر التالي للجليد وهو ينحصر في ثلاث عينات يمكن تاريخها هي: غطاء جمجمة - الدوفاي ل ل ك LLK والتي أطلق عليها اسم إنسان شل، ولا تزال لم تدرس تفصيلياً بعد. وجمجمة خليج سالدنها Saldanha Bay من مقاطعة الكاب، وجمجمة بروكن هل الكاملة تقريباً والتي عثر عليها في زامبيا. ويرجع تاريخها على الترتيب إلى ٥٠٠,٠٠٠ سنة ١٠٠,٠٠٠ سنة و٤٠,٠٠٠ سنة، ٢٥,٠٠٠ سنة. وهي متشابهة جداً، وليس بها أي تغير تطوري واحد بها وهي

---

(1) E. Ennouchi: "Un Néanderthalien: L'Homme du Jebel Irhoud (Maroc), L'Anth, Vol. 66 No. 3-4 (1962)., pp. 279-99. Coon. "The Rock Art of Africa", pp. 1642-5.

جمجمة بروكن هل. وتحتفظ بنظام الوجه، ذات وجه زنجي. ويبدو أن بعض العينات القديمة التي لم تسجل تسجيلاً جيداً والتي عثر عليها في جنوب إفريقيا تنتمي إلى نفس النمط العتيق. وهي تملأ الفجوة بين عصر بروكن هل وبين وصول اسلاف البوشمن، الذين كما يبدو قد استوعبوهم.

لقد كنا نتوقع أن نعثر في الوطن الزنجي الأول، الذي يشمل سافانا السودان الغربي والغابات التي تقع إلى الجنوب منها، حتى ساحل المحيط الاطلنطي على أدلة تدل على تطور السلالة الكونجوانية؛ فهذا هو قلب الوطن الزنجي، غير أنه لا يوجد أي دليل حفري يرجع إلى عصر البلايستوسين، لا هيكل عظمي، ولا جمجمة، ولا قطعة عظم واحدة، ولا يزال أصل الزنجي الحالي، وأصل القزم، مغلفاً بالضباب، وسيظل هكذا حتى يعثر في السنغال وغينيا، وشرقاً في السودان وأثيوبيا، على أدلة حفرية جديدة. ولكن ما بين ايدينا من أدلة يشير إلى أن شرق إفريقيا وجنوبها، إن لم تكن إفريقيا جنوب الصحراء باكملها كانت غير مسكونة قبل دخول الفأس اليدوية الاشيلية من جنوب شبه جزيرة العرب أو من شمال إفريقيا، قبيل ظهور الإنسان الاشيلي (ل ل ك)، ويدل على هذا استمرار وجود نوعين من الرئيسيات التي تمشي على قدمين، ظلا في تنافس شديد حتى اندثروا. فهل كان الإنسان موجوداً قبل ذلك؟ هذا أمر مشكوك فيه، مع وجود هذين النوعين البشريين(١).

---

(١) نشير هنا إلى القرد الجنوبي الافريقي Australopithecus Africanus والقرد الجنوبي الضخم A. Robustus في جنوب إفريقيا والقرد الجنوبي البوازي A. Boisei وكان يعرف من قبل باسم إنسان الزنج البوازي Zinjanthropus boisei و Homs habilis طفل أولد وفاي في تنزانيا. انظر:

P. V. Tabias, and J. R. Napier: "A new species of the genus Homo Irom Olduval Gorge", Nature, Vol. 202, No. 4927 (1964) pp. 7-9.

## التتابع القوقازاني

آخر ما ظهر على المسرح الافريقي هو الإنسان القوقازاني، الذي كان عامل ازاحة، وعاملاً مؤثراً، في السلالتين الاصليتين السابقتين. وأقدم دليل على وجوده هو الآلات القاطعة التي عثر عليها في مصر العليا (أنظر ص ١١٨) والتي يرجع تاريخها إلى ١٢٢٠٠ق.م. ولكن لم يعثر على جماجم أو هياكل عظمية للناس الذين صنعوها.

وتمتاز الهياكل العظمية القفصية بعد الجليدية التي وجدت في ليبيا وتنزانيا بأنها لقوم طوال القامة نحافها، والذين لم يكونوا قوقازانيين، كما كان يظن من قبل، ولكنهم كانوا خليطاً من الزنوج القوقازانيين Caucasoid-Negro لهم أوجه طويلة. وأنوف أقرب إلى الفلطحة واسنان ضخمة(١). أما القفصيون المتأخرون الذين عثر على بقاياهم في شمال إفريقيا فهم قوقازانيون حقاً، بل أنهم أكثر من ذلك ينتمون إلى سلالة البحر المتوسط(٢). وهم يختلفون عمن سبقهم الذين عثر عليهم في اقليم مولوية وساحل المغرب والجزائر. وتدل الهياكل العظمية العديدة التي عثر عليها في كهوف آفالو بوغيل بالجزائر، وتافورالت بالمغرب وغير ذلك من الامكنة على وجود شعب طويل القامة، غليظ العظام، ضخم الجماجم عريض الوجه ضخم الفك، واسع فتحات الأنوف. ورغم أنهم من السلالة القوقازانية اساساً، إلا أن صفاتهم تدل بوضوح على أنهم قد استوعبوا سكاناً اصليين سابقين لهم، وهم العاطريون، وكان العاطريون قد اشتقوا من الخط الترنفيني الطنجي

(1) Oschinsky: "A Critique of the Origin of Rases by C. S. Coon", Anthropologica, Vol. 5. No. 1 (1963), pp. 111-6.

(2) L. C. Briggs: The Stone Age Races of Notthwest Africa, BA, SP, No. 18 (1955).

Ternefine-Tangier وهي طبقاً لتفسيرنا للادلة، كانوا من الاسلاف البوشمن كاملي الحجم. ولا تزال آثار من هذه السلالة موجودة حتى الآن بين سكان شمال إفريقيا الحاليين.

أما عن مصر، فمن المعقول أن نفترض وجود تركيب وراثي قوي من الافريقيين الاصليين في تكوين الصيادين الذين كانوا يسكنون وادي النيل عندما كانت تغطية الاحراج، كما يفترض اوليفرو فيج (انظر ص ١٢١) . أما فلاحو العصر الحجري الحديث الذين استقروا على ضفاف النيل من الجانبين فكانوا قوقازانيين جاءوا مباشرة من غرب آسيا. وقد امتزج العنصران قبل نهاية عصر ما قبل الاسرات. وقد فحص هذا الفرض أخيراً ج. م. كريشتون Crichton الذي قام بمقارنة ٢٩٦ جمجمة تنتمي إلى عصر ما قبل الاسرات، وعصر الاسرات المصرية. وبعض الجماجم الزنجية[1] بطريقة التحليل المميز متعدد الدلالات، مستخدماً ٣٤ قياساً، وسبع دالات، وحاسباً واحداً. وقد بين هذا التمرين الرياضي أن شعب عصر ما قبل الاسرات كانوا أقرب إلى الزنجية من شعب عصر الاسرات، وأن المصريين القدماء فى عصر الاسرات كانوا أكثر قوقازانية من اسلافهم. وكان الاختلاف بين مصريي ما قبل الاسرات ومصريي الاسرات أكثر في شكل الوجه منه في ارتفاع الجمجمة. فلقد كان المصريون في عصر ما قبل الاسرات يمتازون بعظام الأنف الاكثر عرضاً، والاكثر اتساعاً، والفك الاكثر بروزاً عما كان عليه المصريون في عصر الاسرات. كما تتميز جماجم عصر ما قبل الاسرات بأن قواعدها أكثر استواء نسبياً، ويتضح ذلك من تقدير ارتفاعها، وعلى ذلك فجماجم هذا

(1) J. M. Crichton: "A Multiple Discriminant Analysis of Egyptian and African Negro Crania:, Harvard University Senior Honors Thesis for A. B. In Anthropology, 1964. Peabody Museum Library.

العصر أكثر زنجانية، كما تبرز فيها عظمة مؤخرة الجمجمة (القذال) أكثر مما لدى المصريين في عصر الاسرات ومن القوقازيين عامة.

ولما لم يكن لدى كريشتون عدد كبير من جماجم البوشمن، فإنه لم يستطع أن يحدد ما إن كان العنصر الافريقي في مصريي ما قبل الاسرات من البوشمن - كما قال ر. بياسوتي[1] أم من الزنوج.

وقد ظهرت للوجود الآن أدلة سلالية وافرة من وادي حلفا، في النوبة، حيث عثر على جماجم وهياكل عظمية في موضعين من مواضع العصر الحجري الحديث كشفت عنهما بعثة جامعة كولورادو وسوزرن مثوديست. وهما يرجعان إلى ١٣٠٠٠ ق.م و ٨٠٠٠ ق.م وربما كان التاريخ الاخير هو الاقرب إلى الصحة[2]. وربما كانت هذه المجموعة هي أكبر عدد عثر عليه من هذا التاريخ العتيق، وسيلقي الضوء الباهر على الصفات السلالية لسكان وادي النيل الاعلى قرب نهاية البلايستوسين. وتمتاز هذه الجماجم بأنها مستطيلة، ومؤخرتها على شكل كعكة، وعظام حواجب سميكة، وجبهات متقهقرة، ووجه شديد التسطح خصوصاً عند منطقة الجبهة والأنف، والجزء الاسفل من الفك بارز جداً، والأسنان ضخمة كبيرة، وهذه الجماجم تشبه بصفة عامة جمجمة جبل أغود، ولكنها أكثر تطوراً. أما الهياكل العظمية التالية - وهي تنتمي إلى عصر الاسرات - فهي قوقازانية.

كل هذه الادلة تشير إلى أمر واحد، هو أن كل إفريقيا شمال الصحراء

---

(1) Biasutti: "Crania Aegyptica", AAE, Vol. 35 (1905), pp. 322-62.

(2) G. J. Armelagos, G. H. Ewing, and D. L. Greene: "Fossil Man Discoveries from Wadi Halfa," MS (1964), and Phetographs. Also, personal Communication and photographs from F. Wendorf.

كانت آهلة بشعوب غير قوقازانية، وأنه عندما قدم القوقازانيون اختلطوا ببعض السكان الاصليين، وطردوا البعض الآخر جنوباً. وتتابعت موجات القوقازانيين على شمال إفريقيا وزادتها قوقازانية، إلى أن عكست تجارة الرقيق الامر في عهد تلا هذا بكثير. ومن الامور الهامة أن يلاحظ تدخل المورثات القوقازانية في إفريقيا الزنجية خلال الآلاف الاربعة عشر الاخيرة من السنين. وهذا قد يفسر إلى حد ما التشابه الملحوظ بين القوقازانيين والزنوج في بعض صفات المورثات التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بالتكيف البيئي مثل بعض صفات مورثات فصائل الدم ونمط صماخ الأذن. وبصمات الأصابع التي سندرسها فيما بعد.

آخر الحركات الشمالية الجنوبية هي حركة قبائل البانتو من وطنهم في غرب إفريقيا إلى شرق إفريقيا من ناحية، وجنوبها من ناحية أخرى. ولابد وأن قبائل البانتو الحاليين تشتمل على عناصر وراثية للبوشمن وربما أيضاً للقوقازانيين، إلى جانب العناصر الوراثية الزنجية.

## لغات إفريقيا

استطاع ج. هـ. جرينبرج(1) أخيراً أن يبسط ويعيد تقسيم لغات إفريقيا التي كانت قد اختلطت في الاذهان بالخصائص الثقافية والسلالية. ورغم أنه يورد ٧٣٠ لغة في فهرسه، ويذكر أسماء ٤٣٧ لغة في نصه، إلا أنه اختصرها إلى أربع أسر كبرى: كونغو كردفانية، ونيل صحراوية، وافروآسيوية، وخواسانية. وهذا التقسيم يضم معاً عدداً من اللغات كان يفرق بينها من قبل، بل كان بعضها معزولاً، ويحسب حساب كل لغة معروفة في إفريقيا، ما عدا

---

(1) J. H. Greenberg: The Languages of Africa, IJAL, Vol. 29, No. I (The Hague: Mouton & Co.; 1963).

اللغة المروية المنقرضة، والتي لا تعرف إلا من كتابتها الهيروغليفية. وليس من الضروري أن تكون هذه اللغة إفريقية، فلقد كانت مرو مركز صناعة الحديد المجلوب من آسيا.

## الأسرة الأفرو آسيوية

من الاسر اللغوية الاربع الموجودة في إفريقيا، توجد أسرة واحدة يتحدث بها خارج القارة. وهذه أطلق عليها جرينبرج الاسرة الافروآسيوية، وكانت تعرف من قبل باسم الاسرة الحامية السامية(١). والاسم افروآسيوية مناسب، لأنها تضم خمسة أفرع منفصلة متساوية الاهمية، هي السامية، والبربرية، والمصرية القديمة، والكوشية، والشادية. ولم توجد أربع منها خارج إفريقيا، أما السامية فقد عرفت أولاً وتحدث بها في آسيا.

ومنذ أكثر من اربعين عاماً اقترح نولدكه Nöldeke(٢) أن تكون إفريقيا وطن اللغات السامية.. وإذا صح هذا فإننا نستطيع أن نقول أن السامية البدائية قد انتقلت إلى شبه جزيرة العرب عن طريق باب المندب، قبل عام ٣٠٠٠ ق.م ومنها انتشرت شمالاً؛ وأن اللغة المصرية القديمة نشأت اساساً بين جماعات الصيادين الذين كانوا يصطادون ويقتنصون في الغابات التي كانت تغطي وادي النيل، وأن لغة البربر قد حملت شمالاً عبر الصحراء إلى شمال إفريقيا، كما توصي بذلك قصص تقاليد البربر انفسهم، وأن بعض اللغات السامية التي تفرعت في آسيا في هذه الاثناء قد أخذت تعود مرة أخرى إلى إفريقيا منذ حوالي عام ١٠٠٠ ق.م.

---

(1) See M. Cohen's "Hamito-Semitic" in Meillet et Cohen: op. cit., pp. 82-181; and Greenberg: op. cit.

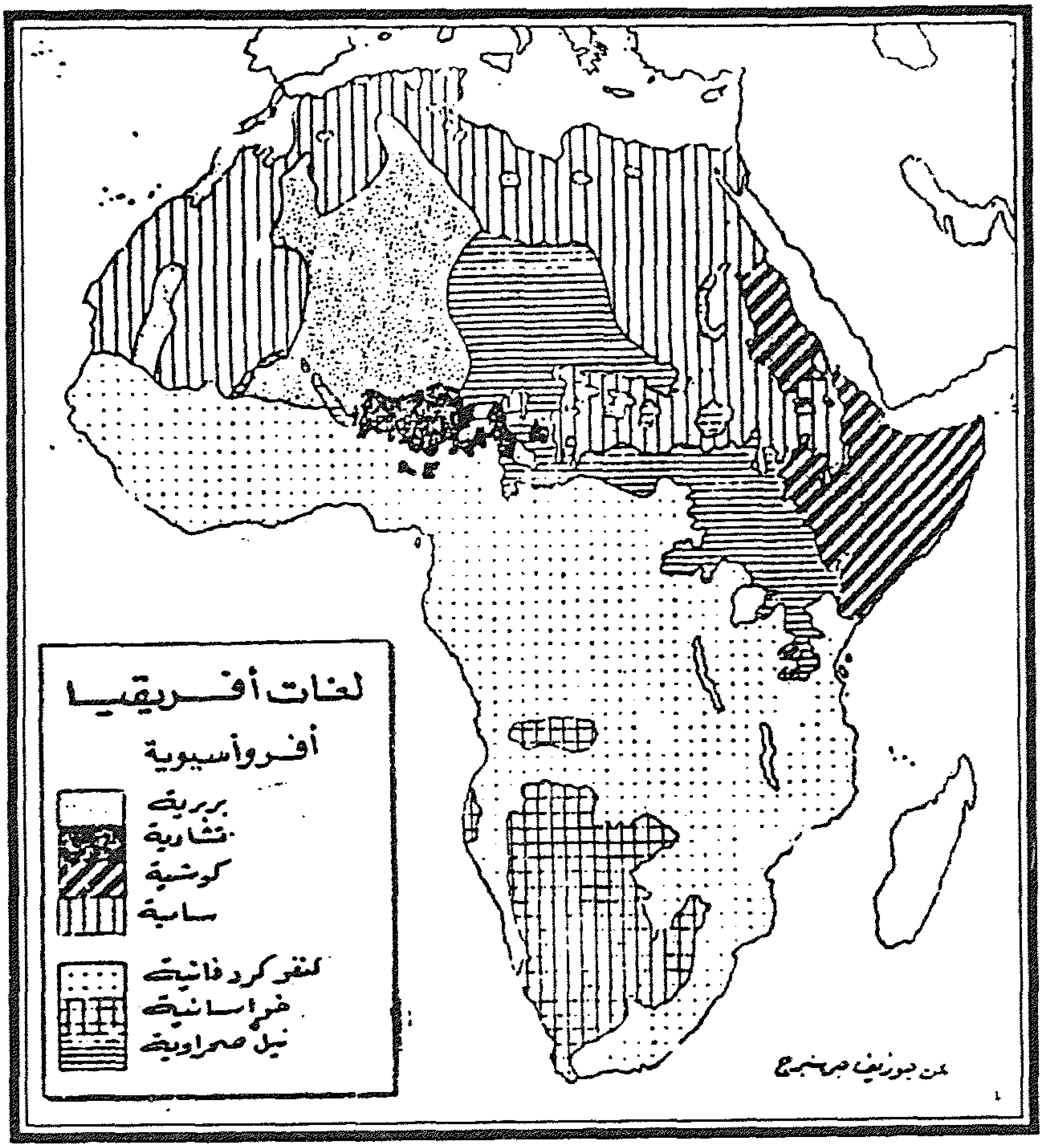
(2) T. Nöldeke: "Semitic Languages". Encyclopaedia Britannica 12th and 13th editions (1922-6), Vol. 24, pp. 617-30.

## اللغات السامية في إفريقيا

هذه تشمل الفينيقية المندثرة، وكانت هذه اللغة سائدة في المراكز التجارية المتناثرة على ساحل شمال إفريقيا، وفي الريف المحيط باقليم قرطاجة، كما تشمل اللغات الاثيوبية والا ربية.

وقد اشتقت اللغات الاثيوبية السامية من لغتين أو أكثر من اللغات العربية الجنوبية ادخلها غزاة مثقفون من حضرموت واليمن قبل العصر المسيحي بقرون قليلة. ولا نعرف متى حدث هذا بالضبط. ويتحدث بها أكثر من عشرة ملايين نسمة، أو نصف سكان أثيوبيا، التي تشمل: ارتريا، ويتركز المتحدثون بها في ربع مساحة البلاد. واللغة المقدسة القديمة هي لغة الكنيسة القبطية المحلية وتعرف بالجعز. أما اللغة الرسمية فهي الاجهرية، وهي لسان خمسة ملايين نسمة، وأما التجريفة فهي لغة اقليم اكسوم وهي أقرب إلى الجعز من الامهرية. ولا ينبغي أن نخلطها بلغة تيجره، وهي التي اشتقت من لغة عربية جنوبية أخرى، ويتحدث بها في ارتريا. أما اللغات الاثيوبية الاخرى فهي: الجفات، والارجية، وهرري، وجوراج. ويتحدث بها اقوام منعزلون بعضهم عن بعض، بمثابة الجزر وسط محيط الجالا المتحدثين بالكوشية، والذين غزوا البلاد في القرن الخامس عشر.

أما اللهجات العربية الافريقية فهي مشتقة أساساً من القبائل العربية التي دخلت إفريقيا من جنوب غرب آسيا وتأثرت بالهجمات المحلية. فاللهجة المصرية تمتد غرباً حتى شرقي تونس، ومن ثم تحل محلها اللهجة المغربية التي تمتد حتى المحيط الاطلنطي والتي كانت سائدة يوماً في اجزاء من اسبانيا والبرتغال. وتعتمد اللهجة المغربية التي يتحدث بها البدو والحضر على لهجة بدو العراق الشمالي التي جلبها الهلالية الغزاة في القرن الثاني عشر،




وهي لا تختلف كثيراً عن لهجة الحسانية في موريتانيا وفي غيرها من اجزاء الصحراء الكبرى. أما اللهجة المغربية السائدة في مدن المغرب ولاسيما فاس فهي لهجة نقية أقرب إلى الفصحى. أما في الصومال وأثيوبيا فيتحدث التجار العرب لهجة يمنية، في حين يتحدث عرب زنجبار والمحيط الهندي لهجة عمانية. وأما اللغة السواحلية فهي لغة خلاسية من لهجة عمان العربية ولغة البانتو، وهي واسعة الانتشار بوصفها لغة التجار في شرق إفريقيا.

## اللغة المصرية القديمة

للغة المصرية القديمة تاريخ طويل بوصفها لغة مكتوبة. ولا يزال شكل من اشكالها يكتب بحروف افريقية معدلة باقية في الكنائس القبطية.

## لغة البربر

لغة البربر متجانسة تجانساً يدعو للدهشة – على ضوء قدمها – من المحيط الاطلنطي حتى واحة سيوة في مصر، ومن البحر المتوسط حتى ثنية النيجر. وقبل الغزوات العربية الاولى منذ اثني عشر قرناً، كانت لغة البربر تحتل كتلة جغرافية متصلة. ولم يتم تمزقها الحالي إلا بعد غزو البدو منذ حوالي ٨٠٠ عام. ورغم أنها تشتمل على لهجات عديدة إلا أنه يمكن تمييز مجموعتين لغويتين بها: احداهما مجموعة الزناتية، التي يتحدث بها اساساً في المغرب وبعض واحات الصحراء. أما المجموعة الثانية فتشتمل على الباقي، مثل الريفية والسوسية ولغة أطلس الاوسط والبربر والقبائل والطوارق.

ولقد ذكرنا من قبل أن لغة البربر حملت شمالاً عبر الصحراء من وطن مفترض هو الوطن الافروآسيوي. وربما كان يتحدث بها اصحاب الحضارة القضية، وربما لا. كما أن مسألة المولويين وتحدثهم بها مسألة أخرى. إلا أن اللغة الريفية على الاقل تشمل بعض لاحقات البحر المتوسط (سنت، – أنا) في أسماء النباتات المزروعة، ويقال أن لغة الجونش Guanche ذات أساس «بحر متوسطي»، والجونش هي لغة البربر المندثرة التي كانت سائدة في جزر كناريا قبل الغزو الاسباني، والذين كانوا اصحاب الحضارة الحجرية الحديثة ويشبهون المولويين تشريحياً.

## اللغة الكوشية

ربما كانت اللغة الكوشية – مثل البربرية – تكون كتلة صلبة قبل وصول الغزاة الاثيوبيين منذ أكثر من ألفي عام يحملون لغات عربية جنوبية. وقد استطاع جرينبرج أن يصف أربعاً وخمسين لغة مقسمة على خمس مجموعات اقليمية: الشمالية هي البجا، ويتحدث بها أيضاً البشاريون والهدندوة على ساحل البحر الاحمر في السودان. وهؤلاء هم الفزى وزى الذين ذكرهم كبلنج بعد أن حطموا المربع البريطاني. والمجموعة الكوشية الوسطى تتكون من ثمان لغات منعزلة في أثيوبيا. والفرع الشرقي، ويشتمل على ست عشرة لغة لشعوب متعددة، معظمها رعوي، مثل الجالا والصومال والسيدامو. وللفرع الغربي ثلاثون وحدة صغيرة في جنوب غرب أثيوبيا، والفرع الجنوبي ويشتمل على ست لغات، ومنها الايراكو Iraqu(١) وينحصران فى جيبين صغيرين في تنزانيا، وكل منهما يقع إلى الشرق من جيب مساو من البوشمن ويحيط بكل منهما شعوب تتحدث لغات سودانية شرقية من الغرب وشعوب تتحدث البانتو من الشمال والغرب والجنوب. وهذا وضع جغرافي غريب جداً، ويشير إلى تعقد الحركات السكانية قديماً على طول ممر مرتفعات شرق إفريقيا.

## مجموعة تشـاد

لغات تشاد التي يتحدث بها في الوسط الغربي للسودان إلى الشرق مباشرة من ثنية النيجر، تتكون من ١١٢ لغة موزعة على تسع مجموعات. من هذه اللغات لغة الهاوسا، وهي اكثرها انتشاراً، وهي لغة

---

(١) درست فصائل دم هذا الشعب دراسة مستفيضة.

جماعة سودانية كبيرة تضم الحرفيين والتجار، كما أنها اللغة السائدة لمنطقة واسعة. وهي تقف على طرف نقيض من حيث التنوع والتعقد مع ثلاث من اللغات الافروآسيوية، السامية والمصرية القديمة والبربرية. وهذا يدل على عراقة بالغة.

## مجموعة الكونغو كردفانية(١)

تنقسم هذه المجموعة – التي كانت تسمى مجموعة النيجر كنغو – إلى قسمين جغرافيين: احدهما أكبر، وتشتمل على ست مجموعات، ٢٠٣ لغة يتحدث بها في الغابات واقليم السافانا المجاور له في وسط إفريقيا الغربي، على شكل شريط ضيق يمتد من الشرق إلى الغرب، من السنغال وليبريا حتى اعالي نهر أويلي على خط طول ٣٠° ش وشمال خط الاستواء مباشرة.

ولغات الساحل الغربي المعروفة جيداً مثل الماندي والكرو والايوي واليوربا والايبو، كلها اعضاء في هذه الاسرة. وكذلك لغة الباتو التي تعتبر واحدة من الواحد وثلاثين لغة المنتمية إلى مجموعة بنو كونغو، ولقد انتشر البانتو في معظم إفريقيا الجنوبية، شرقي وطنهم الاصلي منذ ادخال المحصولات الغذائية الصالحة للنمو في الغابات المدارية من اندونيسيا.

أما لغة الفولاني – وهي واحدة من الاثنتين والعشرين اللغة الموجودة في المجموعة الاطلنطية الغربية – فتتحدثها قبائل تعتبر أكثر قبائل جنوب

---

(١) ذكر جرينبرج عام ١٩٦٤ أنه غير اصطلاح نيجر كونغو الذي استخدمه عام ١٩٦٣ إلى كونغو كردفانية حتى يتحاشى أي لبس أو ظن أن الكردفانية مستبعدة منها. ثم قرر بعد ذلك أن اللغات الكردفانية تدخل في المجموعة النيجركونغوية، وأن الفصل بينهما فصل جغرافي فقط. انظر رده على هـ. ك شناندر في :
Confusion in African Linguistic Classfication," CA, Vol. 5, No. 1. (1964), pp. 56-7.

الصحراء قوقازانية. وكذلك لغة الهيررو، وهي مشتقة من البانتو ويتحدث بها في أنجولا. وأكثر من هذا فالتوتسي أو الواتوسي نصف القوقازانيين الذين يسكنون رواندا وبورندي يتحدثون البانتو. إلا أن معظم المتحدثين بمجموعة لغات النيجر كونغو زنوج صرف.

أما اللغات الكردفانية التي تنتمي إلى هذه الاسرة فيتحدثها سكان اقليم صغير في جبال النوبة في السودان الشرقي، وتحيط بهم شعوب تتحدث لغات نيلية صحراوية. ورغم صغر مساحة هذا الاقليم فإن به إحدى وثلاثين لغة تنضوي تحت خمس جماعات.

## اللغات النيلية الصحراوية

هذه اللغات يبلغ عددها ٦٣ لغة، تنضوي تحت ست مجموعات، وتنتشر انتشاراً واسعاً ولكنه غير متصل.. ويتحدث اثنتين منهما شعوب نهرية، الصونغاي على ثنية النيجر واللغة النيلية النوبية أو الدنقلاوية على ثنية النهر شمال العطبرة. وتقع مرو Meroe وسط هذا الاقليم؛ وهي مركز لغة مندثرة قديمة، لا نعرف هويتها. وتوجد كتلة كبيرة من هذه اللغات في وسط الصحراء الكبرى الشرقي. وهذه هي لغات التيدا وغيرهم من الشعوب شبه القوقازانية في فزان وهضبة تبستي، والتي يوجد بها عدد كبير من النقوش الصخرية، والتي تبين شعوباً زنجية وقوقازانية يرعون الماشية ويعرفون العجلات. وتكاد تحيط لغات مشابهة لتلك اللغات الكوشية الشرقية، وهذه بدوها تحيط تماماً باللغات الكردفانية، مما يجعل السودان الجنوبي الغربي منطقة معقدة لغوياً تعقيداً شديداً. وتتحدث المجموعة الشارية نيلية - Chari Nile اللغوية جماعات تمتد جنوباً حتى غربي أثيوبيا والصومال وتتغلغل داخل تنزانيا، ويتحدثها الشعوب النيلية الطويلة القامة، وهذه تشمل الدنكا، والشلوك، والنوير، والباري، والنوركانا والناندي، والسوك، والماساي.

## المجموعة الخواسانية

يتحدث الخواسانية، أو لغة الطقطقات: البوشمن، والهوتنتوت، ومجموعتان منعزلتان يعملان اساساً بالصيد في تنزانيا، الساندوي، والهاتسا، أو الكنجيدا. وتقسم المجموعة الخواسانية، في جنوب إفريقيا إلى ثلاث مجموعات شمالية، ووسطى، وجنوبية، وكلها يتحدثها البوشمن كما أن الهوتنتوت يتحدثون أيضاً إحدى لغات المجموعة الوسطى. أما الساندوي والهاتسا فهي جماعات منفصلة. ولغة الساندوي من ناحية النحو وليس من ناحية التركيب أقرب إلى الخواسانية الوسطى. ولا نعرف كثيراً عن لغة الهاتسا. واللغات الخواسانية سلالياً ترتبط بشبه النوع الكابواني. ولكن هناك جماعة زنجية هي جماعة برجداما في جنوب غرب إفريقيا تتحدث الخواسانية الشمالية، كما أن لغتين من لغات البانتو أخذتا الطقطقات، وهما الزولو والسوتو في جنوب إفريقيا وقد بذلت محاولات للربط بين لغة الهوتنتوت واللغات الكوشية حيث أن الهوتنتوت رعاة. ولكن لم توجد إلا بعض أوجه شبه مقتصرة على اللاحقات التي تدل على الجنس، وهي إن صدقت تدل على اتصال قديم بين المتحدثين بالخواسانية والكوشية، وذلك قبل ادخال الماشية إلى جنوب إفريقيا. ومثل هذا الاتصال – إن حدث – لم يتم في جنوب إفريقيا بالضرورة.

## الافريقيون الحاليون

الشعوب الحالية التي تسكن الشمال والشرق بغض النظر عن لغاتها التي تتحدثها شعوب انتقالية نحو الاوربيين وشعوب غرب آسيا. أما هؤلاء الذين لا يزالون يحتفظون بسماتهم الافريقية الاصلية، فانهم يعيشون في اقاليم الغابة الاستوائية المنعزلة، وفي صحراء جنوب إفريقيا المكشوفة الواسعة. ومن

الممكن تقسيم شعوب إفريقيا عامة إلى القوقازانيين في شمال إفريقيا، والشعوب المختلطة، في أثيوبيا ومرتفعات شرق إفريقيا، والأقزام والزنوج والبوشمن والهونتنتوت.

وقد جاءت الشعوب والقبائل في بعض اجزاء إفريقيا ورحلت واستوعبت غيرها وامتزجت في غيرها وظهرت شعوب جديدة وتلاءمت لاحوال جديدة. وفي جهات أخرى يبدو أن عجلة الزمن قد توقفت عن الدوران. وإذا اردنا أن نفهم شعوب إفريقيا الحاليين، فعلينا أن نبدأ باكثرها قدماً، واقلها تعقداً، وننتهي باحدثها واكثرها تعقداً واختلاطاً وسنبدأ بأحد الشعوب الكونجوانية، وهو شعب الأقزام وننتهي بشعوب أخرى، وهي الزنوج والزنجانيون.

### الأقزام أو التوا، تاريخهم وتوزيعهم وعددهم(١)

لابد من القاء الضوء على بعض الخلفيات التاريخية والثقافية قبل أن

---

(1) M. Gusinde: Die Twiden: Pygmäen und Pygmoide im tropischen Afrika (Vienna and Stuttgart: Wilhelm Braumüller 1956). J. Hiernaux: "Les Caractères Physiques des Populations du Ruanda et de I'Urundi", MIRSN, 2nd; series, Vol. 52 (1954); "Donnêes Génétiques sur Six Popuìations de la République du Congo", Act G. Vol. 42, No. 2 (1962). pp. 145-74. B. Adé: Le Nanisme Raciale", ASAG, Vol. 19, No. 1 (1954), pp. 1-18. R. R. Gates: "The African Pygmies", AGMG. Vol. 7 (1958), pp. 159-218. Oschinsky: The Racial Affinities of the Baganda. P. W. Morgenthaler: "Quelques remargues au sujet de linclinaison et de la rétroversion du tibia". BSS, Vol. 31 (1954-5), pp. 45-59. Sauter and A. Könz: "L'humérus des Pygmérus des Pygmées de l'Ituri (Congo-Belge), BSS, Vol. 31 =/=

نتحدث عن توزيع الأقزام، لأنهم يحتلون مركزاً اساسياً في التاريخ السلالي لإفريقيا. وأقدم ذكر تحت أيدينا عن الأقزام مشتق من وثيقة مصرية ترجع إلى الدولة القديمة، فيها ينبه أحد الفراعنة قائد إحدى بعثاته إلى أقصى الجنوب أن يجلب معه عند عودته راقصاً قزماً. وقد نجحت البعثة في مهمتها. وأما الخبر الثاني وكان من هيرودوت، الذي أخبر عن المعركة السنوية التي تنشب بين الأقزام وبين طير الكراكي، وهو الذي أطلق عليهم اسم الأقزام باليونانية Pygmaioi ومعناها باليونانية الرجل الذي لا يزيد طوله على ما بين كوع الشخص العادي وأصابع قدميه. وقد ظل الاوربيون محتفظين بهذا الاسم، ثم ابتكر الانثروبولوجيون تعبيراً جديداً له معنى محدد وهو التوا وهو مشتق من المقطع البانتوي «توا» كما في كلمة «باتوا» أي «الناس الصغار».

عندنا أدلة كثيرة تجعلنا نعتقد أنه منذ عصر بناء الاهرام والتوا كانوا هم السكان الوحيدين لغابات وسط إفريقيا الاستوائية، من ليبيريا حتى رواندا. وتنقسم هذه الغابات الآن إلى قسمين، شريط من الأرض المكشوفة يصل إلى الساحل من اكرا حتى لاجوس. ولم يبق في الجزء الأصغر المنعزل الغربي أي قزم، رغم أن التقارير ذكرت وجود شراذم صغيرة منهم في أماكن متعددة حتى مطلع هذا القرن. أما في الجزء الشرقي الاكبر فتوجد ثلاث مجموعات جغرافية متميزة، من الأقزام، التوا الغربيون والشماليون والجنوبيون.

= (1954-1955), pp. 5-6 Vallois: "New Research on the Western Negrillos", AJPA, Vol. 26, No. 4 (1940), pp. 449-71. F. Twiesselmann: "Contribution à l'Etude des Pygmées de l'Afriqus Occidentale", MMRH, Ser. 2 Fasc 27 (1942), pp. 1-32. D. B. Jepiffe: "The origin, fate, and significance of the umbilical hernia in Nigerian children", TRST, Vol. 46 (1952), pp. 428-34.

ويعيش التوا الغربيون متفرقين في الكاميرون والجابون وغينيا الاسبانية، ومنطقة اوبانجي شاي في جمهورية وسط إفريقيا وزائير والكونجو برازافيل ويبلغ عددهم نحو ٢٥٠٠٠ نسمة ربما اضيف اليهم ما بين ٨٠,٠٠٠ - ١٠٠,٠٠٠ باتوا أو باكوا يعيشون جنوبي نهر الكونغو، وهم يشبهون جسمانياً جيرانهم الذين يعيشون غربيهم. أما التوا الشرقيون فهم أقزام غابة ايتوري، بالقرب من حدود أوغندا وورائها. ويبلغ عددهم نحو ٣٢ ألف نسخة والتوا الجنوبيون هم أقزام رواندا وبوروندي، وعددهم ٩٣٠٠ نسمة. فيبلغ عدد الأقزام إذن ما بين ١٤٦,٠٠٠ و ١٦٦,٠٠٠ نسمة إذا صحت هذه التقديرات. وإذا كان ثمة خطأ فهو غالباً في الجانب الاقل، حيث أن الأقزام نفورون، ومن الصعب احصاؤهم.

وقد بين جوزيند Gusinde(١) بكل وضوح وجلاء، وهو يتحدث اساساً عن التوا الغربيين والشرقيين أن الأقزام متلائمون تماماً مع الغابة الرطبة العطنة، حيث يعيشون فى شراذم صغيرة في حزام شرقي غربي يقع بين درجتي عرض ٥° شمال وجنوب خط الاستواء، ويمتد من ساحل الاطلنطي حتى الحافة الشرقية لمرتفعات شرق إفريقيا، وليس في هذا الوطن اختلاف يذكر في طول الليل والنهار، وترتفع الحرارة حتى ٨٦° ف في النهار وتنخفض إلى ٦٨° ف في الليل، أو أقل قليلاً إذا هبط المطر ساعة أو ساعتين كل يوم، مصحوباً بالبرق والرعد، الذي يسقط الاغصان الميتة إلى الأرض.

وبينما يجد الأوروبي أو الزنجي صعوبة، في السير خلال هذه الغابة، فإن القزم ينزلق فيها قافزاً، متعلقاً بالنباتات المتسلقة وأغصان الأشجار، بل إنه لينفذ من خلال الجذوع الساقطة. فحجمهم الصغير، ووزنهم الضئيل،

---

(١) نفس المرجع.

ومرونة عضلاتهم ومفاصلهم، وتفجرهم بالطاقة فجأة، يجعل هذا الاسلوب من الحركة سهلاً عندهم، بل ويمكنهم من البقاء على قيد الحياة وهم يقتاتون مما يجمعون من طعام.

والفواكه والبذور قليلة في الغابة. كذلك الطيور وحيوان الصيد. وهذا هو السبب الذي من أجله يعيش الأقزام في شراذم صغيرة، ولا تكاد تتصل شرذمة بأخرى. وكل الأقزام قبل وصول الرواد الزنوج الذين قطنوا مساحات من الغابة، لكي يزرعوا مكانها بعض المحصولات، قبل أن تنمو الحشائش العملاقة محل الغابة المزالة، أو قبل أن تدوس الفيلة ما يزرعون، كان الأقزام يعيشون على المنتجات الحيوانية، مثل النمل الابيض في مواسمه والعسل البري. ولكن عندما وصل الزنوج إلى الغابة، نشأ تكامل معين بين الأقزام والزنوج، فالأقزام يمدونهم باللحم وينذرونهم بقدوم الاعداء من البشر والفيلة. أما الزنوج فامدوا الأقزام بالمصنوعات الحديدية، والفخار، والموز ويرتاد الأقزام قرى الزنوج من حين إلى آخر، ويرسلون أولادهم إلى مدارس التأهيل الزنجية، ويتحدثون لغات سادتهم، ومن ثم فهناك علاقة متبادلة بين الموالي الأقزام وسادتهم الزنوج.

ورغم هذه العلاقات المتبادلة، والنظام التربوي المتكامل بين الأقزام والزنوج، فإن المورثات الزنجية لم تتغلغل في الأقزام. وعلى العكس من ذلك فقد دخلت نساء الأقزام في حريم الزنوج، واستولدوهن نسلاً نصف قزم ونصف زنجي، ولكنهم يدرجون في زمرة الزنوج، ولم تتزوج زنجية من قزم أو تبعته إلى الغابة وإن نقلت في نخالها بغاوره على التلاؤم فيها.

ولابد وإن كان الزنوج يحملون بعض الصفات القزمية منذ وقت طويل، حيث أن المورثات القزمية قد بدأت في التسلل إلى المجتمعات الزنجية على

أطراف الغابة. وعندما توغلوا في الغابة جلبوا معهم المورثات القزمية ولا تزال آثارها فيهم، أما الأقزام فلم يتغيروا.

والخلية المنجلية موجودة في كل من الزنوج والأقزام، وهي أحد الدروع الحامية ضد الملاريا. ونظراً لاتجاه تدفق المورثات السائدة يسري من الأقزام إلى الزنوج، فمن المحتمل أن يكون الأقزام قد اكتسبوها أولاً ثم انتقلت منهم إلى الزنوج وليس العكس. غير أن الزنوج قد اعطوا الأقزام مرضاً آخر، ليس عن طريق المورثات، بل عن طريق الموز. وهو مرض الكواشيوركر، وهو مرض نقص البروتين، إذ يتسبب في حمرة لون الشعر، والانيميا الحادة. كما أنه يؤثر في نمو الهيكل العظمي ووزن الجسم.

وهذا المرض يسببه نقص معين في لبن الأم[1]. وحيث أن الأمهات يطعمن أطفالهن بالموز، الذي يأخذنه من الزنوج، ومن اليسير الحصول عليه دون تكبد مشاق البحث عن طعام آخر في الغابة، فإن من الممكن أن يقال أن الموز هو سبب انتشار هذا المرض بين الأقزام.

أما قصة التوا الجنوبيين فهي مختلفة.. إذ أن زنوج الهوتو قد عمروا مرتفعات رواندا وبوروندي في وقت انتشار البانتو وتوسعهم، أي ربما قبل عام ٥٠٠م و ١٠٠٠م. أما قبل ذلك فقد كانت المنطقة كلها مغطاة بالغابات، وكان لا يسكنها سوى الأقزام. وقد نشط الهوتو في تنظيف الغابة وزراعة المحصولات من اطراف الغابة، فنقصت من اطرافها. فتقهقر بعض الأقزام مع تقهقر الغابة نحو الجنوب، وبعضهم ظل في الاقليم المكشوف، على

---

(1) L. van den Berghe: "Le Kwashiorkor expérimental du porc et le Facteur L", FSAC, Vol. 2 No. I (1956). p. 13. Detailed knowledge about the etiology of this disease was obtained through experiments with pigs.

ضفاف بحيرة كيفو، لكي يخدموا الهوتو، ويقوموا عنهم بالاعمال اليدوية. وأصبح ينظر اليهم بوصفهم طائفة دنيئة مثل طائفة المنبوذين في الهند. ورغم اختلاف وجهات النظر فيما يختص بالعلاقة بين الزنوج والأقزام، فإن الاتصال الجنسي بين السلالتين كان في أدنى حد ممكن، وكذلك الحال بالنسبة لأقزام التوتسي بعد أن وصل التوتسي من الشمال شرقي حوالي عام ١٤٥٠م. وقت غزو الجالا لأثيوبيا وأهم أثر للتوتسي في الأقزام هو أنهم اجبروهم على التقهقر إلى الغابة، وإلى أعالي الجبال أكثر من ذي قبل، بل وإلى تسلق سفوح البراكين، لكي يتركوا الجبال لقطعان الماشية التي يمتلكها التوتسي.

## الصفات الجثمانية للأقزام

نستطيع أن نعمم القول - مع وجود استثناءات قليلة - أنه في كل صفة يمكن أن تقاس أو تلاحظ، يقف الأقزام في طرف، والافريقيون القوقازيون في طرف آخر ويحتل الزنوج الوسط بينهما. أما أحد الاستثناءات لهذا فهو صفة الأقزام الرئيسية، وهو طول القامة، وقبل أن يقاس سوى عدد قليل من الأقزام، أي منذ أكثر من نصف قرن، زعم بعضهم (ولا نعرف بالضبط من هم، ولا يعنينا أن نعرف ذلك) أن كل متوسط طول القامة للذكور في جماعات الأقزام جميعاً أقل من ١٥٠ سم، وأن هؤلاء هم الأقزام الحقيقيون، أما من يزيد طوله عن ذلك فهو قزماني، وأنه أيضاً قد اختلط بالزنوج. هذه السخافة الواضحة، التي لا تعتبر إلا صفة واحدة فقط، قد استمرت دون مناقشة حتى الوقت الحاضر، ولا يزال بعض الكتاب يعتقدونها وإلا ما ذكرناها[١].

---

(١) ربما صدق بعض الناس ما ذكره مارتن في كتاب Lehrbuch من أن طول ١٦٠ سم يعتبر قصيراً و١٦٠-١٧٠ متوسطاً وأكثر من ١٧٠ طويلاً. فربما كان للارقام الدائرة سحر خاص.

اقصر الأقزام حتى الآن هم التوا الشماليون، وهم قبائل غابة ايتوري، إذ أن متوسط طول القامة بينهم ١٤٤,٣سم (٤ اقدام و ٨,٥ بوصات) إلى ١٥٥سم (٥ اقدام وبوصة واحدة) للذكور. أما الاناث فاقصر من ذلك بنحو ٩ سنتيمترات (٣,٥٠ بوصة). ومتوسط وزن الواحد منهم ٤٨,٧ كيلو جراماً (٧٢ رطلاً). ولابد وأن أقزام ايتوري أخف وزناً من هذا. ولهم سيقان قصيرة نسبياً، ولا سيما من ناحية الفخذ. واذرع طويلة، ولاسيما السواعد. ورأس عظمة الفخذ ملتوية التواء كبير[1] بل أن عظمة الساق ذات انكفاء أشد من انكفائها لدى إنسان نياندرتال الفرنسي[2]. وهذه الصفات ترتبط بمقدرتهم الكبيرة على ليونة الحركة وفي الجلوس القرفصاء. إلى جانب السيقان القصيرة تتراوح نسبة طول الجذع ما بين ٥٢-٥٣٪ من طول القامة وهذه هي نسبة طول الجذع عند الاوربيين في شمال أوروبا ووسطها وسكان الجبال في غرب آسيا. أما البربر والعرب والزنوج فلهم سيقان أطول، نسبة طول الجذع أقل من هذه النسبة بنحو ٢-٣٪. ولكن لو كانت عظام فقاريات الزنوج في مثل استقامة عظام فقاريات الاوروبيين لزادت نسبة طول الجذع بنحو ١-٢٪ عما هي عليه الآن. والأقزام بهم بزخ (دخول الظهر وانحناء العمود الفقاري إلى الامام). وأطفال الأقزام لهم بطون منتفخة عادة، ومن ثم فهم مصابون بالفتاق السري، وهذا أيضاً شائع بين الزنوج.

وقد لاحظ د. ب. جليف[3] في عينة كبيرة من الزنوج شيوع ظاهرة الفتاق بنسبة ٩٧٪، وهي من النوع الجلدي، وفيها لا يبرز جزء من الامعاء فقط، بل أيضاً غلاف جلد البطن، ومن ثم يصبح الفتاق غير ضار. وهذا

(1) Sauter and Könz: op. cit.

(2) Morgenthaler: op. cit.

(3) D. B. Jelliffe: op. cit.

النوع من الفتاق لا يوجد في أي شعب من العالم سوى الأقزام والزنوج، كما أنه لا يوجد حتى بين البابوا ومن ثم فإن ر. هـ. بوست R. H. Post يعتبرها ظاهرة سلالية.

وإذا كانت مفاصل الزنوج لينة إذا ما قورنوا بالاوروبيين، فإن مفاصل الأقزام أشد ليناً. وهذه الصفة لا تجعل منهم راقصين ممتازين فحسب، بل تمكنهم من المروق بسرعة داخل الغابة. ويرجع بوريس آديه الذي عمل سنين عديدة طبيباً للأقزام في اقليم ايتوري.. يرجع ليونة حركتهم إلى ارتباط عنصرين غير عاديين في افرازات غددهم، نقص وراثي في هرمونات النمو في النصف الوحشي للغدة النخامية، ونشاط زائد في الهرمونات الجنسية الانثوية، ولاسيما بين الذكور. وتفسر الظروف الاولى تأخر في نمو غضاريف المفاصل، مما يؤثر على النمو، ثم تقليل في الغطاء العظمي لكل الهيكل العظمي، ومرونة في المفاصل، وبروز الثدي وتضخمه فيما يشبه ثدي المرأة عند الرجل.

وقد حاول بوريس آديه عبثاً أن ينقذ حياة امرأة قزمة خدشها فهد بمخالبه، ولو أنه عاد بجثتها للمعسكر لدفنت في كوخها وهجر المعسكر. ولكنه حافظ على الجثة لكي يستطيع تشريحها فيما بعد، وليدرس كما قدر الغدد الداخلية. ولكن السلطات المحلية اجبرته على دفنها، ولم ينشر أحد حتى الآن على قدر علمنا تشريحاً تفصيلياً لجثة قزم، كما لم يحقن أحد طفلاً قزمياً بهرمونات النمو سنة بعد أخرى ليرى نتائج هذه الهرمونات.

ومثل هذه التجربة التي لن تضر أحداً من شأنها أن تحدد العامل أو العوامل التي تجعل القزم قزماً، وإن كان ثمة عمليات أخرى تعمل بوسائل مختلفة في السكان لكي تجعلهم أقزاماً، ليس فقط في إفريقيا بل في غيرها من جهات العالم كذلك. ونحن في الوقت الحاضر لا نستطيع بالملاحظة

البسيطة أن نقرر - كما فعل البعض - أن كان لبعض الأقزام صفات طفلية وأن البعض الآخر ناقص الغضاريف جزئياً وهكذا. ولكننا نستطيع القول أن الأقزام متلائمون تماماً مع بيئتهم، وأن من مصلحتهم أن يكونوا صغار الجسم خفيفي الحركة، وأنهم يمتازون بالخصب، وأنهم حسب دراسة اعضائهم الجنسية ليسوا طفليين، حيث أن اعضاء الذكورة عندهم لا تقل حجماً عما عند الزنوج.

ويختلف الأقزام أيضاً عن بقية الزنوج في لون البشرة. فلون بشرة التوا الغربيين يميل إلى الاصفرار، وشفاههم وردية. أما التوا الشرقيون فلونهم صلصالي مصفر، وكذلك شفاههم وردية. ويقول جيتس(١) أن لون بشرة أقزام ايتوري هو لون الماهوجني ويقول أيضاً أن الأقزام لديهم ثلاثة مورثات خاصة بلون البشرة: الماهوجني والاصفر والاسمر. والبوشمن المورثان الاخيران فقط. وللزنوج المورثات الثلاث، ومورث رابع هو الذي يجعلهم سوداً.

وأشد الأقزام سواداً هم صناع الفخار في بحيرة كيفو. ولونهم - كما يقول هيرنو(٢) بني ضارب للحمرة، أو ما يقع في نطاق رقمي ٢٨ ، ٢٩ في مقياس لوشان الواسع الانتشار. حيث رقم ٣٠ هو أشد الالوان دكنة. وهذا يجعل لون بشرتهم أفتح بقليل من لون بشرة اسيادهم الهوتو، ولكن كثيراً من الأقزام بعكس الهوتو لهم بقع كبيرة فاتحة اللون فوق اجسامهم. ولأقزام كيفو أيضاً اخاديد عميقة فوق الجبين، وجعدات لون اجسامهم. وبشرتهم خشنة اللمس، وهم في هذه الصفة يختلفون عن الأقزام الشرقيين والغربيين.

---

(1) Gates: op. cit.

(2) Hiernaux "Les Caractères Physiques des Populations du Ruanda et de l'Urundi".

ويولد الأقزام وقد غطى الزغب اجسامهم، وهذا هو شعر الجنين - وهو عادة أشقر أو أحمر - وإذا ظل فوق جسد البالغ فإن لونه يتحول إلى البني الغامق. ويغطي هذا الشعر اجساد بعض الذكور، كما أنهم يمتازون باللحى الكثة. ولابد وأن هذا الشعر مزود بغدد مفرزة للعرق. إلا أن الأقزام يفرزون عرقاً ذا رائحة قوية نفاذة ينفر منها الزنوج. وربما ساعدهم هذا العرق على حماية انفسهم من الحشرات، وهذا الرأي قائم على ما هو معروف من قلة تعرض الزنوج لقرص الحشرات بمقارنتهم بالاوروبيين.

وتبدو رءوس الأقزام ضخمة بمقارنتها باجسامهم، وهذا ما نتوقعه في الأقزام. وشكل الرأس بينهم دون العريض، والنسبة الرأسية تقع بين ٧٥-٧٧ لدى الجنسين. كما أن هذا الرأس مرتفع نسبياً، إلا عند أقزام بحيرة كيفو، الذين يختلفون أيضاً في صفات عديدة أخرى. ورءوس الأقزام عادة بيضاوية أو مستديرة، مثل رءوس الأطفال، وجباههم غالباً بارزة، ولاسيما بين الأطفال والنساء. وتجحظ العين غالباً من فجوة غير ضحلة، وغشاء العين الخارجي لا لون له، وإنسانها بني.

وانوفهم أعرض، وتمتاز بأن نسبتها الانفية أكثر من ١٠٠، إلا بين أقزام بحيرة كيفو. ومتوسط هذه النسبة بين ذكور هؤلاء الزنوج ٩٠ وهي تتراوح بين ٦٨-١١٧ . ومعظم أنوف الأقزام ذات فجوة عميقة تتصل بين العينين، وفتحات المنخار واسعة، وهي إما مفلطحة وإما تشبه المدخنة ذات الفتحتين. ويختلف أقزام بحيرة كيفو مرة أخرى في أن هناك نسبة ١٠٪ من بينهم لهم أنوف محدبة.

وشفاه معظم الأقزام بما فيهم أقزام بحيرة كيفو طويلة محدبة وليست مقلوبة. ولمعظمهم فكوك بارزة، كما تشيع بينهم صفة الذقن المتقهقر. ولم ينشر شيء حسب علمنا عن أسنانهم.

ويشبه الأقزام جيرانهم الزنوج في صفات الدم التي درست حتى الآن. ووجد أن لديهم خلية منجلية. وسندرس هذه النقطة بتفصيل أكثر في الفصل التاسع. ونكتفي هنا بأن نقول أن هذا الشبه ليس عجيباً؛ لأن المورثات التي تتدفق بين الأقزام والزنوج تسير في طريق ذي اتجاه واحد والاستنتاج المنطقي إذن يقول أن الأقزام أعطوا هذه المورثات لأسلاف الزنوج، ثم حدثت بينهم انتخابات لصفات جديدة استجابة لدواعي البيئة الملحة.

ويقول بوكايرت[1] أن الأقزام يمتلكون أعلى نسبة «ايض» Metabolism في العالم، عن طريق عمل الغدة الدرقية على مستوى عال، وهذا يفسر جحوظ أعينهم. وقد قارن هيرنو بين الأقزام في اقليم رواندا بوروندي وبين جيرانهم الهوتو والتوتسي، ووجد أن دقات قلوب الأقزام أدنى دقات بين الشعوب الثلاثة، وأن ضغط الدم عندهم هو أعلى ضغط بين تلك الشعوب. ولكن الفرق ضئيل في معدل التنفس. ومن المهم أن نعرف ما إن كان الأقزام الآخرون الذين يعيشون في الغابة يشبهون هؤلاء الأقزام أم لا؟.

## اهمية أن تكون قزماً

الأقزام - كما أشرنا - شعب متميز، لا نستطيع أن نقول أنه هاجر إلى الغابة الاستوائية من أي مكان آخر، أو أنه تكون بالاختلاط. وهم متشابهون في كل مكان إلا في مرتفعات رواندا وبوروندي، حيث عاش الكثير منهم عدة قرون في الأرض المكشوفة المرتفعة وسط الزنوج. ويعتقد هيرنو أن

(1) J. P. Bouckaert. "Etude de métabolisme de base de certains groupes d'indigènes au Congo belge", GIAN (1949) pp. 241-2 Cited in G A. Heuse: Biologie du Noir (Brussels: Les Editions Problemes d'Afrique Centrale, 1957).

هؤلاء الأقـزام بالذات جاءوا نتيـجـة اختـلاط، وإذا قسـمنا هؤلاء الأقـزام إلى صناع الفخار في بحيرة كيفو والصيادين في غابات سفوح الجبال، نرى أن الاولين متوسط طول القامة لديهم ١٥٩ سم (٥ اقدام و٣ بوصات) وأن بعض الآخرين يصل متـوسط طولهم إلى ١٤٩,٥سم (٤ اقدام و١١ بوصـة)، وهذا طول عادي بالنسبة للأقزام.

وقد يكون أقزام بحيرة كيفو مختلطين، كما يقول هيرنو، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فربما كان اختلاطهم أقل بالهوتو والتوتسي منهم بشعوب سابقة لهؤلاء، هبطوا من الممر الجبلي. ويدل على هذا أن النسب الجسمانية لصناع الفخار الأقزام لا تزال نسباً قزمية، على العموم، وأنهم أكثر الأقزام شعرانية، وأن جلودهم مـغـضنة. ولا توجـد صـفـة من هذه بين الهـوتو أو التـوتسي. والغرض الآخر الذي يفسر هذا هو أن صناع الفخار الأقزام كانوا يعيشون فوق المرتفعات المكشوفة ألف سنة أو تزيد، وإن خـلال هذه الفـترة قلت الظروف الرطبة التي تجعل الأقزام أقزاماً، فتـخففت صـفـات القزمـيـة قليلاً، وأن أقزام بحيـرة كيـفـو ربما عادوا إلى صفـات أجـدادهم القـزمـيـة في حـجم الجـسم، واكتسبوا انوفاً أقل تختلف صفاتها عن أنوف الأقزام.

ويرى جـيـتـسي أن الأقـزام اشـتـقـوا من اسلاف كـاملي الحـجم لـهم لون الماهوجني وشعر كثيف يغطي اجسادهم، ذو أنوف مـفلطحة وبـروز كبير في الفك. فإن كـان ثمة سلالة بهـذا الوصـف، فقاعـدة الاقـتصـاد الشديد -Parsimo ny قد تؤيد النظرية التي تقول أنها تطورت من سلالة افريقيـة لم يعرف منها إلا ممثلهـا الاخيـر، وهو إنسـان روديسيـا، وربمـا ألجأ هؤلاء القـوم، إلى الـغـابـة جـفـاف عظيم، وفي هذه الحـالة كـانت الطفـرات القـزمـيـة هي السـبـيل الوحـيـد للبقاء الذي كان مستحيلاً بالنسبة لشعب بسيط يعيش على الجمع والالتـقـاط، ولا يسـتـطيع أن يجـمع قـوته من فـوق سـهـل جـاف. وهـذا الغـرض يجـمع بين

تصور جيتس والادلة التي جمعناها من الآثار والحفريات البشرية. ولكنها يجب أن تظل فرضاً حتى تجمع حفريات بشرية أكثر. وسوف نناقش علاقتها بأصل الزنوج فيما بعد(*).

## البوشمن

سبق هنا أن ناقشنا أصل البوشمن، كما ذكرنا عند الحديث عن لغات إفريقيا انتشارهم الجغرافي السابق. ولم يبق إلا الوصف الجثماني وعلاقته بالبيئة وتلاؤمهم معها بصفة خاصة(١).

يعيش اليوم معظم البوشمن البالغ عددهم ٥٠,٠٠٠ نسمة في صحراء كلاهاري. ولقد كانوا منذ اربعمائة وخمسون عاماً مضت يمارسون الصيد في أرض تكسوها الحشائش طيبة الماء، كثيرة الصيد، تتناثر فيها الآجام. وهم على عكس الأقزام المكيفين تماماً للحركة وسط النباتات الكثيفة، في ظل الأشجار العملاقة، والغابات المتشابكة الاغصان، هؤلاء البوشمن يسيرون ويعدون في الأرض المكشوفة، ومعرضون لأعلى درجات الحرارة الافريقية فيما عدا الصحراء الشرقية. ويعيش الأقزام في جو محمل بالرطوبة، ولا يزيد المدى الحراري اليومي أو السنوي فيه عن درجات قليلة. أما البوشمن فهم معرضون لمدى حراري يتراوح بين ما دون درجة التجمد حتى درجة

---

(*) هذا الفرض يتفق مع نظرية كون عن تعدد الاصول البشرية، والمشروحة في كتاب «أصل السلالات». وقد رفضناها كما رفضها غيرنا من العلماء. انظر المقدمة لمجلة الجغرافية العربية «العدد الأول ص ١١٨ – ١٣١» (المترجم).

(١) مراجع هذا الموضوع عديدة ولكن أهم كتاب واحد هو :

Tobias: "Les Boohimans Auen et Narond de Ghazni", L'Anth Vol. 59, No 3-4 (1955), pp. 235-52; No. 5-6 (1955) pp. 429-61; Vol. 60, No. 1-2 (1956) pp. 22-52; No. 3-4 (1956) pp. 268-89.

١٠٤°ف في الظل و ١٤٠° ف في الشمس. فالظروف المناخية إذن مختلفة تماماً بين بيئة الأقزام وبيئة البوشمن، والتكيف لكل منهما لابد وأن يكون مختلفاً. ولا فرق فيما إذا كان اسلاف البوشمن قد جاءوا من شمال إفريقيا – كما تدل الآثار الحفرية – أم أنهم تطوروا في إفريقيا الجنوبية كما يعتقد علماء جنوب إفريقيا. فالصحراء الكبرى وصحراء كلاهاري متناظرتان، يحف بهما نحو الشمال والجنوب (على الترتيب) اقليم البحر المتوسط.

وقبل أن يضطر البوشمن إلى الانزواء في الصحراء، فإنهم كانوا يعيشون في اقليم غني بحيوان الصيد والنباتات البرية التي تقدم غذاء وفيراً ولم يكن هناك ما يدعو لأن يكونوا صغار الاجسام، ولكنهم صغار الاجسام الآن. فمتوسط طول الذكور نهم يتراوح بين ١٤٩سم (٤ اقدام و١١ بوصة) في الجنوب، وبين ١٥٨سم (٥ اقدام وبوصتان) في الشمال. وتقل عن ذلك النساء فهن أقصر بنحو ٨–١٠سم (بوصة واحدة). ويزداد الطول بين الجماعات التي تعيش أقرب إلى خط الاستواء، ونقصد بين الجماعات الجنوبية. وهذا يذكرنا بما هو موجود في أوروبا، حيث يقل متوسط درجة حرارة الشتاء في الجزء الشمالي من خط أقصى طول، ويصل طول القامة ادناه بين اللاب. وهم ليسوا أطول بكثير من البوشمن.

ويقترح توبياس. على اساس بحث كتبه اليس بريس Alice Brues بعنوان: «حامل الرمح وحامل القوس»[1] أن حجم البوشمن مرتبط بشكل ما باستخدامه القوس الصغيرة والسهام التي يغمسها في السم[2] ويصنع هذا السم

(1) A. Brues: "The Spearman and the Archer", AA, Vol. 61, No. 3 (1959). pp. 457-69.

(2) Tobias: "Bushman Hunter-Gaiherers: A study in Huma ı Ecology" in D. H. S. Davis, ed.: Ecology in South Africa (The Hague: W. Junk: 1965).

من حشرة أو نبات، حسب الاحوال(1) ويزحف البوشمن ومعه هذا السلاح الضئيل، بمنتهى المهارة ويقترب من فريسته، وهو لا يحتاج في ذلك أن يكون ضخماً أو قوياً. بل ماكراً وذا دهاء. ثم تنهمر طلقات متدافعة سريعة من سهامه لكي يخدش جلد الحيوان، وهذا يكفي لكي تكتب نهايته ويجري الحيوان ويتخبط في جريه، والبوشمن يتبعه في صبر ساعات طوالاً أو عدة أيام حتى يسقط قتيلاً.

هذا النوع من الصيد يحتاج إلى قوة تحمل واقتصاد في استعمال الماء وصبر على شدائد المناخ. ويستطيع البوشمن أن يتحمل كل هذا. ورغم أنه قصير، إلا أنه قوي البنية، حسب قوانين البنية. فساقه ذات طول متوسط بالنسبة لقامته. وعضلاته على نقيض عضلات الزنجي والقزم. طويلة منتفخة وذات الياف قصيرة، مثل عضلات المغولانيين، ويده وقدمه صغيرتان، أما لونه الضارب إلى الصفرة، ذلك اللون البني الفاتح أو المتوسط يعكس ٤٣ ٪ من أشعة الشمس، في حين تعكس بشرة البانتو(2) السوداء ٢٣ ٪ فقط من أشعة الشمس. والبوشمن في هذا مكيف تماماً للحياة في الصحراء، مثل العربي أو الهندي الامريكي. وعين البوشمن على عكس عين القزم الجاحظة تحميها من وهج أشعة الشمس جفون ضيقة، سميكة بالدهن، مثل عين الاسكيمو. هذا الجسم الضئيل، ذو العنق العاري، والشعر المفلفل الذي يترك منه خصلة فوق رأسه، تسهل فقدان الحرارة وقت اشتدادها، كما أنه يحمي جسمه من البرد بجلد الحيوان الذي يرتديه.

---

(1) E. M. Thomas: The Hannless People (New York: Alfred A. Knopf; (1959).

(2) J. S. Weiner, G. A. Harrison, R. Singer, R. Harris And W. Jopp: "Skin Colour in Southern Africa:, HB, Vol. 36, No. 3 (1964), pp. 294-307.

وقد قيس الضوء المنعكس على الذراع فوجد ٦٨٥م (٦٨٥٠ انجستروما).

وقد أدت بعض الصفات البوشمنية التي لاحظها الباحثون إلى ظهور نظرية تقول بأنهم طفليون، أو معوقو النمو، وقد تظهر بعض هذه الصفات بشكل أوضح في بعض الأفراد دون الآخرين. ومن هذه الصفات الجبهة الكروية، التي تظهر في بعض الأطفال والنساء، ولكنها لا تظهر في كثير من الرجال البالغين. ومنها صفة الوجه المفلطح ذي الفجوة الانفية (التي تتصل بين العينين)، وطرف الأنف المفلطح. وهذه صفات سلالية، وهي أيضاً طفلية، وتساعد مع لون البشرة المصفر على المظهر المغولاني للبوشمن الذي لاحظه كثير من الباحثين.

وحلمة الثدي التي تنتفخ عند البلوغ كبيرة عند بنات البوشمن، حتى أنها لتبدو كالثمرات البرتقالية المعلقة على الثدي، وهي عامل جذب جنسي قوي. لا يلبث أن ينطفئ بعد أول طفل يرضع منه. كما أن هناك خاصية أخرى تتعلق باعضاء الانوثة عند المرأة، ترجع إلى نقص في تكوين الشفة الكبرى في عضو التأنيث ومن ثم لا تستطيع اغلاقه، بل تتدلى عدة بوصات ويظهر هذا بوضوح عند المرأة عندما تتقدم بها السن. ولا ندري إن كان ذلك راجعاً إلى الطبيعة، أو الإنسان، أو اليهما معاً.

ومن خصائص رجال البوشمن أن أعضاء ذكورتهم طفلية المظهر، كما يبدو أنهم لهم خصية واحدة، ولكن هذه الصفة ليست شائعة بينهم[1].

إن أكثر الخصائص التي يمتاز بها البوشمن هي بالطبع تضخم العجز، وهي أكثر ما تكون بين النساء. والدهن المتراكم في العجز تمسكه أنسجة

(1) Gusinde: "Monorchie der Buschmänner als ontogenetische Spezialisation", in Festschrift fur Hans Pllschke, Von Frmden Völkern und Kulturen" (Düsseldorf: Droste Verlag, 1955), pp. 175-81.

ليفية وتمنعه من التدلي[1]. وليس البوشمن هو الشعب الوحيد كبير العجز في العالم، كما أن تضخم العجز لديهم ليس نتيجة البزخ (انحناء أسفل العمود الفقاري إلى الوراء). فقد شبه العجز عند البوشمن بسنام الجمل أو بقر الزيبو، وبلية الخروف السمين، وقيل، ودون أي برهان، أن الدهن في العجز يمد الجسم بالغذاء وقت الشدة. وإذا كان الأمر كذلك فعدم وجوده عند الذكور تناقض واضح. كما أن البوشمن إذا نجحوا في الايقاع بصيد، فانهم يأكلون منه حتى يمتلئوا امتلاء كبيراً، وهناك رأي لم نسمعه من أحد، يقول أن دهن العجز يقدم الغذاء اللازم للأم والجنين في اثناء الحمل، وخلال فترة الرضاعة الطويلة، حيث الطعام اللازم للعظام نادر في البيئة الخارجية. وليس هذا سوى مجرد افتراض، ويحتاج لبرهان.

وهناك صفات عديدة أخرى تميز البوشمن.. فالبشرة كلها عميقة التجاعيد في سن الكهولة وسن الشيخوخة. وليس هذا مقصوراً على جلد البطن وحده.

ولا يفرز البوشمن العرق ذا الرائحة الخاصة مثلما هو عند الزنوج، أو الأقزام، وآذانهم صغيرة، مربعة من أعلى وتكاد تكون لا شحمة لها. رغم أن خطوطها عميقة ومعقدة وتختلف أيديهم وأرجلهم عن أيدي الزنوج وأرجلهم، وأظافرهم أكثر استدارة. البوشمن سلالة قائمة بذاتها ولا علاقة لهم بالزنوج، إلا أن الاخيرين قد استوعبوا بعض مورثاتهم، فالبوشمن - كما يبدو - هم السلالة الاقدم.

(1) L. H. Krut and R. Singer: "Steatopygia: The Fatty Acid composition of Subcutaneous Adipose Tissue in the Hottentot", AJPA Vol. 21, No. 2 (1963), pp. 181-8.

## الهوتنتوت

عندما هبط الهولنديون في الكاب، انشأوا مدينة الكاب، لكي يمدوا سفنهم المتجهة إلى جزر الهند الشرقية والآيبة منها بالتموين، شاهدوا من الهوتنتوت أكثر مما شاهدوا من البوشمن. وعندما بدأ الهولنديون في الزراعة والرعي لم يناقشوا البوشمن، بل ناقشوا الهوتنتوت. أما اليوم فالبوشمن أكثر عدداً من الهوتنترت الذين ازداد استيعابهم في غيرهم من السكان بالاختلاط والزواج.

أما أصل الهوتنتوت فتخفيه الاقاصيص وتلفه بالضباب، كما تعقده البحوث الانثروبولوجية(1). ولما كان الهوتنتوت قد تعلموا حرفة الرعي واكتسبوا معرفة بالمعادن من الشمال قبل غزوات البانتو، فإن كثيراً من الانثروبولوجيين يقول أنهم إنما تعلموا من «الحاميين»، أي القوقازانيين الذين استوعبوهم سلالياً وثقافياً. غير أن صفاتهم الانثروبولوجية تبين أنهم إذا كانوا قد اختلطوا بشعب، فهم قد اختلطوا بالزنوج أكثر من اختلاطهم بالقوقازانيين.

والهوتنتوت الحاليون أكبر اجساماً من البوشمن، ومتوسط طول القامة لديهم ١٦٣سم (٥ أقدام و ٤ بوصات) الذكور. وهم أكثر دكنة من لون البشرة، بل وأكثر تضخماً في عجزهم. وشكلهم العام، ولاسيما في الوجه والشعر زنجاني. ولا تساعدنا فصائل دمهم على معرفة اصولهم، فالبوشمن والزنوج متشابهون في فصائل دمائهم من ناحية، ولأن للهوتنتوت صفات في دمائهم خاصة بهم من ناحية أخرى. فالهوتنتوت إذن سلالة خلاسية في جنوب إفريقيا، يرجعون إلى حد كبير، وليس على الاطلاق، إلى أصل بوشماني.

---

(1) Tobias: "Physical Anthropology and Somatic Origins of the Hottentots", Africa. Vol. 14 No. 1 (1950), pp. 1-15.

## السانداوة والهاتسا

السانداوة Sandawe والهاتسا Hatsa (أو الكنديجا Kindiga) مجموعتان تتحدثان لغة خواسانية وتعيشان فى تنزانيا وقد درس السانداوة انثروبولوجيا ولم يدرس الهاتسا(١).

ويقول السانداوة أنهم كانوا في الاصل شعباً أصفر البشرة، من الصيادين لهم شعر مفلفل، هبطوا اقليمهم الحالي منذ مائة عام تقريباً، وقبل ذلك الوقت كانوا قد قابلوا النياتورو Nyaturu الذين يتحدثون لغة بانتويه والتاتوجا Tatoga الذين يتحدثون لهجة سودانية شرقية وكل منهما شعب رعوي كما كان التاتوجا شعباً زراعياً أيضاً. واستبدل السانداوة بالنساء ماشية مع كل من هاتين القبيلتين، قبل أن يدخلوا اقليمهم الحالي. وقد استوعبت السانداوة الآن بعض المورثات النياتورية. والسانداوة الحاليون أقرب انثروبولوجياً للهوتنتوت منهم للبوشمن ولكن صفة تضخم العجز عندهم ليست منتشرة، ويتدرج الشعر لديهم من الفلفلي إلى الصوفي، ولون بشرتهم أسمر غالباً. أما النياتورو انفسهم وهم يحملون بعض صفات السانداوة فهم وسط بين زنوج غرب إفريقيا وبين السانداوة، في كثير من الصفات.

## البربـــــر

العنصر السلالي الثالث المتميز في إفريقيا هو العنصر القوقازاني، الذي دخل - كما بينا من قبل - القارة في أعداد ضخمة منذ حوالي ١٥,٠٠٠ سنة، فلا ريب أنهم جاءوا من غرب آسيا وربما أيضاً من أوروبا. وسلالة هؤلاء الغزاة، القوقازانيين بكل معنى الكلمة هم البربر.

---

(1) J. C. Trevor: "The Physical Characteristics of the Sandawe", JRAI, Vol. 77, Part I (1946), pp. 61-78.

وقد كان للبربر منذ البداءة علاقات بشعوب إفريقية أقدم، وربما اختلط المولويون بالشعوب الافريقية الاسبق عهداً في القارة ذات الثقافة العاطرية، كما يدل على ذلك بقايا هياكلهم العظمية. واللغة البربرية، كما يقول ج. هـ. جرينبرج مثل اللغة المصرية القديمة إفريقية الاصل، وحلت محل أي لغة قادمة من أوروبا أو غرب أوروبا مع الغزاة القوقازانيين.

ولجميع البربر الحاليين والسابقين علاقة بالوطنيين الافريقيين. فاعمال الحدادة يقوم بها الحدادون الزنجانيون في كل قرية من قرى اقليم الريف كما يعمل زنجانيون آخرون في اعمال أخرى؛ مثل الجزارة، والمناداة في الأسواق الاسبوعية، ووظائف أخرى مثل الموسيقيين الذين يتجولون من قبيلة إلى أخرى يحيون حفلات الزواج وغيرها.

فالزنجانيون إذن هم الذين يكونون الخدمات الشخصية الرئيسية بين قبائل البربر الزراعية، وربما كانوا كذلك منذ أن دخل الحديد إلى شمال إفريقيا في مطلع العصر المسيحي.

والعلاقات بين السلالات أكثر تعقداً بين البدو وانصاف البدو. فقبائل آيت آتا Ait Atta مثلاً، الذين يرعون أغنامهم في الجنوب شتاء، لهم قلاعهم وحدائقهم في وادي داديس. وهنا يتركون العمل الزراعي لطائفة من الأقزام الزنجانيين، اسمهم الحراتون. كما يوجد حراتون آخرون في الواحات، على طول الحافة الشمالية للصحراء الكبرى، بل وفي طول الصحراء وعرضها.

أما البدو رعاة الابل، وبصفة خاصة الطوارق، أو أهل النقاب، فهم ينقسمون إلى طوائف النبلاء، أو الامجاد، وهؤلاء هم رعاة الابل، ولهؤلاء أيضاً طبقة حراتين ورقيق وطبقة التجار الذين يسكنون الواحات الكبرى، مثل المزابيين في غرواية، وهؤلاء يشجعون أبناء طبقتهم على الزواج

الداخلي، حيث أنهم من الخوارج وهـؤلاء أيضاً لهم حدائقهم التي يزرعها لهم الحراثون.

وحيثما سكن البربر، أو كيفما عاشوا فانهم يرفضون الزواج من طبقة الزنجانيين الادنى منهم، ولكن الطبيعة البشرية، هي ما نعرفها، لم تمنع وجود قسط معين من الاختلاط. وأكثر القبائل قوقازانية في المغرب هي الريف وقبائل أطلس الوسطى. وفي الجزائر القبائل والشاويا، وفي ليبيا قبائل جبل نفوسة المستقرون وقد وازن تسرب بعض الدماء الافريقية في بعض القبائل استيعابها للعرب، ليس قبيلة بقبيلة، ولكن بانشاء قبائل شريفة مشتقة من الغزوتين الرئيسيتين، وهؤلاء العرب جاءوا اساساً من الحجاز واليمن، وليسوا بدواً.

والمتوسطات الانثروبولوجية للجسم والرأس والوجه التي أخذت لعديد من البربر[1] تقع بين متوسطات المقاييس التي أخذت لشعوب مرتفعات غرب آسيا، وجنوب غرب وغرب أوروبا، والعرب. فمتوسط طول القامة يتراوح بين ١٦٥-١٧٢سم. (٥ أقدام و ٤ بوصات إلى ٥ أقدام و ٧ بوصات). وتتراوح بنية الجسم أيضاً بين البنية النحيفة والبنية المكتنزة. أما نسبة نصف الجسم العلوي فهي ٥١، وقد تهبط في بعض القبائل الصحراوية إلى ٤٩.

(1) Coon: Tribes of the Rif, HAS, Vol. 19 (1931). W. B. Cline: "Anthropometric Notes on the Natives of Siwah Oasis", Varia Africana V. HAS, Vol. 10 (1932). pp. 3-19. H. H. Kidder, Coon, and L. C. Briggs: "Contrlbution a l'Anthropologie des Kabyles", L'Anth, Vol. 59, No. 1-2 (1955), pp. 62-79. Briggs: *The Living Races of the Sahara, PMP, Vol. 28, No. 2 (1958)*, N. Puccioni: "Berberl e Arabi nell' Africa Mediterranea:, in Biasutti, Razze e Popull della Terra, Vol. 3 (1959) pp. 109-47.

ومعظم البربر طوال الرؤوس أو متوسطوها، ولا يمارس أي منهم أي عادة تؤثر في شكل الرأس في المهد. وأنوف معظمهم مستقيمة أو محدبة. ووجوههم وفكوكهم تميل إلى أن تكون ضيقة، رغم وجود الوجه العريض، والأنف المدبب.

وأكثر القبائل بياض بشرة هم الريفيون، كما أنهم اكثرهم شبهاً بالاوروبيين وفيهم نسبة تصل إلى ٦٥ ٪ من أصحاب البشرة المشربة بحمرة (رقم ١–٣ في مقياس فون لوشان) وتصل هذه النسبة إلى ٨٦٪ في بعض القبائل. و٢٣ ٪ منهم لونهم أبيض باهت و١٠ ٪ لونهم أسمر فاتح، أو أصحاب شعر أشقر. ونسبة الشعر الأحمر بين الريفيين ٤ ٪ كما في اسكتلندا وايرلندا. ونسبة أصحاب اللحى الحمراء ١٧ ٪ في بعض القبائل، وفي بعضها ٢٨ ٪ والشعر الفاتح بين الريفيين ذهبي غالباً أو أحمر، ونادراً ما يكون أشقر.

وتنتشر العيون السوداء بين ٤٣ ٪ من أهل الريف، كما تنتشر العيون المختلطة بنسبة ٥٥٪ والعيون الفاتحة بنسبة ٢ ٪، وفي العيون المختلطة عنصر الزرقة والخضرة أكثر من العنصر الرمادي. وأقل القبائل سمرة بوجه عام هي قبيلة بني آمارت، حيث تنتشر العيون السوداء بنسبة ١٨ ٪، والمختلطة بنسبة ٧٣٪ والعيون الفاتحة بنسبة ٩ ٪ فهؤلاء الجبليون، وبعض جيرانهم أكثر شقرة من معظم الاوربيين الجنوبيين.

وتقارن شقرتهم بشقرة أهل غرب أوروبا أو غربي آسيا، ولا تقارن بشقرة شمال أوروبا وشرقها. وهم يشبهون الاوروبيين الغربيين، أكثر مما يشبهون غربي آسيا، في شعر اجسامهم الذي يتراوح بين الخفيف والمتوسط. ولا توجد الحواجب الكثة إلا بين ٥ ٪ من سكان الريف. وهذه الصفة مما يميز سكان غربي آسيا الجبليين. والشعر عند معظم أهل الريف مموج بين ٥٠ ٪

من الرجال. ولا يوجد فرد واحد له شعر صوفي أو خشن. وهذا الشكل من الشعر يوجد بين ١٢ ٪ من الشلوج وهم بربر جبال أطلس ووادي سوس. وتوجد بين ١٢ ٪ من الشلوج أيضاً ثنية الجفن.

وتبدو السمات الافريقية بين مختلف قبائل البربر بشتى الاشكال؛ فهي تبدو بين الريفيين والقبليين على شكل الوجه العريض والفلك الضخم والأنف المدبب. وترتبط هذه الصفات احياناً بلون الشعر الأحمر، والعين الخضراء، والوجه العريض موجود أيضاً بين أهل سوس، كما تبدو بعض السمات المغولانية. ووجه السوس في (الوحدة ١٠٩جـ) يربط بين ملامح البوشمن أي الوجه المفلطح. والنسبة الانفية المنخفضة. والشفاه المقلوبة، والأذن البوشمنية.

وتجري القصص على حافة الصحراء تتحدث عن وجود عناصر قديمة غير قوقازانية في الاقليم؛ فرئيس قبائل آيت أتا يقول أنه عندما حل اسلافه في وادي داديس، وجدوا شعباً سابقاً لهم يتصف بصفرة البشرة، وقام اسلاف هذا الشيخ باخضاعهم وتحويلهم إلى اقنان. ثم اختلط هؤلاء الصفر بالعبيد الزنوج. وانسلوا طبقة الاقنان الحالية التي يسمونها الحراثين. ويشبه كثير من الحراثين الهتنتوت.

ويعيش في جنوب ليبيا في فزان شعب اسمه الدوود أو الدوادة (شعب الدود) – ويتحدثون العربية، وهم يعيشون على صيد الجربوع والبلح، كما أنهم يجمعون محصول البحيرات الملحة حيث يعيشون؛ وهو نوع من «الجمبري» اسمه ارتميزيا، يتكاثر بسرعة في البحيرات[1] . وهم يجمعون هذا «الجمبري» ويجففونه ويبيعونه لرجال القوافل العرب. والدوود يشبهون

(1) L. Cirpriani: "Un Interesante Pueblo del Sahara Los Dauada RGA. Vol. 2, No. 2 (1934), pp. 144-52.

أيضاً الهوتنتوت، كما توجد شعوب نصف زنجية ونصف بوشمنية في الصحراء الكبرى.

## العرب

منذ ظهور الاسلام، أو خلال القرون الاثنى عشر الاخيرة، والعرب يغزون إفريقيا، أو يتسربون اليها من البر والبحر. وأول غزوة وصلت شمال إفريقيا جاءت من الحجاز أو اليمن. وقد عبر بعض منهم بسرعة نحو أسبانيا مع بعض من البربر وقد طردوا منها جميعاً عام ١٤٩٢م، كما طرد معهم أيضاً اليهود السفاردية. وقد أسس هؤلاء العرب المدن وبشروا بالاسلام بين البربر، وتاجروا واسسوا مراكز دينية للتبشير والتدريس والبحث. ولكن قليلاً منهم استقر في الأرض.

أما الغزوة الثانية فجاءت في القرن الثاني عشر، وتكونت من قبائل باكملها من بدو بادية الشام. بقطعان ابلهم وأغنامهم وخيولهم، وعبروا – باعداد كبيرة – سهول شمال إفريقيا وهضابها، وبعضهم عبر نحو الصحراء حيث لا يزال أبناؤهم يعيشون حتى الآن. بعد هذه الموجة تعرب معظم بربر السهول، أو انسحبوا إلى الهضاب، واخيراً فقد عاد كثير ممن يسمون مغاربة Moors إلى شمال إفريقيا تاركين أسبانيا والبرتغال كي يستقروا في المدن يعملون في التجارة أو الحرف المختلفة.

من الاسهل أن نميز البربري عن العربي بلباسه وسلوكه، أكثر مما نميزه بشكله الجثماني، ولكن هناك اختلافات في مقاييس الجسم بين عرب القبائل والبدو وبين بربر الجبال. فهؤلاء أميل إلى الدكنة، أقل في صفات العين الملونة، وقلما كانوا شقراً. وإذا ما قورنوا بالبربر فقليل منهم من هو عريض الوجه، ومنهم كثرة ذات أنف معقوف.

والارستقراطية العربية من سكان المدن، والتي أمدت شمال إفريقيا بعناصر القيادة منذ قرون، هي من أبناء الموجة الاولى من الغزاة، الذين كانوا أصلاً سكان مدن وتجاراً في بلاد العرب. وبعضهم أيضاً انحدروا من أسر يهودية اعتنقت الاسلام. وهؤلاء العرب لا يوجد فيهم الأنف المعقوف الذي يميز البدو. وكثير منهم كان اسلافهم يعيشون في شوارع ظليلة شقر. وأبناء مغاربة الأندلس الذين ظلوا يتزاوجون تزاوجاً داخلياً خمسة قرون كاملة، لا يمكن تمييزهم انثروبولوجياً عن الأسبان. ولقد كان اسلاف كثير من هولاء الأسبان الذين اعتنقوا الاسلام.

## المصريون (١)

عندما وصل العرب الغزاة وادي النيل، استقر بعضهم في المدن، ولكن معظمهم استمر في سيره نحو الغرب، حيث أن البلاد كانت آهلة بالسكان بأكثر من عنصر من عناصر السكان. فمنذ عصر ما قبل الاسرات، والدلتا وضفاف النيل الادنى تستقبل الهجرات المختلفة. وبعد أن جاء العرب ورحلوا جاء الترك ومعهم شراذم من القوقازيين والالبان وغيرهم من المسلمين.

الفلاحون والقبط(*) هم أكثر الناس احتفاظاً بصفات اسلافهم التي كانت

---

(1) A. M. Ammar: The People of Sharqiya, PSRGE, 2 Vols; (1944). Twiesselmann: "Expedition Anthropologique du Dr. D. J. H. Nyessen. I. L'Oasis de Kharga", BIRSB, Vol. 27, No. 14 (1950), pp. 1-36. For other references dating back to 1939, see Coon: The Races of Europe.

(*) ان محاولة التفرقة بين المسلمين والأقباط في هذه الفقرة مرفوضة علمياً. فلا فرق بين المسلمين والأقباط من الناحية الانثروبولوجية. وقد حدث اختلاف كبير في مصر في عصرين، العصر الاغريقي الروماني حيث دخلت مصر عناصر عديدة

-/-

أيضاً صفات مختلطة. والفلاحون قوم متوسطو القامة، نحاف، سمر الوجوه، معظمهم له شعر جعد وعيون بنية، فيما عدا ١٠ ٪ من أصحاب العيون الفاتحة أو المختلطة، وانوفهم مستقيمة، متوسطة في حجم المنخار، والشفاه متوسطة السمك، واللحية متوسطة في كثافة الشعر، ومنظرهم ينم عن اصولهم، نتيجة امتزاج بين السلالة القوقازانية القديمة والعناصر الافريقية الاصيلة، تغذيها من وقت لآخر عناصر قوقازانية قادمة من أوروبا أو غرب آسيا، وعناصر افريقية قادمة من السودان.

## شعوب القرن الافريقي

كان باب المندب عند الطرف الجنوبي للبحر الأحمر ممراً رئيسياً أيضاً لهجرات الشعوب بين غرب آسيا وإفريقيا. وكما يدل عليه اسمه «باب المندب» - أي باب الندب والعويل والدموع - كان يمر به العرب متجهين غرباً، والعبيد الافريقيون متجهين شرقاً - وتنهض إلى الغرب من باب المندب حافة الهضبة الاثيوبية، وهي منطقة عزلاء ذات اهمية تاريخية عظمى. ويمتد ما بين الهضبة وساحل البحر الأحمر صحراء الدناقل، ويهبط جزء منها دون مستوى سطح البحر. وهي واحدة من أشد جهات العالم حرارة.

وكل شعوب هذه المنطقة أو جلهم نتاج باشكال مختلفة ودرجات

---

- من شعوب البحر المتوسط، والعصر العربي حيث دخلت البلاد قبائل عربية عديدة، ولكنها جميعاً اختلطت بأهل مصر، أما الاتراك ومن شابههم فلم يتركوا أثراً يذكر في سكان مصر، لأنهم أقلية ضئيلة منعزلة (المترجم).

متنوعة، للخلط بين القوقازانيين والزنوج(١). وإذا استثنينا الرقيق الذين جلبوا حديثاً من اعالي النيل وسهول السودان الاسفل، فإن أكثر الشعوب زنجانية هم الواتا. صيادو فرس النهر من أنهار الصومال وجنوبي أثيوبيا. وهي قبائل منغلقة على نفسها، تمارس الزواج الداخلي والسحر ويخشاهم الناس، ويحتقرونهم لانهم يأكلون لحم فرس النهر. ولم يخضع هذا الشعب - بقدر علمنا - لأي مقاييس، أو بحوث انثروبولوجية.

ويلي ذلك في الزنجانية شعوب أثيوبيا الغربية الذين يتحدثون لغات كوشية وسطى، وهم الكافاسيتو وجالا السودو والسدامو والاجاو والفلاشا (اليهود السود). وهذه الشعوب ذات شعر شديد التجعد، وبشرة داكنة، وقصار القامة نسبياً. ومتوسط طول قامتهم ١٦٤سم (ق أقدام و ٤,٥ بوصة). وتقاطيع وجوههم زنجية جزئياً.

وأقل الشعوب زنجانية هم الاثيوبيون الحقيقيون - أي المتحدثون بالأمهرية والتجره والتجرينا - والجالا - والاثيوبيون منحدرون من عرب الجنوب الذين غزوا اليمن في الألف الاولى ق.م. أما الجالا فهم شعب رعوي، دخل المرتفعات من الغرب في القرن السادس عشر م.

وكل من هذين الشعبين قوقازاني في تركيب الجسم وملامح الوجه، وكل منهم يتراوح في لون البشرة، من السمرة الفاتحة الضاربة إلى الصفرة، بل قد تكون صفراء في بعض الحالات إلى الظلال المختلفة للسمرة.. وهذه

---

(١) أكثر الدراسات تفصيلاً هي دراسة كون :

"Contribution to the study of the Physical Anthropology of the Ethiopians and Somalis" (1935).

ويمكن أن نجد غيرها في :

Coon. The Races of Europe Biasutti's Razze e Popoli della Terra is excelleut on this subject.

ظلال يتعرفون اليها تماماً وعلى وعي تام بها. ولكن ليس منهم من هو أسود. ومعظمهم له شعر جعد. وهي درجة من التجعد تأتي بعد تجعد شعر المصريين والبربر. أما الشعر المموج والصوفي فهما غير موجودين ولون الشعر أسود. ولون العين إما بني فاتح أو بني داكن أو خليط منهما. وليس من بينهم أسود العين، وقد توجد العين المختلطة الفاتحة وتقاطيع الوجه التي يعرفها العالم من صور الامبراطور هيلاسلاسي ليست غريبة في أثيوبيا، رغم أن ملامح وجه الامبراطور تمثل طرفاً متطرفاً. وشكل الأنف المستقيم أكثر شيوعاً من الأنف المعقوف بين الأمهرة والجالا. وحافات المنخار متوسطة إلى سميكة، والشفاه بين متوسطة وسميكة، أما شعر الجسم فهو موجود أو نادر، واللحى متوسطة النمو بشكل مميز. والأمهرة في هذه الصفات أكثر تنوعاً من الجالات.

وكل منهما شعب متوسط الطول، إذ يبلغ معدل النمو نحو ١٦٩-١٧٠سم (٥ أقدام و٧ بوصات) ونسبة طول الجذع حوالي ٥١٪ عند الأمهرة و٥٠٪ عند الجالا. وهذا يضع بنيان الجسم في زمرة معظم شعوب البحر المتوسط البيضاء وكثير من الشعوب الزنجية. أما عن بقية خصائص بنية الجسم فهم قوقازانيون اساساً. وهكذا يعتبرون انفسهم ولاسيما الأمهرة والجالا من الطبقات العليا المسمين بالارموما وتوجد بين الجالا طبقتان اخريان: التومتو وبعضهم حدادون والفاكي وهم صباغو جلود، ولم يتم أخذ مقاييس انثروبولوجية لهم، وهم من سلالة، كانت تعيش في جنوبي أثيوبيا قبل غزو الجالا.

ويمكن أن يعتبر الصوماليون والدناقل وحدة واحدة، فهم أقارب أقربون، وهم يشبهون الأمهرة والجالا في طول القامة ونسب اجسامهم، ولكنهم أشد نحافة وأطول رءوساً وأضيق وجوهاً. ومن الممكن اعتبار معظمهم من

النحاف. وجميعاً بدون استثناء لونهم بني غامق. وشعرهم أسود، وعيونهم سوداء أو بنية داكنة. وأكثر من ثلثهم لهم شعر مموج، وقليل منهم من له شعر مستقيم، أما الشعر الخشن الجعد فهذا أقل انتشاراً بين الأمهرة والجالا، فلا يوجد إلا بين ٦٪ من الصوماليين. والصوماليون متجانسون بشكل غريب، حتى أن هيرنو يعتبرهم سلالة خاصة بذاتها[1]. وهنا يجب أن نذكر أن الصوماليين والدناقل يعيشون في قطر صحراوي، قرب مستوى سطح البحر أو دونه، حيث الحرارة شديدة وضوء الشمس ساطع، وضغط بخار الماء مرتفع، في حين يعيش الأمهرة والجالا فوق أرض مرتفعة في قطر لطيف الحرارة ملبد بالغيوم على الاقل في جزء من العام. إذ لا يمكن أن نهمل العوامل البيئية في مقارنة بين مجموعتين من الشعوب كهذه. إلا أن كلاً منهما قوقازانية - بشكل يختلف عن الآخر.

## شعوب جنوبي الصحراء والسودان

في شمالي هضبة الحبشة، ومستنقعات اعالي النيل، والغابات الاستوائية في وسط وغرب إفريقيا، تعيش مجموعات من الشعوب الخلاسية التي تشبه في بعض الوجوه، الجالا وفي بعضها الآخر الصوماليين وغيرهم، وإذا بدأنا من الشرق بالبنجا والبشاريين على ساحل البحر الأحمر في السودان وجنوبي مصر، نستمر غرباً حتى هضبة اينيدي وتيبستي التي تقطنها البالي التبو والتوبو والتيدا وغيرهم من القبائل التي ترعى الماشية. وتتخلل هذه الشعوب قبائل بدوية عربية مختلفة، وإلى غربهم يعيش الطوارق.

وفي شمال نيجريا يعيش الهاوسا، وهم شعب واسع الانتشار كثير العدد،

---

(1) Hlémaux: “Les Carsctéres Physiques des Popu’ations du Ruanda et de l’Urundi”.

أصحاب حرف مهرة وتجار حاذقون. ويعيش بينهم وحولهم الفولا أو البيول Peul واقاربهم من الفولاني، وهم أيضاً رعاة ماشية غزوا الاقليم الزراعي الذي يقع في السودان الغربي، واسسوا أسراً حاكمة، اسقطت من عروشها مرة بعد أخرى. وكل هذه الشعوب قوقازانية بشكل ما وزنجانية بعض الشيء وتمتاز الفولا ببنيتهم النحيفة ووجوههم الطويلة مثل الصوماليين ولكنهم أفتح منهم لوناً، إذ أنهم سمر ضاربون للحمرة.

وربما انحدرت هذه الشعوب المختلفة من رعاة الماشية الذين تركوا صورهم فوق الصخر في جبال تيبستي وفزان، والذين انتشروا وتفرقوا في اوقات مختلفة تحت ضغط الجفاف المستمر الذي انتهى بتكوين الصحراء، والذين خرج من اصلابهم رعاة ماشية قدامى مثل الهوتنتوت، ورعاة شرقي إفريقيا وجنوبها.

ورغم الاختلافات في بنية الجسم، وتقاطيع الوجه، ولون البشرة، بين بعض هذه الشعوب وبعضها الآخر، بين الفولا من طرف والبانتو الجنوبيين من طرف آخر، فليس من الحكمة أن نقرر إلى أي حد دخل عنصر من العناصر السلالية في تكوين هذه المجموعة أو تلك. بالانتخاب البيئي يستطيع أن يوجه التراكيب المورفولوجية في اتجاهها المطلوب، في أي اقليم، بغض النظر عن هذا العنصر السلالي الذي دخل في تركيبه صغيراً كان أو كبيراً.

## الزنوج الحقيقيون

نعني «بالزنوج الحقيقيين» هذه الشعوب الافريقية غير الأقزام والبوشمن والبربر والعرب أو أي شعب خلاسي تظهر فيه صفات قوقازانية. نحن نقصد بهم الافريقيين المغربيين والشرقيين ومعظم البانتو. فمن هذه الشعوب

اختطف الرقيق الذي بيع في أسواق النخاسة في العالم الجديد وبلاد العرب، وقد تركناهم حتى نهاية الفصل، إذ أنه رغم أنهم أكبر السلالات عدداً في إفريقيا إلا أن اصولهم اكثرها غموضاً. ونستطيع أن نفهم فهماً أحسن، بعد أن نستعرض الصفات السلالية لشعوب القارة الاخرى.

لقد ذكرنا من قبل أنه لم يعثر شخص حتى الآن على جمجمة زنجي صرف بالمعنى الحديث في رواسب البلايستوسين وليس معنى هذاأن الزنوج لم يكونوا قد ظهروا بعد، أو أن مثل هذه الجمجمة لن تكتشف في المستقبل. كما أن المقاييس الانثروبولوجية والقياسات الرياضية المتقدمة والتحليل الدقيق لقياسات ٥٧١ جمجمة زنجية حديثة تبين أنها يتجاذبها قطبان، احدهما بحر متوسطي قوقازاني والآخر قزمي. أما العنصر الاول فينقسم بدوره إلى طراز بحر متوسط عادي وطراز غرب آسيا، مما يشير إلى أكثر من مركز شمالي بالنسبة للعنصر القوقازاني[1] والزنوج، يشبهون القوقازانيين شبهاً كبيراً في عدد من صفات المورثات التي تنقل بالوراثة بطريقة بسيطة. ومن امثلة ذلك بصمات الأصابع، واشكال صماخ الأذن، وفصائل الدم الرئيسية. كما أن الزنوج يحملون بعض صفات الدم الموجودة لدى الافريقيين الاصليين مثل الأقزام.

وتشير الادلة إلى أن الزنوج ليسوا نوعاً فرعياً رئيسياً بل هم أقرب أن يكونوا خليطاً بين الغزاة القوقازانيين والأقزام الذين كانوا يعيشون على حافة الغابة، التي كانت أوسع انتشاراً نحو الشمال في عصر البلايستوسين مما هي عليه الآن. وربما اضيف إلى هذه التركيبة مورثات كابوانية اكتسبت في

(1) A. Wanke: "Anthropological Characteristics of African Skulls", MIPA, No. 67 (1964), pp. 5-28.

الصحراء وشرق إفريقيا. ولا تعتمد التنوعات الموجودة بين الزنجانيين أو الزنوج على نسب العناصر المختلفة التي تدخل في تكوينهم بقدر ما تعتمد على المكان الذي عاشت فيه هذه الجماعة في وقت معين والمؤثرات الانتخابية التي تعرضت لها في هذا الوقت. ونحن نقترح أن يكون هذا المزج قد تم خلال ١٥,٠٠٠ سنة على الاقل. أو أكثر من ٦٠٠ جيل، وهذا وقت كاف لكي يظهر هذه التنوعات الاقليمية العديدة، وعلينا أيضاً أن نتذكر أن الزنوج لم يزد عددهم إلا منذ ادخال الزراعة، وذلك شيء قد تم على ثلاث مراحل متلاحقة، ولم تبدأ المرحلتان الاخيرتان منهما إلا منذ العصر المسيحي. وسنرى أن الميلانزيين الذين يشبهون الزنوج في نواح عديدة، قد نشأوا أيضاً بشكل مشابه.

أما الصفات السلالية الزنجية فتشمل الشعر الكث الأسود المفلفل، ولون البشرة الأسود أو البني الداكن، ولون العين الأسود أو البني الداكن، مع وجود بقع في بياض العين. الشفاه السوداء، والرأس الطويل أو المتوسط، مع جبهةبارزة والأنف العريض الأفطس والعيون الجاحظة غالباً، والشفاة المقلوبة، والفك البارز، والأسنان الضخمة، والأذن الصغيرة والمناكب العريضة والعجز الضيق والقفص الصدري صغير نسبياً، وبروز البطن بشدة، دون أن يصحب ذلك أي تضخم في العجز، وتمتاز أيضاً هذه السلالة بالأذرع الطويلة، حتى تزيد نسبتها إلى طول الجسم زيادة كبيرة، وخفة حركة الأطراف، والأقدام الطويلة المفلطحة، ذات الاخفاف الدهنية السميكة، والزنجي الشاب المتمتع بصحة جيدة قليل الدهن تحت الجلد.

وتدل الدراسات الفسيولوجية المقارنة للزنوج والبيض أن الزنوج يفوقون البيض في تحمل الحرارة والرطوبة، ولكنهم أقل تحملاً للجفاف والبرد.

ويتفوقون في الرياضات التي تحتـاج إلى بذل طاقــة كثيفة قصيرة الامد، أو تحتاج إلى مرونة كبيرة.

وباستعراض هذه الصفات. لا نجد سوى الصبغة الداكنة التي لا يمكن أن توجد في سلالة البحر المتوسط القوقازانية، أو الأقزام والبوشمن: غير أنه يمكن أن نجد قوقازانيين سوداً في اجزاء من الهند. كما أن الصوماليين أصحاب بشرة شديدة السواد، وقد تعرض الزنوج بعملية انتخاب كثيفة لما يلائم ظروف البيئة المحلية، وبعضها بلا شك يحبذ الصبغة الداكنة، ولكنها لا تعرف بالضبط كيف يتم هذا... وعلى أية حال فالفرض الذي يقول أن الزنوج كلهم قوقازانيون جزئياً، يزيل الحاجة إلى خلق حاجز تقسيمي جديد بين الزنوج والزنجانيين، وهذا من شأنه أن يجعل عملنا أيسر.

وكما كنا نتوقع فثمة بيانات اقليمية ظاهرة لدى شعوب إفريقيا الزنجية السائدة، وذلك لانها تعكس الفروق البيئية(١).

---

(١) ان أكثر الدراسات الانثروبومترية اكتمالاً هي تلك الدراسة التي اتطلع بها اوستشنسكي:
Oschinsky: The Racial Affinities of the Buganda and other Bantu Tribes of British East Africa.

وكذا فاننا نجد أن وسائل القياس التي استخدمت بسلسلة القياسات فيما قبل عام ١٩٢٩ قد غطيت أيضاً في :

M. J. Herskovits: The Anthropometry of the American Negro, CUCA, Vol. 9 see also (1930). Hiernaux: "Les Caractère des Bashi", IRCB, Vol. 23, No. 5 (1953), pp. 5-50. Herskovits,: "Physical Types of West African Negroes" HB, Vol. 9, No. 4 (1937), pp. 483-97. Talbot: "Les Badjoué du Sud Cameroun". BMSA, Vol. 1, No 1-3 (1950), pp. 18-59. G. I. Jones and Mulhall "An Examination of the Physical Types of Certain Peoples of S. E. Nigeria", JRAI, Vol. 79, Parts 1-2 (1949), pp. 11-19. M. E. de Castro Almeida: "Contribuçào para o estudo

-/-

وتميل اجسام الزنوج إلى القصر والسمنة بمناطق الشاطئ الغربي والكونغو الرطبة حيث يندر أن تكون درجة الحرارة مرتفعة جداً، كما أن رءوسهم متوسطة الحجم. ويتسم بعضهم بالبدانة بالفعل. أما على الشاطئ الغربي فيصل القوام السائد إلى حوالي ١٦٥ سنتيمتراً (خمس أقدام وخمس بوصات). وثمة قبيلة بشرق الكونغو على حدود رواندا وبورندي يصل طول أفرادها في المتوسط إلى ما لا يزيد عن ١٦٠ سم (خمس أقدام وثلاث بوصات). أما واريجا وجيرانهم الباشي فلديهم سمة قزمية ظاهرة، وهم يشبهون خزافي بحيرة كيفو. وثمة في الطرف الآخر قبائل دنكا وشيلوك ونوير وسوك وغير ذلك من قبائل نيلوتيكية تقطن المستنقعات الحارة المشبعة بالرطوبة بالسودان الجنوبي. ويصل طول قامة أفرادها بحد أقصى ١٨٣ سم (ست أقدام) بالاضافة إلى ما يتسمون به من اجسام نحيلة جداً واطراف نحيفة وطويلة. وهناك بعض الأفراد يزيد طولهم حتى عن حدود الشكل الخارجي الذي قام علماء البنية بوصفه.

ويشيع أيضاً طول القامة الفارع بين بعض قبائل الهضاب الافريقية، ولكن باستثناء بعض الأفراد بين التونسكي (واتوزي) الذين التقطت لهم صور فوتوغرافية كثيرة، لا تصل بنية الجسم الضيقة والطويلة لديهم إلى ما تصل إليه البنية بين النيلوتس. والسمة الشائعة بشكل واضح بين سكان الهضاب هي الانتحاء إلى الطول وانتشار الأنوف الضيقة ذات القصبة

- dos caracteres descritivos dos nativos ‘Tongas” e “Tonghuinas” da Ilba de Sao Tome”, CIAO, Vol. 5, Sess. 6 (1958), pp. 41-54, P. A. Talbot and H. Mulhall The Physical Anthropology of Southern Nigeria (Cambridge University Press, 1962). D. F. Roberts and D. R. Bainbridge: “Nilotlc Physique”, AJPA, Vol. 21, No. 3 (1963). pp. 341 - 66.

المحدبة، وربما يفسر ذلك بأنه استجابة للهواء الجاف البارد نوعاً، كما سوف نرى. أما قبيلة البانتو الافريقية الجنوبية والتى عاشت لخمسة قرون تقريباً في ظل مناخ بارد نوعاً خلال جزء من السنة، وامتزجوا بأجدادهم الكابويديين، فإن اجسامهم ضخمة نسبياً، ولهم عضلات ظاهرة الغلظة، وهناك بعض الحالات بينهم تتسم بالسمنة.

**الخـلاصـة:**

هذا الفصل طويل، وهو أمر طبيعي لأن إفريقيا قارة ضخمة، وتمتد عصورها لما قبل التاريخ إلى بداية العصر الجيولوجي الحديث. وهي تتضمن ثلاثة من السلالات الفرعية العالمية الخمس الموزعة جغرافياً في نمط معقد. وهي تنتمي من الناحية السلالية بل والاثرية إلى ما تنتمي إليه كل من أوروبا وغرب آسيا، وتشكل جزءاً متكاملاً من ذلك النصف من العالم الذي يقع غرب خط موفياس. ولسوف نعبر الآن ذلك الخط حيث نجد بالجانب الآخر موقفاً سلالياً على جانب أكبر من البساطة.

# الفصل السابع

# السلالات في الهند الكبرى

# الفصل السابع

## السلالات في الهند الكبرى

تعد شبه جزيرة الهند أكثر اشباه الجزر والقارات الآسيوية تعقيداً، جغرافياً وسلالياً وثقافياً. وقد كانت يوماً أغلى جوهرة في التاج البريطاني، وهي الآن تشتمل على الوحدات السياسية الآتية: الهند وباكستان، وبنجلاديش، ونيبال، وبوتان، وسكيم، وسيلان(*).

وتبلغ مساحتها قدر مساحة ثلاثة ارباع الصين، حوالي ١,٧٠٠,٠٠٠ ميل مربع، وتبلغ اقطارها ٢٠٠٠ ميل من الحدود الشمالية لكشمير شمالاً حتى رأس كومورين جنوباً و ٢٣٠٠ ميل من الشرق إلى الغرب. وتحيط بها الجبال من جانبها الشمالي البري، وهي تشمل أعلى جبال العالم، ولا يقطعها سوى ممرات قليلة، أما من الغرب فتكتنفها الصحراء من الجبل إلى البحر، وأما من الشرق فتحيط بها جبال اراكان في بورما، وشبكة معقدة من النظم المائية والمستنقعات، ولا يكاد يوجد مرفأ طبيعي على سواحلها - باستثناء بومباي. ويصل بين الهند وبين أي منطقة أخرى آهلة بالسكان رحلة بحرية طويلة. إلا أن العزلة لم تحم الهند من الغزو.. فما أن يخترق الغزاة الحاجز الجبلي، أو يعبرون البحر، حتى يجدوا امامهم عالماً متنوعاً من الاقاليم المختلفة، وسهولاً واسعة، تغري بعض الجماعات بالتوسع فيها، ومنعزلات حصينة لجماعات أخرى يختبئون فيها. فالهند - بانواع مناخها العديدة - تتسع لكل اشكال التكيف السلالي ولكل الثقافات والاذواق. ولم يستطع غاز من الغزاة أن يوحد الهند أو يجعلها متجانسة، ومن غير المحتمل أن يفلح شخص ما في هذا.

---

(*) حالياً سيريلانكا.

## الجغرافيا والمناخ

أكثر اجزاء الهند سكاناً، واسهلها منالاً، هو سهل الهندو الجانج، الذي تكون من الرواسب التي حملتها التعرية من جبال الهيمالايا والهضبة الجنوبية. وجبال الهيمالايا جبال حديثة، حادة التضاريس شاهقة الارتفاع أما التلال الجنوبية التي ترتفع إلى ٥٠٠٠ قدم فهي جبال قديمة معراة، مثل جبال الأبلاش. وكل منهما كان منطقة عزلة للقوقازانيين والاسترالايين والمغولانيين. أما السهل المتسع المكشوف فهو على أية حال وطن قوقازاني صرف.

والهند – مثل جنوب شرق آسيا – جزء من الاقليم الشرقي حيوانياً، ولكن لا يتفق الاثنان في نفس الحيوانات تمام الاتفاق.. فمثلاً الأسود توجد في الهند فقط. كما أن الاورانج والجيبون لا يوجدان إلا في جنوب شرق آسيا. وهذا الاختلاف الحيواني إلى حد كبير نتج من آثار الامطار. فرغم أن بالهند أكثر محطات العالم مطراً، وهي شيرابونجي في تلال خاسي، إلا أنها أكثر جفافاً من جنوب شرقي آسيا. فلا توجد الغابات المدارية إلا على طول الساحل الجنوبي الغربي، وخصوصاً فوق تلال كردامون، وفي جنوبي سيلان. أما الغابات الموسمية، التي تمتاز بالامطار الغزيرة الصيفية فهي تعطي ساحل ملابار على الجانب الشرقي لشبه الجزيرة. وشمالي سيلان، وسهول الجانج السفلى، وشريط من الأرض اسمه تيراي يمتد جنوبي سفوح الهيمالايا الجنوبية، ويقع معظمه في نيبال. أما بقية شبه الجزيرة فيسودها الجفاف، وهي ذات مطر صيفي يتراوح في طول موسمه وكميته ودرجة الاعتماد عليه، وبها أيضاً صحراء. هذا التنوع المناخي، مع تنوع فى ارتفاعات الأرض، يعطي أغطية نباتية متنوعة. والمطر في معظم شبه الجزيرة يسقط صيفاً، كما هي الحال في الصين وجنوب شرقي آسيا، ولكن

غربي السند، وفي كشمير توجد منطقة شبه جافة، ذات مطر شتوي، يشبه المطر الذي يسقط في الوطن القوقازاني غربيها.

وكان الجليد يغطي جبال الهيمالايا مثلما يغطي جبال الألب في اثناء عصر البلايستوسين خلال أربع فترات، يفصل بينهما ثلاث فترات غير جليدية. وكان يقابل هذه الفترات الجليدية فترات مطيرة في جنوبي الهند كانت أكثر مطراً مما هي عليه الحال الآن. وفي نهاية البلايستوسين حل الجفاف، ونشطت التعرية وسادت الظروف الحالية[1] في هذا الوقت هاجر عدد من الثدييات الهندية يعرف بالحيوان الهندي الملاوي نحو جنوب شرقي آسيا، إلى شبه جزيرة الملايو، ثم إلى جاوه وما جاورها من جزر. وتغلغلت بعض الانواع القطبية القديمة والاثيوبية من الشمال والغرب نحو الشرق. وكان من بينها الشيتاه والحمار البري والغنم البري والماعز البري والذئب. ولا ندري ما إذا كانت هذه الحركة التي شملت الحيوانات نحو الهند ومن الهند شملت الإنسان العاقل أم لا؟.

## الهند قبل التاريخ[2]

هذا السؤال لا جواب عليه، كما أنه لا جواب على السؤال الاكبر منه،

---

(1) V. D. .. hnaswamy "Stone Age India", BASI, No. 3 (1947), pp. 11-58.

(2) Krishnaswamy: op. cit. A. P. Khatri: "A Century of Prehistoric Research in India", AP, Vol. 6 (1962) pp. 169-85: "Mahadevian An Oldowan Pebble Culture of India". AP. Vol. 6 (1962), pp. 186-96. H. D Sankalia: "Middle Stone Age Culture in India and Pakistan", Science, Vol 116, No. 3642 (1964), pp. 365-75. A. H Dami: "Sanghao Cave Excavation, T. First Season: 1963", Apak, Vol. 1, No. I (1934), pp. 1-50.

وهو ما إن كانت الهند قوقازانية أو استرالانية، أو خليطاً منهما خلال عصر البلايستوسين قبل أن يعثر مكتشف على حفريات بشرية في الهند. وتعتبر شبه القارة حتى الآن أكبر فجوة واشدها اهمية في تغطية موضوعنا جغرافياً. ونحن حتى الآن لا نستطيع إلا الاستدلال من السجل الاثري.

ويرجع هذا السجل إلى الفترة غير الجليدية الثانية على الاقل. وقد وجدت هذه الآثار شمالي سهل الجانج وجنوبه الذي كان قد غطى بالطمي منذ ذلك الحين. وقد وجد في هذه المواقع الاثرية تتابعان ثقافيان، احدهما يتكون من آلات قاطعة وبلط تسمى سوهان، نسبة إلى مكان في البنجاب. وقد بدأت هذه الثقافة من ادوات حصوية وادوات من النواة وشظايا ضخمة غير مهذبة. وكلما مر الزمن، قل عدد الآلات الحصوية وادوات النواة كما تحسنت الادوات المصنوعة من الشظايا. وفي اثناء الفترة غير الجليدية الثالثة اصبحت الادوات من الشظايا ليفالوازية. وفي اثناء الفترة الجليدية الرابعة والاخيرة تطورت هذه الادوات واصبحت مستطيلة دقيقة ذات سن مدببة.

أما التتابع الثقافي الثاني فمكون من فؤوس يدوية، تقارن بما كان موجوداً في أوروبا وغربي اسيا وإفريقيا. وقد وجد في أحد المواقع في وادي ترماندا في ماديا براديش في الهند الوسطى – وقد درس أ. ب. خاطري – الآلات الحصوية السوهانية تحت الفئوس اليدوية التي إما تطورت منها أو جلبت بالاتصال الثقافي مع المغرب. وقد تطورت هذه الفئوس اليدوية بنفس الطريقة التي تطورت بها في غيرها من الاقاليم، ثم انقطع هذا التطور في اثناء الفترة غير الجليدية الثالثة، حيث اختص أيضاً بالتتابع الحضاري في الهند، وكان الوضع يشبه ما كان عليه الوضع في غربي أوروبا، حيث وجد التتابع الكلاكتوني التايساني الليفالوازي جنباً إلى جنب مع تقاليد الفأس اليدوية، وحيث اندمج كل منهما في الآخر. فالفأس اليدوية السوهانية،

والصناعة الليفالوازية لم تأتيا إلا من الغرب بهذا الترتيب، وقد عبرت الثقافة الاولى فقط خط موفيوس إلى جنوب شرقي آسيا، حيث تطورت بوسيلتها الخاصة كما ذكرنا من قبل.

وفي تاريخ تال، في فترة غير معروفة، عثر على آثار ثقافة تمتاز بادوات حجرية مكونة من المدى والمخارز في ضواحي بومباي، وهذه كانت تشبه الثقافة الاورنياشية في غربي آسيا، ولكن ربما ظهرت هنا في تاريخ متأخر كما حدث في إفريقيا، وقد بدأت ثقافات العصر الحجري المتوسط، من طراز قفصي أو ولتوني، في كل الهند في العصر التالي للجليد، واستمرت في الجهات المنزوية من الهند حتى ٥٠٠ ق.م.

## الهياكل العظمية في الهند

واخيراً وجدت في الهند مع ثقافة العصر الحجري المتوسط أقدم الهياكل العظمية التي وجدت في هذه البلاد: مجموعة مكونة من سبعة هياكل عثر عليها في جوجارات، وقد نشر وصف اربعة منها(١) ورغم أن هذه الثقافة استمرت في بعض اجزاء الهند فترة طويلة، إلا أن الهياكل العظمية التي عثر عليها قديمة، حيث أنها دفنت دون أن يكون معها أوان فخارية. وأحد الهياكل لذكر طوله ٥ أقدام و٧ بوصات (١٧٠سم) وأحد الهياكل الاخرى لأنثى طولها ٥ أقدام و٤ بوصات (١٦٢سم). أما عظام الأطراف فهي نحيفة، واذرعها متوسطة الطول، أما الجمجمتان فهما مستطيلتان ضيقتان، ولهما صفات تجمع بين الصفات القوقازانية والاسترالانية.

(1) I. Karve and G. M. Kurulkar: "Human Bones Discovered So Far", Preliminary Report on the Third Gujarat Prehistoric Expedition (Bombay: Times of India Press; 1945).

وتحمل خمس عشرة جمجمة وجدت في موهانجو دارو تسجيلاً سلالياً لمدنية عصر البرونز التي قامت في وادي السند وما حولها. كما عثر على ٨٦ جمجمة في هارابا، وسبع في لوتا بجوجارات(١) وتبين هذه الجماجم أنها لسكان مقسمين بين انماط عديدة متميزة. فقد عثر في كل من موهانجودارو وهارابا على نوعين طويلي الرأس من السلالة القوقازانية. احدهما لشخص حاد التقاطيع، وأنف معقوف يشبه الجماجم السومرية التي عثر عليها في اريدو والنمط الشمالي الذي عثر عليه في تبة حصار بايران. أما النوع الآخر فهو لسلالة البحر المتوسط النحيفة، أشبه بالسلالة الناتوفية في فلسطين والقفصية التي وجدت في شمال إفريقيا. ويستمر هذان النمطان القوقازانيان في كلا الجنسين طول التاريخ.

أما الطراز الضخم عريض الرأس الذي قد يكون مغولانياً أو ارمينياً في مظهره فهو نادر، ولكنه ظهر مبكراً وحديثاً. وفي المستويات المتأخرة من هارابا عثر على بقايا رجال ونساء تمتاز بالمخ الكبير والرأس العريض، ولكن بوجه مسنون وأنف ضيق، مع بقايا نساء من مخ أصغر، ورأس مستطيل ووجه ضيق. وقد دفن كل من هذين النمطين في أوان فخارية ضخمة. ومعظم هؤلاء كانوا متوسطي الطول، تتراوح قامتهم بين ٥ أقدام و ٦ بوصات

(1) Guha and P. C. Basu: "Report on the Human Remains Excavated at Mohenjo Daro in 1928-29", in Further Excavations at Mohenjo-Daro. P. Gupta, P. C. Basu, and A Datta: Human Skeletal Remains from Harappa, Memoir No. 9 (Calcutta: Anthropological Survey of India; 1962); B. K. Chatterjee and G. D. Kumar: Comparative Study and Racial Analysis of the Human Remains of Indus Valley Civilization with Particular Reference to Harappa (Calcutta: B. K. Chatterjee; 1963).

و٥ أقدام و ٩ بوصات في الذكور، أما في النساء فكن أقصر من هذا بكثير. وقواطعهم ذات شكل أوروبي وليس استرالانياً. وعلى العموم فالعنصر الاسترالاني كان ضئيلاً وإن لم يكن غائباً تماماً.

أما الجماجم السبع التي عثر عليها في جوجارات فهي شبه عريضة، مثل جماجم أهل جوجارات الحاليين، ولا تشبه جماجم العصر الحجري المتوسط التي كانت موجودة في المنطقة من قبل. ويمكن تفسير هذه الهياكل العظمية والجماجم بشكلين مختلفين..

التفسير الأول أن شمال غربي الهند استهدفت للغزوات عدة مرات من الغرب والشمال الغربي. والثاني أن هارابا التي كانت مدينة كبيرة كانت آهلة بشعوب أتت اليها من كل مكان.. يختلف بعضها عن البعض في انماطها المورفولوجية. كما هي الحال في أي مدينة كبرى في الهند في الوقت الحاضر. وعلى أية حال فعندما غزاها الآريون بعد بضعة قرون وجدوها آهلة بشعوب مختلطة وكان الشمال الغربي من الهند قوقازانياً اساساً.

إلا أن هذا التعميم لا ينطبق بالضرورة على الهند الشرقية والجنوبية. فالعصر الحجري الحديث في هذه المناطق، الذي كان معاصراً لعصر البرونز في وادي السند، قد دخلها من جنوب شرقي آسيا، وذلك إذا اقمنا رأينا على ما عثر عليه من فئوس حجرية مختلفة الانماط، وعلى توزيع هذه الادوات(١). ويعتقد أن هذه الادوات الحجرية قد جاءت على دفعتين، دفعة قبل عام ١٥٠٠ ق.م ودفعة بعدها. رغم أنه ليس عندنا هياكل عظمية تثبت بها شيئاً أو تنفيه، فمن المحتمل أن يكون وصول هذه الفؤوس الحجرية دليلاً على وصول الشعوب المختلطة من الاسترالانيين والمغولانيين في شرقي الهند

(1) E. C. Worman, Jr.: "The Neolithic Problem in the Prehistory of India:, JWAC, Vol 39, No. 6 (1949) pp. 181-201.

وجنوبها. ولاسيما القبائل المتحدثة بلغة الموندا في تشوتا ناجبور، وهؤلاء يرتبطون بروابط اللغة مع غيرهم في بورما وكمبوديا.

ويعقد المسألة أكثر من هذا ما عثر عليه اخيراً في جنوبي الهند من مواقع العصر الحجري الحديث التي تدل على تربية الماشية، وترجع حسب تاريخ كربون ١٤ إلى ما بين ٢٠٠٠ ق.م و ٧٥٠ ق.م[1] ولايزال هناك شعب يتحدث الدرافيدية ويربي الماشية ومن طائفة أدنى في نفس الاقليم. وتقول تقاليدهم أن اسلافهم كانوا محاربين. وربما كان التودا، وقد درسوا دراسة مستفيضة ويعيشون على تربية الحيوان ومنتجات الالبان في اوتاكاموند بتلال نليجري، فرعاً متخصصاً ثقافياً من هذه المجموعة. ولم تنشر بعد التقارير التي كتبت عن الهياكل العظمية التي وجدت في هذه المواقع والتي تدل على شعب قديم يربي الماشية.

## لغات الهند الكبرى[2]

الهند الكبرى كما حددناها في مطلع الفصل أكبر اجزاء الأرض في مثل حجمها تعقداً من النواحي البيئية والسلالية والثقافية، ولكنها من الناحية اللغوية بسيطة نسبياً حتى لو قورنت بمناطق أصغر من مساحتها مثل كاليفورنيا، أو القوقاز، أو جنوبي الصين. والسبب في هذا التناقض الظاهري واضح. فمعظم سطح الأرض سهول، حيث لا توجد حواجز جغرافية يمكن أن تمنع أي لغة من الانتشار، ولاسيما بين شعوب استعملت العربات والعجلات منذ آلاف السنين. وهذه السهول أكثر من ذلك كانت مواطن مدنيات راقية،

(1) F. R. Allchin: Neolithic Cattle Keepers of Southern India (Cambridge: Cambridge University Press; 1963).

(2) Trager: op. cit. Meillet and Cohen: op. cit. Sebeok: op. cit.

وللغات المدنيات الراقية وسائلها الخاصة التي تحمل القبائل الاخرى من الجماعين للقوت والصيادين الذين لجأوا إلى الغابات والجبال على التحدث بها. ففي هذه المنطقة يتحدث الناس ست لغات لا ارتباط بين الواحدة والاخرى، وتتراوح في التقسيم اللغوي بين الاسر اللغوية واللغات المنعزلة. وهذه اللغات هي الهندية ايرانية والدرافيدية والموندا والخاسي والنيكوبارية، واللغات الصينية في اقليم الحدود الهملانية واسام والبوروشاسكي والاندامانية.

## اللغات الهندية ايرانية

يتحدث نحو ثلثي سكان الهند الكبرى البالغ عددهم ٥٨٠ مليون نسمة لغات هندية ايرانية اصلية. هذه تنقسم إلى شبه أسرتين كبيرتين، الايرانية والهندية Indic. أما اللغات الايرانية فيتحدث بها في باكستان الباتان (البوشتو) والبلوش أو البلوخ وأما اللغات الهندية فهي سائدة في معظم الانحاء الشمالية والوسطى من شبه القارة، جنوبي الهيمالايا، كما يتحدث بها في سيلان. وتنقسم الهندية إلى الداردية والسنسكريتية، والفرق بينهما أن الثانية فقط مشتقة من سنسكريت. كما تشتق اللغات الرومانسية اللاتينية.

وتشمل اللغات الداردية الكافيري، ويتحدث بها في شمال غربي باكستان، كما يتحدث بها فيما جاورها من افغانستان وكشمير. وتنقسم اللغات السنسكريتية إلى ثلاث مجموعات: الغربية، والوسطى، والشرقية أما اللغات السنسكريتية الغربية الرئيسية فهي السندية، والراجاستانية، والجوجاراتية والماراثية. كما تشتق لغة العجر في أوروبا وغربي آسيا من هذه اللغات. وتشمل المجموعة الوسطى لغات البنجاب، وهي لا تقتصر فقط على البنجاب، بل يتحدث بها أيضاً السيخ، واللغة الهندية، وتشمل فرعها الاسلامي وهي الاوردو، ولغة الباهاري، وهي مجموعة لغات جبلية في

نيبال، ومنها النيبالية. وتتكون المجموعة الغربية من اللغة البنغالية والبهارية ولغة الأوريا (أو أوريسا) واللغة الاسامية في الهند الاصلية، أما اللغة السنهالية في سيلان ويتحدث بها أحفاد المهاجرين الذين جاءوا من شمال شرقي الهند، فهي قد تنتمي إلى هذه المجموعة، كما أن الفدا الاصليين يتحدثون شكلاً من السنهالية.

## الدارافيديون

اللغات الدرافيدية التي يتحدث بها نحو خمس سكان الهند الكبرى أقدم من اللغات الهندية أوروبية في الهند، ولكننا لا نعرف مبلغ هذا القدم، وما إن كان شعب وادي السند في عصر البرونز كان يتحدث بها أم لا وقد بذلت محاولات لربط هذه اللغات بأسر لغوية أخرى، ولاسيما الفنية أوجرية واللغة العيلامية المنقرضة، ولكن هذه المحاولات لم تلق نجاحاً يذكر. ويمكن أن نقسم اللغات الدرافيدية جغرافياً إلى ثلاث مجموعات: الجنوبية، والشمالية الشرقية، والشمالية الغربية.

وفي ثلثي شبه الجزيرة الجنوبي يتحدث الناس من جميع الطوائف أربع لغات، يتحدث بها البراهمة ومن دونهم، كما يتحدث بها جماعات قبلية أيضاً، وتسكن في نفس الاقليم. وهذه اللغات هي الكنادا Kannada (كنارية Kannarese) والتليجو Telugu والملايا لام والتاميل. وهذه توجد أيضاً في اجزاء من سيلان. أما في الجبال التي تغطيها الغابات والتي تقع بين ولايتي كيرالا ومدراس وعلى الساحل بين لغة الملايا لام والكنادا، فتوجد بقايا من لغات درافيدية أخرى يتحدث بها التودا والتولو وغيرهم.

واللغات الدرافيدية في الشمال الشرقي على العكس من ذلك ممزقة،

ومبعثرة، وتحيط بها لغات من أسر أخرى. والمتحدثون بها منبوذون، شظايا شعوب وبقاياها، مثل الجوند والاوراءون. وتتكون الدرافيدية الشمالية الغربية من لغة واحدة هي البراهوي في بلوخستان، يتحدث بها الناس الذين يعيشون وسط البلوش.

ولقد جلا الدرافيديون من الأرض وتركوها للهنود الاوروبيين في العصور التاريخية. فطرد الماراثيون الكنادا جنوباً، أما الجولد الذين يسكنون السهول فقد اكتسبوا اللغة الهندية الاوربية، في حين تمسك بالدرافيدية من اعتصم بالبلاد المشجرة.

## المونـــــــدا

ويتحدث نحو ٥ ملايين شخص من الشعوب القبلية لغات المونداء وهي شبه أسرة من القسم الآسيوي الجنوبي وهؤلاء مبعثرون في جماعات صغيرة على حافة هضبة الدكن الشمالية. واكثرهم عدداً واتحاداً جغرافياً هم السانتال، والهو، والموندا. وهناك جماعات صغيرة، تعيش في جزر لغوية مبعثرة.

وربما وصل المتحدثون بالموندا سفوح الهيمالايا في العصر قبل الآري. وقد فقدت هذه اللغات أرضها، وقد انحصرت بين اللغات الهندية والدرافيدية، ولكنها لا تواجه خطر الاندثار. والدليل على أن الموندا كانت تنتشر في الهند قبل وصول الآريين هو وجود بعض كلماتها في السنسكريتية ويعتقد بعض الكتاب أن الموندا دخلت الهند من الشرق على يد مهاجرين يحملون ثقافة العصر الحجري الحديث، وقد أمكن تتبع نمط الفؤوس الحجرية التي كانوا يحملونها حتى الصين الهندية، ومن ثم يفترض وجود علاقة بعيدة بينها وبين المون – خمير.

## المون خمير، والبوروشاسكي واللغات الصينية

يتحدث الخاسي من تلال خاسي في بنغال، جنوبي نهر براهما بوترا لغات مون خمير، وهي تكون شبه أسرة من اللغات الجزرية الجنوبية. ووطن الخاسي هضبة رطبة لطيفة الحرارة. كما تنتشر هذه اللغات أيضاً في جزر نيكوبار التي تحكمها الهند، والاندمان.

تبقى بعد ذلك لغة بروشاسكي في الهونزا - التي تقع في أقصى شمال الباكستان كما تبقى لغات صينية عديدة يتحدث بها على حافة السفوح الجنوبية لجبال الهيمالايا في شمال غربي الهند، ونيبال، وسكيم، ومنطقة الحدود الشمالية الشرقية، وتلال جارو وشرقي اسام، وهذه جميعاً تنتمي إلى ما يسمى بالاسرة التبتية البورمية، وإلى أربع من الاسر اللغوية الصينية التي ذكرها ت. سيبك وهي: بودو - ناجا، كاشين، وفاجا شين، وجيارنج ميسيراً والتبتية.

## شعوب الهند الكبرى الحاليون(١)

الهند الكبرى هي ملتقى الثلاثة الانواع الفرعية الاوراسية: القوقازانيين

(1) Guha: Racial Affinities of the Peoples of India G. T. Bowles "Linguistic and Racial Aspects of the Munda Problem", PMP, Vol. 20 (1943), pp. 81-101. N. D. Wijeserka: The People of Ceylon (Colombo: M. D. Gunasena & Co.; 1949).
D. N. Majundar: Races and Cultures of India, 2nd ed. (Lucknow Universal Publishers; 1950). A. K. Mitra: "Physical Anthropology of the Muslims of Bengal", BDAL, Vol. I No. 2 (1952), pp. 79-104: "The Riang of Tripura", BDAI, Vol. 5 No. 2 (1956) pp. 21-120. S. S Sarkar: The Aboriginal Races of

-/-

والاسترالانيين، والمغولانيين.. فتنوع الارض والمناخ فيها أعطى فرصة لشعوب ذات اقتصاديات مختلفة، ولغات وديانات وطبقات اجتماعية متنوعة أن تجد مجال عيشها خلال آلاف السنين، ولا يزالون يعيشون بها حتى الآن. وحيث لا توجد أدلة من الهياكل العظمية قد تساعدنا على معرفة سلالاتها، فإننا لا نجد مناصاً من تقسيم شعوب الهند، لغرض الدراسة، إلى مجموعات اقتصادية وجغرافية.

وأكثر الشعوب عدداً واحدثها هجرة إلى شبه القارة هي الجماعات الهندية الايرانية، في الشمال. ثم الشعوب المتحدثة بالدرافيدية، وهم - فيما عدا البراهوي - يعيشون في الجنوب. وكل من الهنود والايرانيين

- India (Calcutta Bookland; 1954); Sarkar, ed.: A Physical Survey of the Kadar of Kerala, Memoir No. 6 (Calcutta: Dept. of Anthropology, Government of India: (1959), Chatterjee and Kumar,: "Racial Aflinlties of the Urall of Travancorc and Cochin States", Anthropologist, Vol. 3, No. 1-2 (1956). pp. 1-22; "Somatometric and Somatoscopic Obscrvations and Their A.... of the Mannmns of Travancoro-Cochln", JASC, Vol. 28, No. 2 (1957) pp. 1-18, "A Comparative Study of the Scmatometric and Somatoscopic Observations and their Racial Affinities of the Pallyans and the Mala pantarams of Travancore-Cochin", JSAC, Vol. 28 No. 2 (1957), pp. 19-42. Coon: An Anthropogeographic Excursion Around the World", Olivier: Anthropologie des Tamouls du Sud de l'Inde (Paris: Ecole Francaise d'Extreme - Orient: 1961). H. W. Stoudt: The Physical Anthropology of Ceylon, CNMES, Pub. No. 2, 1961. Gates: "The Asurs and Birhors of Chota Nagpur", in T. N. Madan and G. Sarana, eds.: Indian Anthropoiogy (Bombay: Asia Publishing House: 1962), pp. 163-84; The Totos, A Sub-Himalayan Mongoloid Tribe, MM, No. 5 (1963).

والدرافيديون قوقازانيون أصلاً ويشبه المتحدثون بالدرافيدية سكان جنوب غربي آسيا القدماء مثل الناتوفيين.

أما المغولانيون من الاصل التبتي، فقد كانوا يعيشون في أراضي الحدود الهيمالانية منذ وقت طويل – ولا نعرف منذ متى – وقد منعهم عدم مقدرتهم على الحياة في المناطق المدارية وعدم مناعتهم ضد الأمراض الحارة من الهبوط إلى السهول. ويعود تاريخهم في الهند إلى عهد هارابا على الاقل.

والعنصر الرابع في السكان هم المتحدثون بالموندا في تلال تشوتا ناجبور وغيرهم من القبائل التي تشبههم جسمانياً ولكنهم يتحدثون لغات مختلفة أخرى. وهذه الشعوب انحدرت من مهاجرين جاءوا من جنوب شرقي آسيا يحملون ثقافة العصر الحجري الحديث وطريقة زراعة وتنظيف الأرض وحرثها، ربما حوالي الالف الثانية ق.م. ويبدو طبقاً للقصص القديمة Vedic أنهم كانوا في الهند عندما وصل الآريون، ولكننا غير متأكدين ما إن كانوا قد سبقوا الدرافيدين في الجنوب أم لا. وينتمي إلى هذه المجموعة الخاسي في آسام.

وتبقى بعد ذلك عنصر خامس، لا نستطيع أن نربطه بغيره. وهؤلاء هم الصيادون وجماعو القوت، البدائيون الحقيقيون الذين دفعوا دفعاً نحو اقليم الغابات والتلال، في كل من شبه الجزيرة وسيلان. وفيما عدا التغير الاثنولوجي والثقافي البطئ في الهند، فإننا نستطيع أن نقول أنهم كانوا يسكنون يوماً الهند لكن قبل أن يسكنها أي شعب آخر.

## جماعو القوت

بعد استعراض هذه الطبقات من الشعوب والجماعات الاثنولوجية، نبدأ بدراسة الصيادين وجماعي القوت، مع الفدا بصفة خاصة. ولم يبق الآن سوى مئات قليلة من الفدا الخلصاء في سيلان، ومن هؤلاء لا يعمل بالصيد إلا عدد قليل. وكان الفدا منذ اربعمائة سنة يسكنون وحدهم داخلية الهند المغطى بالغابات، في النصف الشمالي من الجزيرة وكانوا يقودون المسافرين من أرض قبيلة إلى أرض قبيلة أخرى(١) وتقول الوثائق السنهالية القديمة أنه كان يوجد نوعان من الاصليين في سيلان، يختلف الواحد عن الآخر في لون البشرة وينقسم الفدا حتى الآن إلى عشائر لبعضهم لون أفتح من الاخرى(٢).

والفدا: شعب ضئيل نحيل القامة، ومتوسط طول قامتهم ١٥٧سم (٥ أقدام و ١,٥ بوصة) وهم يشبهون الأقزام الافريقيين في خفة حركتهم، بل وانزلاقهم الرشيق داخل الاحراج. ولكنهم ليسوا أقزاماً مطلقاً، كما أنهم سلالياً قوقازانيون أصلاً، ولكن بعضهم له مظهر استرالاني، ولاسيما في النصف الاعلى من الوجه. وقد اخترع بعض الانثروبولوجيين سلالة خاصة لهم باسم الفدانية ورأوا أن هذه السلالة تمثل الطبقة(*) السفلى في تكوين الشعب الاندونيسي، وجنوب شرقي آسيا، وجنوبي شبه جزيرة العرب. والفدا في رأينا يكونون خليطاً قديماً من القوقازانيين

---

(1) C. G. and B. Z. Seligman: The Veddas (Cambridge: Cambridge University Press: 1911).

(2) Coon: "An Anthropogeographic Excursion Around the World.

(*) تعبير طبقة هنا يعني طبقة جيولوجية، أي تصور الشعوب والسلالات وقد وفدوا إلى المكان طبقة بعد أخرى، في فترة بعد أخرى من التاريخ كما تترسب الطبقات من الصخور، طبقة بعد أخرى خلال التاريخ الجيولوجي.

والاسترالانيين، ثم تعرضوا لمؤثرات بيئية محلية، إلا أن الأثر القوقازاني أكثر ظهوراً من العنصر الاسترالاني.

القبائل الفدانية عديدة، ولم يدرس منها انثروبولوجيا إلا القليل. والاوراليون في كيرالا استرالانيون اساساً. أما البرهور في تشوتا ناجبور فهم أقرب إلى القوقازانيين. وليس من بينهم من يمكن أن يسمى قزماً بأي معنى من المعاني. ولكن، بسبب وجود الكادار[1]، ظهر تعبير الأقزام من حين إلى آخر في كتب الانثروبولوجيا الهندية. والكادار شعب فنزوي لاجئ في الغابة المدارية التي تكسو تلال اناملاي في ولاية كيرالا. وكان عددهم عام ١٩٤١ نحو ٥٦٦ شخصاً. وهم يبحثون عن الجذور، ويجمعون العسل البري، ويصطادون الحيوان الصغير لغذائهم، وهم تكنولوجياً في منتهى البدائية. ونظامهم في الزواج نادر المثال.. وهو نظام موجود أيضاً بين العرب، حيث يتزوج الرجل ابنة عمه. ولكنهم بعكس العرب يمارسون كلا من تعدد الزوجات وتعدد الأزواج، ويدل نسبهم على أنهم ليسوا وحدة وراثية واحدة، بل مجموعة من الوحدات، وبعضهم يتزاوج تزواجاً داخلياً مستمراً، حتى أن الأصابع الست اصبحت شائعة بينهم.

وقليل من الكادار قصار القامة، ولونهم بني، وشعرهم مجعد صوفي. وبعضهم الآخر أطول، لهم شعر مموج أو مجعد، وشكلهم استرالاني. كما أن البعض يقول أنهم كادار قوقازانيون في كثير من صفاتهم، مثل المنبوذين من الهندوس الذين يسكنون السهول. ومن الواضح أن الكادار شعب مختلط، اتجه إلى الاعتصام في مناطق عزلة من حين إلى آخر، ولكن مميزاته الوراثية لم تنجح خلال هذه الفترات التي انعزل فيها.

---

(1) U. R. Von Ehrenfels: Kadar of Cochin (Madras University of Madras Press, 1952).

وقد فحص الشعر المجعد للكادار في معملين[١]. وقد وجد في كليهما أن هذا الشعر أقرب إلى شعر الاسترالانيين الاصليين. وأنه يكاد يكون مغولانياً في خشونته.

وليس الكادار ممثلين تمثيلاً نمطياً لشعوب جنوبي الهند.. إذ توجد التركيبة المغولانية الاسترالانية أيضاً بين الشعوب المتحدثة بالموندا في شمال وسط الهند، وهؤلاء يكونون العنصر الثاني في سكان شبه الجزيرة.

## القبائل المتحدثة بلغات آسيوية جنوبية

يتركز في تلال تشوتا ناجبور بجنوبي ولاية بيهسار، ويتناثر في قرى متفرقةأخرى، حوالي خمسة ملايين ونصف مليون نسمة من شعوب تتحدث مجموعة لغات، هي – موندا – سانتال، وهي لغات قريبة من اللغات التي يتحدث بها الخمير في كامبوديا، والمون في جنوبي بورما[٢]. وبعضهم يمارس زراعة الحريق(*)، والآخرون يزرعون الرز الرطب.

وهم – من الناحية الطبيعية – أكثر شبهاً بالكامبوديين من أية مجموعة أخرى درسناها في الهند.. إذ أن متوسط طول القامة لدى الرجال ١٥٩ سم (٥ أقدام و ٢,٥ من البوصة) كما أن لهم رءوساً طويلة صغيرة، ولونهم أسمر غالباً. ويتراوح شكل الشعر لديهم من المستقيم إلى المجعد، ولكنه غالباً مموج. ولهم نتوء أنفي عريض، وفك بارز، ولحى خفيفة. كما أن شعر اجسامهم قليل. وقليل منهم من له ثنية الجفن، وأنياب جاروفية الشكل. وقليل

---

(1) A. R. Bannerjee: "Hair", in Sarkar, ed.: A Physical Survey of the Kadar of Keraia, pp. 37-49.

(2) Guha: Racial Affinities of the Peoples of India. Bowles op. cit.

(*) أي قطع الحشائش ثم حرقها.

جداً بينهم من له سحن مغولانية، وآخرون منهم له شفاه غليظة، وشعر مموج، ويشبهون الميلانيزيين على أن اغلبهم خليط متجانس من الاسترالانيين والمغولانيين، ولا يظهر من العنصر المغولاني فيهم إلا قدر صغير. والأسورا من القبائل الاخرى التي تنتمي إلى نفس الخليط السلالي. وهم يتوارثون حرفة الحدادة، والأوراءون الذين يتحدثون الدرافيدية، والماريا وبعض الجوند.

أما الخاسي – وهم شعوب تلال خاسي الاصليون – فيتحدثون لغة من نفس الأسرة – ويمارسون نفس النوع من الزراعة، ويبدو أنهم وفدوا إلى الهند من جنوبي شرقي آسيا، في وقت غير معروف تماماً، يحملون ثقافة الزراعة التي يمتاز بها العصر الحجري الحديث. وهم على عكس الهو والموندا والسانتال يعيشون على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم في اقليم يغلفه الضباب، وتسقط عليه الأمطار. ورغم أنهم ليسوا أطول من المتحدثين بالموندا، إلا أن لهم جذوعاً أطول، وأرجلاً أقصر، ورءوساً أضخم، ووجوهاً أطول وأعرض وأنوفاً أضيق مما لهم. ولون بشرتهم أسمر فاتح ضارب للصفرة والحمرة، وشعرهم مستطيل أو مموج موجات خفيفة. وتبدو في ٦٥٪ منهم ثنية الجفن، ولنحو ٨٢٪ أنياب جاروفية الشكل. فهم باختصار مغولانيو الصبغة، مع عنصر استرالاني ضئيل. وبعضهم يشبه أهل فورموزا الاصليين شبهاً قوياً.

وليس لدينا ما يبرز الرأي القائل بأن اسلاف الخاسي الذين هاجروا إلى الهند كانوا يختلفون سلالياً عن اسلاف المتحدثين بالموندا، ويبدو أن المؤثرات المناخية والأمراض قد صنفت اسلافهم إلى: من هم استرالاليون اساساً، ومن هم مغولانيون اساساً وتقع إلى غربي تلال خاسي تلال جارو، ويبلغ ارتفاعها نصف ارتفاع هضبة خاسي. ويسكنها شعب الجارو الذين يتحدثون لغة تبتية، وهم أيضاً خليط من الاسترالانيين والمغولانيين –

ولكنهم أكثر استرالانية من الخاسي، وشعرهم أكثر تجعداً، وبشرتهم أكثر سواداً. وربما كان الفرق بين الشعبين هو وجود أو غياب الملاريا.

## الدرافيديون (من أفراد الطوائف)

يعيش في جنوبي الهند نحو ١٠٠ مليون شخص يتحدثون لغات درافيدية، هم: النيجر، والتاميل، والتولو، والكنارا، والملايالام. ومعظم هذه الشعوب من الهندوس، ولكن بعضهم مسلمون ومسيحيون. وهم - بغض النظر عن دياناتهم - يحافظون على قواعد الزواج داخل طائفتهم. وهذا أيضاً ينطبق على الهاريجان أو المنبوذين.

وهناك أيضاً خمسة ملايين هندي آخرون يتحدثون لغات درافيدية أيضاً، إلا أنهم رجال قبائل اصليون، تحدثنا عن اصولهم السلالية من قبل.

وطبقاً لمعظم الدارسين الثقات يبدو أن الدرافيديين من أفراد الطوائف ليسوا اصليين في الجنوب. وهذا أمر واضح من مظهرهم الطبيعي الذي يختلف عن الاصليين، ولعدم وجود الهيموجلوبين الشاذ الموجود في دماء الاصليين(١).

ونحن لا نعلم متى وصل الدرافيديون إلى جنوبي الهند؟ أو من أين؟ رغم أن وجود المتحدثين بالدرافيدية في بلوخستان قد يكون ايحاء بأنهم جاءوا من وادي السند، كما أن البراهوي والبلوش يحملون بعض الشبه

(1) G. W. G. Bird. E. W. Ikin, A; E. Mourant, and H. Lehmann: "The Blood Groups and Hemoglobin of the Malayalis", in T. N. Madan and G. Sarana, eds., Indian Anthropology (Bombay: Asia Publishing House' 1962), pp. 221-3.

بالدرافيديين في جنوبي الهند. ولما كانوا قوقازانيين فلابد وأنهم جاءوا من الشمال الغربي. وربما كانوا في مستوى ثقافة عصر البرونز وعصر الحديد، وربما كانت لهم علاقة ما بمدينة حوض السند، كما قد أشار كثير من رجال الآثار. ولكن لم يثبت أحد شيئاً من هذا. كما أن التكوين السلالي للهياكل العظمية في وادي السند لا يجافي هذا الافتراض.

وعندما غزا اسلاف الآريين معظم شمالي الهند، دخلوا سهول الجانج والسند، توقفوا أمام جبال الغات، وأمام التلال التي تغطيها الأشجار في جبال الدكن. والسبب في ذلك بسيط.. فهم كانوا يعتمدون على العجلات في تنقلاتهم، ورغم ذلك فقد استمر تقدم البراهمة جنوباً ليحولوا الدرافيديين إلى الهندوسية. ولما كان البراهمة قد جاءوا إلى الهند دون نسائهم، فقد اتخذوا من نساء الدرافيديين زوجات لهم. ولم يركنوا إلى التزاوج الداخلي والعزوف عن التزوج بالشعوب المحلية التي غزوها إلا في وقت متأخر. ثم أصبح الدرافيديون المتمدينون بعد ذلك سودرا، وتوزعوا على الطوائف المهنية المختلفة. وهذا هو السبب في أن الطبقتين المتوسطتين الكاشاتريا والفايزيا غير موجودتين في جنوبي الهند. وقد سار المبشرون بالاسلام والمسيحية بعد ذلك على نفس المنهاج. وقد أعطى الاسلام والمسيحية للمنبوذين فرصاً كي يكونوا طوائف خاصة بهم.

ودراسة ج. أوليفر للتاميل الحاليين، والبيانات المقارنة لشعوب الكانارا والتلوجو والملايالي(1) التي قدمها، هي أكثر مصادرنا كمالاً عن هذه الشعوب بما فيها الهاريجان بصفة عامة. وقد وجد أن متوسط طول القامة في الذكور بين هذه الشعوب يتراوح بين ١٦٢-١٦٤سم (٥ أقدام و ٤

(1) Olivier: Anthropologie des Tamouls du Sud de l'Inde.

بوصات إلى ٥ أقدام و ٥ بوصات) . ويتراوح طول القامة بين التاميل بين ١٦٤,٥سم (٥ أقدام و ٥ بوصات) وأنها بين الفيلاجا Vellajas إلى ١٦٠سم (٥ أقدام و ٣ بوصات)، وهي كذلك بين الهاريجان والشانار. والفيلاجا ملاك أراض وفلاحون، والشانار حرفيون كانوا منبوذين حتى زمن قديم. والبراهمة والمسلمون في مثل طول الفيلاجا، وتبدو الفروق بين هذه الشعوب أيضاً في طول أطفال هذه الطوائف عند ولادتها.

ويعكس متوسط وزن الناس في هذه الطوائف: الغذاء الذي تعيش عليه، وطول قامتهم ومتوسط وزن ذكور الفيللاجا والمسلمين الذين يعيشون في أحسن مستوى ممكن، ويتغذون أفضل غذاء، هو ٥٦ كيلو جراماً (١٢٣ رطلاً) و ٥٥ كيلو جراماً (١٢١ رطلاً) على الترتيب. أما البراهمة النباتيون فمتوسط وزن الواحد منهم ٥٢ كيلو جراماً فقط (١١٤ رطلاً) . أما الطوائف الثلاث الدنيا فمتوسط وزن الرجل منهم يتراوح بين ٥٠ و ٤٧,٥ كيلوجراماً (١١٠-١٠٤ ارطال).

ويتراوح لون بشرة التاميل من اللون الأبيض النادر إلى اللون الأسمر الداكن الذي يكاد يكون أسود، كما أن التيلوجو الذين يعيشون أيضاً على الجانب الشرقي لشبه الجزيرة، لهم بشرة سوداء كذلك. أما لون الكنازا والملايالي على الاقاليم الساحلية الغربية فهو أفتح بكثير. ويختلف البراهمة والفيلاجا من بين التاميل عن الطوائف الدنيا اختلافاً كبيراً في لون البشرة فهي سمراء فاتحة غالباً. أما طائفة صيادي السمك فهم أكثر الطوائف سواد بشرة، ومثل هذا التدرج في لون البشرة يشاهد أيضاً بين الدرافيديين الآخرين.

ولم تسجل أي حالة من حالات لون العين الفاتحة أو المختلطة في هذه الجماعات. وعلى أية حال، فالبراهمة بين التاميل. لهم عيون بنية فاتحة

أو ذات لون بني متوسط، أما الطوائف الاخرى فعيونها بنية داكنة أو سوداء فلون إنسان العين يقارب لون البشرة. وشكل الشعر بين جماعات الدرافيديين الاربع مستقيم أو مموج غالباً، وليس بينهم شعر جعد أو صوفي. وليس هناك اختلاف كبير في شكل الشعر بين الطوائف المختلفة، ولكنها تختلف بعضها عن بعض في اللحية وشعر الجسم. فالبراهمة، والفيلاجا، والمسلمون، هم أكثر الطوائف غزارة شعر.

كما يختلف شكل الرأس بين الدرافيديين من اقليم إلى آخر، ومن طائفة إلى أخرى. فمتوسط النسبة الرأسية للكانارا ٨١، في حين أن متوسطها في جيرانهم الجنوبيين، الملاياني على النقيض هو ٧٣ ويتوسط بينهما الشعوب الشرقية، والتلوجو والتاميل، إذ يبلغ متوسط النسبة الرأسية ٧٦. وبين التاميل نجد المسلمين والفيلاجا أكثرها في عرض الرأس إذ تصل النسبة الرأسية إلى ٨١ و ٧٩ على الترتيب، ويتوسط بينهما البراهمة وغيرهم من الطوائف.

وبحثاً عن المقارنات لكي يفسر هذه الاختلافات، وجد أوليفر اتجاهاً عاماً نحو استعراض الرأس بين الماراثا المتحدثين باللغات الهندية أوروبية، والذين يعيشون شمالي الكانارا مباشرة. والرأس الطويل الذي يميز البراهمة، الذين تصل نسبتهم الرأسية إلى ٧٦ هو نفس ما يميز براهمة شمالي الهند، كما أن النسبة الرأسية المنخفضة التي تميز صيادي السمك التاميل، تميز أيضاً الملايالي، وقبائل الاصليين.

وللبراهمة التاميل أعلى رءوس وأضيق وجوه (باستثناء المسلمين) واطولها وأضيق أنوف في الهند كلها. والنسبة الأنفية مقياس حساس يميز بين الطوائف في الهند. إذ يوجد بين البراهمة والفيللاجا والمسلمين ما بين ٣١-٣٨٪ من حالات الأنف المعقوق، وهذه النسبة يمكن مقارنتها بنتائج دراسات اجريت في شمالي الهند - التي سندرسها بعد قليل - وبسكان

مرتفعات غربي آسيا وأوروبا، وتنخفض نسبة الأنف المعقوف بين الطوائف الدنيا إلى ١١-١٧٪، وهذا يعني تأثراً أقل بالمؤثرات الشمالية. كما أن بين البراهمة أعلى نسبة من الانثناءات في اطراف أصابعهم، إذ تبلغ نحو ٦٢٪ في حين أن للهاريجان أدنى نسبة، ٥٠٪. ويعزي هذا إلى أن البراهمة أكثر طوائف التاميل قوقازانية، والهاريجان اكثرها استرالانية، وأكثر من هذا فأدنى نسبة من فصيلة الدم ب توجد بين البراهمة، والطوائف الدنيا بها أعلى نسبة من هذه الفصيلة.

ويقول أوليفر أن الدرافيديين من بين أبناء الطوائف، قد وصلوا إلى جنوبي الهند من الشمال الغربي في غزوات متتالية، وأنهم حافظوا على صفاتهم السلالية القوقازانية بقصد التزاوج فيما بينهم فقط. إلا أنه يعتقد أن هذا الشعب يكون شبه سلالة قوقازانية خاصة به، وليس من السهل مطابقتها بسلالة البحر المتوسط الحالية. وأنه من الممكن أن يقارنوا بصانعي مدنية وادي السند، وهذه هي أفضل نتيجة يمكن الوصول اليها حتى تزداد علماً بالتاريخ السلالي للهند.

## المغولانيون الشماليون

قبل أن ندرس التركيب السلالي للشعوب القوقازانية في شمالي الهند سنقصر بضع صفحات للشعوب المغولانية التي تعيش على حافة الهيمالايا. وتبين الهياكل العظمية التي عثر عليها في وادي السند أن بعضها كان فعلاً في الهند الكبرى قبل وصول الغزاة الآريين. وقد وجدت هذه الشعوب على طول الطريق من أفغانستان حتى بورما في باكستان ونيبال وسكيم وبوتان والهند. ويمكن تقسيمهم إلى قسمين: البوتياه وقبائل التلال.

أما البوتياه فهم ببساطة التبتون، مهما تختلف اسماؤهم، سواء اطلقنا عليهم اسم الشرياه، أو البوتانيين أو أي اسم آخر، وهم يعيشون عامة على ارتفاعات عالية على حدود التبت في الاقطار التي ذكرناها. وكثيراً ما كان يشاهد التبتيون قبل أن يحتل الصينيون بلادهم في مدن مثل جانجتوك ودار جيلنج وبيدونج التي تقع على الطريق الرئيسي للتجارة بين لهاسا وبنغال، وذلك قبل مجيء الصينيين إلى التبت. ويعيش معظم البوتياه على ارتفاع ٩٠٠٠ قدم وما فوقها، وهم قلما يغامرون باختراق خط الملاريا، الذي يقف عند حد ٤٠٠٠ قدم كما سنبين فيما بعد. وقد كتب كولين روسر (وهو انثروبولوجي اجتماعي بريطاني يعمل في نيبال، يقول لقد كان عليه في الهيمالايا الغربية أن يختار بين مكانين ينشئ في واحد منهما مكتبة، احدهما على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، والمسافة بينه وبين منزله مسيرة يوم ذهاباً واياباً، والآخر على نفس خط العرض ولكنه يبعد خمسة أيام، ويرتفع ١٤٠٠٠ قدم. ولكن الحمالين الذين كانوا يرافقونه رفضوا المكان المنخفض القريب، قائلين أنهم إذا فعلوا ذلك فسيصابون بالملاريا. ومن ثم اتخذوا الطريق المرتفع البعيد(١).

والبوتياه عامة مغولانيون، قصار القامة أو متوسطوها، أصحاب جذوع ضخمة متوسطو الرأس أو عريضوها، ووجوههم مستديرة، وتنشر بينهم ثنية الجفن المغولية بنسبة ٦٠٪ أو أكثر. أما أهل التبت الذين عبروا الحدود منهم فأكثر تنوعاً. فبعضهم طوال القامة جداً، بسيقان طويلة، وأقدام وأيد كبيرة، وظهورهم مسطحة تقريباً، ويسيرون مثل الهنود الامريكيين. ولبعضهم أيضاً مظهر الصقور مثل هنود السهول في أمريكا. وبعضهم له شعر مجعد. ويقال

(1) C. S. Coon's diary, Feb. 22, 1957.

أن هذه الصفة الاخيرة مركزة بين شعب داكن البشرة يسكن وادي تسانجبو أو وادي نهر براهمابوترا شمالي حدود الهند. ولكن لما كانت هذه المنطقة لم تكتشف فعلاً بعد، ولم يدخلها إلا الجنود الصينيون حديثاً، فلا سبيل للتحقق من هذا القول.

أما قبائل التلال فتشمل الكفرة والبوروشاسكي، واللاهولي، والمانشاتي، والكانوري، وكلهم يعيشون غربي نيبال، كذلك الدوتيال والمجر، والجورونج والتامانج، والثارو، والراي، واللمبو في نيبال، والليشا في سكيم، وغيرهم من القبائل الصغيرة التي تعمل بزراعة الحريق، وتعيش في تلال بنغال الغربية. ويشملون أيضاً التوتو الذين درسهم جيتس(١)، والقبائل المختلفة التي تتبع ادارة الحدود الشمالية الشرقية في آسام والناجا، وغيرها التي تعيش على حدود بورما.

أما قبائل التلال التي تعيش في غربي نيبال فهي قوقازانية، وتشبه إلى حد كبير سكان شمالي الهند، رغم وجود أدلة في قليل منهم على الاختلاط بالمغولانيين(٢). ولهؤلاء اهمية انثروبولوجية خاصة، إذ أنهم لا يتحدثون لغات هندية اوروبية. فالقبائل النيبالية الذين جندت من بينهم جنود الجوركا الشهيرة في الجيش البريطاني، والجيش الهندي، والجيش النيبالي شعب خلاسي من القوقازانيين والمغولانيين. والذين يعيشون منهم في غربي ووسط نيبال، أكثر مغولانية من اللمبو والراي في شرقي نيبال. وبعض الراي - بصفة خاصة - قصار القامة جداً، وتظهر فيهم اثار نقص الغدة الدرقية. وليس لدينا أي بيانات انثروبولوجية منشورة عنهم، ومن ثم علينا أن نعتمد في وصفهم على الصور الفوتوغرافية.

---

(1) Gates: The Totos, a Sub-Himalayan Mongoloid Tribe.

(2) Bowles: op. cit.

وفي وادي كـاتماندو يعـيش النوار Newars يحـيط بهم قبـائل التـامـانج وقبائل الثارو Tharus إلى الجنوب. والنوار شعب متمدين قديم يكونون معظم سكان مدن الوادي. وهؤلاء لهم بشرة ذات صفرة خفيفة، وتقاطيع دقيقة، ويبدو بعضهم كالصينيين. ويعيش بينهم الكاس على ضفاف الوادي، وهم شعب قوقازاني، يتحدثون لغة نيبال، وهي لغة هندية اوروبية قديمة حلت محل لغة النوار كلغة رسمية للمملكة وكان بعض اسلافهم راجبوت، تحركوا شمالاً خارجين من الهند، في العصر المغولي، حوالي ١٥٠٠م.، ودخلوا أودية نيبال، بل والتبت. واسسوا في التبت مملكة لهاسا، ثم ما لبثوا أن اندمجوا في السكان المحليين. وفي نيبال حيث يعيشون فوق مرتفعات يستطيع القوقازانيون الحياة فوقها. ولم يختلط معظمهم في المغولانيين.

أما في السهول - في غابات جنوبي نيبال الكثيفة، وما حولها من أراضي الهند فيعيش شعب تيراي، وهو شعب من الاصليين جامعي القوت، ويسمون شبانج وكوسوندا، وقد لوحظ وجودهم عام ١٨٤٠(١). ويقال بأنهم كانوا قصار القامة، سود البشرة، لهم فك بارز. وهذه الغابة التي ما تزال تغص بالتماسيح وحيوان وحيد القرن وغيرها من الحيوانات الضخمة، مقفرة لا سكان فيها، رغم أن بعض الشعوب المتحدثة بالموندا قد انتقلوا اليها. ويعيش في طرفها الشمالي شعب نيبالي آخر هو الثارو.

وقبائل سكيم الاصلية هم الليبشا، وهو شعب فاتح البشرة، مغولاني الصبغة، معروف بجمال نسائه، وقد تزوج بعضهم من مزارعي الشاي البريطانيين. وقد هاجر في العقود الاخيرة كثير من النيباليين إلى سكيم، حيث حلوا محل الليشا، واصبحوا أكثر العناصر عدداً.

---

(1) B. H. Hodgson: The Languages, Literature, and Religion of Nepal and Tibet (London: Trubner & Co., 1974).

وتتناثر قبائل قصيرة القامة ربعتها ذات صبغة مغولانية غالبة في الغبات الموجودة في شمالي بنغال، وفي اقليم الحدود الشمالية الشرقية على جانبي نهر براهما بوترا. وهذه القبائل تشمل التوتو[1] والميرى، وآباتاري وأبو، والدوفلا، والمشمى. وهي قبائل محبة للقتال، يمارسون زراعة الحريق وتعيش في منازل جماعية. وهي لم تدرس إلا قليلاً، وكان بعضها مجهولاً حتى تأسيس المؤسسة الشمالية الشرقية حوالي عام ١٩٤٠. وللابور - لسبب غير معروف - صوت جهوري عميق، وهم يشبهون الاندونيسيين شبهاً قوياً.

أما إلى الشرق من هؤلاء على حدود بورما المضرسة، وعلى الجانب الآخر من الحدود كذلك، يعيش الناجا صيادو رءوس البشر المشهورون، الذين درسهم رجال الارساليات المسيحية. وهؤلاء يمتازون بلون البشرة الأسمر المحمر، وهم من بين جميع المغولانيين الاسيويين، اكثرهم شبهاً بالهنود الامريكيين في ملامح وجوههم، ولاسيما في أنوفهم العالية المعقوفة.

هذه الشعوب المغولانية، أو ذات الصبغة الجزئية المغولانية، والتي تعيش في تلال نيبال، وإلى الشرق منها، ذات اهمية كبرى للانثروبولوجيين، وتستحق الدراسة التفصيلية. ويبين توزيعهم وخصائصهم السلالية كيف يتوقف توزيعهم السلالي على العوامل الجغرافية، كما هي الحال في أسام مثلاً.. ففي أسام يعيش الهندوس البنغاليون في وادي البراهما بوترا المنبسط، ولكنهم يختفون عندما تبدأ التلال المغطاة بالأشجار في الارتفاع على جانبي الوادي، حيث تصبح أرضاً مغولانية.

---

(1) Gates: The Totos, a Sub-Himalayan Mongoloid Tribe.

## الشعوب الهندية اوروبية
## في الهند وباكستان وسيلان

يمكن اعتبار بقية سكان: الهند، وباكستان، وبنجالاديش، وسيلان، الذين يزيد عددهم على ٤٤٠ مليون نسمة، أو ما يقرب من ٨٠٪ من سكان شبه القارة وجزيرة سيلان، وحدة واحدة من وجهة النظر اللغوية، ومن وجهة النظر السلالية أيضاً إلى حد بعيد. ومعظم هؤلاء السكان هندوس ديانة، والآخرون مسلمون، أو سيخ، أو جين، أو بوذيون، أو زرادشتيون، أو مسيحيون. وهم جميعاً قوقازانيون اساساً. وقليل منهم لا يمكن تمييزه عن سكان غربي آسيا أو الاوروبيين. كما أن معظمهم قد انحدر من اصلاب الغزاة القادمين من غربي اسيا، أو من السهول التي تقع غربي بحر قزوين، أو حتى من أوروبا.

وطبقاً لتوماس و. كلارك – وهو بريطاني متخصص في اللغات الهندية، عمل في نيبال في الخمسينات – حدثت غزوتان آريتان[١].

اولاهما تتكون من شعب متعود الرعي فوق المرتفعات، أو فوق الأرض المضرسة. وكانوا يتكونون اساساً من رعاة الغنم الذين خرجوا من غربي آسيا عبر افغانستان ودخلوا كشمير والهيمالايا الغربية، ومن ثم إلى أودية نيبال، وذلك قبل الغزو الراجبوتاني التي ذكرناها آنفاً، ثم بعد ذلك إلى البنغال. وربما وصل بعضهم إلى شمال غربي شبه الجزيرة، ولغات الكانري والنيبالية القديمة، والبنغالية لغات قريبة بعضها من البعض الآخر. كما ترتبط بلغات الجوجاراتي، التي يتحدث بها في جوجارات في غربي الهند وجنوب شرقي باكستان. وهذه اللغات جميعاً إذا نظر اليها عامة تختلف اختلافاً كبيراً عن الهندية والبنجابية، والراجاستانية، واللغات الهندية الاخرى واسعة الانتشار.

---

(١) مكاتبة خاصة إلى كارلتون كون.

أما الغزوة الثانية طبقاً لهذا التفسير - فهي لغات الشعوب المتحدثة بالبنسكريتية، وهذه ترتبط بالاسكيثية والسرماتية. وهؤلاء كانوا رعاة ماشية عبروا الممرات الجبلية في عربات مغطاة، مثل عربات الرواد الامريكيين أو البوير. وقد دخلوا الهند في غزوات جماعية، بنسائهم وأطفالهم، ثم انتشروا ببطء وتوسعوا داخل شبه الجزيرة، حتى وصلوا إلى حافات التلال فتوقفوا، حيث المرعى فقير، وحيث عجزت عرباتهم ذات العجلات الضخمة عن الحركة بسرعة. ومن الواضح أن هؤلاء الغزاة قد غزوا البلاد وانتشروا فيها، والادلة على ذلك كثيرة، ففي وادي براهما بوترا في اقليم جوهاتي مثلاً، يوجد خط فاصل بين القرى الهندية في الشريط المنبسط الضيق، وبين قبائل التلال، ويبدو هذا الخط كأنما قطع بحد سكين.

وقد جلب هؤلاء معهم التمييز الطبقي القديم الذي كان موجوداً في شمالي ووسط أوروبا، التمييز بين الايرلات (النبلاء) والفلاحين والعبيد، وفوقهم جميعاً طبقة الكهنة ورجال الدين. ثم تطور التقسيم الاصلي للسكان إلى براهمة أو كهنة، وكاشتريا، أو محاربين، وفايسيا أو فلاحين، وتجار سودرا أو حرفيين، إلى طوائف فرعية عديدة. ثم أخرج البعض من الطوائف واصبحوا منبوذين، أو كناسين، غير أن المهم أن أساس نظام الطوائف هذا Caste system كان دخيلاً. وكان مسموحاً لرجال الطوائف العليا في الاصل أن يتخذوا زوجات من الطبقات الدنيا، كما كان لابطال هومر أن يقتنوا ما يأسرون من نساء وفتيان، ولكن مع مرور الوقت، واتخاذ المجتمع الهندوسي الحالي شكله النهائي، اصبحت كل طائفة مغلقة، من حيث الزواج على نفسها.

ولم يؤد هذا الاسراف في الزواج جيلاً بعد جيل إلا إلى حدوث تغير وراثي ضئيل نسبياً في المناطق المزدحمة بالعمران. أما في المناطق

الهامشية، أو المناطق التي دخلتها الموجات الاولى من الغزاة، فقد كان لهذا النظام أثره السلالي الملحوظ. كما كانت الحال في جنوبي الهند الذي لاحظناه من قبل. وحتى إلى عهد قريب يرجع إلى القرن الثامن الميلادي كان اللاجئون البارسيون (الفرس) والزرادشتيون يمارسون هذا الزواج الحر عندما دخلوا الهند أول مرة ثم ما لبثوا أن اقتصروا على الزواج الداخلي. ورغم أنهم لا يعرفون نظام الطوائف الحقيقي، إلا أن لهم طبقة من الكهنة.

وقد قامت حركات دينية من وقت إلى آخر في الهند تعد برفع مستوى الطبقات المنبوذة وبدأت هذه الحركات ببوذا، كما أن الاسلام لا يعترف بنظام الطوائف، وكذلك السيخ. وانتهت هذه الحركات جميعاً بتعاليم المهاتما غاندي. إلا أن هذه الحركات جميعاً لم تنجح في ازالة نظام الطوائف تماماً.

ونحن - بوصفنا انثروبولوجيين طبيعيين - نهتم بنظام الطوائف، لأنه نظام متشابك دقيق يخلق جماعات منعزلة من حيث المورثات التي تسود فيها، كما تثبت الدراسات التي اجريت على فصائل الدم، وبصمات الأصابع. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد أولى الانثروبولوجيون الهنود والأجانب اهتماماً بالقبائل الاصليين الموجودين في الجنوب بالدرافيديين، أكبر مما اولوه للاغلبية المتحدثة بلغات هندية اوروبية، والتي تسكن الشمال. وعلينا أن نرجع إلى دراسة ب. س. جوها «تعداد الهند» (١٩٣١)، وعلى التعداد السابق (١٩٠٧) الذي درسه هـ. هـ. رزلي[١] وكتابه أ. ك. مترا عن المسلمين البنغاليين[٢].

ولدينا قدر أضأل من البيانات التفصيلية عن الهند الشماليين مما لدينا

---

(1) H. H. Rislay: Census of India. (Calcutta: Government of India 1908).

(2) Mitra: "Phyairai Anthropology of the Muslims of Bengal".

عن الآسيويين الغربيين، أو الاوروبيين أو الدرافيديين، إلا أننا أقل حاجة اليها. وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن الهنود الشماليين يشبهون الآسيويين الغربيين والاوروبيين والدرافيديين من نواح مختلفة، مع استثناء جماعات صغيرة مثل البيل Bhils الصيادين البالغ عددهم ٤٠٠,٠٠٠ نسمة، والذين يتحدثون لغة هندية اوروبية، يعيشون في جوجارات وما حولها. وهم سود البشرة نسبياً، ويشبهون في بعض صفاتهم سكان جنوبي الهند. وهم يشبهون طبقة اصلية، لا علاقة واضحة لها بأي شعب أصلي في الهند. كما يلاحظ عنصر مغولاني ضئيل بين بعض البنغاليين.

أما السنهاليون – وهم أكثر أهل سيلان عدداً – فيقال بأنهم انحدروا من اصلاب غزاة جاءوا من البنغال عن طريق البحر. ومعظمهم الآن نحاف القامة داكنو البشرة، قوقازانيو المظهر. ولكن ما أن نغادر السهل الساحلي ونتسلق المرتفعات الوسطى حتى كاندي ونورا ايليا، حتى نجد السكان أقصر قامة، وأكثر امتلاء، وأفتح لوناً شيئاً ما، ونجد الصفات المغولانية واضحة جزئياً في بعض السكان. وتختفي الديدان والملاريا الموبوءة بها السهول عند ارتفاع ٤٠٠٠ قدم. وهذا بالضبط هو الحد الذي نبدأ نجد فيه الشعوب التي بها شبه من المغولانيين. وهذا يشبه الوضع في سفوح الهيمالايا.

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى شمالي الهند، نجد أنه – رغم التفتت الوراثي الذي يلاحظه علماء الوراثة في فصائل الدم وبصمات الأصابع، وغيرها من العلامات الوراثية، في مقاييسهم الانثروبومترية، وفي الصفات المورفولوجية – فإن الهنود الشماليين أكثر شبهاً بعضهم ببعض. وهم – مثل الدرافيديين – تمتاز طبقاتهم العليا بالبشرة الفاتحة، والأنف الضيق، أكثر مما تمتاز بها طبقاتهم الأدنى.

ومتوسط طول الرجل يتراوح بين ١٦٤سم (٥ أقدام و ٤,٥ بوصات) إلى

١٧٢سم (٥ أقـدام و ٨ بوصـات) . وأطول الناس يوجـدون فـي راجـاسـتـان والبنجـاب. كمـا أن النسبـة الرأسيـة تتراوح بين ٧٢ و ٨٠ أعلى في الرءوس توجد على طول الساحل، كما في بلاد العرب، وأجزاء من أوروبا، واقصرها توجد في الداخل. وشكل الشعر مستقيم أو مموج في معظمه، ويختلف شعر الجسم. وأشد اللحى غزارة توجد بين طبقات المحاربين والسيخ.

ومعظمهم له شعر أسود لامع، رغم أن الشعر البني ليس نادراً، أما الشعر الأحمر أو الأشقر فهو نادر جداً. ومعظمهم تقريباً له عيون بنية، من درجات متفاوتة، ولكننا نجد العيون الفاتحة والمختلطة في أفراد قلائل، ولاسيما بين السيخ. وأعلى نسبة في العيون الفاتحة تصل إلى ١٢ ٪، في طائفة واحدة في ماراثا. أما الحواجب المقرونة، والأنوف المعقوفة، التي تميز الاسيويين الغربيين، فهي موجودة بصفة خاصة في الطبقات العليا.

والصفة الطبيعية التي تشغل بال الهنود كثيراً، والتي تهمهم بصفة خاصة، والتي يشعرون نحوها بحساسية شديدة، هي لون البشرة. ولا ريب أنه حدث نوع من الانتخاب فى لون البشرة. ولون البشرة الأبيض المشرب بحمرة نادر جداً. ومعظم اللون الأبيض الفاتح يميل إلى الصفرة أو الحمرة. واللون الفاتح أكثر شيوعاً في الاجزاء الغربية من الهند الشمالية، ولون البشرة الداكن شائع في الشرق، ولاسيما في البنغال، حيث المناخ رطب وحار. أما عن الدرافيديين فإن لون البشرة يختلف باختلاف الطوائف، والبراهمة هم أكثر الطوائف ميلاً إلى البشرة الفاتحة.

ورغم هذه الاختلافات الطائفية والطبقية، فمن غير المعقول أن نحاول قياس مقدار المورثات الغرب أسيوية أو أوروبية الموجودة في أي فرد من الأفراد، أو جماعة من الجماعات، التي تقطن شمالي الهند على أساس لون البشرة. فالمناخ الصحراوي الجاف في السهول التي تحيط بصحراء ثار يحبذ

لون البشرة الأبيض أو الأسمر الفاتح الذي يمكن أن يتحمل أشعة الشمس ويصبح أسمر.. مثل مناخ الصحراء الغربية أو الصحراء الكبرى. أما الحياة في ظل المعابد أو المكاتب فهي تحفظ الجسم من الاسمرار، في حين أن للحياة في الخلاء الرطب الحار تؤدي إلى درجات متفاوتة من السمرة. ولا ريب أن آلاف السنين من الانتخاب البيئي قد أثرت في توزيع لون البشرة بين شعوب الهند، ولا يستثنى من ذلك المتحدثون بالهندية أوروبية، رغم زواجهم الداخلي ورغم الانتخاب الاجتماعي. ولو أن أفراداً من أصل أوروبي عاشوا في بيئة شديدة الحرارة، شديدة أشعة الشمس، شديدة الرطوبة في أمريكا الشمالية أو استراليا، كما عاش الآريون في الهند، لأصبحوا سمراً مثلهم.

**الخلاصة:**

الهند هي أكثر أجزاء الوطن القوقازاني تطرفاً نحو الشرق؛ وهي ذات مناخ متنوع. ونحن لا نعرف أى نوع من البشر عاش فيها خلال عصر البلايستوسين، وكل ما نعرفه أنهم كانوا يصنعون نفس الآلات الحجرية التي كان يصنعها اسلاف الاوروبيين والافريقيين وسكان غربي اسيا، خلال العصور الحجرية القديمة السفلى والوسطى في البلايستوسين. وليس هناك دليل على ثقافة العصر الحجري القديم الاعلى الحقيقية، كما هي الحال في إفريقيا، قبل نهاية ذلك العصر. وقد سبقت ثقافة أو ثقافات حجرية متوسطة، العصر الحجري الحديث، ولكننا غير متأكدين مما إذا كانت قد تطورت محلياً، أم أنها جلبت إلى الهند من مكان آخر. وقد دخلت ثقافة الزراعة في العصر الحجري الحديث من الشرق والغرب، وربما كان دخولها من الغرب أسبق. أما البرونز والحديد فقد دخلا من الغرب، وفي تاريخ متأخر نسبياً.

من هذه الادلة، ومن الهياكل العظمية القليلة، التي بقيت من نهاية

العصر الجليدي وما بعده، ومن الترتيب الطباقي الاثنولوجي، والتوزيع الجغرافي لسكان الهند الحاليين، نستطيع أن نعيد تركيب التاريخ السلالي لسكان الهند الكبرى. وأقدم الشعوب التي تركت ما يمثلها هي الشعوب القوقازانية والاسترالانية التي كانت تعمل بجمع الطعام. وبعض الباقين منها قوقازانيو الصبغة، والآخرون استرالانيو الصبغة. وليس هناك دليل على أي عنصر مغولاني بين هؤلاء السكان الاوائل. والدرافيديون قوقازانيون يمتون بصلة للبراهوي والبلوش وربما بعض شعوب العصر الحجري المتوسط التي تعيش إلى الغرب من ذلك، مثل الناتوفيين.

أما شعوب العصر الحجري الحديث الذين جاءوا من جنوب شرقي آسيا فقد كانوا خليطاً استرالانياً مغولانياً. واحفادهم الذين ظلوا في الاماكن السهلية المنخفضة الرطبة ظلوا استرالانيين، ولكن الذين ارتقوا المرتفعات اصبحوا مغولانيين غالباً. وقد منع المغولانيين القادمون من التبت ومن بورما العليا من الاستقرار في شمال الهند باعداد كبيرة بسبب تأقلمهم للمناخ البارد، ولأنهم كانوا يسقطون صرعى الملاريا وغيرها من الأمراض المنتشرة في السهول بسهولة.

والشعوب المتحدثة بالهندية أوروبية التي تسكن شمالي الهند أحفاد موجتين على الاقل من غزوات القادمين من الغرب والشمال الغربي. وقد احتفظت هذه الشعوب بمعظم صفاتها السلالية الاولى، فيما عدا لون البشرة التي اصبحت أدكن من لون بشرة اسلافهم، وذلك بسبب الانتخاب الطبيعي من ناحية، وبسبب الاختلاط بمن سبقهم في سكنى الهند، ولاسيما في الفترات الاولى للغزو. وليست مشكلة تكيف لون البشرة للبيئة مسألة مقصورة على الهند وحدها، ولكنها مسألة عالمية. وسوف تناقش بتفصيل أكثر في الفصل الثامن.

# الفصل الثامن

# الصفات السلالية والمناخية لأوروبا وغرب آسيا

# الفصل الثامن
# الصفات السلالية والمناخية
# لأوروبا وغرب آسيا

## تقسيم اقليم القوقازانيين في الماضي والحاضر

كان وطن القوقازانيين في عصر البلايستوسين - كما ذكرنا - يستوعب منطقة غير ذات شكل منظم، تمتد من ساحل المحيط الأطلنطي في أوروبا حتى بلوخستان، تحدها من الشمال منطقة غير مسكونة ومن الجنوب، فيما عدا برزخ السويس، مياه ملحة.. ففي عصر البلايستوسين إذن، من وجهة نظر التعمير البشري، كانت أوروبا قارة منفصلة، وليست مجرد شبه جزيرة ملحقة بآسيا. وكان شطرا الوطن القوقازاني يشبهان مثلثين يلتقيان عند رأسيهما عند البوسفور، ذلك الممر الرئيسي للثقافة والاتصال وتبادل المورثات.

وفي نهاية البلايستوسين تحرك الصيادون القوقازانيون من كل أوروبا وغرب آسيا شمالاً نحو المناطق التي كانت خالية من السكان في اسكنديناوة وأوروبا وروسيا الآسيوية. وفي هذا الوقت بدأ الاتصال المستمر غير المنقطع بين المغولانيين والقوقازانيين، مما أدى إلى ظهور سلالات خلاسية في وسط آسيا وشماليها.

## الخصائص الجغرافية والمناخية لأوروبا وغرب آسيا

يختلف وطن القوقازانيين في أوروبا وغرب آسيا خلال البلايستوسين عن أوطان السلالات الاخرى في نواح عديدة. فالوطن القوقازاني ما بين

خطي عرض ٥٥°، ٣٦° شمالاً في أوروبا، يقع إلى الشمال أكثر من وطن أي سلالة أخرى. كما أنه يتداخل مع وطن كل من المغولانيين والكابوانيين بدرجتين عرضيتين فقط. فوطن كل من هاتين السلالتين يمتد من خط عرض ٣٨° حتى مدار السرطان، ولكن غرب آسيا تمتد من خط عرض ٤٤° حتى ١٣° شمالاً، وهي بذلك تتعدى نطاق كل من السلالتين.

وتتشابه كل من أوروبا وغرب آسيا في المناخ. وهما معاً تصنعان اقليماً فريداً. فطبقاً لنظام كوبن Köppen – الذي يستخدمه كثير من الجغرافيين بسبب دقته[1] – يكاد يحتكر أوروبا وغرب آسيا انواع المناخ التي يطلق عليها Csa، Cfb أي المناخ البحري (الجزري). ومناخ البحر المتوسط[2] ويمتاز كل من هذين النوعين المناخيين بالشتاء المعتدل حيث ترتفع درجة أبرز شهور السنة فوق ٢٦,٦ف° (-٣°م) ويمتاز المناخ البحري (الجزري) بدرجة الحرارة اللطيفة، والصيف الرطب، أما صيف البحر المتوسط فهو حار جاف. والمناخ الأول يسود في غرب أوروبا ووسط الأناضول. والثاني على طول شواطئ البحار الداخلية وعلى السفوح الغربية لجبال زاجروس. ويسود نوع آخر من مناخ البحر المتوسط Csb – ويمتاز بصيف لطيف جاف – في البرتغال وعلى جبال ايران. ولقد كان هذا المناخ أو ما يشبهه سائداً في الفترات التي لم يغط فيها الجليد الأرض – أي ٧٢٪ من العصر الجليدي – أما خلال فترات الجليد (٢٨٪ من طول البلايستوسين)، فكان جزء مما يدخل في مناخ البحر المتوسط الحالي يسوده المناخ الجزري، وكان جزء مما يدخل في نطاق المناخ الجزري يغطيه الضباب كثير الرطوبة في المنطقة

---

(1) P. E. James: An Outline of Geography (Boston: Ginn & Co. 1935), pp. 370-9.

(٢) لا يستخدم كوبن هذه الرموز.

التي يسودها الآن. وكان اقليم الكهوف الموجود في جنوبي فرنسا اقليماً تغطيه الحشائش والأحراج. أما إلى الشمال من ذلك فتمتد فيافي التندرا. وكان كل منهما اقليماً حشائشياً ترعى فيه حيوانات العصر الحجري القديم الأعلى، والتي كان يعمل الإنسان بصيدها.

وسبب ظهور انواع المناخ الجزري ومناخ البحر المتوسط في أوروبا وغرب آسيا هو تضافر مجموعة من الظاهرات الجغرافية غير العادية. فلأوروبا أطول سواحل بحرية بالنسبة لمساحتها، رغم أنها ثانية القارات مساحة. وتشترك مع اسيا بحدود برية طويلة. ويمر تيار الخليج الدافئ على سواحل الأطلنطي الشمالي حاملاً معه الدفء، كما أن سلاسل جبالها الرئيسية تمتد امتداداً شرقياً غربياً، مما يسمح بتوغل الرياح الغربية داخل القارة، حاملة الرطوبة نحو الداخل، ولاسيما في فصل الصيف. كما أن حوض البحر المتوسط يكون ممراً سهلاً للأعاصير حاملة السحب الممطرة خلال الشتاء، حتى غرب آسيا، إلى جانب بعض الرطوبة التي تصلها من البحر الأسود وبحر قزوين.

لقد عاشت أوروبا آلاف السنين في المناخ الجزري، ومن قبل ذلك أيضاً في عصر الجليد، ومن ثم تعرض سكانها في الشمال والغرب للآثار الانتخابية للضوء الخافت والشتاء المنعش غير قارس البرد، والصيف اللطيف، والاختلافات الفصلية الكبيرة في طول الليل والنهار. فهذا مناخ منشط لا مثيل له. ومثل هذا المناخ يوجد على ارتفاعات عالية ومنخفضة في هضبة الأناضول الوسطى وعلى طول قمم جبال القوقاز. ويعد هذا الاقليم الاناضولي القوقازي هو قلب ذلك الجزء من العالم الذي ظهرت فيه الزراعة وتربية الحيوان. وعندما انتقلت هذه الاختراعات إلى أوروبا لم تكن هناك حاجة إلى احداث تغيير أو تحوير فيها نظراً لتشابه المناخ. وهذا هو أحد الاسباب الذي

انتشرت من أجله فنون انتاج الطعام بسرعة في أوروبا، وساعدت على توحيد الوطن القوقازاني، ربما أكثر من ذي قبل.

وتسود انواع أخرى من المناخ إلى الشمال والشرق من ذلك وإلى الجنوب والشرق. فإلى الشمال تمتد على الترتيب أراض جافة (مناخ B) وأراض باردة رطبة (مناخ D)، وصحاري قطبية (مناخ E). أما إلى الجنوب والشرق فتسود انواع من المناخ جافة في معظمها. فعلى هضبة اليمن يسود المناخ. لطيف جاف الشتاء ممطر الصيف، كما تسود انواع من المناخ شبيهة بمناخ البحر المتوسط على سفوح جبال تيان شان وعلى أجزاء محدودة من تاجيكستان وأزبكستان.

ومن وجهة نظر التأقلم، فإن انواع المناخ البارد يمكن أن تؤثر في الشعب القوقازاني من نهاية عصر البلايستوسين، ونحن نرى أثر هذه الاقلمة على وجه الخصوص في نسب اجسام شعوب، مثل: الروس، واللاب، وشعوب أقصى الشمال النرويجي. أما المناخ الجاف في الجنوب والشرق، ولاسيما في بلاد العرب فيوجد في الاقليم العريق الذي قطنه القوقازانيون منذ ظهروا. ومن ثم كان التأقلم مع الهواء الجاف وحرارة الصيف الجاف بصفة خاصة عاملاً هاماً في تطور الشعوب القوقازانية، مثل تلاؤم شعوب أخرى مع المناخ البارد والرطب والضوء الخافت. ومن ثم كان الاختلاف بين الانماط القوقازية التي تسكن شمال غرب أوروبا وشبه جزيرة العرب.

## الادلة الاثرية لوحدة القوقازانيين وتفرعهم

تعد صناعة الادوات إلى جانب اللغة أهم عامل من عوامل الثقافة. ويعتقد أنها اخترعت مع اختراع اللغة وفي نفس مستوى التطور. وقد بقيت الآلات وعمرت، لأنها ادوات ثقافة غير قابلة للبلى. وهذه الآلات تدل على

أنه خلال عصر البلايستوسين، كان يوجد في العالم القديم اقليمان اثريان كبيران: اقليم شرقي، واقليم غربي يفصلهما خط نسميه خط موفيوس Movius على اسم مكتشفه[1] (انظر خريطة ٣) وهو يمتد على طول السلاسل الجبلية الوسطى لآسيا حتى جبال البامير، ثم شرقاً على امتداد الجانب الحجري لجبال الهملايا، ثم جنوباً بموازاة حدود الهند وبورما حتى المحيط الهندي. ورغم أنه قد اخترق في بعض مناطق قليلة، ولبعض الاوقات القصيرة، فلقد ظل هذا الخط يفصل اقليمين متميزين من ناحية التطور الاثري على طول عصر البلايستوسين[2].

ولقد بدأت صناعة الادوات في كل من الاقليمين بالوسيلة البسيطة، وهي بفصل شظايا من قطعة الزلط، وتشكيل نويات الكوارتزيت والصوان، وفي بعض الاحيان خشب متحجر، بطريقة غير مصقولة إلى سواطير (آلات مشظاة من جانب واحد) وآلات قاطعة (مشطوفة من الناحيتين). غير أن هذه الصناعات بدأت تتميز في كل من الاقليمين خلال الفترة غير الجليدية الاولى أي منذ ١,٣٧٥,٠٠٠ إلى ١,٢٠٥,٠٠٠ عام مضت. ثم سار كل اقليم في طريقه الخاص منذ مليون سنة على الاقل[3].

---

(1) H. L. Movius, Jr.: Early Man and Pleistocence Stratigraphy in Southeast Asia, PMP. vol. 19; No. 3 (1944).

(2) Movius: “Old World Prehistory: Palaeolithic”, in A. L. Kroeber et al.: Anthropology Today (Chicago: University of Chicago Press 1953), pp. 163-92.

(٣) هذا التاريخ يعتمد على اريكسون وولين Ericson and Wollin انظر المرجعين السابقين.

جـدول يبين تاريخ البـلايستوسين

(عن د. ب. اريكسون و ج ولين)

| | ابتدأ منذ أعوام مضت | انتهي عن الوقت الحاضر |
|---|---|---|
| فرم – ويسكونسين الاساسي | ٦٥,٠٠٠ | ١١,٠٠٠ |
| فرم – ويسكونسين الاوسط | ٩٥,٠٠٠ | ٦٥,٠٠٠ |
| فرم – ويسكونسين المبكر | ١١٥,٠٠٠ | ٩٥,٠٠٠ |
| الفترة غير الجليدية الثالثة | ٣٤٠,٠٠٠ | ١١٥,٠٠٠ |
| رس – ايلينويسي | ٤٢٠,٠٠٠ | ٣٤٠,٠٠٠ |
| الفترة غير الجليدية الثانية | ١,٠٦٠,٠٠٠ | ٤٢٠,٠٠٠ |
| مندل – كإنسان | ١,٢٠٥,٠٠٠ | ١,٠٦٠,٠٠٠ |
| الفترة غير الجليدية الاولى | ١,٣٧٥,٠٠٠ | ١,٢٠٥,٠٠٠ |
| جنز – نبراسكا | ١,٥٠٠,٠٠٠ | ١,٣٧٥,٠٠٠ |
| فيلافرانشيا | ؟ | ١,٥٠٠,٠٠٠ |

ورغم أن آثار العصر الحجري القديم في أوروبا وغرب آسيا في غاية التعقيد، ومن المستحيل تلخيصها في صفحات قليلة، إلا أنه في وسعنا أن نقدم بعض الملاحظات العامة عنها. لقد كانت المواد المعدنية الرئيسية التي تصنع منها الادوات هي الكوارتزيت والصوان، ثم أصبح الصوان وحده تقريباً هو مادة الصناعة في الفترات الحجرية الاخيرة. وظهر الأوبسيدان أيضاً متأخراً، وكان منتشراً بصفة خاصة في أرمينيا. وشكلت العظام والقرون والعاج إلى ادوات في نهاية البلايستوسين.

ويمكن تقسيم الادوات الحجرية إلى تلك التي من النواة، وأخرى من الشظايا، وثالثة تمتاز بانتاج المدى، وبعض الادوات من هذه الاقسام كانت

تشظى وتصقل. وأقدم الآلات هي آلات النواة والشظايا البسيطة. ثم حلت آلات الشظايا في أثناء الفترة غير الجليدية الثالثة واوائل فترة الفرم الجليدية محل آلات النواة. وفي اواخر الفترة غير الجليدية الثانية ظهر اختراع جديد في صناعة الشظايا. فبدلاً من فصل الشظايا من النواة دون سابق اعداد، أصبح في وسع صانع الادوات أن يفصل الشظية المطلوبة بشكل معين من النواة بضربة واحدة محكمة. وهذا ما يسمى بصناعة الليفالوا. ثم صنعت الآلات الحادة بتعديل جديد لهذه الطريقة. وذلك بوضع قطعة عظم أو أي مادة أخرى مرنة بين قطعة الصوان والمطرقة. وقد بدأ ظهور هذه الادوات في اوائل عصر الفرم وتفوقت في العدد على ادوات الشظايا في اواخر هذا العصر.

وتكون هذه الادوات التي اكتشفت في مستوى واحد من موضع أثري وحدة متكاملة تسمى بصناعة. وقد وجدت كل صناعة تعرفنا عليها حتى الآن في أكثر من موضع في اقاليم نقب عنها الاثريون بكل عناية. ويتراوح نطاق كل صناعة تراوحاً كبيراً في المساحة.

ولقد تعاصرت صناعات مختلفة فى كل فترات عصر البلايستوسين كما بينا في الامثلة الواردة في الفصل الثاني. وقد استعارت بعض الصناعات المتعاصرة طرق الصناعة بعضها من بعض، واندثرت بعض هذه الطرق وظهرت طرق أخرى. إلا أن تتابع الصناعات المختلفة بشكل عام كان واحداً في كل من أوروبا وغرب آسيا، وكانت انماط بعض الصناعات واحدة في كل من الاقليمين، فيما عدا تعديلات طفيفة كلية. فلم تنفرد أي من أوروبا وغرب آسيا بانماط صناعية خاصة، ولكن التغيرات الضرورية المحلية كانت تحدث، ولاسيما في اواخر الفرم وبصفة خاصة في أوروبا.

ومنذ أول فترة غير جليدية حتى آخر فترة غير جليدية كان هناك

نمطان متعاصران من الصناعة يعيشان في وقت واحد، احدهما صناعة الشظايا والآخر صناعة الشظايا والنويات. بدأ النمط الاول مع الصناعة الكلاكتونية وتطور إلى القياسيانية. والنمط الثاني بدأ بالصناعة الابيفلية (الذي كان يسمى من قبل شيلية) وتطور إلى الاشيلية. وقد امتازت الصناعة الابيفلية الأشيلية بالفاس اليدوية والشظايا التي تختلف في صناعتها عن التطور الابيلفيلي الأشيلي. وقد اندمج هذان النمطان في أثناء آخر فترة غير جليدية وكونا مركباً حضارياً واحداً، عرف بعضه بالحضارة الموستيرية والآخر بالحضارة الموستيرية الليفالوازية، حسب النسبة المئوية من صناعة الشظايا التي انتجت بالطريقة الليفالوازية.

وقد استطعنا تعرف أربع صناعات مختلفة في أوروبا. بادت ثلاث منها، أما الرابعة التي يطلق عليها اسم الموستيرية والتي سارت على النسق الأشيلي فانها لم تحمل تقاليد صناعة الفاس اليدوية من الصناعة الأشيلية فقط، بل أنها تطورت إلى حضارة حجرية قديمة عليا محلية تعرف باسم الحضارة البريجوردية Perigordian قامت في جنوبي فرنسا وشمالي أسبانيا.

كما أن حضارة ليفالوازية موستيرية المحلية في غرب آسيا تعرف باسم الاميرة Emireh وتمتاز بصقل قاعدتي الاداة الحجرية، تطورت إلى حضارة حجرية قديمة عليا. وهذه هي الحضارة المعروفة جيداً باسم الحضارة الأورنياسية، والتي انتشرت إلى أوروبا. وقد تعاصرت في فرنسا وشمالي أسبانيا مع الحضارة البريجوردية فترة ثم حلت محلها. وفي اواخر الفرم تغلغلت حضارة من شمال إفريقيا إلى أسبانيا عن طريق جبل طارق. ونعرف هذا من العثور على آلات عاطرية Aterian مغربية تمتاز بتشظيتها من الجانبين في جنوبي أسبانيا. وهذا قد يوحي بتغلغل أثر افريقي من طلائع البوشمن Proto-Bushmen ودخول مورثاتها إلى غربي أوروبا في ذلك

الحين. أما الحضارة السولترية، وهي ذات صناعة مميزة تمتاز بالمدى الكبيرة المشظاة من الجانبين، فقد كانت تظهر وتختفي. وظهرت الحضارة المجدلية بجانب الحضارات الاخرى وما لبثت أن حلت محلها. وكانت هذه هي الحضارة التي ابدعت فن الكهوف، والتي استخدمت القرون والعظام والعاج استخداماً واسعاً. وقد عمرت أوجه مختلفة من الحضارة الأورنياسية في جنوب أوروبا وغرب آسيا حتى نهاية البلايستوسين، كما عمرت الحضارة المجدلية في غرب أوروبا.

ومع نهاية البلايستوسين تطورت كل من الحضارة المجدلية في أوروبا والأورنياسية في غرب آسيا إلى الحضارة الحجرية المتوسطة وهذه امتدت عرضاً حتى الاجزاء التي لم تكن مأهولة بالسكان من قبل في شمالي أوروبا، وشرقيها وغربي سيبيريا. وإن كانت بعد مواضع في سيبيريا أقدم من ذلك. وتشبه بعض مساكن وادي انجارا، في مالطة شمال غربي اركتسك بنحو ٨٠ كيلو متراً، ومساكن بوريت شمالاً عن ذلك بنحو ٥٠ كيلو متراً، مساكن القبائل المتحدثة بالأوجرية في الوقت الحاضر، في أنها تغوص في الأرض وتكاد تكون تحت أرضية. وكانت صناعتها في ذلك الحين صناعة حجرية عليا محلية الطابع، تحتفظ ببعض المظاهر الموستيرية وبعضها به شبه بالمظاهر السولترية. كما عثر على كثير من التماثيل النسوية الصغيرة.

ويضع س. س. شارد هذه المواضع التي لم يتم تأريخها بعد بطريقة الكربون ١٤، في نهاية الفرم، أي حوالي ١٠,٠٠٠ ق.م[١] أما ج. بوشنل و س. ماكبرني فيضعانها في تاريخ أقدم من هذا[٢].. و أ. ب. أو كلادنيكوف

(1) C. S. Chard: “New World Origins: A Reappraisal”, Antiquity, vol. 33, No. 129 (1959), pp. 44-9.

(2) G. Bushnell and C. McBurney: “New World Origins Seen from the Old”. Antiquity, vol. 33, No. 130 (1959), pp. 93-101.

الاثري الروسي المسئول عنها، فهو لا يضع تاريخاً محدداً لها، ويكتفي بربطها ثقافياً مع الغرب[1]. وعلى أية حال فقد تطورت هذه الثقافات على مراحل عديدة حتى وصلت إلى ثقافة العصر الحجري الحديث، وقد أمكن كشف اللثام عن التاريخ الاثري لشمال شرقي سيبيريا بعد اكتشاف عدة مواضع اثرية، ووجد أنها لم تكن مسكونة قبل ٢٥٠٠ ق.م. وهذا أمر يهم الباحثين عن أصل الهنود الامريكيين.

ان الادلة التي فحصناها في هذا الجزء تبين أن سكان أوروبا وغرب آسيا بصفة عامة حافظوا خلال عصر البلايستوسين على توازن بين العزلة الثقافية المحلية، والتطور الثقافي المتوازي مع تبادل في وسائل الصناعة، إن لم تكن في انماط الادوات الحجرية نفسها، وبين انتشار الثقافة انتشاراً عاماً واسعاً من وقت إلى آخر. وفي اواخر البلايستوسين انتشرت ثقافات غرب آسيا شرقاً وشمالاً حتى جنوبي سيبيريا. وهذا يتضمن امكانية التغاير المحلي في المورثات في داخل الوطن القوقازاني، مع وجود تدفق في المورثات بين اقاليم محلية، بحيث يعطي وحدة شاملة لشبه النوع القوقازاني، وتدفقاً في المورثات أيضاً بين هذا الوطن وبين غيره من الاقاليم في آسيا وإفريقيا، مما يحقق نفس الغرض - أي التجانس - بالنسبة للنوع البشري باكمله.

## ملخص التاريخ السلالي للقوقازانيين

لقد أمكن تتبع التطور الجسماني للسلالة القوقازانية في أوروبا بدرجات متفاوتة من الدقة منذ الفترة غير الجليدية الاولى - وقت العثور على فك هايدلبرج أو فك ماور - حتى آخر البلايستوسين. وسجل التطور أقصر في

(1) A. P. Okladnikov: Ancient Population of Siberia and its Cultures, RTPM, vol. 1, No. (1959).

غرب آسيا، فهو يبدأ بالفترة غير الجليدية الثانية. وربما أمكن التعمق أكبر من هذا في الماضي. ولم يوجد في غرب آسيا إلا نوعان فقط من شعوب العصر الحجري القديم بينما وجدنا في أوروبا ثلاثة أنواع متتابعة.

ولا حاجة بنا لكي نكرر ما فصلناه في كتاب - «أصل السلالات» الفصل الحادي عشر، ولكن هناك اضافات وتعديلات قائمة على كشوف حديثة لابد من تسجيلها، كما لابد من ربط بعض الهياكل البشرية بصناعات خاصة ربطاً أدق.

وقد عثر على جمجمة حفرية جديدة في أحد كهوف اليونان(١)، مقترنة بعظام حيوانات ولكن دون أن تكون معها أي آلات. واقترح لها عصر الفرم الأول تاريخاً مؤقتاً وهي ذات عظام حاجبين بارزة متصلة، وعظمة أنف مفلطحة عريضة، ومؤخرة جمجمة مسطحة. وهي تشبه جمجمة مونت سرسيو Mont Circeo شبهاً قوياً، كما تشبه جمجمة جبل اغود بالمغرب وجمجمة بروكن إلى حد ما. ويعتبرها أ. بوستونشي(٢) عضواً بدائياً جداً من فرع البحر المتوسط لفرع نياندرنتال.

أما الامر الآخر فهو أن آثار كرابينا Krapina التي عثر عليها في يوغوسلافيا كانت توضع من قبل في الفترة غير الجليدية الثالثة، أما الآن

---

(1) P. Kokkoros and A. Kanellis: "Découverte d'un erâne d'homme paliofithique dans la peninsule chalcidique", L'Anth. vol. 64, No. 5-6 (1961), pp. 438-46.

(2) E. Bostanci: An Examination of a Neanderthal type Fossil Skall Found in the Chalcidique Peninsula,"Belleten, vol. 28, No. 3 (1964). pp. 373-81. A. Kanellé and A. Sabba: Kranimetriké Molététou Hoam Neanderthalensis ton Petralénon (Thessaloniké: Aristoteleion Panepistémion, Thessalonikés, Physikomathematike, Scho'é, 1964).

فهي توضع في فترة جوتفيج Göttweig غير الجليدية التي تتوسط جليد الفـــرم الاعلى[١]. وهذا يجعلها جزء من مجموعة العصر الحجري القديم الاعلى، وهذا أمر معقول جداً، لأنها تشبه من أوجه كثيرة السكان الحاليين للمنطقة. فهم يشبهون الكروات الحاليين، اصحاب الرأس العريض.

وقد بدأ احياء الفكرة القديمة التي تقول أن القوقازانيين الذين عاشوا في أثناء العصر الحجري القديم الاعلى قد تطوروا تطوراً مباشراً من انسان نياندرتال في أوروبا وغرب آسيا أو كليهما، وذلك لاسباب ثلاثة[٢]. فـــمن المستحيل العصور على وطن تطور فيه القوقازانيون من العصر الحجري القديم الاسفل مباشرة إلى العصر الحجري القديم الاعلى، دون تدخل نوع نياندرتال ولاسيما بعد ظهور الاكتشافات الحديثة. كما أن الادلة تزداد تواردا على الاستمرار الثقافي بين الصناعات الموستيرية وصناعات العصر الحجري القديم الاعلى في اماكن عديدة. واخيراً فإنَ أسنان نوع نياندرتال وجماجمه وعظامه متفاوتة تفاوتاً كبيراً، وبعضها أقل اختلافاً عن جماجم العصر الحجري القديم الاعلى أكثر مما كنا نظن، بل أن بعض جماجم العصر الحجري القديم الاعلى ذات ملامح نيافدرتالية[٣](*).

---

(1) E. W. Guenther, "Zur Altersdatierung der diluvialen Fundstofie von Krapina in Kroatien:, BDGA, 6 Tagung (1959), pp. 202-9.

(2) C. L. Brace: "The Fate of the Classic Neanderthals: A consideration of Hominid Catastrophism", CA, vol. 5, No. 1, (1964), pp. 3-43.

(*) انظر مقدمة المترجم التي يعارض فيها هذه الفكرة. (المترجم)

(٣) لوحظ هذا في النموذج المخي لجمجمة كرومانيون.

V. I. Kochetkova: "Muliaj Mosgovoi Polosti Iskapaemovo Cheloveka Kro-Magnon III." TMOIP, vol. 14 (1964), pp. III-35.

وإننا لنجد من الصعب فحص هذه النقطة تشريحياً في فرنسا حيث تطورت الصناعة الموستيرية الأشيلية نحو صناعة البريجوردية السفلى، حيث لا توجد إلا جمجمة واحدة مؤكدة تنتمي لكل من هاتين الثقافتين وهي جمجمة بش دي لازيه Pech de l'Azé النياندرتالية وهيكل كومب كابل العظمى، وهو صاحب الثقافة البريجوردية، أما الجمجمة النياندرتالية الكلاسيكية التي اسهب في وصفها، فهي تنتمي إلى لاكينا لافراسي La Quina - La Ferrassie التي انقرضت. أما بقية عينات جماجم العصر الحجري القديم الاعلى التي استطاعت معرفة ثقافتها بدقة، فهي اما أوريناسية واما مجدلية. وتكفي جماجم بش دي لازيه وكومب كابل لاثبات أن المجدلية تطورت من الأوريناسية.

أما في غرب آسيا فإن مرحلة الانتقال بين الثقافة الموستيرية والثقافة الأوريناسية تبدو في موضع اسمه قصار عقيل في لبنان. ولايزال وصفه قيد النشر، وموضع آخر اسمه يبرود في سوريا، وقد اعيد حفره مرة أخرى. والادلة الحفرية – ومعظمها من جبل الكرمل – أوفر وأكثر وضوحاً[1] وليس في تأكيدنا اهمية هذين المثالين الدالين على تطور إنسان نياندرتال إلى إنسان فوقازاني في العصر الحجري القديم الاعلى، إننا نقول أن هذا التطور لم يحدث في مكان آخر.. فهو أمر من المحتمل أن يكون قد حدث في أكثر من مكان. وربما كانت شعوب الثقافة المجدلية في أوروبا، الذين ظهرت ثقافتهم في وقت لاحق لظهور الثقافة الاوريناسية منحدرين من شعوب سابقة عاشت في العصر الحجري القديم الاعلى، كما كانت شعوب الثقافة الحجرية الوسطى في شمالي أوروبا منحدرة من شعوب مجدلية الثقافة.

---

(1) Bordes: op. cit., pp. 803-10.

ومن المحتمل أن تكون شعوب العصر الحجري القديم النهائي، مثل التي وجدت هياكلها العظمية في كهف هوتو، قد تطورت إلى شعوب العصر الحجري المتوسط في منطقة واسعة من غرب آسيا تمتد من البوسفور حتى منابع نهر آموداريا[1]. وهكذا، تحركت جموع الصيادين والقناصين من أوروبا وغرب آسيا لتسكن المناطق التي ذاب عنها الجليد واصبحت صالحة للعمران في شمال شرق أوروبا وسيبيريا. وتؤيد الادلة الحفرية من الهياكل البشرية هذا الفرض، وتبين هذه الادلة أيضاً أن الاوروبيين الشماليين كانوا ينتشرون شمالاً وشرقاً، في حين كانت شعوب البحر المتوسط تتحرك شمالاً نحو فرنسا.

وأهم ثقافات العصر الحجري المتوسط في فلسطين هي الثقافة الناطوفية Natufian، وتدل الهياكل العظمية التي عثر عليها في مواضع مختلفة أن أصحاب هذه الثقافة كانوا أقرب إلى قصر القامة، يمتازون بالنحافة، يحملون صفات سلالية البحر المتوسط برأسها الطويل، ووجهها الضيق «المسكون» مثل كثير من العرب والاسبان والبرتغاليين الحاليين[2]. كما أنهم يشبهون بعض الدرافيديين في جنوبي الهند.

أما شعوب العصر الحجري المتوسط في الاطراف الشمالية لوطن القوقازانيين في غرب آسيا فقد كانوا أثقل بناء واضخم أسناناً، ولاسيما ما وجد في كهوف بلت وهوتو. وهكذا يمكن تمييز السلالة الشمالية وسلالة

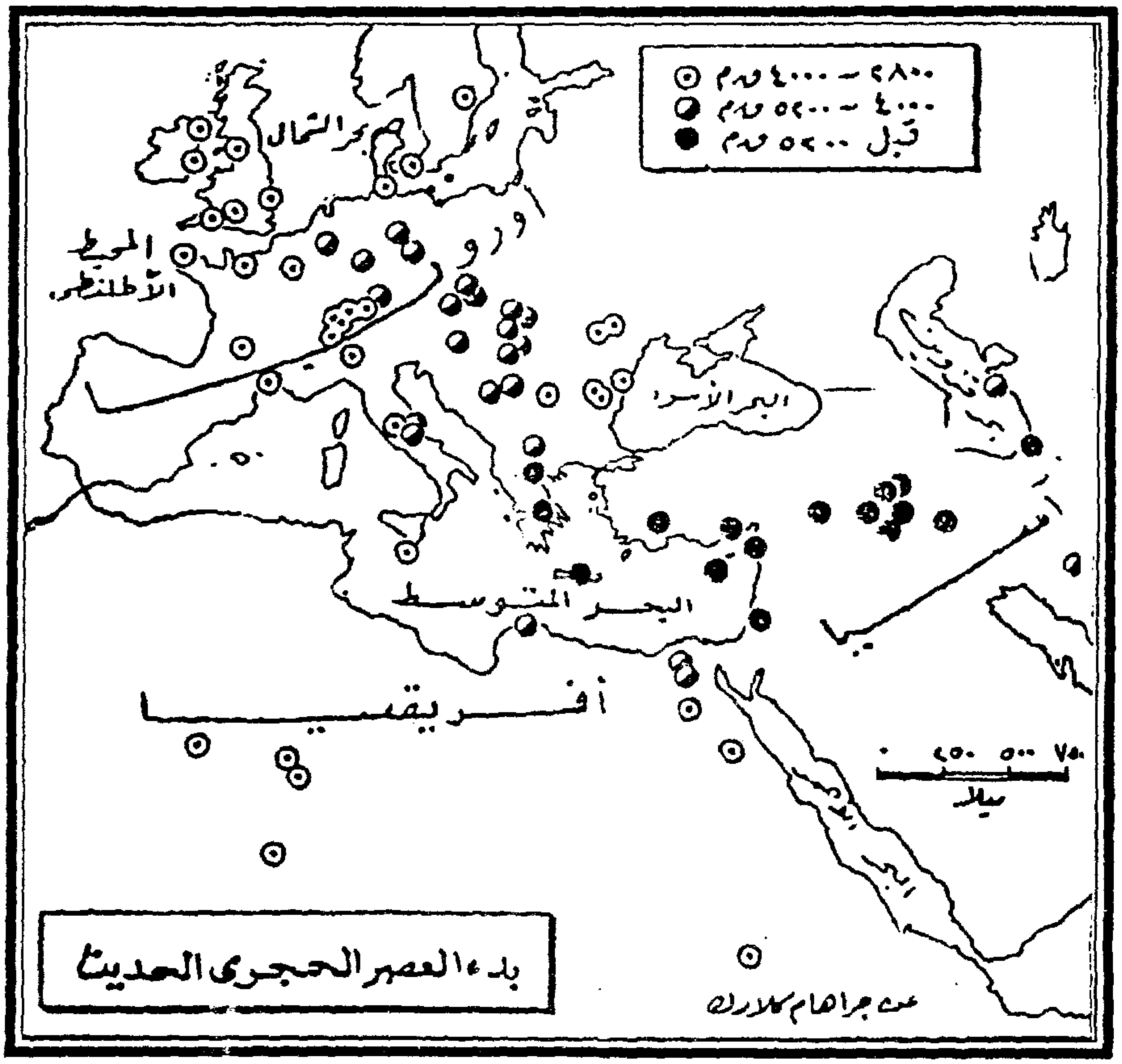
---

(1) T. D. McCown and Sir A. Keith: The Stone Age of Mount Carmel, vol. 2. (Oxford: Clarendon Press, 1939).

(2) J. L. Angel: "The Human Skeletal Remains from Hotu Cave, Iran", PAPS, vol. 96, No. 3 (1952), pp. 259-69.

(3) T. D. McCown: "Natuflan Crania from Mt. Carmel. Ph. D. Thesis, University of Calfornia, Berkely, 1940.

البحـر المتـوسط في كل من أوروبا وغـرب آسيـا خـلال العصـر الحـجـري المتوسط. لكن هل جاءت السلالة الشمالية من الغرب، أو الشرق، أو منهما معاً، فهذه نقطة جدلية لم يستقر عليها الرأي بعد[1].




---

(1) K. Kröste and J. P. Jorgensen: Prehistoric Man in Denmark, 2 vols. (Copenhagen: Einar Munksgaard Publishers; 1956).
انظر أيضاً «كوين» الذي عرض الكتاب في مجلة :
Antiquity, vol. 32. No. 127 (1958), pp. 207-8.

وقد تحدثنا بتفصيل عن التاريخ السلالي لأوروبا وغرب آسيا منذ ظهور الزراعة حوالي ٧٠٠٠ ق.م حتى الوقت الحالي في كتاب سلالات أوروبا[1]. ومنذ ظهور هذا الكتاب (أكثر من ربع قرن) نشر أوروبيون - من عدة اقطار أوروبية - دراسات شائقة عن هذا الموضوع، تغطي فترات زمنية متعددة، ما بين العصر الحجري الحديث حتى العصور الوسطى. وهذه الدراسات لم تضف جديداً، وإن كانت مفيدة من حيث التوثيق العلمي.

عندما دخلت الزراعة إلى وسط أوروبا وغربها، اتبعت طريقين: طريق الدانوب حتى منابعه ثم نهر الراين. وطريق سواحل البحر المتوسط إلى فرنسا، ومن ثم عبر بحر المانش إلى الجزر البريطانية. وكان المناخ على طول هذين الطريقين مناسباً لادخال نباتات غرب آسيا والحيوانات المستأنسة. (إذ لم يكن بعضها مستوطناً أوروبا من قبل). ولم يكن هناك داع لاستبدال أنواع جديدة بالانواع المحلية، وقلما اضطرت الظروف إلى ذلك عندما انتقلت نفس الزراعة إلى الصين والسودان. أي اقاليم المطر الصيفي. ولذلك انتشرت الزراعة بسرعة، ولم تستغرق أكثر من ١٧٠٠ سنة لكي تنشر من البحر الأسود (٦٢٢٠± ١٥٠ ق.م في مقدونيا) إلى بحر الشمال (٤٥٠٠ ± ١٠٠ ق.م. في هولندا)[2].

اجتازت الزراعة طريقين: احدهما شمال والآخر جنوب جبال الألب، وتقابلا عند التقاء اقليم الحشائش والأدغال باقليم التندرا في عصر البلايستوسين، وهو الآن الحد بين اللغات الجرمانية واللغات الرومانسية.

(1) Coon: The Races oif Europe.

(2) C. C. Lamberg - Karlovski: “Conceining Gimbutas, “The Indc-Europeans: Archaeological Problems”, AA, Vol. 66, No. 4, Part I (1964), pp. 887-9.

وكانت ثقافات العصر الحجري الحديث في حوض البحر المتوسط هي أول ما وصل إلى الجزر البريطانية. ولكن إلى أي حد تضمن هذا هجرات بشرية أو نقل ثقافة جديدة إلى شعوب أقدم فهذا أمر يصعب التحقق منه. وعلى أية حال فقد كانت هناك عدة ثقافات حجرية حديثة، وعدة تنوعات جسمانية في المانيا، دون أي ربط بين الثقافة والنمط الجسماني(١).

أما في أثناء ما تلا ذلك من تاريخ أوروبا، فقد لعبت التغيرات المناخية دوراً فعالاً في تحركات الشعوب. ففي أثناء فترات الشتاء المعتدل، كانت القبائل الجرمانية والكلتية ترعى ماشيتها على مدار السنة. وفي أثناء فترات المناخ القارس اصبحت المعيشة حافلة بالمخاطر. وتحركت شعوب وأمم باكملها جنوباً غازية فرنسا وأسبانيا والبرتغال وايطاليا واليونان بل وآسيا الصغرى وفلسطين، كما يعرف كل دارس لتاريخ أوروبا. واستقرت أيضاً شعوب شمالية في الجزر البريطانية على عدة موجات، بعضها في عصر ما قبل التاريخ، وبعدها في العصور التاريخية.

أما في الاجزاء الأجف من شرقي أوروبا ووسط غرب آسيا فقد كان العامل الهام هو درجة الجفاف وليس درجة الحرارة. فهنا كانت الشعوب الرعوية تضطر للحركة عندما تجف الاعشاب. فغزت ايران والعراق وافغانستان والهند والصين كما غزت غرب أوروبا. وأن أهم ما في هذا النقاش هو أن الأراضي التي كانت بالغة البرد بحيث يتعذر على الإنسان السكنى فيها خلال البلايستوسين اصبحت من الناحية المناخية غير ملائمة

(1) H. Grimm: "Neue Ergebnisse zur Authropologe des Mitteldeu schen Neolithikums", paper read at 7th International Congrcss for Anthropological and Ethnological Sciences, Moscow, August 3 - 10, 1964.

بعد ذوبان آخر جليد، وأن فترة محاولة اعادة التلاؤم مع بيئة غير جليدية وليست دافئة دفئاً كافياً - قد شهدت حركات سكانية بعيدة المدى. وأن هذه الحركات وحدت الشعوب القوقازانية إلى المدى الذي نراه اليوم، ومن أهم هذه الحركات غزو البحر المتوسط المتكرر من الشمال.

## الدراسات اللغوية وحركات الشعوب

يمكن تتبع حركات الشعوب بوسائل عديدة إلى جانب فحص الهياكل العظمية ودراسة الآثار. منها طريقة مقارنة اللغات الحية والميتة كما ذكرنا في الفصل التالي. وعلينا أن نتذكر في دراستنا أن اللغة ليست سوى مؤشر، وأنها لا يمكن أن تفسر العمليات الاحيائية التي تتشكل بها السلالات. ولكنها تستطيع أن تبين حركة الشعوب واتجاهاتها.

وإذا اتبعنا طريقة ج. ل. تراجر في تصنيف لغات العالم[1]، فــانـنا نستطيع أن نضع اللغات التي يتحدثها القوقازانيون تحت ثلاثة اقسام كبرى هي: القسم الهندي حيثي، والقسم الأورال الطائي، والقسم الأفرو آسيوي. إلى جانب ذلك هناك عدد من وحدات أصغر، يشمل الباسك، والقوقازية الجنوبية، والقوقازية الشمالية. أما الباسك فلغاته منعزلة، والقوقازية الجنوبية أسرة لغوية، وربما كانت القوقازية الشمالية أسرة أيضاً، أو أسرة كبرى، أو مجرد مجموع لغات متجاورة.

---

(1) G. L. Trager: "Languagos of the World", in Collier's Encyclopedia, 1964. ed. vol. 14; pp. 299-301.

لكي نكون محافظين ومعاصرين في آرائنا، ولغرض الاتساق الفكري، استخدمنا تقسيم تراجر في هذا الفصل والفصول الاربعة التالية، كما أننا استخدمنا تصنيف ميليه وكوهين A. Meillet and M. Cohen; Les Langues du Monde. والجدول المنشور في الاطلس السوفيتي Mui, 1968 وسنذكر أي مرجع آخر رجعنا اليه في موضعه.

ولم يبق من القسم الهندي حيثي سوى الاسرة الهند أوروبية الكبرى، وتضم القسم الأورال الطائي أسرة كبرى واحدة هي الأورالية، وتنقسم إلى اسرتين الفنية أوجرية واللغة السومرية وثلاث أسر أخرى هي التركية والمغولية والتونجوسية، أما اللغات الأفر آسيوية الخمس، فلا توجد منها إلا السامية فقط يتحدث بها خارج إفريقية، حيث ظهر هذا القسم اللغوي.

ولا علم لنا باللغات السامية قبل حوالي ٢٥٠٠ ق.م. عندما بدأ الأكاديون في كتابتها على ألواح مقلدين السومريين. وظهر القسم الهندي حيثي بعد ذلك بنحو ١٣٠٠ سنة، عندما غزا الحيثيون آسيا الصغرى قادمين من أوروبا ولا يعرف القسم الأورال الطائي بأي قدر من الثقة قبل العصر الميلادي. وقد كتبت لغات عديدة ظهرت وبادت في آسيا الصغرى والعراق بالخط المسماري. وهذه اللغات بدأت بالسومرية، ثم بادخال الابجدية الفنيقية والاغريقية. وليس للسومرية مثيل أو ممثل لغوي تعرفه، وليس هذا بمستغرب، حيث لا توجد لغة مكتوبة أخرى تعاصرها. وكذلك الميلامية لغة منعزلة، كان يتحدث بها في جنوب غرب ايران، ويتحدث بها الحوريون في زاجروس الشمالية. وقد أثرت لغة الحاتي في الحيثية، ولغة الهالد في الأرمينية. وقد أخذت بعض الشعوب في غرب آسيا الحروف الاغريقية، فيما بعد، ومن هذه الشعوب اللوكيون والليديون والكاريون والبيديون ولم تترك هذه الشعوب سوى نقوش قليلة مبعثرة لا تكفي للتحليل اللغوي، ولكنها لم تكن بالحروف الإفريقية.

ومن اللغات القديمة غير الاغريقية اللغة الكريتية (الخطى أ وليس ب، وقد كان لساناً يونانياً). وبعض اللغات المحلية في قبرص، وهذه تمثلها نقوش كريتية مقرونة باليونانية، وكذلك اللغة الاترورية التي كانت منتشرة في

شمال ايطاليا، طبقاً لبعض الدارسين[١]. ومن المعروف أنه كانت هناك لغة أو لغتان منتشرتان في اليونان قبل وصول الاغريق. وقد نجد عنصراً غير هندي حيثي مندمجاً في لغة البكت Pictish الكلتية في اسكتلندا[٢] وأخيراً فلا تزال هناك لغة قديمة واحدة معمرة حتى الآن، هي لغة الباسك. وهذه اللغات غير الهندية حيثية تمتد من قبرص حتى اسكتلندا، وهي جميعاً قد بادت فيما عدا واحدة، وقد وضعت مؤقتاً في قسم يسمى لغات البحر المتوسط.

ولغة الباسك، واللغات البحر متوسطة المنقرضة التي تسمى باللغات الآسيانية Asianic، ولغات القوقاز ولغة مشابهة لها في بنيتها وهي البوروشاسكي يتحدث بها في أودية باكستان الشمالية الغربية النائية، تكون اسفيناً يفصل بين اللغات السامية في الجنوب الغربي، واللغات الهندية أوروبية، والأورالية الطائية في الشمال. وهي تكون اقليماً جغرافياً قديماً يوحد بين مرتفعات غرب آسيا وأوروبا، جنوب خط الصقيع الشتوي وغربه وشمالي شبه جزيرة العرب.

أما اللغات السامية، التي تفرعت من شبه جزيرة العرب فمتشابهة تشابهاً كبيراً، سواء كانت حية أو ميتة. وهذه الحقيقة تجعلنا نقول أنها غير قديمة في آسيا. وتنقسم هذه الاسرة إلى قسمين: قسم شرقي وآخر غربي، أما القسم

---

(١) اشتق ز. ما يأتي حديثاً اللغة الاتروربة من اللغة الايلليرية، وهي هندية حيثية، وتمثلها الآن اللغة الالبانية. وهو يوافق على أن اللغة الاتروربة قدمت من آسيات الصغرى.

Z. Mayant: Les Ẹtrusques Commencent à Parler (Paris; Arthaud; 1961).

وقد رفض ر. بلوش هذا التفسير في عرضه لهذا الكتاب في مجلة :

Antiquity, vol. 37. No. 147, 1963, p. 233.

(2) K. H. jackson: "The Pictish Language", Chap. 6 and App. in F. T. Wainwright, ed.: The Problem of the Picts (New York: Pintosophical Lib. 1956) pp. 129-66.

الشرقي فيتكون من الأكادية والأشورية والبابلية التي اشتقت منها في حين يتفرع الفرع الغربي إلى: سامية شمالية، وسامية جنوبية، السامية الشمالية تشمل الكنعانية والآرامية. وتضم الكنعانية كلاً من العبرية والفينيقية(١). وتشمل السامية الجنوبية لغة واحدة فقط هي الآرامية. وقد احييت اللغة العبرية في فلسطين المحتلة لغة للكلام. وتظهر الآرامية الحديثة في قريتين تقعان في شمال سوريا، وبين المسيحيين النساطرة الذين يقطنون اقليم الرضائية في شمال غرب ايران وما يجاورها في العراق. واللغة السامية الجنوبية الغربية تتكون من العربية وثلاث لغات عربية جنوبية يتحدث بها في ظفار وجزر أسقطرة.

وقد ظهرت عدة نظريات نتيجة دراسة اللغات الهندية حيثية منذ أكثر من قرن. منها نظرية تراجر التي تقول أن المتحدثين بهذه اللغة كانوا يقطنون جنوب روسيا الاوسط حوالي عام ٣٥٠٠ق.م. أي في أثناء العصر الحجري الحديث. وقد غادرت مجموعة من الناس هذا الوطن واتجهت نحو الجنوب الشرقي قبل عام ٢٥٠٠ ق.م. ووصلت إلى آسيا الصغرى، وانتجت الاسرة الكبرى. التي تسمى بالهندية أوروبية، والتي يعتبرها بعض الدارسين قسماً لغوياً قائماً بذاته.

وطبقاً لهذه النظرية انفصل اسلاف المتحدثين بالأرمينية والهندية ايرانية والاغريقية من جنوب روسيا الاوسط حوالي عام ٢٣٠٠ق.م و ٢٠٠٠ ق.م على دفعات متقاربة. وتركت في الوطن الاصلي ما يسمى بالاسرة الاوروبية الكبرى. أما اللغات الايطالية والكلتية فقد حملت غرباً وجنوباً، تاركة الجرمانية والبلطية صقلبية. ثم هاجر المتحدثون بالجرمانية غرباً

---

(١) مضاف اليها الأوجرية، التي عرفت من موضع واحد فقط.

وشمالاً، ثم غادر المتحدثون البلطية الصقالية، الذين ظلوا وحدهم في الوطن القديم.

وهناك نظرية أخرى تعتمد على تعرف اسماء النبات والحيوان في الاماكن الهندية أوروبية القديمة. وهذه النظرية ترى أن الوطن الاصلي لهذه الاسرة هو شمال أوروبا في الاقليم الذي يصرف مياهه أنهار البية واودور والراين(1). والكلمات التي اعتبرت مفتاحاً جغرافياً هي: زان Beech وسلامون Salmon وسلحفاة Turtle فالزان لا ينمو شرقي خط يمتد من كالييننجراد إلى أوروبا. والسلامون لا يعيش إلا في هذه الأنهار الثلاثة، كما لا توجد سلاحف شمالي المانيا.

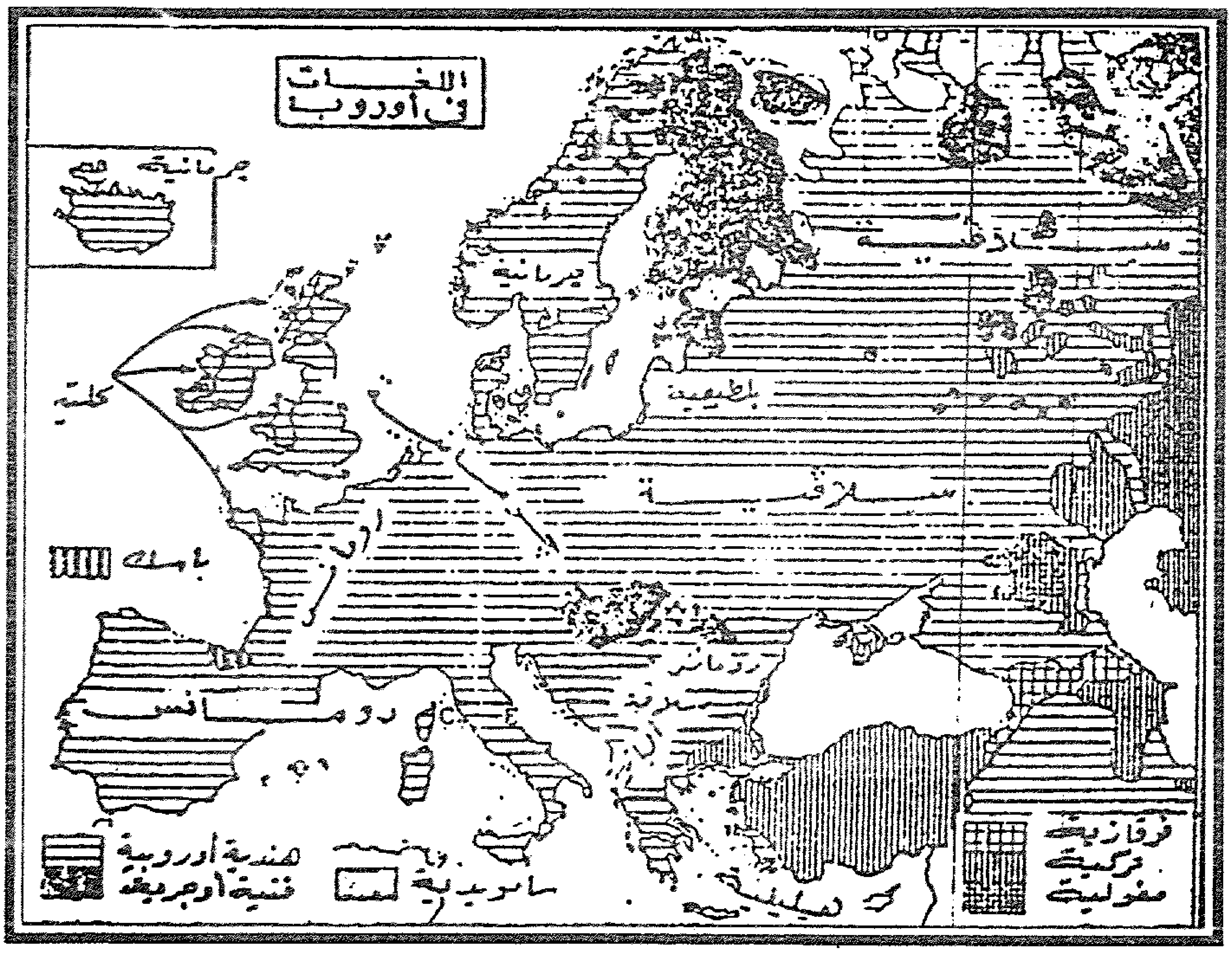
وتبين هذه الدراسة أيضاً أن الشعوب المتحدثة بلغات هندية أوروبية كانت تعرف: الذهب، والعصا المعقوفة Hoes، والخنازير، والماشية، والأغنام، والماعز، والعربات، والعجلات، وربما الخيل.

وهذه الكلمات تدل على عصر حجري حديث متأخر، أو عصر برونزي مبكر في هذه المنطقة، أي في وقت لا يبعد عن ٢٥٠٠ ق.م. وإذا صح هذا التفسير فإنه لا يعني أن اللغات الهندية أوروبية لا يزيد عمرها على ٤٥٠٠ سنة، أو أن هذه الشعوب اخترعت الزراعة والعجلة وصناعة المعدن، وإنما تدل على أن الشعوب العديدة التي تتحدث هذه اللغات، والتي حملت لغاتها إلى اجزاء عديدة من المعمورة، لم تبدأ في الظهور إلا بعد أن عرفت الزراعة من مركز يبعد عن موطنها شرقاً. وقد وصلت هذه الشعوب حتى تركستان الصينية. حيث كانت الهندية أوروبية لا تزال موجودة في العصر البوذي،

---

(1) P. Thieme: "The Indo-European Language", SA. Vol. 199, No. 4 (1958) pp. 83-74.

قبل أن تحل التركية محلها، وأن بعضها ساقت عجلاتها عبر جبال هندوكوش إلى الهند.




**اللغات الأورالية الطائية**

لا يعترف اللغويون المحافظون بأن اللغات الأورالية وما يسمى بالطائية تكون قسماً لغوياً. في حين يقر لغويون بهذا ويعتبرونه حقيقة مفروغاً منها.. أما النظرية المحافظة فترى أن اللغة الأورالية أسرة كبرى ينطوي تحتها لغتان هي الفينواوجرية والساموید. أما الجزء الألطائي فيتكون من ثلاث أسر لغوية أخرى: التركية، والمغولية، والتنجوسية. وهي وثيقة الوشائج بعضها ببعض. واللغة الأورالية أوروبية، على حين أن اللغة الالطائية وسط آسيوية الاصل. أما أي لغة أخرى كان يتحدث بها الناس الذين كانوا يعيشون في اقليم الغابات الفاصل بين نطاق هاتين اللغتين، فشيء غير معروف.

وفي عهد متأخر يصل إلى بدء التاريخ الميلادي، كانت اللغات الأورالية تكون كتلة تعيش فى غابات روسيا شمالي اقليم الاستبس وغربي الأورال. ولما كانت هذه لا تزال اقليم تفرعها إلى أقصى حد؛ فإن العلماء يرون أن هذه الغابات كانت أقدم وطن أصلي يمكن معرفته لهذه اللغات. وكان من اوائل الشعوب التي غادرت هذا الوطن هم الساموييد، أو من يتحدث لغتهم. ويعيش الآن الساموييد على القنص، وصيد السمك، ويرعون الرنة في فياف واسعة في سيبيريا الغربية. ثم تبعتهم عبر الأورال شعوب الاوستياك والفوجول، الذين عسكروا على ضفاف نهر الأوب الاعلى حوالي ١٠٠٠م.

وربما كان اسلاف اللاب اللغويون هم أول من غادر هذا الوطن الاصلي غرباً وشمالاً. وتبعهم اسلاف الفن، والاست، والليف، والقبائل الفنية حول لبننجراد والكاريليين وربما لم تبدأ هذه الهجرات قبل عام ٥٠٠م، نتيجة لضغط الهون وبدء تحرك الصقالبة شرقاً وضغطهم على هذه الشعوب وتغلغلهم في وطن الشعوب المتحدثة بالأوجرية، ولا يزال باقياً في هذا الوطن الاصلي بعض الشعوب مثل الشيريميس والموردفان، التي تعيش في جيوب منعزلة وسط الروس والتتار المتحدثين بالتركية.

وفي القرن الخامس الميلادي، تحت ضغط الهون، بدأ تحرك البلغار المتحدثين بالأوجرية جنوباً، حتى وصلوا إلى بلغاريا حيث اخذوا اللغة الصقلبية، وفي القرن التاسع هاجر المجر المتحدثون بالأوجرية إلى هنغاريا تحت قيادة تركية. وفي الوقت الذي كان فيه ليف اركسون يكتشف أمريكا الشمالية، كانت الشعوب المتحدثة بالأورالية تصل إلى مواضعها الحالية في سيبيريا وأوروبا.

أما عن بقية الاسر الأورالية الطائية، فإن لغة التونجوس لا تعنينا في هذا الفصل، كما لا تعنينا اللغات المغولية، إلا في حالة القلمق البوذيين الذين

يتحدثون المغولية، والذين استقروا في القرن الثامن عشر على الضفة الغربية لنهر الفولجا الادنى في روسيا، وحيث لا يزال بعضهم يعيش. وقد عاد بعضهم مرة أخرى لجبال الطاي، وهاجر آخرون إلى باراجواي وفيلادليفيا وبنسلفانيا ومدفورد ونيوجرسي. وتتناثر اللغة المغولية أيضاً في قرى مبعثرة في شمال شرق ايران وشمال غرب افغانستان، ويسمى من يتحدثها بشحر الماق Chahar Aimak.

أما اللغة التركية فتعنينا هنا، إذ يتحدث بها في أجزاء عديدة من شرقي أوروبا من البوسنة حتى القرم، ثم شمالاً إلى المستوطنات التتارية في شرقي روسيا وفي جمهورية تركيا، كما تتحدث بها بعض قبائل بدوية ونصف بدوية، في العراق وايران، وشعوب وسط آسيا كلها من بحر قزوين حتى الصين.

وقد عرفت اللغة التركية أول مرة من نقوش ترجع إلى القرن الثامن الميلادي، في جبال الطاي، وهي من سلاسل وسط اسيا الجبلية، وفي اقليم بارد مغطى بالغابات يربط بين التايجا السيبيرية وهضبة التبت المتجمدة. وهذا الاقليم – على قدر علمنا حتى الآن – هو الوطن التركي، الذي انبعث منه الاتراك التاريخيون، عندما بشرهم العرب والفرس بالاسلام في تركستان الروسية، وحملوا دينهم الجديد بحماسة فى نطاق أوسع مما حمله إليه معلموهم.

جدول يبين بعض اسماء الشعوب الفنية أوجرية في أوروبا وسيبيريا الغربية بالروسية والانجليزية والعربية

| العربية | الانجليزية | الروسية |
|---|---|---|
| ١- المجموعة الفنية | | |
| الفن | Finns | Finni |
| الكاريليون | Karelians | Kareli |
| الاستونيون | Esths | Estontsi |
| اللفيون | Livs | Livi |
| الايوريون | Ijores | Ijortsi |
| الفيبيون | Veps | Vepsi |
| اللاب | Lapps | Saami |
| الزيريون | Zyrians | Komi |
| الفودياك | Votyaks | Udmurti |
| الشيرميس | Cheremisses | Mariitsi |
| الموردفان | Mordvins | Mordva |
| ٢- المجموعة الأوجرية | | |
| المجر | Magyars | Vengeri |
| الأوستياك | Ostyaks | Khanti |
| الفوجول | Voguls | Mansi |
| ٣- المجموعة السامويدية | | |
| السامويد | Samoyds | Nentsi |
| من شبه جزيرة كنين حتى نهر ينسي السامويد | | |
| في حوض ينسي الاسفل Entsi | | |
| السامويد في شبه جزيرة تيمور | | Ngansani |
| السامويد الأوستياك | | Selkupi |
| في حوض أوب ينسي الأعلى | | |

(*) رغم أن لغة اللاب تحتوي على كلمات فنيةكثيرة، فإن بعض المؤلفين يعتبرها من اللغات الأوجرية.

## الاوروبيون الحاليون

رغم الاختلاف اللغوي بين الاوروبيين - وهو نتيجة احداث تاريخية طويلة - فإن الاوروبيين جميعاً تربطهم رابطة سلالة واحدة إلى حد كبير. وإذا اغفلنا الملابس والعادات وطرق قص الشعر وغيرها من السمات الثقافية فمن العسير على المرء أن يميز بالضبط القطر الذي أتى منه أى أوروبي وكذلك الحال لو أخذنا الامريكيين من الجيل الثالث أو الرابع، سواء كان أصله انجليزياً أو اغريقياً. ولو فحصنا الصفات غير المرئية التي تحملها المورثات مثل فصائل الدم، أو القدرة على تذوق الكيمائيات المرة PTC فاننا أيضاً لا

نستطيع أن نصل إلى نتيجة. ويمكن بواسطة بعض المورثات القليلة التي تحمل امراضاً معينة مثل مورث الخلية المنجلية Sickle-cell أو غيرها من التي تحمل مرض الأنيميا الذي تنكسر فيه كرات الدم الحمراء، والمعروفة باسم ثلاسيميا Thallassemias من أن نضيق دائرة البحث بحيث يمكن معرفة قطر أو قطرين فيهما مرض الملاريا.

وليست صعوبة تعرف القوميات الاوروبية راجعة إلى قلة المعلومات. فلقد كتب عن الانثروبولوجيا الطبيعية لشعوب أوروبا أكثر مما كتب عن أي شعوب أي اقليم آخر في مساحة أوروبا. وكان الالمان والاسكنديناقيون والسويسريون والبولنديون والروس أكثر نشاطاً بصفة خاصة في دراسة التنوع السلالي في اقطارهم، مقاطعة مقاطعة، وقرية قرية، بل وحرفة حرفة. وقد استطاع و. ز. ريلي(1) عام ١٨٩٩ – وهو أحد الاوروبيين الاوائل الذين صنفوا الاوروبيين على أساس اقتران عدة صفات – أن يسمى ثلاث سلالات اوروبية، هي: السلالة الشمالية أو النوردية، والألبية، وسلالة البحر المتوسط – وقد ظلت هذه التسميات منذ ذلك الحين. وبعد عام اخرج ج. دنكر De-niker قائمة بست سلالات(2) واتفق مع ريلي على السلالاة الشمالية، ولكنه استبدل بالسلالة الألبية ثلاث سلالات أخرى هي: الاوروبيون الغربيون، والاوروبيون الشرقيون، والسلالة الايبيرية. ولم يزد من أتى بعدهما على أنه تحسين هذين التصنيفين(3).

---

(1) W. Z. Ripley: The Races of Europe (New York: Appleton; 1899).

(2) J. Deniker: The Races of Man (New York; Charles Scribner; 1900.

(١) يستطيع القارئ المهتم أن يجد هذه القوائم موصوفة في الكتب الآتية :

E. von Eikstedt Bassenkunde un Ras sengeschichte der

ويميل معظم الانثروبولوجيين الطبيعيين في الوقت الحاضر إلى نبذ هذه السلالات الفرعية، لأنها تذكرهم بنشاط هتلر من ناحية (وليس هذا بأساس سليم)، ولأنها استخدمت لوصف أفراد منتقين تظهر فيهم هذه الصفات المتطرفة، وليس لوصف مجموعات سكانية من ناحية أخرى ولكننا على حق إذا تحدثنا مثلاً عن سكان شمال غرب أوروبا بوصفهم مجموعة تمتاز بالقامة الطويلة. وباعلى نسبة من الشقرة في العالم، دون أن يعني هذا أن كل فرد هناك طويل، أو أشقر، أو كلاهما. كما أن شعوب وسط أوروبا يمكن أن توسم بالرأس العريض، وهي صفة شائعة بينها. دون أن يكون معنى هذا أن كل فرد منها ألبي بالمعنى الذي اطلقه ريلي. والواقع أن الشيء المشترك الوحيد بين كل السلالة «الألبية» هي الرأس العريض. وهي صفة تظهر وتختفي بين المجموعات السكانية من وقت إلى آخر لسبب لا نعرفه(1). باختصار ليس هناك سبب علمي يمنع أى شخص لا يريد أن يستخدم تعبيرات محددة لمجموعات سكانية ويميز بعضها عن البعض الآخر، أي لا يريد أن يتقيد بالاقسام السلالية داخل النوع الكبير، مادام يتحدث عن متوسطات وليس عن انماط محددة بدقة، وإذا أراد أيضاً أن يبين كيف يندمج مثل هؤلاء السكان بالتدريج في جيرانهم.

---

= Menschheit (Stuttggart; Gustav Fischer Verlag; 1934). Coon: The Races of Europe. E. W. Count. This is Race (New York; Henry Schuman; 1950). R. Biasutti: Razze e'Papoli della Terra, 2 nd. ed. (^orino: VTET; 1959), 4 vol. S. J. Comas: Manual of Physical Anthropology (Sprin gfield, Ill: Charles Thomas & Co. 1960).

(1) G. Billy: "Race Alpine et Type Alpine", paper read at the 7th International Congress of Anthropoligical and Ethnological Seionces, Moscow August 3-10, 1964.

وإذا حاولنا أن نصف التنوعات الجسمانية التي يوجد عليها الأوروبيون باختصار، فإنه ينبغي أن نتناولها صفة صفة وليس مجموعة سكانية فأخرى. حيث أن هناك وحدة سلالية اساسية تربط الأوروبيين جميعاً، وحيث لا يوجد فسيفساء شعوبية (اثنولوجية) مثل تلك التي توجد في اجزاء أخرى من العالم. ولكنا مثلاً نجد أطول الناس في اسكتلندا وايسلندا واسكنديناوة والاقليم البلطي الشرقي والبلقان، ولاسيما سكان الجبل الأسود وألبانيا. بمعنى آخر أن القامة الطويلة تمتد على محور بحري يجري على الجانب البارد من خط الصقيع، ويتفق شيئاً ما مع خط الحرارة المتساوي ١٥°ف في يناير. ويقل طول القامة جنوبي هذا الخط وغربيه. حتى نصل إلى البرتغال وجنوبي أسبانيا وجنوبي ايطاليا. كما يقل طول القامة أيضاً شمال وشرق هذا الخط كلما تقدمنا نحو النرويج والأورال. ومن ناحية البناء الجسماني نجد أنحف الأجسام في حوض البحر المتوسط. في حين تثقل أجسام الشعوب التي تقع شرقي خط أطول الأجسام. ويمكن - كما سنرى من بعد - أن تفسر الاختلافات في طول القامة وبنية الجسم إلى حد ما على أساس مناخي.

والأوروبيون، بالمقارنة مع سكان انحاء العالم الآخرين، يغطي أجسامهم الشعر الكثيف، وأكثر الأجسام شعراً توجد في الاقاليم الألبية، واقلها في أوروبا الشرقية. ولاسيما بين الذين اختلطوا بالمغولانيين. ويتراوح شكل الشعر عند الأوروبيين من المجعد، إلى المموج، إلى المستقيم. ولكن الغالبية ذات شعر مستقيم. ويكثر الشعر المجعد في شعوب البحر المتوسط وغرب أوروبا، وأقل ما يمكن في الشرق. غير أن هذه الاختلافات ليست كبيرة.

ومعظم الأوروبيين ذوو بشرة فاتحة، وأشد البشرات نصاعة في الشمال الغربي من أوروبا شرقي البحر البلطي. وأشدها سمرة في البرتغال وجنوبي أسبانيا وجنوبي ايطاليا ورومانيا. ويجب أن تفرق بين البشرة البيضاء التي

تسمر بسرعة وبين تلك التي تحترق وتقرب إلى السمرة إذا تعرضت لأشعة الشمس القوية. وهذه توجد في شمال غرب أوروبا.

من أهم صفات الأوروبيين ارتفاع نسبة الشقرة بينهم. إلا أنه لا يوجد سكان أوروبيون شقر تماماً. كما أن كثيراً من الأطفال يولدون شقراً، ثم تصبح جلودهم سمراء بعد ذلك. وهناك سويديون شعرهم أسود، كما يوجد شقر في كل من الاقليمين. والشقر نفسها تتراوح بين الشقرة الذهبية ذات اللون الضارب إلى الحمرة إلى الشقرة الرمادية التي تنتهي إلى اللون الرمادي: ويتركز اللون الأشقر الذهبي في اسكنديناوة وشمال غرب المانيا والأراضي(١) المنخفضة والجزر البريطانية. في حين ينتشر اللون الأشقر الرمادي بين الفن والصقالبة الشماليين. ومثل هذا التقسيم يوجد في لون العين، فيتوزع لون العين الأزرق، أو العيون الفاتحة اللون في نفس مناطق الشقرة الذهبية. أما العيون الرمادية فتوزع في نفس مناطق الشقرة الرمادية. ويبدو أن فقدان الصبغة الملونة – نتيجة لأشعة الشمس الضعيفة – قد اتخذت مظاهر مختلفة بالنسبة للون البشرة، ولون الشعر، ولون العين. وأن توزيع هذه الصفات تتداخل بعضها في بعض. ويقع مركز شقرة الشعر في الشرق، في السويد وفنلندا ودول البحر البلطي وبولندا. ونتيجة لذلك فإننا غالباً ما نرى ايرلندياً أسود الشعر أزرق العينين، وبولندياً بني العين أشقر الشعر.

وأكثر الصفات اجتذاباً لعناية الباحثين في الكتابات الأوروبية هي صفة النسبة الرأسية، النسبة بين طول الرأس وعرضه. وهذه النسبة – تتراوح بين ٧٨، ٨٥ مرتفعة نسبياً إذا قورنت بأرقام مختلف أنحاء العالم. فالأوروبيون بمعنى آخر متوسطو الرأس، أو دون الرأس العريض. وتقتصر صفة الرأس الطويل في أجزاء من السويد والنرويج وبريطانيا وأسبانيا وجميع البرتغال وسردينيا وكورسيكا. بمعنى آخر تتوزع بين بعض الشعوب الاكثر شقرة،

---

(١) هولندا حالياً.

والاكثر سمرة، وبين أطول الشعوب واقصرها. ولا ترابط بين لون البشرة أو طول القامة، أو شكل الرأس بعضها والبعض الآخر سوى مصادفة التوزيع الجغرافي.

وصفة الرأس المبالغ في العرض، أي نسبة ٨٥ وما فوقها، ليست في كثير من الحالات مما تحمله المورثات فقط. فالأطفال في ألبانيا والجبل الأسود يحملون في مهود مستطيلة، ويوثقون في ظهورهم أمهاتهم. ويربط الطفل عادة من كتفيه ووسطه ولا يستطيع تحريك رأسه. ومن ثم فإنه يتفلطح من مؤخرته. وتظل هذه الفلطحة بقية حياته، مما يعطي الرأس هذا الشكل المستدير. وقد ظن المصنفون القدماء أن هذه سلالة عريضة الرأس. وقد أطلق دنكر على هذه السلالة اسم السلالة الدينارية، ووصفها بالقامة الطويلة، والأنف المعقوف، والرأس المفلطح المؤخرة، العريض، رغم أن هذه الفلطحة اصطناعية وليست طبيعية، ونحن نقول هذا لأن الأبناء الذين ولدوا في الولايات المتحدة – حيث لا يحمل الأطفال بهذه الطريقة – يفقدون هذه الصفة الرأسية(١).

وترجع صفة الرأس العريض في أوروبا إلى ما لا يقل عن ٣٠,٠٠٠ سنة، كما يبدو من الجماجم التي وجدت في كرابينا في كرواتيا. وقد ظهر من دراسة جماجم جمعت من عدة جبانات متلاحقة في أوروبا تناوب بين صفتي الرأس الطويل والرأس العريض. وقد فسر هذا التناوب بحدوث هجرات متتالية من أصحاب الرأس الطويل وأصحاب الرأس العريض، كان بعضها يحل محل البعض الآخر. ولكن هذا ليس ضرورياً.. ففي بولندا – ما بين جبال الكربات والبحر البلطي، وفي اقليم يمتاز بالاستقرار والاستمرار

(1) Coon: The Mountains of Giants, PMP, vol. 23, No. 3 (1950).

الانثولوجي – ارتفعت النسبة الرأسية من ٧٤ إلى ٨٤ منذ عام ١٣٠٠م، أي خلال ثلاثين جيلاً. وقد بين ت. بيليكي وز. ويلون أن هذا التغير يرجع إلى وجود ميزة انتقائية أو انتخابية للنسبة الرأسية التي تقع بين ٨٠,٥ – ٨٣,٥. وأن الأشخاص الذين يتصفون بهذه الصفة، أي الرأس المتوسط، لهم من الأخوة والأخوات أكثر مما للأشخاص الاعرض رأساً، وأن هؤلاء الاخيرين لهم أيضاً أخوة وأخوات أكثر من الأشخاص أصحاب الرأس الطويل، (أقل من ٨٠,٥)(٢). ولكن لماذا يفضل الانتخاب الطبيعي في بولندا الرأس العريض على الرأس الطويل، فهذا ما لا نعرفه.

ولم يلحق شكل الوجه بشكل الرأس في وسط أوروبا. فشكل الوجه على قدر ما نعلم – لم يتغير.. فللأوروبيون عامة وجوه معتدلة الطول، معتدلة الضيق، في حين أن لهم اشكال أنوف عدة.. والوجه المسطح أندر ما يكون بينهم، بالنسبة لبقية سكان العالم. وتوجد وجوه عريضة، وأنوف مقعرة ذات أرنبة منخفضة في كثير من المجموعات السكانية في أوروبا، ولكنها أكثر شيوعاً في شرق أوروبا عنهافي حوض البحر المتوسط، وفي الاجزاء الابرد والاكثر مطراً، منها في الاجزاء الاجف والادفأ. وقد يعزي وجود الأنف المقعر ذي الارنبة المنخفضة في الاجزاء الابرد من أوروبا كاستجابة للمناخ، أو لعدم وجود انتخاب طبيعي، أكثر من أن يعزي إلى اختلاف باكولانين، رغم أن هذا الاحتمال الاخير لم يستبعد. وسنجد علاقة أقوى بين شكل الأنف والمناخ عندما ندرس بلاد العرب.

---

(1) T. Bielicki and Z. Welon: "The Operations of Natural Selections on Human Head Form in an East European Population" Homo vol. 15, No. 3 (1964), pp. 22-30.

## المؤثرات الزنجانية فى أوروبا

كتب الكثير عن تأثير التسلل الزنجاني إلى حوض البحر المتوسط، وعن تغلغل المورثات المغولانية في وسط أوروبا وشرقها. وهذان امران مغالى فيهما. والواقع أن العكس هو الصحيح.. فالأوروبيون وسكان غرب آسيا هم الذين تغلغلوا أكثر بكثير في إفريقيا وشرق آسيا.

وقد احتل المغاربة - أي العرب والبربر - جزءاً كبيراً من أسبانيا والبرتغال أكثر، من سبعة قرون، كما احتل العرب صقلية فترة من الزمن. وكل من العرب والبربر قوقازاني، ولكنهم جلبوا عدداً من الرقيق الزنجي معهم. وكان للرومان أيضاً عبيد من الزنوج، كما أدخل البرتغاليون اليد العاملة الزنجية وعمال الأرض الزنوج بعد خروج المغاربة من بلادهم. ولا ريب من وجود عنصر زنجي في أقطار البحر المتوسط، بل في أقطار البحر الأسود. وإلا فكيف نفسر وجود الخلية المنجلية Sickle-cell في اليونان وإيطاليا أو صفة ريوس Rh الإفريقية في مورثات شرق أوروبا؟ ولكن هذا المورث لا يظهر بشكل ملحوظ في معظم فصائل الدم الأوروبية. كما لا تظهر الصفات الإفريقية في ملامح الأوروبيين.

## المؤثرات المغولانية في أوروبا

من الممكن تعرف عدد من الشعوب ذات أصول ترجع إلى شرق أوروبا وشرقياً منذ الألف الاخير لاتزال تعيش في أوروبا بوصفها وحدات اثنولوجية (شعوبية) متميزة. وهي تمتاز بلغة خاصة، أو دين خاص، أو غيرهما من المميزات الثقافية. وتشمل هذه الشعوب بصفة خاصة القلمق البوذيين الذين لا يختلفون جسمانياً عن أقربائهم في منغوليا، وهناك أيضاً جماعات عديدة من التتار المسلمين وهم أتراك يتحدثون لغات تركية.

ولكن هناك غزاة آخرين خرجوا من آسيا، مثل: الهون والآفار، اسهوا في المورثات الأوروبية، دون أن يتركوا أي أثر يمكن معرفته ثقافياً أو لغوياً. وهناك كثير من الجبانات عثر عليها في هنغاريا تحتوي على هياكل عظمية للهون والآفار واتباعهم، وقد درست جماجم هذه الهياكل[١]. ووجد أنها لجيش غير متجانس، كان يجمع بين صفوفه مغولانيين من شرق آسيا، وترك وقوقازانيين، وأن هؤلاء أقل تأثيراً من الهنغاريين الحاليين من المجر، الذين وصلوا اليها في أوائل القرن العاشر الميلادي.

وقد أرجع ب. ب. كانديللا – منذ أكثر من عشرين سنة – ارتفاع فصيلة الدم ب النسبي في شرق أوروبا إلى تسرب المورثات المغولانية من آسيا بين القرنين الخامس والخامس عشر الميلاديين[٢]. وعندما كتب كانديللا هذا، لم تكن العلاقات بين فصائل الدم أ ب ومعروفة، كما لم يكن معروفاً انتخاب المورثات لمقاومة الامراض، ولا هبوط نسبة فصيلة الدم ب في سيبيريا.

## ما يسمى بسلالة أورال الفرعية

لم يكن هناك سوى القليل جداً من المغولانيين – إن كانوا قد وجدوا – في شرق أوروبا قبل غزو الهون والأتراك والمغول. غير أنه كان يسكن جانبي جبال الأورال شعب أطلق عليه الانثروبولوجيون الروس اسم «سلالة الأورال الفرعية». ولا تزال هذه السلالة الفرعية موجودة ممثلة بالاوستياك

(١) شرح هذا الموضوع باستفاضة في كتاب:

Coon: The Races of Europe, pp. 226-36.

(2) P. B. Candella: "The Introduction of Blood Group B into Europe", HB, Vol. 14, No. 3 (1942), pp. 413-44.

والفوجول والشعوب المتحدثة بالفنية أوجرية في اقليم فولجا كاما. وطبقاً لليفين، يميل شعر هذه الجماعات إلى أن يكون مستقيماً ناعماً. ولون بشرتهم فاتح، وبهم نسبة مرتفعة من العيون الفاتحة أو الملونة، وقليل من ثنية العين، ولهم لحى كثة إلى حد ما، ووجوه قصيرة نسبياً، وعريضة إلى حد ما، وأنوف مقعرة أو مدببة الطرف، وشفاه رقيقة ورؤوس متوسطة متوسط نسبتها ٧٩-٨٠، ومن رأي ليفين أن هذه الشعوب تمثل حلقة وسطى بين المغولانيين والاوروبوانيين ترجع إلى عهد الاستقرار في غابات غرب سيبيريا[١]. ولكن العنصر الأوروبي القديم فيهم ارجح من العنصر الآسيوي الشرقي من ناحيتي الصفات الجسمانية وفصائل الدم. ولاشك أن هذه التركيبة الأورالية قد لعبت دوراً في تكوين الهنغاريين والاسقونيين والغز الحاليين، الذين استوعبوا سكاناً آخرين في أثناء رحلتهم نحو الغرب.

## الباسك واللاب

ذكرنا في الفصل الأول تصنيف بويد للسلالات البشرية على أساس توزيع فصائل الدم. وقد وجد بويد تناقضاً كبيراً في فصائل الدم بين الباسك واللاب. فكل منهما على طرف نقيض من الآخر، في حين يتوزع بقية الأوروبيين في النطاق الاوسط. ويمتاز الباسك بوجود نسبة كبيرة من فصيلة الدم ريسوس Rh السلبية، وبانخفاض نسبة فصيلة الدم ب، على حين يمتاز اللاب بارتفاع نسبة فصيلة الدم أ ولاسيما أ٢، وهي شكل أوروبي اساساً كما أن بهم نسبة متوسطة من فصيلة الدم ب.

(1) M. G. Levin: "The Anthropological Types of Siberia", In M. G. Levin and L. P. Popatov, eds The Peoples of Siberia, Translated by S. P. Dunn (Chicago; University of Chicago Press; 1964), pp. 99-104.

أما عن الباسك فهم ليسوا مميزين جسمانياً، بل أن باسك أسبانيا يختلفون في النسبة الرأسية عن باسك فرنسا(١). وهم ليسوا الأوروبيين الوحيدين الذين تظهر فيهم نسبة مرتفعة من فصيلة الدم ريسوس Rh السلبية، كما تنخفض نسبة فصيلة الدم ب في سكان فرنسا كما أظهر بحث حديث(٢). فالباسك إذن لا يتميزون بتركيز شديد في صفات وراثية معينة كما كان يقال. حقاً أن الباسك شعب متقوقع ثقافياً ويتحدثون لغة غريبة، وهاتان صفتان اجتذبتا الانتباه نحوهم مما عساه أن يقلل من تدفق المورثات اليهم من جيرانهم.

ويعيش الباسك على شواطئ خليج بسكاي، وعلى ضفاف البرانس الغربية منذ عهد سحيق، بقدر ما يستطيع أن يصل اليه علمنا، أما اللاب فهم حديثو عهد بموطنهم الحالي(٣). وقد كان أول من سكن هذه الأصقاع الباردة شعوب العصر الحجري المتوسط وكانوا يصنعون آلات حجرية تشبه ما وجد في الدنمارك والسويد. ولم يكن في استطاعة أحد أن يسبقهم إلى هذا الوطن، بسبب غطاءات الجليد التي كانت تغطيه. وتبع تلك الثقافة الحجرية المتوسطة ثقافة العصر الحجري الحديث التي كانت تستخدم آلات من الاردواز. ثم ارتاد هذه الأصقاع البحارة النرويجيون في عصر الحديد خلال القرون الميلادية الاولى. وبعد عام ٤٠٠م. استقر هؤلاء الرواد في السواحل، ولكنهم لم يتوغلوا إلى وطن اللاب أو الفن الحاليين، حيث المناخ القاري.

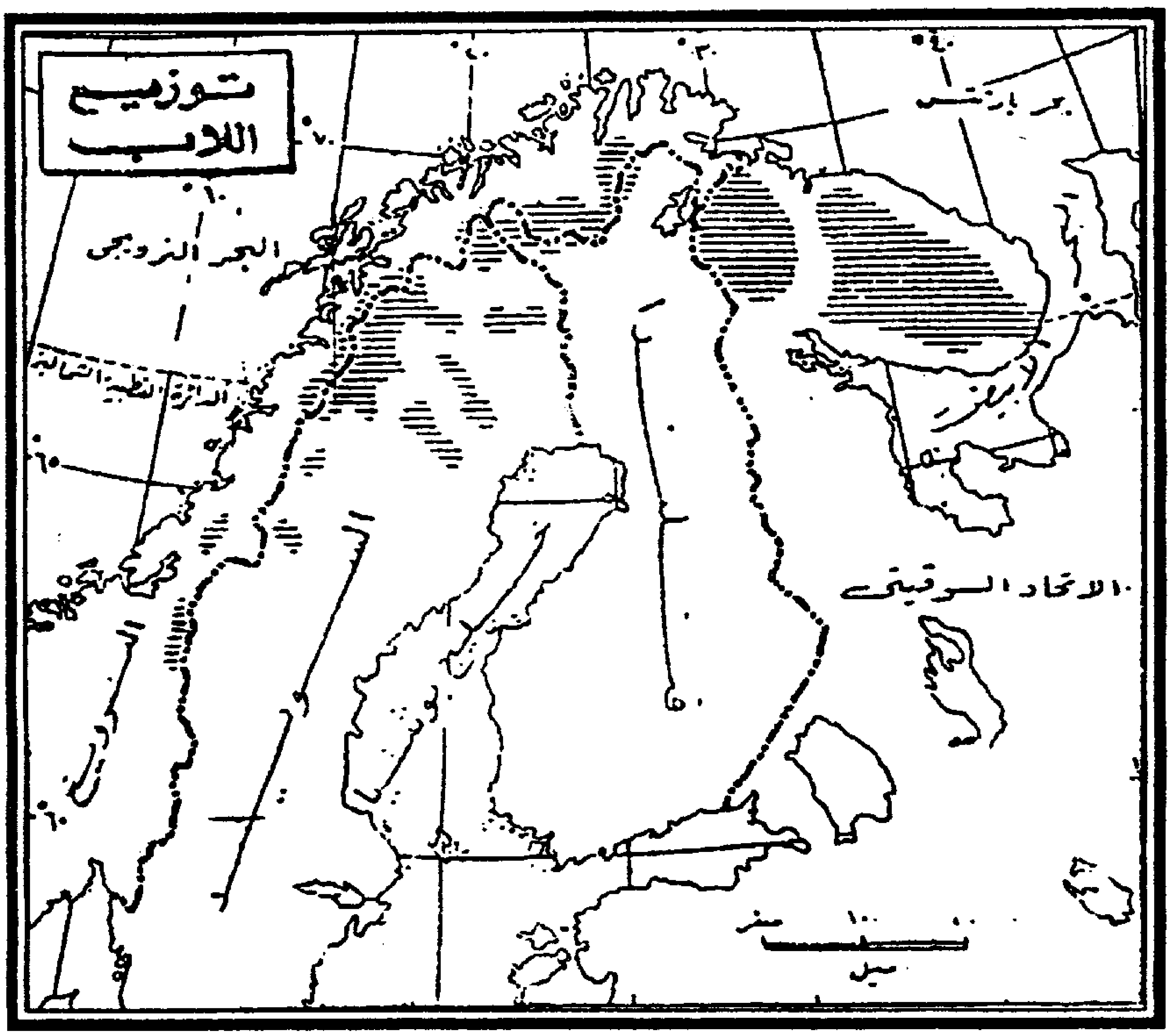
---

(1) P. marquer: "Contribution a l'Etude Anthropologique du Peuple Basque et an Pioblome des ses Origines Raciales' BMSA, Vol. 4, No. 1, 9th series (1963), pp. 1-240.

(2) Ii. V. Vallois and P. Marquer: "La Repartition en France des Groupes Sangiuns A. B. O". BMSA, Vol. 6, No. 1 (1964), pp. 1-200.

(3) Sjövod, The Iron Age Settlement of Arctic Norway (Tromsö, Oslo; Norwegian University Press, 1964).

ولم يعثر على أي هياكل عظمية ترجع إلى العصر الحجري المتوسط أو الحجري الحديث. ولا تدل بقايا شعوب عصر الحديد على وجود أي اختلاط.. ولانعلم بيقين متى وصل اللاب. ولكن لا دليل على هل كانوا هناك قبل عام ٦٠٠م. كما لا نفهم ما إن كانوا قد امتصوا أي سكان سابقين لهم، أي سكان سابقين للنرويجيين. ولكنهم في القرون الحديثة كانوا يختلطون بكل من النرويجيين والفن.




وقد حاول عدد من الاخصائيين تصنيف اللاب سلالياً، ولكنهم وصلوا إلى نتائج متعارضة[1]. وقد أدى إلى التخبط في تصنيفهم وجود بعض

(1) R. T. Anderson: "Lapp. Racial Classifications as Scientific Myth", APUA, Vol. 21, No. 1 (1962), pp. 15-31.

الصفات المحلية التي لا تتفق مع نسق التصنيف العام. وهم كما توحي لغتهم واصلهم السلالي يشبهون الشعوب الأورالية المتحدثة بالاوجرية في طول القامة، وشكل الوجه، ونسيج الشعر، ونمو اللحية، ولون البشرة العام الأسمر. وأقل من نصفهم يتصفون بالشعر الأسود ولون العين الأسود، وأكثر من نصفهم، يتراوح لون الشعر لديهم من الأشقر الأشهب إلى العيون الفاتحة(١). ولكن اللاب يختلفون اختلافاً واضحاً عن الأوستياك في شكل الرأس، فقمة الرأس عندهم مستطيلة، وعريضة، ومنخفضة. أما قمة رأس الأوستياك فأضيق وأكثر ارتفاعاً(٢).

إن قمة رأس اللاب تميل إلى أن تكون مفلطحة. أي أنه إذا وضعت جمجمة فوق سطح في وضع مقلوب، فإنها لا تتدحرج(٣). وربما فسر هذا بطريقة وضع الأطفال في مهودهم. فهذه المهود تصنع من تجويف شجرة مقعر، مع وضع لوح من الخشب وراء رأس الرضيع(٤). وقد يفسر هذا بفلطحة قمة رأس اللاب، وليس مؤخرتها كما هي الحال عند الالبانيين وشعوب البلقان الاخرى. وتيجان أسنان اللاب صغيرة جداً بمقارنتها بتيجان أسنان الهنغاريين أو البوشمن. ولكن هذه التيجان مرتفعة وجذورها طويلة ودقيقة ومدببة. كما أن القواطع والأنياب كبيرة نسبياً وطويلة إذا

---

(1) R. R. Gjessing Die Kautokeinolappen (Oslo ISKF, 1934).

(2) K. E. Schremer: Zur Osteologie der Lappen., 2 Vols. (Oslo, ISKF; (1935) P. Liptak: "Materiall Po Kramiologii Khantov, AEASH, Vol. 1, Nos. 1 - 4 91950), pp. 197-230.

(3) R. Selmer - O'sen: An Odontometrical Study on the Norwegian Lapps (Oslo: SNVA; 1949), No. 3.

(4) B. Collinder: The Lapps (Princeton: Princeton University Press, 1949), pp. 67-8.

قورنت بالأنياب الامامية والأنياب. والناب الثالث هو أصغر الأنياب الثلاثة لديهم(١).

ودلت دراسة العظام الطويلة على أن نسبة عظمة العضد إلى عظمة الذراع عادية عند الأوروبيين، إلا أن عظمة الساق وعظمة الفخذ قصيرتان نسبياً، كما هي الحال عند الشعوب القطبية الاخرى وعند اليابانيين(٢). أكثر من هذا فإن اللاب يتصفون بعيب خلقي معين، وهو تزحزح قمة عظمة الفخذ، ولاسيما عند النساء. ويفسر هذا بوجود زاوية عند التحام هذه العظمة مع عظمة الحوض، وبضحالة التجويف الحقي Acetabulum وعيب في الحافة العليا. وقد درست مسألة انتقال هذه الصفات بالوراثة(٣).

الخلاصة هي أن اللاب ينحدرون من أصول أورالية عادية، مختلطة بالنرويجيين، والفن وربما بسكان الشمال الاقصى القدماء، وأنهم متأثرون تأثراً شديداً بالبيئة القطبية، وما يخضعون له أطفالهم من عادات المهد الخاصة بهم. ثم التزاوج الداخلي فيما بينهم. أما عن فصائل الدم عندهم فهم لا يختلفون - على قدر علمنا، كثيراً عن الأوستياك، ولكننا لسنا متأكدين من ذلك. ففصيلة الدم أ عند الأوستياك تحلل بعد إلى أ، أ١، أ٢(٤). ونحن لا

---

(1) Selmer - Olsen: op. cit.

(2) Schreiner, op. cit.

(3) B. Getz: The Hip Joint in Lapps and Its Bearing on the Problem of Congenital Dislocation, AOSS, No. 18 (1955). The rim anomaly. has an incidence or 20 percent, as revealed by X-ray. There is a 5 percent incidenc of actusl dislocation resulting from it.

(4) Mourant: "Gruppi Krovi Narodov Sovernoi Evropi I Azii", TMOIP, Vol. 14 (1964) pp. 46-53.

يدهشنا قط إذا اكتشفنا أن اللاب يختلفون كثيراً عن شعوب الأورال، وذلك على ضوء ما نعرف عن تاريخهم وتجاربهم.

والنتيجة لهذا كله أن الادلة كلها لا تؤيد استقطاب اللاب لبعض الصفات الأوروبية على طرف نقيض ما يستقطبه الباسك بالمعنى الحرفي للكلمة ورغم هذا فهذا التناقض موجود. وهذا لا ينطبق على اللاب وحدهم، بل على الشعوب التي كان اسلافها يعيشون في غابات سفوح الأورال قبل بدء عصر الزراعة، بما في ذلك أجداد اللاب. أما الطرف الآخر فلا يشمل الباسك وحدهم، بل سكان الحافة الاطلنطية لغرب أوروبا الهامشيين.

## الصفات السلالية الرئيسية
## للأوروبيين الحاليين

علينا أن نبدأ أولاً – ونحن بصدد تحليل الأوروبيين كوحدة سلالية – أن نضرب صفحاً بشكل مؤقت عن ثلاثة متغيرات: لون البشرة، وطول القامة والنسبة الرأسية.. فالأولى تتأثر بالضوء، والثانية بالحرارة، والثالثة بالتشكيل الإنساني، أو بسبب عامل آخر غير معروف، أو بسببهما معاً. أما فيما عدا ذلك، فهي قارة تسكنها شعوب متشابهة في معظم الاوجه، ولكنهم يصنفون في ثلاثة قطاعات لا يفصل احداها عن الاخرى حدود واضحة يظهر في شمال القارة وشمالها الشرقي، أي في الاقاليم التي لم تعمر إلا بعد انسحاب الجليد، ميل نحو البنية المربعة الممتلئة، والوجه العريض نسبياً والفك الغائر والأنف المستقيم أو المقعر. أما في الغرب، وعلى الحدود الشمالية لأراضي البحر المتوسط، وفي البلقان، فإننا لا نزال نجد البنية القوية، والوجوه أطول، والأنوف أكثر استقامة محدبة، وشعر الوجه والجسم أكثر غزارة. أما في أقصى الجنوب، أي في أسبانيا والبرتغال وجزر البحر المتوسط من البليار

حتى كريت، فإن بنية الجسم أكثر نحافة، والوجه أكثر طولاً، والتقاطيع أكثر حدة، والأنف أقنى، والفك أكثر دقة، وشعر الوجه والجسم أقل كثافة مما هو موجود في النطاق الاوسط.

ولنأخذ هذا الاطار العام ونفحصه على ضوء لون البشرة وطول القامة وشكل الرأس. عندئذ ستظهر لنا سلالات أوروبا، كما حددها المصنفون التقليديين أيام التصنيف المورفولوجي البسيط: السلالة الشمالية، والسلالة الألبية، والسلالة الدينارية، وسلالة البحر المتوسط، وغيرها. ثم لنأخذ هذه الصورة الجديدة ونضف اليها عنصراً جديداً، وهو فصائل الدم، ثم يضاف اخيراً قطباً بويد، مما يعطي الصورة بعداً جديداً.

وهناك الآن ما يبرر تعرفنا «سلالات» أوروبا، من حيث كونها نمطاً في الجغرافيا البشرية، ومن ناحية التاريخ، فهناك حدود، واضحة لها في الشمال والغرب والجنوب، حيث تطل شواطئ أوروبا على بحارها، أما الطرف الشرقي فهو متصل باليابس الآسيوي. وليست أوروبا سوى النصف الغربي لأرض يابسة كبرى. وعلينا الآن أن نعبر بحر ايجة وندور حول شواطئ البحر الأسود.

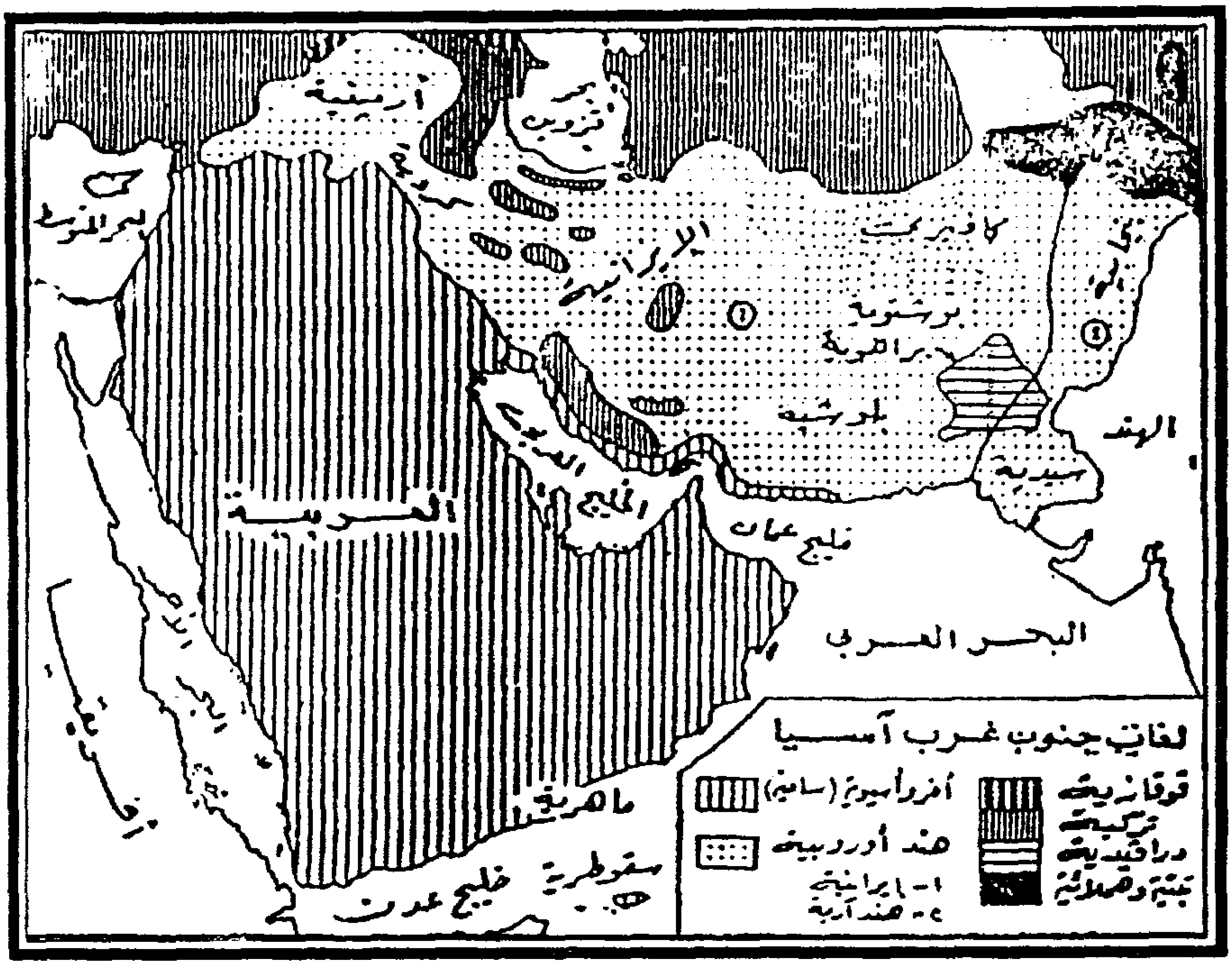
## شعوب غرب آسيا الحاليون

رغم أن الانثروبولوجيين الطبيعيين لم يدرسوا شعوب غرب آسيا بتفصيل دقيق كما درسوا شعوب أوروبا، فإنهم جمعوا وحققوا من المعلومات الاساسية ما يمكنهم من رسم تصور عام لها. ومن التعميمات التي وصلوا اليها أن غرب آسيا مثل أوروبا ينقسم إلى نطاقات عديدة تتخذ شكلاً افقياً عاماً. ففي أقصى الشمال تحتل الشعوب المتحدثة بالأوجرية والقادمة من

غـرب الأورال حـوض نهـر أوب. وقد سبق لنا وصفـهم. وهـم شمـال شـرق أوروبيون اساساً، ولكنهم يتدرجون إلى قبائل سيبيريا الشمالية، وهذه تكتسب صفـات مـغـولانيـة تزداد وضـوحـاً كلمـا اتجـهنا نـحو الشـرق حـتى بحـر برنج والمحيط الهادي. جنوب هذا النطاق من مستنقعات وغابات سيبيريا الغربية يوجد نطاق من الأرض الصالحة للزراعة التي يحتلها المستوطنون الروس في الوقت الحاضر. وإلى الجنوب منه تمتد سلسلة من الصحـاري، ثم شريط من أرض الحشائش والواحات بين الصحاري والحافة الجبلية التي تنتهي بسلاسل جبال وسط آسيا. ويعيش فـوق هـذا الشريط، وفي هذه الواحات، وعلى سفوح الحافة الجبلية سكان من أصل مغولاني جزئياً، إذ كانوا من قبل قوقازانيين صرفاً، قبـل أن تجتاحهم جحافل الاتراك والمغول في توسعهم نحو الغرب.

أما في مرتفعات غرب آسيا بغربي هذا النطاق، من بحر ايجة إلى باكستان، ثم جنوباً إلى المحيط الهندي، بما في ذلك القوقاز، فكل شعوبها قوقازانيون ويشبهون اساساً سكان أوروبا من اليونان إلى فرنسا، ولا يستثنى من ذلك إلا جيوب مغولانية قليلة، مثل الحضرة والشحر الماق في وسط أفغانستان الغربي وشمال شرقي ايران.

أما شبه جزيرة العرب وحافتها الصحراوية الشمالية، فتسكنها سلالة البحر المتوسط؛ مثل سكان حافات جنوب أوروبا، ولكنهم هنا يسكنون اقليماً أكبر وأكثر وحدة. ويسكن الزنجانيون والزنوج على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة ووسط العرب، وبعضهم جاء نتيجة تجارة الرقيق، والآخر كان أقدم مقاماً بهذا المكان. بل أنه يمكن العثور على بقايا استرالانية قديمة.




لغـات جنــوب غـربـي آســيا

سكان مرتفعات غرب آسيا(١)

---

(1) Turks of Turkey. Hertzberg et al.: op. cit, Mlle Afet: "Recherches Anthropologiques sur 59, 728 Turcs des Deux Sexes", ASAG, Vol. 9 (1941), pp. 70-192.

ARMENIANS. Seltzer: The Racial Characteristics of Syrians and Armenians, PMP, Vol. 13, No. 3 (1936). R. Kherumian: Les Armeniens (Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner; 1943).

THE PEOPLES OF THE CAUCASUS AND TRANSCAUCASIA. R. von Erckert: Antropologicheskaiia izmereniia nekotorykh Kavkazakh narodov, IKO, Vols. 7-8 (1882-1883); "Kopfmessungen Kaukasischer Volker", AFA, Vol. 18 (1889), pp. 263-81, 297-335; Vol. 19 (1890), pp. 55-84, 211-29, 331-58. Field: Contributions to the Anthropology of the Caucasus, PMP, Vol. No. 1 (1952). V. V. Bunak, G. F. Debetz, and M. G. Levin, eds,: Contributions to the Physical Anthropology of the Soviet Union, RTS-PM, Vol. 1, No. 2

=/=

سنصف سكان مرتفعات غرب آسيا أولاً، لأنهم أكثر شعوب المنطقة عدداً، واكثرهم شبهاً بالأوروبيين. ولا يوجد في هذا النطاق الجغرافي أي اقليم من اقاليم الشقرة يمكن مقارنته بشمال أوروبا، وليس هذا بمستغرب، حيث أنه لا يوجد هنا أي اقليم يغطيه السحاب الثقيل والمطر الغزير فترة طويلة من العام.

ويمتاز معظم سكان مرتفعات غرب آسيا بلون البشرة الأبيض الضارب إلى السمرة، والأسمر الفاتح، والشعر الأسود أو البني الغامق. ورغم أن لون العين البني هو السائد في كل مكان، إلا أن هناك نسبة من العيون الفاتحة لا تقل عن ٢٥ ٪ في أي مكان، وأجسامهم – بمقارنتهم بمعظم الأوروبيين – كثيفة الشعر، ولحاهم غزيرة، ولاسيما بين معظم الأرميين. كما يمتازون بشعر الحواجب الكث، وشعر الرأس مستقيم وممـوج، واحياناً يتموج شعر اللحية.

---

= (1960). M. G. abdushelishvili: Antropologiia Drevnevo i Sovremennevo Naseleniia Gruzii, IEM-ANG (1964).

IRAN AND AFGHANISTAN. Field: Contributions to the Anthropology of Iran, FMAS, Vol. 29, No. 1 (1939), Pub. 458; "Mounitain Peoples of Iraq and Iran", AJPA, Vol. 9, No. 4 (1951), pp. 1-3. "The Anthropology of Iraq. Part II, No. 2. Kurdistan and Part II No. 3 Conclusions, PMP. Vol. 46, No. 2 & 3 (1952) An Anthropological Reconnaissance in West Pakistan, 1955, PMP. Vol. 52 (1959). B. S. Guha: Racial Affinities of the Peoples of India, Part A of Census of India, 1931, Vol. 1, Part 3 (for Pathans and Nuristanis). G. T. Bowles's unpublished date on 168 Pashto-speakers.

أما عن البيبليوغرافيا الخاصة بالتركمان والتاجيك والازبك فتوجد في القسم التالي من الكتاب، وسنذكر أيضاً نتائج مقاييس قام بها كون في ايران وأفغانستان.

وتتراوح البنية من النحافة إلى الامتلاء. وهي إلى الامتلاء أقرب. ويكون طول الرأس والرقبة والجذع معاً ٥٣٪ من طول القامة، كما هو بين معظم الأوروبيين. أما طول القامة فليس متفاوتاً، فهي تصل إلى ١٦٦ سنتيمتراً، أو ٥ أقدام و ٥ بوصات. ويتفاوت المتوسط بين بوصتين بالزيادة أو النقصان. أما الوجه فهو عامة ذو خطوط متوازية، بجبهة وفك عريضين نسبياً بمقارنته بطول خط منتصف الوجه. وقلما توجد صفة الفك البارز بينهم. والأنف مستقيم أو معقوف، والأخير أكثر شيوعاً. ولكن جزءاً من هذا يرجع إلى فلطحة مؤخرة الرأس نتيجة لوضع الرضيع في المهد(١).

ويتغير شكل الرأس بسبب عادات المهد في الاجزاء الغربية من هذا الاقليم، ولاسيما في تركيا، وشمال غرب سوريا ولبنان، وأرمينيا، والقوقاز، وكوردستان، وبين التاجيك. والأطفال اللبنانيون والأرمن يمتازون بعرض الرأس الشديد، في حين أن أطفال اللبنانيين والأرمن الذين يولدون في الولايات المتحدة يمتازون بالرأس المتوسط(٢). لأنهم لا يخضعون لنفس عادات المهد السائدة في وطنهم الأصلي. ومن بين هؤلاء أصحاب الرأس العريض، شعوب مثل: الأوسيت Ossetes، والجورجيين(٣)، والأكراد(٤). أما الذين لا يخضعون لعادات الهد فرءوسهم طويلة أو متوسطة. ويبدو مع التعمق في البحث أن نسبة الرأس العريض الموروثة في مرتفعات غرب آسيا أقل منها في أوروبا.

---

(١) سكان الجبال الالبانيون أصحاب الرءوس المشوهة تسود بينهم الأنوف المعقوفة بنسبة ١٦٪ عما هي عند أصحاب الرءوس غير المشوهة.

(2) J. F. Ewing: Hyperbrachacephaly as Infiuenced by Cultural Conditioning, PMP. Vol. 23, No. 2 (1950).

(3) Field: Contributions to the Anthropology of the Soviet Union.

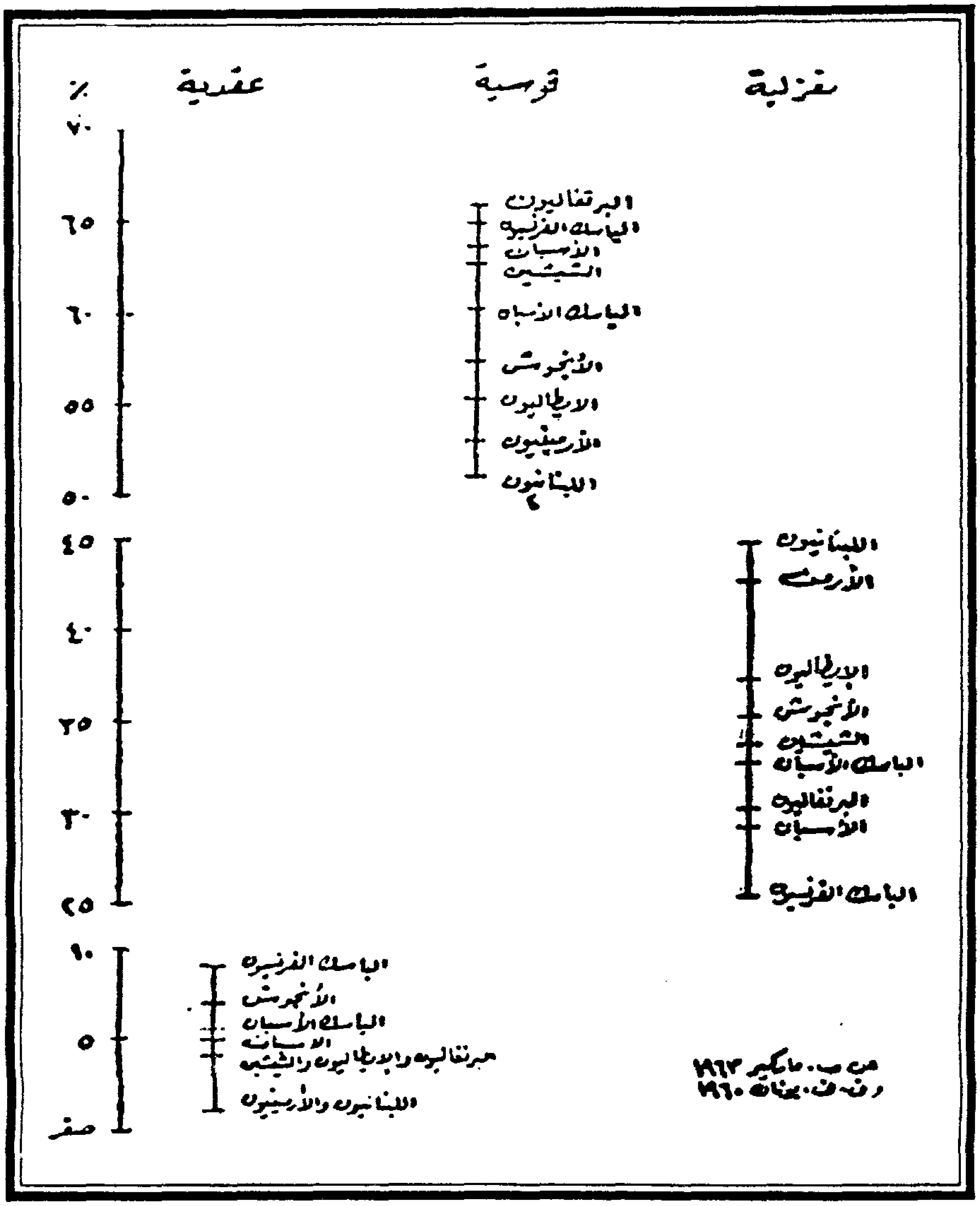
(٤) مقاييس لم تنشر عن الأكراد الشيقاق Coon.

وتبدو بعض الظاهرات الخلاسية في صفة لون البشرة. وأشد المناطق بياض بشرة هي سواحل بحر ايجة في تركيا، واكثرها سمرة على الخليج العربي، ولاسيما في بلوخستان. كما يزداد لون العين سمرة من الغرب إلى الشرق. وتتراوح نسبة العيون المخلطة والفاتحة من ٨٥٪ بين سكان غرب تركيا، و٨٠-٧٠٪ بين سكان القوقاز إلى ٣٥٪ بين الصيادين، وهم فرس يسكنون مستنقعات نهر هلمندا الاسفل. وهي ١٥ ٪ بين الباتان Pathans وأقل من ٥٪ بين البلوخ (أو البلوش). وينحدر البلوخ من قبائل فارسية نقلت في القرن التاسع الميلادي من شمال غرب إلى جنوب شرق ايران. وأخضع البلوخ في وطنهم الجديد سكان الاقليم القدماء من البراهوي Brahuis، ولكن هؤلاء - كما يحدث غالباً - ما لبثوا أن استوعبوا قاهريهم.

ويسكن في أشد المناطق الجبلية وعورة، في شمال شرق افغانستان شعب تخلف ثقافياً، كان يسمى بالكفرة ويسمون الآن بالنورستانيين. وكانوا يمارسون طقوساً دينية قديمة ترجع إلى وثنية الهنود الأوروبيين حتى التسعينيات من القرن الماضي، ثم اجبرتهم الحكومة الأفغانية على اعتناق الاسلام. ولا يزالون في قمم جبالهم المنعزلة التي يلفها الضباب، يحتفظون بقدر كبير من الشقرة، إلا أننا لم نحدد بعد نسبة هذه الشقرة.

## مقارنة بين سكان غرب آسيا وغرب أوروبا

تبين دراسات فصائل الدم أن معظم سكان غرب آسيا الجبليين يماثلون النمط الأوروبي. أي أن نسبة فصيلة الدم أ بينهم أعلى من نسبة فصيلة الدم ب، كما توجد أيضاً فصيلة الدم أ٢، أ١ ولا تنخفض نسبة الفصيلة أ أو ب إلى نسبتهما بين الباسك إلا بين القبائل البعيدة التي تسكن القوقاز. كما أن أنماط بصمات الأصابع بين القوقاز الجبليين تدخل في نطاق أنماطها بين عدد




شكل يبين بصمات الأصابع عند الباسك والقوقازيين

كبير من الباسك(١) . وفيما عدا فلطحة الرأس المصطنعة التي يمارسها أهل القوقاز، فإنه لا يوجد فرق يذكر بينهم وبين الباسك إلا أن شعر الباسك أقل خشونة(٢) .

وكل من القوقاز والباسك - سواء كانت هناك قرابة بين لغتيهم أو لم توجد - هامشيون. ولا تحل مشكلة أصل الباسك حلاً كاملاً ما يبدو عليهم من تشابه في الصفات الجسمانية مع القوقاز. ولكنها تؤكد فقط الاستمرار السلالي بين سكان مرتفعات غرب آسيا وبين نظائرهم من سكان مرتفعات أوروبا من اليونان حتى المحيط الأطلنطي.

بل أن الأتراك الذين امتصت شعوب آسيا الصغرى السابقة اسلافهم العثمانيين لا يمكن في الحقيقة تمييزهم عن اليونانيين في كل الصفات التي لم تتدخل فيها عادات المهد التي لا يتبعها معظم اليونانيين(٣) . وفيما عدا

---

(1) Murquer., "Contribution a'l'Etude du Peuple Basque et au Problème de ses Origines Raciales", BMSA, Vol. 4. No. 1. (1964), pp. 1-240.

V. V. Bunak": "Anthropological Composition of the Popuiation of the Coucasus", in Bunak, G. F. Debetz and M. G. Levin: Contributions to the Physical Anthropology of the Soviet Union, RTS-PM, Vol. 1. No. 2 (1960), pp. 1-23.

(2) Figure 1, "Dermatoglyphics of Basques and Cauasians", from Marquer: Contributions à l'Etude du Peuple Basque et au Probième de ses Origines Raciales, P, 205.

(٣) قام H. T. R. Hertzberg وزملاؤه بعمل ٢١٣ قياساً على ٩١٥ تركياً، ١٠٨٤ يونانياً و ١٣٥٧ ايطالياً، وكلهم ذكور من قوات حلف الأطلنطي. ووجد أن الفروق بين الأتراك واليونانيين لا تعود إلى اختلافات سلالية بقدر ما تعود إلى اختلافات العمل. فالطيارون - سواء اكانوا تلاميذ أم عاملين - أثقل وزناً وأطول من الذين يخدمون المطارات الارضية والجنود. فهنا عامل الانتخاب الاجتماعي والغذائي يظهر أثره. هرتزبرج وآخرون. سبق ذكره.

ذلك فالفرق الوحيد بينهم هو أن معظم الأتراك أقل سمنة من اليونانيين، ووجوههم أكبر قليلاً. ويشبه أتراك الأناضول في هذه الصفات أقاربهم التركمان الذين يقتربون أكثر من وطنهم التركي.

## سكان التخوم الشمالية

تشمل هذه المنطقة الجمهوريات السوفيتية الآتية: تركمانستان وأزبكستان وتاجيكستان، وجزء من أفغانستان يقع بين الضفاف الجنوبية لنهر أوكسس والسفوح الشمالية لجبال هندوكوش. هذا هو اقليم طوران القديم، الذي سكنته شعوب فارسية منذ عهد بعيد، وكانت حتى وقت قريب أحد مراكز الثقافة الاسلامية. وهي بلاد آهلة بالسكان زاخرة بالحركة، بلاد الواحات المتناثرة وسط الصحراء والحشائش والقرى الجبلية. ويسكنها الآن عدة شعوب، بعضها يتحدث الفارسية وبعضها يتحدث التركية، بعضها بدوي وبعضها زراعي، يسكنها تجار الحضر وحرفيوه، والمسلمون السنة والشيعة وقليل من العرب واليهود. إلا أن الجماعات الرئيسية فيه هي: التاجيك، والسرت، والأوزبك، والتركمان. أما التاجيك فهم سنيون يتحدثون الفارسية يسكنون جمهورية سوفيتية تعرف باسمهم، كما يسكنون تخومها الأفغانية، بل ويتعدون جبال تيان شان إلى الصين. والسرت زراع واحات ومدن من أصل فارسي يتحدثون الآن التركية. والأزبك يتحدثون التركية ويعملون بزراعة المرتفعات ويعيشون في جمهوريتهم وفي شمالي أفغانستان. أما التركمان فبدو ينتقلون من بين الشاطئ الشرقي لبحر قزوين حتى أزبكستان، وينتشرون في أنحاء متعددة أخرى، كما في العراق وعلى سفوح القوقاز. ونحن في استطاعتنا –

بفضل الدراسة التفصيلية التي قام بها الانثروبولوجيون الروس – وصف مميزاتهم الانثروبولوجية(١).

والتاجيك هم الممثلون الشماليون لجماعة مرتفعات غرب آسيا، رؤوسهم شوهتها عادات المهد، ولون البشرة أسمر. وتصل نسبة العيون الفاتحة والمختلطة نحو ٤٥ ٪. وهم ليسوا شعرانيين (كثيري الشعر) مثل معظم سكان غرب آسيا، بل هم في هذا يشبهون الأوروبيين. ويظهر في بعض الذين يعيشون في الاتحاد السوفيتي بعض ملامح تدل على اختلاط المغولانيين وتنتشر صفة العين المتحركة في نحو ١١ ٪ من السكان، في حين لا يظهر في بعض التاجيك – ولاسيما في افغانستان – شيء من هذا، وإن كانت فصائل الدم تدل على اختلاط مغولاني، أكثر مما يدل عليه ما درس في الاتحاد السوفيتي. وربما رجع هذا إلى تدفق المورثات بين التاجيك الجنوبيين وبين الحضرة جيرانهم المغولانيين، وهم شيعة يتحدثون الفارسية.

والسرت أكثر شبهاً بالتاجيك، ولكن الأزبك أكثر مغولانية من الاثنين، مع نسبة أكبر من الأنف المقعر، وشعر أقل في الذقن، وعيون مختلطة وفاتحة أقل. وهم مثل التاجيك الأفغان، بهم نسبة فصيلة الدم ب أكبر من نسبة فصيلة الدم أ.

كذلك التركمان، فهم خلاسيون من القوقازانيين والمغولانيين، ولكن من نوع آخر يرجع إلى الأثر الصحراوي فيهم. فهم أكثر طولاً من معظم

---

(1) Field: Contributions to the Anthropology of the Soviet Union, SMC, Vol. 110, No. 13 (1948), Pub. 3947. 1. Schwidetzky" Turaniden-Studien", AWLM, No. 9 (1950), pp. 235-291. L. V. Oshanin and V. Ia. Zezenkova: Voprosi Etnogeneza Narodov Srednei Azii V Svete Dannikh Antropologii. (Tashkent, IIA-ANUS; 1953).

الآخرين، نحاف، ويتصفون بالرأس الطويل بصفة خاصة[1]. ولهم وجـوه طويلة عريضة بارزة العظام، وعرض الوجه عند الوجنات أكبر من عرضه عن الجبهة أو الفك. ولبعضهم منظر جانبى يشبه الصقور، ولبعضهم الآخر أنوف مقعرة مثل أنوف المغول. وقـل مـن تظهر فيه أثارة من الشقرة، أو غزارة في شعر الجسم. وشعرهم خشن. ولحاهم خفيفة متناثرة الشعر، وتنمو احياناً طويلة. وهم بعكس الخلاسيين من القوقازانيين والمغولانيين لا يظهر عليهم الأثر المغولي فيما يختص بفصائل الدم، إذ أن فصيلة ب منخفضة لديهم، فإذا اضفنا لهذا صفات التركمان المميزة فإننا نجد أن فصيلة الدم هذه تدل على أن اصلهم المغولي كان سيبيرياً. وهذه النتيجة هامة تاريخياً، لأن الشعوب المتحدثة بالتركية التي كانت تغزو أوروبا ومرتفعات غرب آسيا من وقت إلى آخر كانت من نفس أصول التركمان الحاليين.

وتضم التركستان الروسية عدة شعوب متحدثة بالتركية، وهـي مغولية اساساً، إلا في لغاتها. ومن أهم هذه الشعوب القرغيز والقازاق الذين يعيشون على جانبي جبال الطاي ويمتـدون من ايران حتى منشوريا. ولم يكن لهم سوى أدنى أثر – بالمقارنة بالتركمان والتتار – في أوروبا أو غرب آسيا.

## العـــرب

صحاري وجبال وواحات جنوب غرب آسيا وطن لشعب متجانس نسبياً، من أصل قوقازاني، من سلالة البحـر المتـوسط النحـيفـة، يمكن مـقـارنتـه بالأندلسيين والكورسيكين والسردينيين. وقـد كـان العرب حتى بعد وفـاة

---

(١) لقد قيل أن هذا الرأس الطويل نتيجة ربط رأس الرضيع بلفائف، ولكن لم يقم الدليل على هذا القول.

الرسول عليه الصلاة والسلام عام ٦٣٢م. مجرد سكان شبه جزيرة العرب الاصليين. ثم بدأ أتباع النبي ينتشرون في كل اتجاه، حتى نجحوا في وقت قصير جداً لا يكاد يصدق، فوصلت جيوشهم الغازية المبشرة بالاسلام إلى المحيط الأطلنطي ووسط آسيا والمحيط الهادي.

## العرب المستقرون على حافة الصحراء الشمالية(١)

يسمى كثير من شعوب غربي اسيا انفسهم عرباً(*). ومنهم عـرب فلسطين، والدروز اللبنانيون، والعلويون، في شمال غرب سوريا، والعراقيون. ولا يزال كثير منهم مسيحيين، وقليل أيضاً من يتحدث لغة سامية أخرى، ولاسيما السريانية.

---

(1) Seltzer: The Racial Characteristics of Syrians and Armenians. W. M. Shanklin and N. Izzeddin: Anthropology of the Near East Female, AJPA, Vol. 22, No. 3 (1937), pp. 381-415 Shanklin: "Anthropometry of Syrian Males", JRAI, Vol. 68 (1938). pp. 379-414. Field: The Anthropo ogy of Iraq, part I, No. 1. The Upper Euphrates, FMAS, Vol. 30, Part 1 No. 1 1940), Pub, 169, Part 1. No. 2 The Lower Euphrates Tigrs Region, FMAS, Vol. 30, Part 1, No. 2 (1949), Pub 631; Part II, No. 1 The Northern Jazira, PMP, Vol. 46 No. 1 (1951), Part II, No. 2 Kurdistan; And Part II. No. 3. Conclusions. M.-R Sauter; "Les Races Brachycepha'es du Proche-Orient, des origines à nos Jours". ASAG, Vol. II No. I (1945). pp. 68-131; "Recherches Anthropologiques en Palestine Méridicn ale", ASAG, Vol. 15. No. 2 (1950); Ewing: op. cit.; P. A. Gloor: "Recherches anthropologiques en Palestine meridionale I. Enguéte Sur les Arabes (série masculine)'. ASAG, Vol. 15, No. 2 (1950), pp. 107-42.

(*) نحن نختلف مع «كون» في قوله هذا، فمفهوم العربي مفهوم قومي لا سلالي مثل مفهوم الايطالي والالماني والفرنسي (المترجم).

ومهما يكن من أمر لغة أو دين سكان الجبال في سوريا ولبنان، فهم امتداد جنوبي غربي لشعوب المرتفعات الوسطى لغرب آسيا، الذين يشبهونهم في كثير من الصفات. والعرب المستقرون على حافة الصحراء السورية من دمشق حتى حلب، وسط في صفاتهم الجسمانية بين سكان الجبال والبدو. فهم أكثر نحافة من الأولين، وأطول رأساً وأقل شعرانية، وأفتح لوناً في لون الجلد والعين.

وتضم شمال شرق سوريا وشمالي العراق عرباً مستقرين قليلين، إذ أن البدو يرعون أنعامهم حتى قرى الأكراد والترك والتركمان. ومعظم العرب المستقرين يحتلون كل السهل الفيضي في جنوب شرق العراق، واقليم الأهوار عند رأس الخليج العربي، والأرض الموازية لساحل ايران، حيث يزرعون القمح والرز، ويربون الجاموس، ويصطادون السمك والطيور البرية في المستنقعات، ويحتفظ كثير منهم بعادات البدو الاصلية النبيلة، ولكنهم جسمانياً أقرب إلى سكان هذا الاقليم القدماء الذين أخرج الأثريون عظامهم، وهم أكبر أجساماً، وأثقل وزناً من البدو، وأيضاً أكثر شعرانية، وأدكن لوناً. وهناك قليل تظهر فيهم الصفات الزنجانية، لاسيما في لون الشعر والبشرة وملامح الوجه، ولكنهم ينتمون إلى الطائفة الزنجانية من الحدادين وغيرهم من الحرفيين. بل أنهم ممنوعون من التزاوج معها.

## عرب الصحراء

إن مقتضيات الحياة الصحراوية، والرعي وزراعة الواحات الكثيفة والحاجة إلى استيراد الآلات المعدنية خلقت شكلاً من أشكال تقسيم العمل، عبر عنها المجتمع بشكل قانون الفروسية، كما أوجد نوعاً من توازن القوى واعفاء الطوائف الصناعية من القتال، بعكس قمة الهرم الاجتماعي حيث

مربع قبائل البدو الاصلية، مثل: الروالة، وشمر (رعاة الابل). وينضوي تحت لوائهم وحمايتهم رعاة الغنم، الذين تقعد بهم أغنامهم عن الوصول إلى المراعي البعيدة التي يصل اليها رعاة الابل. ثم يأتي سكان القرى من الفلاحين في الواحات، وفي أسفل القاع يوجد العبيد من الوجهة النظرية، ولكنهم عملياً يتمتعون بطمأنينة أكثر، وراحة أكبر، ونفوذ أوسع، مما يتمتع بهم سادتهم الذين يخدمونهم.

والتزاوج بين هذه الجماعات قليل.. فأشراف العرب يتزوجون فيما بينهم، ويشيع زواج أبناء الأعمام. وهذا النظام يتلاءم تماماً مع تقاليد الولاء والحركة وحماية الأتباع؛ لأنه يقلل عدد الأشخاص الذين يشعر نحوهم البدوي بالولاء والذين تقع على رأسه دماؤهم. وقد أثر (الزواج الداخلي) هذا في صفات البدو الجسمانية، الذين تم عمل مقاييس لهم من حدود تركيا حتى الحجاز[1]، والذين تتراوح بينهم فصائل الدم المختلفة[2].

ويمكن أن نعرف صفات البدوي المميزة من مقارنتها بصفات سكان مرتفعات غرب آسيا، فلكل منهم نفس طول القامة، ولكن البدوي أخف نسبة، وأطول ساقاً، وأضيق صدراً، وأدق أطرافاً. ورأس البدوي طويل وأصغر من رأس سكان الجبال، فيما عدا التلوح. ووجوههم أضيق، وأنفهم أقنى مستقيم أكثر منه معقوفاً.. وشعر الجسم لديهم قليل واللحية – بصفة خاصة – أقل شعراً. وشعر الرأس أسود أو بني غامق، نسيجه أدق، مستقيم أو مموج، يكون حلقات عندما يستطيل. أما لون البشرة الذي تضربه الشمس بسمرة شديدة، فهو أبيض ضارب إلى السمرة أو بني فاتح إذا لم يعرض لأشعة الشمس.

أما الصليبة فهم يخدمون البدو ويعملون لهم مرشدين في دروب

(١) لدينا ١٣ مجموعة من القياسات..

(2) Shaking «The Anthropology of the Rwaia Bedouins.

الصحراء صيادون أو كانوا كذلك، مهرة، يصطادون الغزال وبقر الوحش في الصيف عندما يستقر البدو حول آبارهم. ويرى بعض الباحثين أنهم بقايا الشعب الذي كان يسكن الصحراء قبل عصر الزراعة والرعي، والذين تتناثر آلاتهم الحجرية فيها وتختلف الصليبة جسمانياً عن البدو بنفس الطريقة التي يختلف بها البدوي عن المستقرين في الحافة الشمالية للصحراء.. أو عن اختلاف هؤلاء عن سكان مرتفعات غرب اسيا.. فلون البشرة أفتح قليلاً عن الصليبة، ووجوههم أصغر وأضيق ولاسيما عند الفك. وهذا يؤيد النظرية التي تقول أنهم بقايا شعوب قديمة من الصيادين، وأن البدو ترجع أصولهم إلى الزراع الذين كانوا يعيشون في مرتفعات اليمن، الذين اضطروا لمغادرة حقولهم عندما حل بها الجفاف، والهجرة شمالاً والأخذ بحياة البداوة.

أما الغجر فهم قليلون وطارئون على الاقليم. وليس لدينا مقاييس عن هؤلاء الحدادين الذين يتحركون من مضارب قبيلة إلى أخرى دون أن يلحق بهم أذى، يقومون بحرفتهم. والشيء الوحيد الذي نعرفه عنهم أنهم ليسوا زنوجاً، مثل كثير من العبيد، ولكنهم شيء بين بين، وقد أخذت مقاييس عن أفراد منهم في الهفوف، باقليم الاحساء بالسعودية. وهم يعيشون في بيئة أشد رطوبة، يظللها النخيل، ويختلفون عن البدو جسمانياً، في أن رؤوسهم أكثر استدارة، وأنوفهم معقوفة بشكل أشد. ومظهرهم أكثر ليناً، لأنهم لا يواجهون ضراوة الصحراء وجفافها ورياحها المحملة بالتراب.

## الحافات الجنوبية

تمتد على طول الحافة الجنوبية لشبه جزيرة العرب، ووراء الربع الخالي، جمهورية اليمن الجنوبية، ودولة "عمان، وظفار"، ودولة الامارات العربية المتحدة، وجزر سقوطرة. ويسقط الأمطار في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة

في فصل الصيف، مما يسمح بقيام الزراعة فوق المرتفعات اليمنية بصفة خاصة، وهي أكثر أجزاء شبه الجزيرة سكاناً. حيث يتركز السكان في اقليم صنعاء، فوق النواة الجبلية حتى الصحراء.

ولا يختلف رجال القبائل في هذا الاقليم اختلافاً كبيراً عن بدو الصحراء في الشمال(١). ولكن إذا اتجهنا جنوباً، من صنعاء إلى أب، وتعز، ولحج؛ وأخيراً إلى عدن. فإننا نجد أن الناس يزدادون قصراً واستدارة رأس، إذ ينخفض متوسط طول القامة من ١٦٤,٥ إلى ١٦١ سنتيمتراً (٥ أقدام و ٥ بوصات إلى ٥ أقدام و ٣ بوصات)، وترتفع النسبة الرأسية إلى ٨٤. وبينما لون البشرة لمعظم سكان الهضبة أبيض ضارب للسمرة أو بني فاتح فإن ٧٥٪ من سكان الساحل لون بشرتهم أسمر غامق. و ٤٪ منهم لون عيونهم فاتح بينما نسبتهم في الهضبة ٢٥٪.

وتهامة اقليم غريب غير معروف على الاطلاق. وهي صحراوية الطبيعة يسقط عليها مطر قليل ذات رطوبة مرتفعة وحرارة شديدة. وتهبط اليها الجداول من الهضبة مخترقة الحافة الجبلية تحمل المياه. وتنتشر الملاريا بين العرب، الذين يتركون معظم الاعمال الشاقة للزنوج ولطبقة زنجانية تعرف باسم الحجر، وهم قوم لا تعرف اصولهم.

وإذا تحركنا حول الساحل عبر باب المندب إلى ساحل المحيط

---

(١) توجد مقاييس المجموعات اليمنية والحضرمية وغيرهم من العرب الجنوبيين والزنوج والزنجانيين، والتي قام بها (كارلتون كون) عام ١٩٣٣ - ١٩٣٤ في ملحق د من كتاب :
L. Oschinsky: Racial Affinities of the Baganda and Other Bantu Tribes of British East Africa (Cambridge: W. heffer & Sons, 1954).
أما مقاييس ٢١ ملاحاً عربياً من بندر لنجه على الساحل الفارسي الجنوبي، والملاحظات المورفولوجية الخاصة بهم فلم تنشر بعد.

الهنـدي، فـإننا نصل إلى السـاحل الحـالي المعـروف باسـم حـضـرمـوت (حـضـر - موت(*)) . الاقليم الذي هاجر منه اسلاف الأثيوبيين، وفي عهد أقرب من هذا هاجر آلاف التجار والمبشرين إلى الملايو واندونيسيا . وقد عاد بعض من هؤلاء بزوجات مغولانيات وأطفال نصف مغولانيين، اعطوا مدن حضرموت باختلاطهم مع الزنوج المحليين طابعاً دولياً خاصاً . وفي تهامة وحضرموت يقوم الزنوج بمعظم الاعمال الزراعية .

والقبائل الحضرمية تشبه كثيراً سكان المرتفعات اليمنية الجنوبية، وسكان أهل عدن في أنهم قصار القامة، رؤوسهم عريضة شيئاً ما، والوجه صغير، والتقاطيع حادة . وتنهدل شعورهم على شكل حلقات فوق أكتافهم، وشعر الذقن والجسم قليل .

إلى الشرق من ذلك يزداد سقوط المطر وتنمو الحشائش الطويلة وتربى قطعان الماشية وتعيش القبائل الظفارية التي تتحدث لهجات عربية قديمة كانت سائدة في الجنوب (العربية الجنوبية) التي حلت محلها العربية في غيرها من مناطق الجنوب العربي . ورغم أنهم يشبهون اساساً الحضارمة، إلا أن بعض الأفراد تظهر فيهم صفات استرالانية .

إذا استعرضنا الاقليم الممتد من تهامة حتى بلوخستان من حيث المناخ وحيوان الرعي، والبناء الاجتماعي، والصفات السلالية، نجد أننا نغادر الاقليم القوقازاني بمعنى الكلمة، ونقف في دهليز ضيق يربط بين إفريقيا والهند . والعربية الجنوبية اقليم صغير، ولا يزال في حاجة إلى البحث . وهذا البحث، إن تم، فسيكشف النقاب عن كثير من الاسرار .

---

(*) يشير كون هنا إلى مقطعي الكلمة حضر، وموت، على اعتبار أنها مركبة منهما، والحقيقة غير ذلك . فهي اسم كان له صياغة لغوية محلية صرفة (المترجم) .

# الفصل التاسع

# الصفات السلالية لآسيا الشرقية والأمريكتـــان

# الفصل التاسع
# الصفات السلالية لآسيا الشرقية والأمريكتان

## المجال المغولاني

يدرس هذا الفصل وطن المغولانيين، والاقليم الذي عمره المغولانيون لأول مرة في شمال شرق آسيا والعالم الجديد. وهذا مجال شاسع ينتظم نصف مساحة العالم المسكون تقريباً. وقلب هذا العالم هو العسين، حيث تطور المغولانيون كما تقول بعض الآراء - وقد عثر على آلات من الكوارتزت غير متقنة الصنع في شانسي الجنوبية في رواسب ترجع إلى فترة فيلافرانشيا، أي منذ مليون ونصف مليون سنة تقريباً. غير أن تاريخ هذه الآلات وارجاعها إلى صناعة الإنسان يحتاجان إلى تأكيد علمي(1). وتؤرخ حفريات إنسان الصين الآن بنحو ١,١٠٠,٠٠٠ سنة مضت. وقد تطور المغولانيون من الصين على الاقل منذ ذلك الحين، ثم انتشروا بعد ذلك حتى وصلوا إلى ضفاف الفولجا، وجزيرة مدغشقر، وتيرادلفويجو(2).

---

(1) Chia Lan-po, in WW, No. 4-5 (Peiping, 1964), pp. 25-6, After Kwangchin Chang: The Archaeology of Ancient China (New Haven: Yale University Press, 1963), p. 28.

(2) In various sections of this chapter we shall make use of Chang's book and of the three published volumes of Cheng Te-K'uns, Archseology in China (Cambridge: W. Heffer & Sons): Vol. I Prehistoric China, 1959; Vol. II. Shang China, 1960: and Vol. III. Chou China, 1963.

تشبه قارة آسيا – على مقياس كبير – بعض الجزر المرتفعة في المحيط الهادي، في أن لها قمعاً مرتفعاً أوسط، تحيط به حافات على شكل ضلوع تنحدر نحو البحر وتضم أودية مختلفة ينفصل بعضها عن بعض. ولكل حيوانها الخاص. فبدلاً من القمع المرتفع، هناك هضبة التبت، وجبال الهيمالايا. وبدلاً من الحافات هناك الجبال التي تتفرع كخيوط العنكبوت، تقسم القارة إلى اشباه قارات، اكبرها الصين. والصين التي تساوي في حجمها قارة أوروبا كلها، تحتل منطقة جغرافية طبيعية، تفصلها سلاسل الجبال من جنوبها الغربي، وغربها وشمالها الشرقي. كما تفصلها الصحاري من شمالها عن جيرانها. وهي تشبه النصف الشرقي من أمريكا الشمالية، تقع في مهب الرياح الغربية الباردة القادمة من القارة إلى المحيط، ومناخها قاري، وأمطارها صيفية.

وتنقسم الصين إلى مناطق جغرافية متميزة، حيث أن أنهارها تنبع من الغرب وتصب في الشرق. وهذه المناطق الجغرافية تسير طبقاً لخطوط العرض من ناحية والارتفاع من ناحية أخرى. فشمالي الصين يتكون من وادي النهر الأصفر، يغطي واديه الغربي تربة اللويس، وواديه الشرقي تربة رسوبية. كما تتكون أيضاً من شبه جزيرة شانتونج. أما الصين الجنوبية فهي اقليم تغلب عليه الصفة الجبلية. وتحتوي على عدة أنهار، أهمها نهر اليانجتسي، ونهر هواي، ونهر بيرل.

وبين شانج الفرق بين الاقليمين على النحو الآتي[1]: الشمال تسقط عليه أمطار قليلة غير مؤكدة تتراوح بين ١٦ و ٣٢ بوصة سنوياً. شتاؤه بارد

(١) هذه فقرة مأخوذة عن شانج، نفس المرجع، ص ٢٤.

وصيفه حار، ويسقط عليه قليل من الثلج، مناخه شبه جاف، تربته جيرية، تغطيه غابات مختلطة وحشائش، تهب عليه الرياح المحملة بالتراب في الشتاء. أما الجنوب، أو بدقة أكثر الجنوب الشرقي، فأمطاره غزيرة تتراوح بين ٣٢-٦٣ بوصة، وشتاؤه بارد، وصيفه حار رطب. وتسقط عليه ثلوج قليلة، مناخه شبه مداري، تهب عليه الرياح الموسمية والاعاصير الصيفية، تربته جيرية مفككة تغطيه الغابات شبه المدارية والمدارية والأرض تغطيها الخضرة طول العام.

ونستطيع أن نوجز جغرافية الصين بأن معظم بلاد الصين شرق وجنوب خط منحرف يمتد من كوانجسي حتى نقطة تقع شمالي شانغهاي، لها مناخ يشبه مناخ أكثر جهات الولايات المتحدة سكاناً، من كونكتيكت غرباً حتى فبراسكا وجنوباً حتى مصب نهر ريوجراند. وهذا هو مناخ Köppen's Cfa في تقسيم كين، الذي يمتاز بالصيف الحار والمناخ المعتدل، وتسقط عليه بعض الأمطار طول العام، والسماء معتدلة الغيوم – وهذا يختلف تماماً عن المناخ الذي تطور فيه الأوربيون المغربيون. وإلى الداخل من هذا النطاق، يمتد نطاق آخر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وهذا النطاق له شتاء جاف تماماً. وإلى الشرق من الصين الوسطى تنهض هضبة التبت، وهي منطقة شاسعة ذات هواء رقيق، ومعظمها يرتفع فوق ١٣,٠٠٠ قدم، ذات مناخ شبه قطبي، حيث متوسط درجة الحرارة في أشد الشهور دفئاً تقل عن ٥٠° ف (١٠°م) إلا في الأودية السحيقة، حيث ترتفع درجة الحرارة إلى ٦٨°ف (٢٠°م). وإلى الشمال من هذا الحاجز الصعب، تقع منطقة شاسعة من الاستبس (الحشائش المعتدلة) والصحاري، حيث يسقط المطر القليل في فصل الصيف بعكس شمالي الصحراء الكبرى أو صحراء شبه جزيرة العرب.

وجنوبي كوريا، ومعظم جزيرة هونشو تشبه من حيث المناخ شرقي الصين. أما منشوريا وكوريا الشمالية وهوكايدو، فهي أبرد، ذات مناخ يشبه إلى حد كبير مناخ نيويورك وشمالي نيوانجلند، فيما عدا سقوط الأمطار في بعض اجزائها في الصيف أكثر منها في الشتاء. وتتكون سيبريا من قسمين غير متساويين: سهول شرقية واسعة كثيرة المستنقعات تمتد من أورال إلى لينا، وسلسلة من الجبال وأودية الأنهار تمتد من لينا حتى المحيط الهادي[1] وهذا الجزء هو أبرد منطقة في العالم المسكون. وسجلت فيه أدنى درجات الحرارة في العالم، وهي – ٩٠° ف (في فرخونياسك). ورغم أنها لم تكن جليدية في عصر البلايستوسين، إلا أنها كانت باردة برداً شديداً يحول دون سكنى الإنسان فيها في ذلك العصر، إذ لا دليل هناك على أن الإنسان قد سكنها آنذاك. إلا أنه لابد وأن بعض اسلاف الهنود الأمريكيين قد عبر ساحلها في الجزء الاخير من جليد القرم وويسكونسين. لأن بعض السكان قد وصلوا في ذلك الحين إلى أمريكا. وفي ذلك الحين كانت مراكز الجليد الرئيسية تحف بسواحل المحيط الأطلنطي الشمالي، كما أن جليد أمريكا الشمالية وصل المحيط الهادي عن طريق السنة جليدية غير منتظمة. غير أن نهر يوكن لم يكن متجمداً.

وكان ممر برنج في ذلك الحين شقة من الأرض اليابسة، اتساعها ١٣٠٠ ميل من الشمال إلى الجنوب، وهو الآن لا يزيد عمقه على ١٨٠ قدماً. ولابد وأن هذا الممر كان مغلقاً فترة ما، عندما بدأت الثلوج في الذوبان ومياه البحر في الارتفاع، بعد أن يصل انخفاضها من قبل ٤٦٠ قدماً في أثناء فترة جليد قرم وويسكونسين. ولابد وأنه كان من الدفء ومن خلو الثلج بحيث

---

(1) L. S. Berg: Natural Regions of the U. S. S. R. (New York: The Macmillan Company; 1950).

يسمح بمرور بعض الحيوانات، مثل: البيسون، والغنم، والماعز، والوابيتي، والجمل، والحصان. إلى جانب ما هو متلائم للحياة في البرد مثل الماموث والثور الموسكي والرنة، من آسيا إلى أمريكا(١).

ولما كان مستوى الماء في المحيطات ادنى في ذلك الحين عن الوقت الحاضر، فلابد وأن بحر الصين الضحل كان أرضاً يابسة كما كان بحر أوختسك ارضاً يابسة. أما سواحل المقاطعة البحرية شمال فلاديفوستك وشبه جزيرة كماتشتكا أكثر اتساعاً عنها في الوقت الحاضر. وقد كانت مياه هذه الشواطئ دافئة بسبب وجود جسر أرض محل ممر برنج، وهذا الجسر فصل مياه المحيط المتجمد شماله ومنعها من الوصول جنوباً، وربما وجدت بقايا اسلاف الهنود الامريكيين الذين كانوا يصطادون على طول هذه الشواطئ تحت مياه المضيق.

وما أن وصل هؤلاء المهاجرون إلى آلاسكا، حتى فقدنا أي دليل على الطريق أو الطرق التي سلكوها في هجرتهم جنوباً. وكل ما نعلمه عن حركتهم نحو الجنوب إنما هو مجرد اتجاههم العام(٢). وينتشر في الوقت الحاضر مناخ رطب كثير الضباب مثل مناخ شمال غرب أوروبا Cfb فوق جزر المحيط الهادي والساحل الممتد بين فانكوفر حتى جونو. وتهبط بعض الثلاجات المحلية في البحر، وليس من المؤكد أنها كانت تهبط اليه في ذلك الحين. حيث أن مستوى البحر كان أبطأ وربما كان التيار الياباني أكثر دفئاً. وربما وجد مكان بين الثلاجات والبحر، لشعوب الالاكالاف تستطيع خلاله

(1) Charlesworth: op. cit., p. 1237, W. G. Haag: "The Bering Strait Land Bridge", SA, Vol. 206. No. I (1962), pp. 112-23.

(2) H. M. Wormington: Ancient Man in North America (Denver: Denver Museum of Natural History; 1957), Popular Series No. 4, 4th ed., pp. 21 - 9.

أن تشق طريقها إلى كاليفورنيا. كما اقترح أنه في أثناء الفترات الفاصلة بين وقفات الجليد وجد ممر بين ثلج كيواتين في الشرق وثلاجات السلاسل الجبلية في الغرب، وكان هذا الممر يربط وادي يوكون بالسهول التي تقع شرقي جبال الروكي. وليس هذا سوى مجرد تخمين.

وتختلف أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية اختلافاً كبيراً عن كل من أوراسيا وإفريقيا، بسبب وجود عمود فقاري من المرتفعات والجبال يمتد امتداداً شمالياً جنوبياً ويقع في الجزء الغربي منهما. ووجود جبال أقدم وأكثر انخفاضاً في الجزء الشرقي منهما وتنحصر بينهما - ويبدو هذا بشكل أكثر وضوحاً - منخفضاً سهلياً. هذا التكوين يعطي كندا والولايات المتحدة مناخاً شديد القارية، ذا شتاء أكثر برداً، وصيف أكثر حراً عن أي اقليم آخر مناظر له في العالم القديم. كما أنه يعطي ممراً مرتفعاً لطيف الحرارة من جنوب غرب الولايات المتحدة إلى المكسيك، ويستمر هذا الممر جنوباً حتى الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية، فيما عدا ممراً قصيراً من المناخ الدفئ في بناما. وحتى هنا لا يزيد المدى الحراري بين أبرد الشهور واكثرها دفئاً عن ٩°ف (٥°م)(١) وهذا الممر بين الأمريكتين في العالم الجديد يمكن مقارنته بشبيهه في شرق إفريقيا؛ إذ أنهما قاما بنفس الدور.

وأنواع المناخ التي تطور فيها الإنسان القوقازاني قليلة الوجود في العالم الجديد. مناخ غرب أوروبا الجزري C f b محدود جداً في الجزر الساحلية الشمالية الغربية، وما يقترب بها من ساحل واجزاء قليلة إلى الابلاش وسواحل مساشوستس، والسواحل الجنوبية للبرازيل والأرجنتين. وجزء كبير من شيلي ممتد من خط عرض ٣٧° إلى مضيق ماجلان. أما مناخ البحر

(1) James: An Outline of Geography (Boston: Ginn & Co.; 1935). p. 378.

المتوسط بنوعيه (مع صيف حار أو لطيف Csa, Csb) فمقصور على ساحل المحيط الهادي في الولايات المتحدة وكندا والاجزاء الوسطى من شيلي.

لقد وجد اسلاف الهنود الأمريكيين انواعاً من المناخ في أمريكا الشمالية تشبه على وجه العموم المناخ الذي تركوه وراءهم. أما في أمريكا الجنوبية شرقي جبال الأنديس، كما في منخفضات يوكاتان وجواتيمالا وهندوراس البريطانية، فقد وجدوا شيئاً جديداً - الغابات المدارية والسافانا (الحشائش المدارية). وهذه تغطي معظم البرازيل وفنزويلا، وغيانا، من خط عرض ١٠°ش حتى مدار الجدي، وهي تشبه ما هو موجود في إفريقيا غربي المرتفعات على نفس خطوط العرض. ولقد كان جسر برنج الأرضي، وأطراف غطاءات جليد ويسكونسين، والأحراج الرطبة التي تجتاحها الفياضانات فعلاً، والتلال التي تغطيها الآجام، كل هذا قدم تحدياً فسيولوجياً للقادمين الجدد لم يكونوا مهيئين له ولم تكن لديهم وسائل دفاع وراثية ضده.

## العصر الحجري القديم في الصين

من المعتقد عامة أن الصين كانت منعزلة تماماً عن الغرب، وكانت متفتحة ثقافياً فقط على الجنوب من آسيا خلال عصر البلايستوسين كما يعتقد أيضاً أنه قد ظهرت في الصين صناعة حجرية واحدة، قريبة من حضارات جنوب شرق آسيا وجاوه ثم تطورت تطوراً محلياً إلى حد كبير، من الصناعة الحجرية الخشنة إلى صناعة آلات حجرية أكثر دقة، دون تأثير خارجي يذكر. وقد بدأت صناعة حجرية من الآلات الشاطفة وصناعة الشظايا البسيطة منذ بدء ظهور الصين في شوكوتين في أثناء فترة المندل الجليدية، وقد تحسنت هذه الصناعة الحجرية مع مرور الوقت. وربما وجدت

هذه الصناعة بعد فجوة زمنية مقدارها نصف مليون سنة في موقع الكهف الاعلى، الذي يرجع تاريخه إلى نهاية البلايستوسين.

ولم يكن هناك أي تغير ملحوظ من الناحية الجيولوجية في الصين خلال عصر البلايستوسين. وخلال هذه الفترة كانت كتلة الأرض ترتفع باطراد وثبات، وحرارة الجو تنخفض بالتدريج، أو من العسير أن نحدد متى بدأ البلايستوسين ومتى انتهى. ولاسيما عندما لا يكون لدينا تاريخ يعتمد على أرجون - ٤٠، وكربون ١٤. وعلى أية حال فلم تكن هناك احداث ضخمة مثلما كانت في أوروبا كان من شأنها أن تدفع بهجرات واسعة من السكان.

ولاتزال معلوماتنا عن المؤثرات الخارجية في الصين خلال عصر البلايستوسين ضئيلة. غير أنه عثر على آلات حجرية في تنج تسون TING TSUN - في شاني على ضفاف نهر فن. وهذه تشبه - على ما يبدو - الآلات الموستيرية التي وجدت في ازبكستان وشمالي أفغانستان. وقد قال بوشنل وماكبرني عن هذه الصناعة: «أن هذه الصناعة، التي لا تستطيع سوى العين المدربة فقط أن تلحظ أثر الآلات الشاطفة فيها، ترجع بما لا يدع مجالاً للشك إلى العصر الحجري القديم الاوسط بالمعنى السائد في الغرب»[1] فإذا صح قول هذين العالمين، فإن وجود هذه الصناعة في شمال الصين ليحمل دلالات بعيدة المدى. بل أنها لتدل على أن إنسان نياندرتال قد توغل عميقاً في الصين قبل مغادرة اسلاف الهنود الأمريكيين لها. وربما فسر هذا الغزو وجود بعض الصفات النياندرتالية التي ترى في الهنود والأمريكيين الحاليين، وفي بعض المغولانيين المتطرفين مثل الناجاسي الأساميين كذلك.

والصعوبة التي تقابلنا بالنسبة لهذه النظرية هي أننا لا نعلم على وجه

---

(1) Bushnell and McBurney: "New World Origins Seen from the Old World". The quotation is on page 100.

الدقـة عـمـر هذا الموقع تمامـاً. فـمكتـشـفـه يقـول أنه يرجع إلى اواخـر البـلايستـوسين الاوسط(١). أما موفيوس فيضعه في الفترة غير الجليدية الاخيرة(٢). هذا إلى أن بوشنل وماكبرني يقولان أنها ترجع إلى تاريخ أحدث بقليل من مـوقـعين آخـرين في اوردوس، وهذان الموقـعـان يحـتـويان على سكاكين صغيرة وآلات حجرية ثاقبة(٣). وإذا فحصنا هذه التواريخ الثلاثة، وجدنا أن التاريخ الذي يقترحه موفيوس هو افضلها ملاءمة لنظرية الأثر الثياندرتالي في الهنود الأمريكيين. وهذه النظرية لا يمكن اثباتها أو نقضها بما لدينا من هياكل عظمية ترجع إلى عصر البلايستوسين – وهذه ناقشناها في الفصل العاشر من كتاب «أصل السلالات» – إلا أنه تبقى هناك حقيقة معينة، وهي أن الكهف الذي في شوكوتين يحتوي على هيكل عظمي لرجل يشك في أن تاريخه يرجع إلى نهاية البلايستوسين. وأن هذا الهيكل العظمي لا يمكن تمييزه عن أي هياكل عظمية للهنود الأمريكيين.

أما المواقع التي عثر فيها على سكاكين حجرية ومخارز، والتي أشرنا اليها من قبل، فهي تقع في اقليم أوردوس المغطى بتربة اللويس في الوادي الاعلى للنهر الأصفر على بعد ألف ميل فقط من شواطئ بحيرة بايكال، التي عثر في شواطئها على موقع به صناعات شبيهة، لسنا متأكدين من تاريخها. وبالرجوع إلى ج. ف. دييتز فقد عثر على عظمة جبهة واحدة في أحد هذه المواقع، وهو افونتوفا جورل ويتصل بها عظام الأنف، وشكل هذه العظام يوحي بوجود خسف بين فجوتي العين. ويعتمد دييتز على هذا الأثر الضئيل

---

(1) Cheng: Vol. I, pp. 24-6.

(2) Movius: "New Paleolithic Sites near Ting Ts'un on the Fen River, Shansi Province, North China", Quaternaria, Vol. 3 (1956), pp. 13-26.

(3) Bushnell and McBurney: op. cit.

ويتخذه دليلاً على التوغل المغولاني في سيبريا في ذلك الحين(٢). وسواء كان هذا العالم مصيباً في رأيه أو غير مصيب، فالاستمرار الاركيولوجي بين هذين الاقليمين اللذين يقعان على جانبي خط موفيوس يقدم لنا امكان التبادل في المورثات بين القوقازانيين والمغولانيين، ذلك التبادل الذي استمر منذ ذلك الحين.

## الصين بعد عصر الجليد

رغم أن الصين بعيدة جداً عن حافة أي غطاء جليدي فإن مناخها تغير في نهاية البلايستوسين، فقد كانت الأشجار والغابات تغطي السهل القفر الموجود في شمال الصين، كما كانت بطون الأودية تغطيها المستنقعات. وقد قامت حضارتان ترجعان إلى العصر الحجري المتوسط في الشمال في كثبان جوبي الرملية، وواحاتها وفي اقليم الغابات الممتد من اعالي النهر الأصفر حتى منشوريا، وكانت كل منهما متأثرة بالغرب.

ويمكن تقسيم بقية الصين جنوبي جبال تسنلنج إلى قسمين اركيولوجيين، يقسم كل منهما بدوره إلى اقليمين حسب كمية المطر الساقطة عليه. ويمتد أحد القسمين ليشمل الجبال الغربية ثم يعبر جنوبي الصين حتى البحر في مقابل جزيرة فورموزا. وقد ساد هذا القسم ثقافة تمتاز بالأواني الفخارية المجدولة وفئوس حجرية مشطوفة أو مشظاة، ذات حافات قاطعة، من طراز يسمى هوانبهي نسبة إلى موقع في فيتنام، وما لبث هذا الطراز أن حمل إلى جنوب شرق آسيا واندونيسيا. وقد عبر الانثروبولوجيون الصينيون عن وجهة نظرهم في أصحاب هذه الصناعة، وقالوا أنهم كانوا «زنجانيين»

---

(1) G. F. Debetz: Palaeontropologiia SSSR, TIE, n. S, Vol. 4 (1948).

(أو استرالانيين في تعبيرنا)، وأن هذه السلالة وصلت شمالاً حتى جبال تسنلنج، ولكن هذا لم يقدم أي دليل جاد. إذ يقتصر هذا الدليل على بقايا جمجمية مشكوك في تاريخها، عثر عليها في كوانجسي، ويظن أنها تحمل تقاطيع غير مغولانية في عظام الأنف وعظام الوجنات[١].

ومهما يكن من شأن هذا الشعب صاحب حضارة الفخار المجدول وإنا لنظنهم مغولانيين كلهم أو معظمهم - فانهم وزعوا بعد ذلك نحو الجنوب تحت ضغط الصينيين الشماليين الذي تعلموا الزراعة وبدءوا في الانتشار جنوباً، ولاسيما من ناحية السهل الشرقي، حيث أدخلوا زراعة الرز قبل عام ١٥٠٠ ق.م. ومن ثم حملوها إلى جنوب شرق آسيا.

وليس لدينا حتى الآن هياكل عظمية ترجع إلى العصر الحجري الحديث تحدد هذه الهجرات[٢]، ولكن لدينا تقرير كامل عن ٨٤ هيكلاً عظمياً ترجع إلى عصر النحاس والبرونز، عثر عليها في كانسو وهونان، وهذه يمكن مقارنتها بالجماجم الحديثة الموجودة في شمالي الصين[٣]. وقد كانت الجماجم القديمة مغولانية ذات رأس متوسط، ولا تختلف عن جماجم الصينيين الحديثة في شمال الصين. وتوجد من بين هذه الجماجم جمجمتان

---

(1) Chia Lan-po and Woo Ju-Kang: "Fossil Human Skull Base of Late Paleolithic Stage from Chilinshan, Leipin District, Kwangsi, China", VP, Vol. 3, No. I (1959), pp. 37-9.

(٢) اكتشفت بعض الجماجم ولكن لم تنشر مقاييس أي منها، انظر :
Hsai Nai "Our Neolithic Ancestors", in CR, vol. 5, No. 5 (1956), pp. 24-8.

(3) D. Black: A Study of Kansu and Honan Aeneolithic Skulls and Specimens from later Kansu Prehistoric Sites in Comparison with North China and Other Recent Crania, PS-D. Vol. 6, Fasc. 1 (1928). Part I. On Measurement and Identincation.

عثر عليهما في كانسو، لهما تقاطيع وجه أقل فلطحة من غيرهما، أي أنهما تحملان آثار الصفات القوقازانية، ولكنها لا تزال في نطاق الجماجم المغولانية.

وهناك مجموعة من الجماجم الصينية قديمة تتكون من عينات أخذت من مقابر الضحايا في ليانج وترجع إلى عصر شانج. وقد وجد أن الصفات القوقازانية تتمثل في جمجمتين لامرأتين على الأقل، وتبدو هذه الصفات في شكل فجوة العين وعظمة الأنف. وهناك جماجم قليلة أخرى تمتاز بالرأس العريض، والصفات المغولانية المتطرفة، مثل جماجم البوريات الحديثة. أما بقية الجماجم فهي من الطراز الصيني الشمالي العادي، تمتاز بالرأس المتوسط والوجه المعتدل الطول المفلطح(١). أما عن جنوبي الصين فلا توجد جماجم يمكن مقارنتها بالجماجم الحديثة.

## اليابان قبل التاريخ

لقد تأخر البحث في عصر ما قبل التاريخ في اليابان، ولكنه ما لبث أن نشط أخيراً. ومن ثم فأي تلخيص لهذا العصر بالنسبة لليابان سوف يحتاج إلى مراجعة قبل أن يجف مداده(٢). ونستطيع أن نقول بوجه عام أن هونشو

(1) Coon, "An Anthropogeographic Excursion around the World", HB, Vol. 80 No. I (1958), pp. 29-42.

(2) J. Maringer: "Einige foustkeilartige Gerate von Gongenyama (Japan) und die Frage des Japanischen Palaolithikums", Anthropos, Vol. 51 (1956) pp. 175-93"; Some stone Tools of Early Hoabinhian Type from central Japan", Man, Vol. 57, No. I (1956) pp. 1-4; "Die Industrie von Iwajuku (Japan), und ihre kulturelle Einordnung", Anthropos, Vl. 52 (1957), pp. 721-31. J. E. Kidder, Jr.: "Japan" AP. Vol. I No. 1-2 (1957), pp. 28-30. C. Serizawa an and F. Ikawa: "The Oldest Archaeological Materials from Japan, AP, Vol. 2, No. 2 (1958), pp. 1-39.

والجزر الجنوبية تكون اقليماً واحداً، بينما تكون هوكايدو اقليماً آخر، رغم وجود بعض التداخل الثقافي. وربما كانت الجزر الثلاث الجنوبية متصلة بعضها ببعض، كما أنها كانت متصلة باليابس الآسيوي عن طريق كوريا – في حين كانت جزيرة هوكايدو متصلة بآسيا عن طريق سخالين. وربما كان هذا هو السبب في وجود الفوارق الثقافية بين الاقليمين.

وأقدم الثقافات التي عرفت في هونشو هي الثقافة التي تسمى بثقافة جونجنياما وهي تتكون من آلات الشطف والقطع، وشظايا خشنة غير مشظاة ولما كانت بعض الآلات القاطعة ذات حافة مدببة أو مستديرة، فإن مارنجر يرى فيها تقاليد الفأس اليدوية المشتقة مباشرة من جاوة، واخيراً من الهند كما سنشرح في الفصلين التاليين. وبعد ذلك جاءت ثقافتان على الخط الهوابتهاني، تمتازان بآلات الشطف والقطع، ثم جاءت ثقافتان اخريان متتاليتان تسميان ثقافة ايواجوكو ١، ٢. ثم تأتي بعد ذلك صناعة الفخار المجدول من نفس الخط العام الذي كان موجوداً في جنوب غرب الصين، والصين الجنوبية وفرموزا، ولكنها كانت ذات معالم أكثر تميزاً وهي هنا تسمى ثقافة جومون، وهي تقسم إلى الاقدم فالقديمة فالوسطى فالمتأخرة. كما وجد معها أسلحة مصنوعة من الشظايا المضغوطة ومكاشط دقيقة تشبه أظافر الابهام. ورؤوس سهام مجنحة وجعب دقيقة الصنع لحفظ السلاح. وبعد ثقافة جومون ظهرت ثقافات يايوي Yayoi في كوريا وهي ذات طراز من الفخار مقترن باشياء مصنوعة من البرونز والحديد معاً.

أما التتابع الحضاري الشمالي فمركزه هوكايدو، وقد بدأ بتجميع آلات كبيرة مصنوعة من الاوبسديان، ويشمل سكاكين ومكاشط، ثم تستمر إلى صناعة الأسلحة والمخارز، ثم بسهام ذات وجهين، ثم فخار جومون بما معه من صناعات، وهذه الصناعة تشبه حضارة العصر الحجري القديم في

أفغانستان من ناحية، وبالصناعات الهندية الأمريكية العتيقة (التي ترجع إلى العصر الحجري القديم) من ناحية. ثم مع مجموعة صناعات وولاند.

ولكن هذا التشابه لا يمكن أن يتخذ دليلاً على وجود اتصالات مع كل من وسط آسيا وأمريكا، فهناك حلقات وسطى عديدة مفقودة، كما أن الصناعات اليابانية إما أنها لم تؤرخ بعد، أو أن تاريخها متنافر غير منسق. ولم يؤرخ بطريقة كربون ١٤ سوى ثقافة جرمون. وقد رجعت هذه الطريقة بتاريخ أقدم مرحلة من مراحل ثقافة جرمون في هونشو إلى عام ٧٥٠٠ق.م. و ٦٤٥٠ ق.م وهو أقدم تاريخ للفخار في العالم[1] وقد أرخ نفس الفخار في هوكايدو بحوالي ٥٧٠٠ق.م[2]، وهو أيضاً لا يزال أقدم من أي فخار آخر. وتاريخ ثقافة جومون الوسطى في هونشو هو ٢٥٦٠ق.م. كما أن تاريخ جومون «الأحدث» هو ١٢٢٠ق.م[3]. أما تاريخ ثقافة يايوي بمقارنتها بكوريا والصين، فهو يرجع إلى قبيل ظهور المسيح مباشرة.

أما كيف يرتبط هذا التتابع الحضاري في اليابان بغيره من المناطق فأمر لم يتم بعد، ولا نزال ننتظره. وعلى أية حال فالاركولوجيون قد بدأوا لا يرون في اليابان طريقاً مسدوداً، بل على العكس، فهي ذات ثقافات متنوعة، تزدحم بالحركة في عصر البلايستوسين المتأخر واوائل عصر ما بعد البلايستوسين. بل أن هناك من يرى وجود روابط سلالية وثقافية مع الاسترالانيين والقوقازانيين إلى جانب الاقاليم المغولانية.

---

(1) Kidder: "Japan", AP, Vol. 4 (1960), pp. 21-34. Ibid.

(2) Ibid.

(3) T. Oba and C. S. Chard.: "New Dates for Early Pottery in Japan", AP, Vol. 6 (1962), pp. 75-6.

أقدم المواد الحفرية التي وجدت في اليابان تتكون من عظمة عضد صغيرة جداً[١]، وجمجمة[٢] وجدتا في موقعين مختلفين يرجعان إلى عصر البلايستوسين. ولا يعرف سوى القليل عن دلالتهما السلالية ووجدت جمجمة واحدة على الأقل ترجع إلى أصحاب ثقافة جرمون القديمة[٣] كما توجد دراسة مفصلة منشورة لأربع وثلاثين جمجمة لأصحاب ثقافة جومون المتأخرة[٤]. ولا توجد بقايا عظمية ترجع إلى فترة يايوي الحرجة، ولكن توجد لدينا خمس سلاسل من الجماجم تسجل التغيرات التي حدثت في جماجم اليابانيين من القرن الرابع إلى القرن التاسع عشر الميلادي[٥] وثلاث سلاسل حديثة نسبياً تمثل الآينو[٦] وقد قال سوزوكي عن نماذج جومون أن

---

(1) H. Suzuki and F. Takai: "Entdeckung eines Pleistozänen Huominiden Humerus in Zentral-Japan", A Anz, Vol. 23, No. 2-3 (1959), pp. 224-35.

(2) Suzuki, in 1960 press release.

(3) Coon: "An Anthropogeographic Excursion Around the World.

(4) T. Sakakibara: Kraniologie der Otoshibe-Aino, Sonderabdruck von Crania Ainoica, Sapporo, 1940.

(5) Suzuki: "Changes in the Skuil Teatures of the Japanese People from Ancient to Modern Times", FICA (1956), pp. 717-24' "Changes in the bodiiy features of the Japanese people from the protohistoric to the present time" (in Japanese, in "Papersin Memory of the Hundredth Anniversary of the Publication Darwin's Origin of Species"(Tokyo, 1960), pp. 140-6. Suzuki H. Sakura, T. hayashi, G. Tanabe, and Y. Imai: "Craniometiy of the Japanese Skulls of the Final Edo Era", ZZ, Vol. 70 No. 733 (1962), pp. 47-120.

(6) Sakakibara; op. cit.

الهياكل العظمية لأصحاب حضارة العصر الحجري الحديث تختلف عن هياكل العصر قبيل التاريخي اختلافاً بلغ من مداه حداً يجعلنا نتساءل ازاءه ما إن كانت هناك علاقة بين أصحاب كل من الحضارتين أم لا(١).

وتمثل جماجم جومون الشعب الذي كان يعيش في اليابان قبل عصر يايوي. كما أن جماجم العصر قبيل التاريخي تمثل اليابانيين في عصر ما بعد يايوي. فعصر يايوي إذن بدأ بحركة سكانية حقيقية وليس بمجرد انتشار ثقافي. وجماجم جومون تمتاز بقواعد أكبر وانخفاض اغطيتها وعظم محيطها وكبر وجوهها واتساع ما بين محاجر العيون. وذلك كله أكثر مما هو موجود في أي جماجم ترجع إلى ما بين القرنين الرابع والتاسع عشر وهي في هذا تشبه جماجم الآينو، وكلها ترجع إلى عصر حديث نسبياً. وليس معنى هذا أن الشعب الياباني كان ببساطة الاسلاف الوحيدين للاينو الحاليين، ولكنه يدل على وجود شكل من اشكال التبادل في الموروثات. ويمكن أن نفترض أن اليابان عامة كانت وحدة سلالية وثقافية واحدة قبل الغزو اليايوي، أكثر مما كانت بعده، ذلك اعتماداً على فخار جومون الذي وجد في هوكايدو كما وجد أبعد من هذا في الجنوب.

وبعد الغزو اليايوي، أصبحت وجوه اليابانيين أكثر استطالة باطراد، لها أنوف أضيق، ومحاجر عيون أشد اقتراباً بعضها من بعض، وغطاء جماجم أقصر وأكثر ارتفاعاً. أي أن عنصراً سلالياً يشبه العنصر التركي الكوري قد دخل البلاد، مع الخيل والحديد، وأن هذا العنصر كان أشد ظهوراً في المدن، وفي طبقة الساموراي. كما أنه كان يزداد عدداً.

ورغم اختلاف موطن مجموعات الجماجم التي تنتمي إلى الآينو، والتي

(1) Suzuki: "Changes in the Skull Features of the Japanese People from Ancient to Modern Times", p. 717.

درست، فانها جميعاً أقرب إلى تمثيل المثال الجوموني أكثر من أي جماجم يابانية ترجع إلى العصر المسيحي. وأقرب النماذج شبهاً بطراز جومون سجلت في جزيرة اتوسيبه، وهي قرية صيد صغيرة تقع على الحافة الجنوبية لشبه جزيرة هوكايدو. وتبين مجموعة هوكايدو مركزين مختلفين في ارتفاع الرأس، مما يشير إلى أن بعضها من الآينو الانقياء، والبعض الآخر نتيجة اختلاط اليابانيين بغيرهم من الشعوب. وجماجم آينو سخالين تمتاز بأنها صاحبة أكبر الوجوه، كما تستطيع أن تنتظر من موقع الجزيرة الجغرافي.

## الادلة الاثرية للاصول السلالية
## في العالم الجديد

لا تزال تفاصيل تعمير العالم الجديد بالسكان سراً لم يكشف عنه بعد. فكل ما نعرفه هو أن مخلوقات بشرية قد دخلت الاسكا من آسيا قبل جليد القرم ويسكونسين بوقت طويل، أي منذ ٣٠,٠٠٠ إلى ٤٠,٠٠٠ عام مضت، أو على الاقل منذ ١٥,٠٠٠ عام طبقاً للتقديرات المختلفة لتاريخ المواقع التي تقع في الجنوب، والقائمة على أدلة لغوية وغيرها من انماط الادلة[1]. وقد شقت الجماعات البشرية طريقها بوسيلة أو أخرى نحو الجنوب، ودخلت جنوب غربي أمريكا وكاليفورنيا، كما وصلت فنزويلا منذ حوالي ١٣,٠٠٠ عام على الاقل ثم وصلت ممر ماجلان منذ ٨٠٠٠ عام - وهذا تقدير أقرب إلى الصحة.

وأقدم ما عثر عليه في آلاسكا آلات حجرية ومخارز دقيقة الصنع لثقافة ظهرت ما بين ٤٠٠٠-٢٢٠٠ ق.م. كما يدل على ذلك عدد من اختبارات

(1) J. d. Jennings and E. Norbeck, eds.: Prehistoric Man in the New World (Chicago: University of Chicago Press; 1964).

كـربون ١٤(١) وهذه الثقافة تقارن بمثيلتها في هوكايدو، التي ربما اقترنت بها. وربما لم يكن ثمة علاقة بينهما. وهي من الحداثة بحيث لا يمكن أن توضع في مرحلة التعمير الاولى لأمريكا. وعلى أية حال فربما كانت ذات علاقة بأصل الاسكيمو.

ومن الممكن معرفة ثلاثة نماذج اركيولوجية في العالم الجديد ترجع إلى ما قبل عصر الزراعة.. الاولى ثقافة تمتاز بآلات شطف خشنة، وفئوس قاطعة، وشظايا تشبه مثيلتها في الصين. وكانت هذه الثقافة مقصورة على منطقة الحوض الكبير والهضبات التي تمتد من اوريجون جنوباً بقرب إلى المكسيك. وأقدم تاريخ لها يرجع إلى حوالي ٩٠٠٠ ق.م. وقد قدر هذا التاريخ من مادة جمعت من كهف دانجر في يوتاه. وقد ظلت باقية حتى العصر الحديث تحملها القبائل الحالية مثل البيوت الشماليين. وانتشرت جنوباً على طول ساحل المحيط الهادي لأمريكا الجنوبية حتى ممر ماجلان. وقد ظلت بعض عناصرها بين قبائل الشانوس والألاكالوف.

أما الثقافة الثانية فهي تعتمد على صيد الحيوان الكبير، وتوجد بقاياها في مواقع شرقي الروكي مباشرة، تمتد من ويومنج إلى المكسيك. وتمتاز هذه الثقافة بآلات حجرية مصنوعة من الشظايا المضغوطة، ورءوس حراب ذات حدين. ويرجع تاريخها إلى الفترة الثانية لتقدم جليد ويسكونسين المعروف باسم فالدر أو مانكيتو وأرخت ست مواقع منها بطريقة كربون ١٤ منجو ٩٣٠٠ + ٣٦٠ ق.م(٢) وقد عثر على رءوس السهام شرقاً في ابسويتش

---

(1) J. L. Giddings: The Archaeology of Cape Denbigh (Providence, R. I.: Brown University Press; 1964). Dates are on p. 248.

واني لانقل تواريخ غير منشورة.

(2) C. V. Haynes, Jr. "Fluted Porjectile Points: Their Age and Dispersion". Science, Vol. 145, No. 3639 (1964), pp. 1408-13.

مساشوستس، حيث كان الصيادون يطاردون الماموث، كلما تقهقر الجليد. وهذه الثقافة المتقدمة إما أنها دخلت من سيبريا من أصل سولتري قديم كما يقول بوشنل أو ماكنبري(١)، وإما أنها نشأت نشأة مستقلة في العالم الجديد، كما يقول شارد(٢). ونحن لا نزعم معرفتنا أي الفرضين صحيح.

أما الثقافة الثالثة فهي ثقافة الغابة (وودلاند)، وتمتاز بفخار يشبه فخار شمال آسيا، وفئوس يدوية وسكاكين مشظاة من الوجهين، ورءوس سهام. وهذه الثقافة ملأت الفجوة الكبيرة بين ثقافات شمالي أمريكا الشمالية وثقافات شمال شرقيها، بعد أن تقهقر الجليد وبدأت ثدييات البلايستوسين الضخمة في الانقراض. ويدل تجانسها الثقافي على أنها وفدت حديثاً إلى الاقليم، وبوجود اسرتين لغويتين فقط يتحدث بهما الهنود الحاليون، وهما: الجونكية وآتابسكيه، هذا فيما عدا اللغة الايروكوانية التي دخلت حديثاً ولغة بوتوكان في نيو فوندلاند المنقرضة التي لم تكد تترك أثراً.

وربما اضيف إلى هذا ثقافات الاسكيمو على الحافة القطبية، من سيبريا حتى جرينلندة وما يتصل بها من ثقافة الألوت، وهي كلها - على ما يبدو - تطورت من ثقافات اقتصاد العصر الحجري الحديث التي ظهرت على ساحل المحيط الهادي، والتي تعتمد على صيد السمك وقنص الثدييات المائية(٣). كما أن هذه الثقافات تذكرنا ببعض المظاهر المادية لثقافة هوكايدو.

وليس من غرضنا الاثقال على القارئ بدروس في الآثار، ولكننا نحاول أن نكتشف أصول الهنود الأمريكيين والاسكيمو، ونتتبع خيوطاً معقدة شديدة التشابك. وتدل الادلة المختلفة على أنه رغم المصدر الوراثي المغولاني لكل

---

(1) Bushnell and McBurney: op. cit.

(2) Chard: op. cit.

(3) Levin: Ethnic Origins of the Peoples of Northeastern Asia, AITR, No. 3 (1963), Chapter 4, pp. 192-233.

منهما، إلا أن هذا لا يعني أن شمال شرقي آسيا لم تكن نقطة التقاء العناصر الاسترالانية التي زحفت من سلاسل جزر المحيط الهادي نحو الشمال من ناحية، والعناصر القوقازانية التي تخطت خط موفيوس، ولاسيما عن طريق نهر آمور من ناحية أخرى. ولا نقول أن هجرات متتابعة من البشر مختلفة الاصول قد دخلت أمريكا الواحدة بعد الاخرى، واحتفظت كل منها بسماتها السلالية بعد وصولها اليها. فهذه الفكرة الواسعة الانتشار قد جاءت نتيجة سوء تفسير لتحليل انماط مجموعات من الجماجم لهنود الجنوب الغربي(١)، وهذا تفسير لم يقصد اليه المؤلف قط. ولكننا نرى أنه من الممكن أن تكون بعض العناصر السابقة للمغولانية قد اسهمت في تكوين وعاء أو اوعية المؤثرات التي دخلت أمريكا في العصور السابقة لكولومبس. أما عن الاتصالات البحرية التي حدثت فيما بعد، فهذا شيء آخر، وأفضل دليل على أن البحارة قد عبروا المحيط الهادي ووصلوا أمريكا هو اكتشاف فخار على طول ساحل اكوادور يشبه فخار ثقافة جومون الوسطى وتاريخها يدل على أن هذه الهجرة قد حدثت حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م(٢).

أما عن البقايا العظمية للإنسان القديم في أمريكا فليس عندنا الكثير مما يمكن أن يقال. فهناك جماجم قليلة قديمة، وهياكل عظمية أقل عدداً، وليس منها ما هو بعيد عن هياكل وجماجم الهنود الأمريكيين الحاليين أو الاسكيمو. ويدعي بعض العلماء أن جماجم لاجواسانتا Lagoa Santa البرازيلية، وبعض جماجم اكوادور، وجماجم تحمل بعض صفات ميلانيزية أو استرالانية، غير

(1) E. A. Hooton: Indians of Pecos (New Haven: Yale University Press; 1930).

(2) E. Estrada, B. J. Meggers, and C. Evans: "Possible Trans-speacific Contact on the Coast of Ecuador". Science, Vol. 135, No. 3501 (1962, pp. 371-2, The date is (W-631) 4550≠200 B. P.

أن اوشنسكي يرى أنها جميعاً مغولانية صرفة، وذلك من شكل عظام الوجنات وأنها تختلف اختلافاً تاماً عن الجماجم الميلانيزية والاسترالانية في هذا الخصوص[١]. كما أن ست هياكل عظمية اكتشفت حديثاً في وادي تهواكان بالمكسيك، ويرجع تاريخها بوساطة كربون ١٤ إلى ٦٨٠٠ق.م. - ٥٠٠٠ ق.م. وكلها تحمل الصفات المغولانية[٢]؛ كما أن الهياكل العظمية العديدة التي جمعت من انحاء الأمريكيتين ودرست دراسة جيدة، وترجع إلى عصر ما بعد الكشف الكولومبي كلها تحمل أدلة على حركات محلية للسكان، وقليل منها ما يحمل أي مفاجآت، وسنشير إلى بعض هذه الهياكل إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

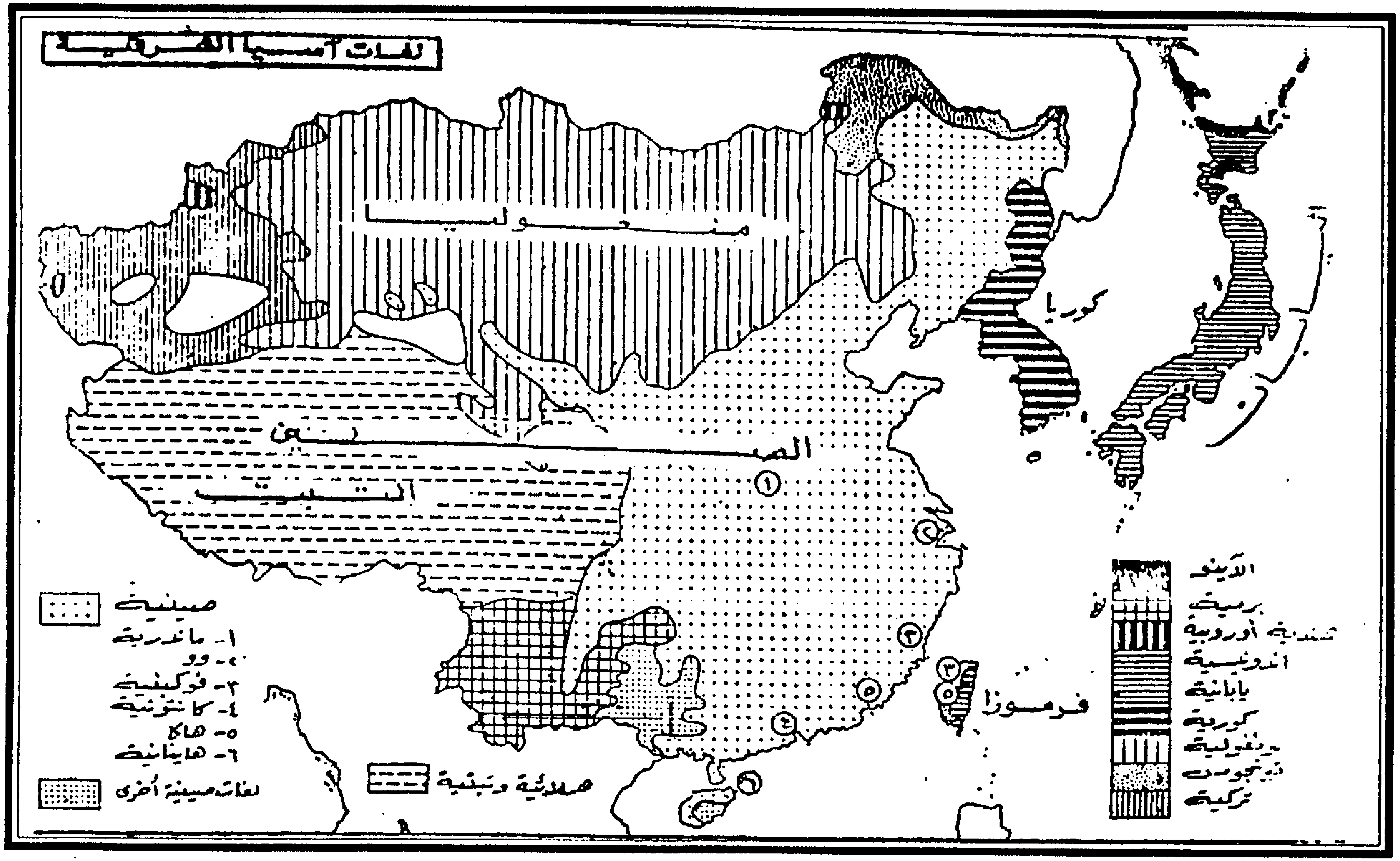
## لغات آسيا الشرقية[٣]

فيما عدا اللغات الطائية Altaic التي يتحدث بها فيما بين البحر المتوسط حتى المحيط الهادي، فإن لغات آسيا الشرقية، لا علاقة لها مطلقاً بلغات الوطن القوقازاني، أو باللغات الإفريقية. ويمكن تقسيمها عامة حسب خطوط العرض إلى أربع زمر، من الشمال إلى الجنوب.

(1) Oschinsky: "The Supposed Melanesian Affinities' of Ancient New World Mongoloids", paper read at 33rd AAPA Conference, Mexico, D. F., June 21-5, 1964.

(2) J. E. Anderson: "The Skeletons from Tehuacai., Mexico: A Preliminary Report", paper read at 33rd AAPA. Conference D. F., June 21-5, 1964.

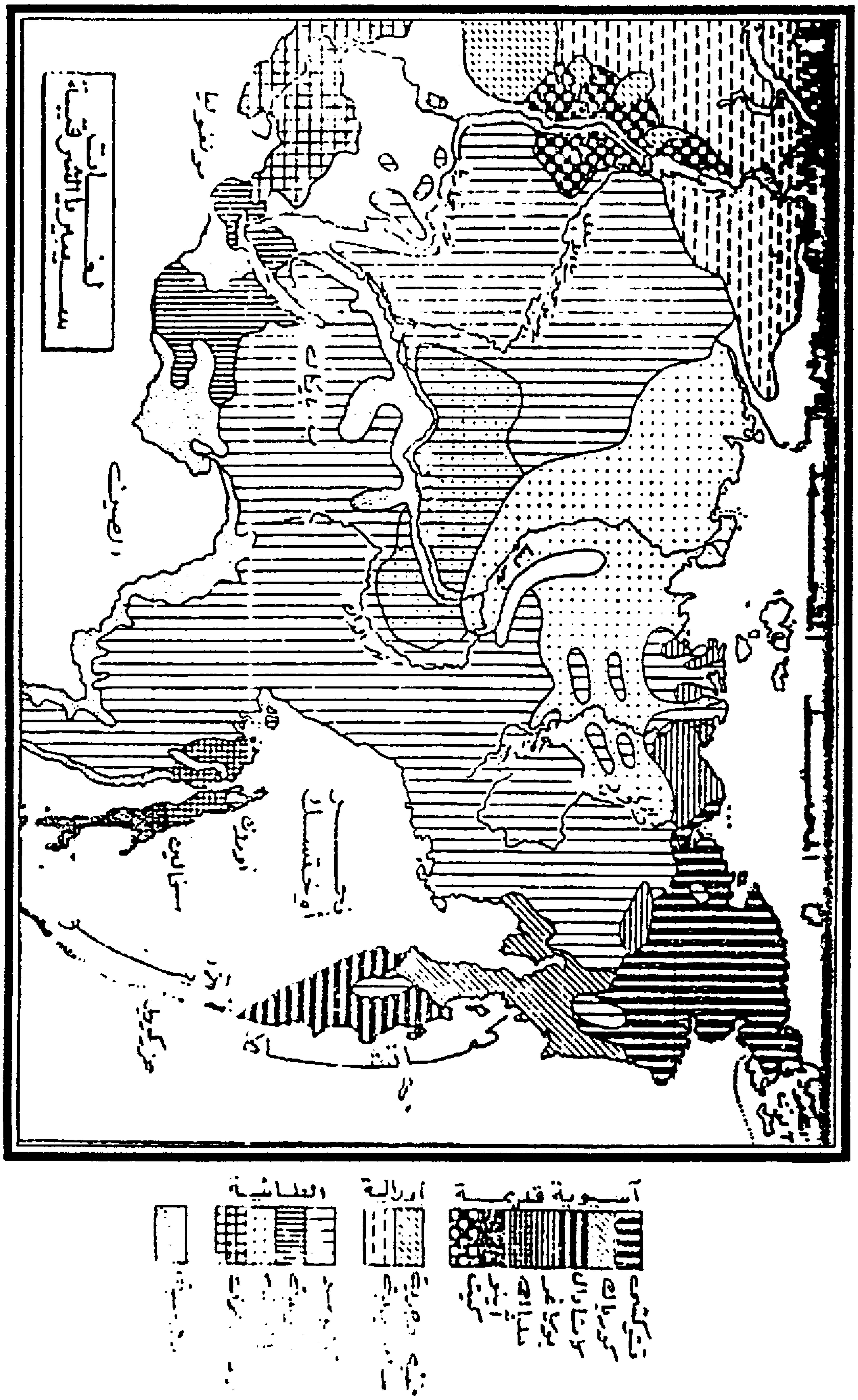
(3) The principal sources used in this section are Trager's "Languages of the World". in Collier's Encyclope dia. T. Sebeok: "Languages of the World' Sino - Tibetan Fascicle One", AL. Vol. 6, No. 3 (1964), pp. 1-13. Meillet and Cohen' Les Langues du monde. Atlas Narodov Miri (Moscow, 1964).


لغات آسيا الشرقية
منغوليا
الصين
التبت
كوريا
اليابان
فرموزا
صينية
١- ماندرية
٢- وو
٣- فوكينية
٤- كانتونية
٥- هاكا
٦- هاينانية
لغات صينية أخرى
هملائية وتبتية
الآينو
برمية
هندية أوروبية
اندونيسية
يابانية
كورية
منغولية
تركية

في أقصى الشمال توجد اللغات الأوجرية Ugrian التي ذكرت في الفصل الثالث، وهي لغات الساموید، ومجموعة تونجوس - مانشو واللغات الآسيوية القديمة، وكلها - فيما عدا الاخيرة - لغات أورالية الطائية. أما اللغات الآسيوية القديمة التي لم تعرف بعد أنها تنطوي تحت قسم واحد، فهي تشتمل على أسرتين ومجموعة لغوية واحدة منعزلة. أما الأسر فهي اليوكاغير أو الأودول والشوكشيان. واليوكاغير لغة واحدة، أما الشوكشيان فتشمل الشوكشي والكورياك والكامشدال وربما الجلياك (النفخ Nivkh) والآينو. ومجموعتها اللغوية تسمى الينسيه Yenieian أو الكيت Ket ولا يعرف نسبها. وقد اوردنا في الجدول رقم ٥ أسماء هذه الاسر اللغوية كما ينطقها الروس، حتى يسهل على من تعود قراءة أسماء اللغات في الكتب الروسية فهمها. ويتحدث معظم هذه اللغات الآن جماعات قليلة العدد جداً، كما حلت الروسية محل لغتين منهما أو كادت، وهما الينسيه والكامشدال.

والنطاق اللغوي التالي هو نطاق اللغات: التركية، والمغولية، والتنجوسية، والكورية، واليابانية. اللغات الثلاث الاولى الطائية. أما الكورية واليابانية فقد استعارت كل منهما كثيراً من الصينية. فانها يمكن أن تعتبر في النهاية ذات أصل تونجوسي مثل لغة المانشو.

وإلى الجنوب من ذلك توجد مجموعة اللغات الصينية. وهي قسم كبير، قسمه سيبوك Seboek بدوره إلى تسع أسر متساوية: (١) صينية هان (٢) مياو - ياو (٣) كام - ثاي (٤) برميه (٥) كارين (٦) بودو - ناجا ١- كاشين (٧) ناجا - ٢ شين (٨) جيارونج - ميسر (٩) التبتية. وأكثر انتشاراً في المنطقة هي اللغة الصينية واللغة التبتية. واللغة الصينية نفسها تنقسم إلى لغة المالدورين الرسمية في الشمال، ولغة وو في وادي اليانجتسي الاسفل، واللغة الكانتوية والمهاينانية والفوكدنية والهاكا. كما تنتشر اللغتان الاخيرتان في فرموزا.


آسيوية قديمة
أورالية

وقد نشأت كل من أسرة مياوياو وكام ثاي اللغوية شمالي موطنهما الحالي في وسط أو شمالي الصين، ثم استمرت في الزحف جنوباً مع امتداد وتوسع الامبراطورية الصينية. وهما الآن تنتشران انتشاراً واسعاً في جنوب شرق آسيا. ويقتصر الحديث بها في جنوبي الصين وجنوبها الغربي على القبائل المنعزلة على الحافات والسفوح المطلة على أودية الأنهار، التي يسكنها المتحدثون بالصينية. أما اللغات رقم (٤) و (٨) في قائمة سيبوك فهي تنتشر في بورما والهند.

### اللغات الهندية الأمريكية(١)

عندما وصل كولومبس إلى أمريكا، كان بها ٢٠ مليوناً من البشر يتحدثون ٩٠٠ لغة، أي بمعدل ١١,٠٠٠ شخص لكل لغة. وكانت بذلك أكثر أجزاء العالم تنوعاً وتعدداً في اللغات وذلك بعكس آسيا الشرقية تماماً. ومن العجيب أن هذا التعقيد الذي يمتاز به العالم الجديد كان معروفاً قبل أن يعرف أي شيء آخر عنه. ونحن نعرف الآن أن اسلاف الهنود الأمريكيين لم يستطيعوا الوصول إلى الأمريكيتين إلا عن طريق ممر برنج. ليس بالضرورة قبل ١٥٠٠٠ سنة وليس بالتأكيد قبل ٣٠٠٠٠ سنة. ونحن نعرف أن هؤلاء

---

(1) Trager: op. cit. J. W. Powell: "Indian Linguistic Families North of Mexico", BAE, 7th Annual Report for 1891 (1892), pp. 1-142; E. Sapir "Central and North American Indian Languages", Encyclopaedia Britannica, 14th ed. (1929), Vol. 5, pp. 138-41. S. Tax: "Aboriginal Languages of Latin America", CA. Vol. 1, No. 5-6 (1960), pp. 130-6. M. Swadesh, in Discussion and Criticism: "On Ahoriginal Languages of Latin America:, CA, Vol. 4, No. 3 (1963), pp. 317-8.

## جدول يبين بعض أسماء الشعوب السيبيرية بالروسية والانجليزية

| الروسية | | | الانجليزية |
|---|---|---|---|
| **(١) مجموعة الساموييد SAMOYED** | | | |
| ننتسي | NENTSI | الساموييد في الاقليم الممتد من شبه جزيرة كانين إلى ينسي. | |
| انتسي | ENTSI | ساموييد نهر ينسي الاسفل. | |
| نجانساني | NGANSANI | ساموييد شبه جزيرة تيمور. | |
| سلكوبي | SELKUPI | ساموييد الأوستياك في اعالي أوب ينسي. | |
| **(٢) مجموعة تونجوس مانشو TUNGUS - MANCHU** | | | |
| أفنكي | EVENKI | التونجوس الاصليون | TUNGUS PROPER |
| أفيني | EVENI | اللاموت | LAMUTS |
| نانيتسي | NANAITSI | الجولد | GOLDS |
| أولشي | ULCHI | الأولش أو المونجان | OLCHS, ULCHANS, MUNGANS |
| الأوروكي | OROKI | اوروك | OROKS |
| الأوروتشي | OROCHI | الأوروش | OROCHS |
| الأوديجايتسي | UDEGAITSI | الأودج | UDEGHE |
| المانشوري | MANCHJURI | المانشو | MANCHUS |
| السيبو | SIBO | السيبو | SIBO |
| **(٣) المجموعة الأسيوية القديمة PALEO - ASIATIC** | | | |
| التشوكشي | CHUKCHI | التشوكشس | CHUKCHIS |
| الكورياكي | KORIAKI | الكورياك | KORYAKS |
| الايتلميني | ITELMENI | الكامشدال | KAMCHADALS |
| الايوكاجيري | IOKAGIRI | اليوكاغير | UKAGHIRS |
| النفنجي | NIVKHI | الجلياك | GILYAKS |
| الكيتي | KETI | (مجموعة كيت) الينسينية | YENISEIANS |

---

(*) غير مؤكد أصل لغتها.

القوم مثل الهنود الجاليين مغولانيون اساساً. ويدل البحث الاركيولوجي على أن الثقافات المتقدمة في العالم الجديد قد تطورت من أصول ثقافية محلية تعتمد على الصيد والجمع والالتقاط، وهي كل ما حمله معهم هؤلاء الاسلاف من آسيا.

وقبل أن نعرف هذه الحقائق سبح خيال كثير من كتاب الاقاصيص دون أي اعتبار لامكانية الاختراع المحلي المستقل - وحاولوا أن يشتقوا الهنود كلهم أو بعضهم من قبائل بني اسرائيل، المفقودة، أو من مصر القديمة، أو ساحل غرب إفريقيا أو اطلانتيس أو قارة مفقودة خيالية أخرى هي قارة مو. وفي نفس الوقت بين معظم علماء اللغة المختصين. أن معظم لغات هنود أمريكا الشمالية يمكن تصنيفها في عدد قليل من العائلات وأن تنوعها غير العادي إنما جاء من عزلة بعضها عن بعض. ولم تتمكن الامبراطوريات القوية مثل الازتك والانكا من فرض لغة واحدة تحل محل هذا العدد من اللغات لأنها كانت متأخرة قبيل الغز الأوروبي.

وانتهت المجهودات التي بذلت لتجميع لغات الهنود الأمريكيين في أسر واقسام كبرى إلى تقسيم ج. و. باول عام ١٨٩٢، والذي حدد فيه الاسر اللغوية شمالي الحدود المكسيكية بثمان وخمسين لغة وكان هذا العمل هو أساس عمل آخر قام به أ. سابير عام ١٩٢٩ لتخفيض عدد العائلات اللغوية وقد شمل هذا العمل الاخير اللغات الموجودة في أمريكا الشمالية على جانبي الحدود المكسيكية وقد اكتشف سابير ست أسر لغوية هي :

١- الاسكيمو - ألوت.

٢- نا دينه.

٣- الجونكيه - واكاشانيه.

٤- أتو - ازتيك.

٥- بينوتيه.

٦- هوكان سيو.

وبعد خمس وثلاثين سنة استخدم تراجر نفس التقسيم العام مع بعض تعديلات فقد جعل العائلة الثالثة تشمل لغة الجونكان موسان والرابعة لغة الازتك تانوان، والخامسة تشمل لغة ماركوبنوتيان.

وفيما عدا لغات الاسكيمو والألوت، التي ربما كانت آخر ما وصل من آسيا فإن كل عائلة من العائلات الاخرى تنتشر انتشاراً جغرافياً واسعاً ويتحدثها هنود من ثقافات مختلفة. وقد اقترح سابير أن تكون مجموعة نادينه ذات علاقة بالاسرة الصينية ولكن كتابته الموثقة ضاعت للاسف. ويتحدث هذه اللغات كثير من الصيادين والقناصين في آلاسكا وغربي كندا، وعدد من القبائل على طول ساحل المحيط الهادي من آلاسكا حتى كاليفورنيا الشمالية - بما في ذلك قبائل التلنجيت والهايدا ذات الميول الفنية الراقية - وهنود نافاجو والاباشي.

ويتحدث اللغات المعروفة باسم اللغات الالجونكية موسانية من المحيط الهادي حتى المحيط الأطلنطي. وإذا كانت ماري هاس محقة في ادخال لغات الخليج فيها، فإنها تنتشر أيضاً من خليج هدسون[1] حتى خليج المكسيك. ويضع تراجر هذه اللغات تحت مجموعة لغات هو كان سيو.

وقد انتشرت أيضاً مجموعة اللغات الاتوازتكية إلى نطاق اللغات الأزتكية

(1) M. R. haas: "A new linguistic relationship in North America, Algonkian and the Gulf Languages", SWJA, Vol. 14, No. 3 (1958), pp. 231-64.

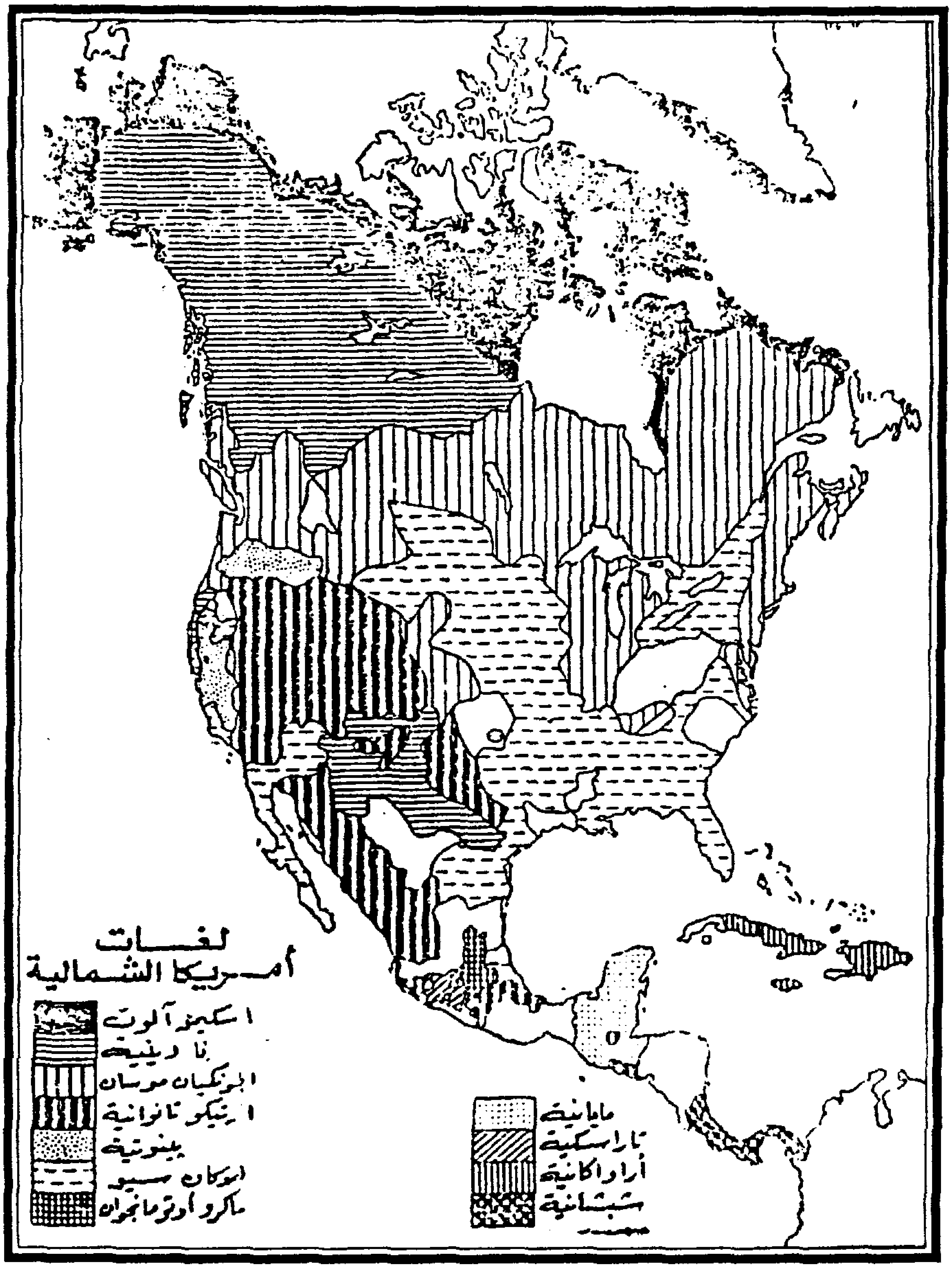
وتمتاز هذه العائلة من اللغات في أن المتحدثين بلغاتها يمثلون كل الثقافات بدرجاتها المختلفة التي يعيشها هنود العالم الجديد، من اقتصاد الجمع والالتقاط البسيط الذي يعيش فيه الأوت والبايوت إلى المدنيات الراقية التي وصل اليها الأزتك. وقد ادمجت كل لغات الببلو فيما عدا اللغة الكيراسية داخل هذه الاسرة، كما ادخلت فيها لغة الكيوا والكومانش.

وقد وضعت أسرة اللغات البينوتية اساساً لكي يشمل عدداً من لغات كاليفورنيا المحلية، ولاسيما اللغات التي يتحدث بها في وادي ساكرامنتو وهي: الميوك، والمايدو، واليوكوت،والونتون والباتون. ولكنها امتدت لكي تشمل لغات الشمال الغربي مثل نيز برسه وياكيما وكلامات، ومودوك، وربما المايا، وغيرها من اللغات في يوكاتان وأمريكا الوسطى.

وقد اشتد الخلاف كثيراً حول العائلات اللغوية التي تقدم بها سابير فهي تشمل كل لغات السيو، بما في ذلك لغات الساحل الشرقي للولايات المتحدة الجنوبية والداخل. ولغات الكادو، الاريكارا، ولغات ببلو الكرسان، ولغات معينة بحوض كولورادو الجنوبي مثل اليوما والوالا باي والهافاسوباي ولغات ساحل كاليفورنيا السفلى واللغة السيرية على الساحل المقابل. وكانت اللغات الايروكوانية ولغات الامم السبع على الساحل الشرقي للبحيرات العظمى، والسانت لورانس، والقبائل الجنوبية. مثل: الشيروكي، والتوسكارورا، والنوتاواي، والمهيرين تعتبر عند سابير ضمن القسم الهوكان سيوي، ثم نبذ هذا الرأي واخيراً عاد الباحثون إليه(١). وفي شمال شرق المكسيك تنتشر لغات الهوكان سيوي كما تنتشر لغات أخرى مثل كواهولتيك وتامواليبيك

(1) W. L. Chafe: "Another Look at Siouan and Iriquoian", AA, Vol. 66, No. 4, Part I (1964), pp. 652-62.

وغيرها. كما توجد جيوب صغيرة من هذه اللغات على ساحل المحيط الهادي أو بالقرب منه حتى نيكاراجوا.



إذن لا وجود للحدود بين المكسيك والولايات المتحدة فيما يتعلق بلغات الهنود الأمريكيين. فكل اللغات الست الشمالية – فيما عدا لغات الاسكيمو والألوت – تمتد حتى جنوب الحدود، حيث قاومت مجموعتان فقط الاندماج اللغوي. وهما لغات ماكرو اتومانجيه، واللغة التارسكية. وكل منهما يوجد في المكسيك الوسطى، وقد عمل توسع الازتك على الاحاطة بهما وعزلهما. وأهم لغة في كل من هاتين المجموعتين هما الاوتومجى في الاولى، والتارسكية في الثانية. وهذه الاخيرة لغة واحدة منعزلة. وإذا كان ثمة حدود لغوية في العالم الجديد، غير الحدود التي تفصل بين لغات الاسكيمو والوت وبين غيرها من لغات الهنود الأمريكيين، فهذه الحدود لا تسير مع يوجراند، بل في هندوراس ونيكاراجوا وفي مضايق فلوريدا، حيث تتقابل لغات أمريكا الشمالية ولغات أمريكا الجنوبية. وقد طغت لغات أمريكا الجنوبية على مجال لغات أمريكا الشمالية في كل من أمريكا الوسطى وجزر الهند الغربية، بل أن واحدة منها توغلت إلى جنوبي فلوريدا في عصر ما بعد الكشف الكولومبي.

ومن العسير تصنيف لغات أمريكا الجنوبية. فإلى جانب انقراض بعض اللغات، علينا أن نصنف عاملاً هاماً؛ وهو أن بعض لغات أمريكا الجنوبية لم تسجل بعد، وبعض لغاتها لم تخضع حتى الآن للأوروبيين. وقد قسمت اللغات المعروفة في هذه الفترة عام ١٩٢٤ إلى ١٠٨ أسرات. ثم اختزل هذا الرقم إلى خمس وسبعين أكثرها لغات: الكاريب، والآراواك، والتوبي – جارانتي، والجيه، والشبشان، والايمارا، والكويشوا، والاراوكانية، والبليشي، والتيهو.. ومنذ ذلك الحين بذلت عدة محاولات لتخفيض عددها مرة أخرى. ففي عام ١٩٦٠ اقترح سول تاكس مثلاً ثلاثة أقسام كبرى، وعشرين أسرة كبرى سماها بطونا، وتسع وخمسين أسرة[1]. أما الاقسام الثلاثة فهي:

---

(1) Tax: op. cit.

ماكرو – شبشان، وجيه بانو – كاريب، والاند – اكواتوريه. أما القسم الأول فيشمل ثمانية بطون وخمساً وعشرين أسرة، تمتد من هندوراس والسلفادور حتى اكوادور والبرازيل. والقسم الثاني يشمل سبعة بطون واحدى عشرة أسرة، تمتد من البحر الكاريبي – حيث يتحدث بها الكاريب السود وغيرهم – حتى مرتفعات البرازيل والأرجنتين. والقسم الانداكواتوريه يشمل خمسة بطون وثلاثاً وعشرين أسرة، وتتضمن الارواكية، وهي الاسرة التي تغلغلت في فلوريدا، وتغطي جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية حتى رأس هورن. ومن لغاتها: التوبي، والجارانتي، وهي لغة رسمية في باراجواي، والكويشيو، والايمارا التي يتكلمها هنود هضاب بيرو وبوليفيا وكل لغات جنوبي الأرجنتين، واللغات الفويجية.

أما تراجرا – وهو أكثر تحفظاً – فلم يقبل تماماً هذا التصنيف وقد يمر وقت طويل قبل أن يتفق اللغويون على أي تقسيم للغات أمريكا الجنوبية. وعلى أية حال فمجرد نجاح اللغويين المعاصرين في تجميع هذه المئات من اللغات الهندية الأمريكية في عدد قليل من الاسر والاقسام يعد انجازاً هاماً، وهو أيضاً ساعد على ازالة بعض الشكوك عن أصول الهنود الأمريكيين. ويتفق كل من ج. هـ. جرينبرج و م. سواديش – وكل منهما يحبان الجمع ويكرهان التشتيت في اللغات – على أن كل اللغات الأمريكية مرتبطة معاً باواصر القربى[1] ولا يهم الانثروبولوجي الطبيعي من هذه الدراسات اللغوية المتشابكة إلا أمر واحد – هو أن الهنود الأمريكيين قد دخلوا القارة من شمال

(1) Greenberg: "The General Classification of Central and South American Indian Languages", in A. F. C. Wallace, ed.: Selected Papers of the Fifth International Congress of Anthropological and Cthnographical Sciences (Philadelphia: University of Pennsylvania Press; 1960). Swadesh: op. cit.

شرق آسيا في موجة واحدة أو عدة موجات من الهجرات، وأنهم جميعاً من أصل مغولاني. وكثرة اللغات الهندية الأمريكية لا تثبت نظريات الاصول المتعددة للهنود الأمريكيين، سواء كان ذلك من ناحية المورثات، أو الناحية الجغرافية أو الثقافية. كما أنها لا تضعها في تاريخ بعيد أبعد مما تدل عليه الادلة الاركيولوجية وبعبارة أخرى فكل انواع البحث المختلفة بدأت تتجه نحو هذا الاتجاه العام.

## الخصائص السلالية للمغولانيين
## في آسيا الشرقية

الخلاصة أن اسلاف الهنود الأمريكيين كانوا مغولانيين من آسيا الشرقية والآن فلنستعرض الصفات السلالية لهؤلاء المغولانيين، الذين يشملون أيضاً الصينيين الشماليين والجنوبيين، وبعض الأتراك، والتونجوس، والكوريين، واليابانيين، والآسيويين القدماء. وهذه الشعوب في مجموعها – من وجهة نظر الانثروبولوجيا الطبيعية – أقل تنوعاً من القوقازانيين أو الإفريقيين – فليس هناك فوارق كبيرة فيما بينهم في لون البشرة أو شكل الشعر، كما ليس من بينهم أقزام. ورغم أن الاختلاف فيما بينهم أقل مما هو موجود بين الانواع الفرعية الاخرى، إلا أنهم يختلفون عن بقية البشر أكثر من اختلاف أية سلالة أخرى.

والصفات المغولانية المورفولوجية معروفة تماماً ولا تحتاج إلى بيان(١).

---

(1) The literature is extensive. Reviews and Bibliographies may be found in G. W. Lasker: "Migration and Physical Defferentiation", AJPA Vol. 4, No. 3 (1946), pp. 273-300. Levin: Ethnic Origins of the Peoples of Northeastern Asia.

-/-




اللغات الهندية فى أمريكا اللاتينية

وتتراوح شعوب آسيا الشرقية في الطول من متوسط ١٥٨-١٤٩سم (٥ أقدام وبوصيتان) بين بعض اليابانيين إلى متوسط ١٦٨سم (٥ أقدام و ٦ بوصات) بين الصينيين الشماليين. ولهم جذوع طويلة نسبياً، وأذرع وسيقان قصيرة. وأيديهم وأقدامهم صغيرة. وأظافرهم مثل أظافر البوشمن ثخينة. وظهورهم مستقيمة نسبياً مع انحناء ظهري وبروز في البطن قليل، وصدورهم عريضة، وأعجازهم ضيقة. وبشرتهم التي تتراوح قليلاً في اللون من مكان إلى آخر ملساء، وشعر جسمهم قليل. ولكن شعرهم غزير فوق الرأس، وقليل في اللحية، وشعرهم خشن، ومقطعه أسطواني وينمو طويلاً فوق الرأس. والصلع نادر عندهم، ولا يتحول شعرهم إلى الشيب إلا في سن متقدمة.

ويتراوح شكل الرأس بينهم.. فالصينيون الشماليون في معظمهم متوسطو الرءوس، والجنوبيون عراضها. والكوريون واليابانيون عراض الرأس في الغالب، ومؤخرة الرأس عندهم مستقيمة وقمتها عالية. أما المغول والقرغيز الذين جاء اسلافهم من الينيسي[1] فرءوسهم ضخمة جداً، وفيهم الرأس الطويل والعريض، ولكن قمة الرأس منخفضة. ولكن حجم المخ كبير عندهم بسبب استدارة مؤخرة الرأس رغم انخفاض قمتها، على غير ما كان يتوقع.

وعظام الحواجب عند معظم الآسيويين الشرقيين صغيرة جداً، إن وجدت وعيونهم متباعدة، أكثر بعداً الواحدة عن الاخرى مما هي عليه عند أي

---

- Hulse: "Physical Types among the Japanese", PMP, Vol. 20 (1943), pp. 122-33. See also S. M. Shirakogarov: Anthropometry of Eastern China and Kwangtung Province, RAS-NCB, exitra vol., No. 4 (1925).

(1) A. Bernshtam: "On the Origin of the Kirghiz Peoples", in H. N. Michael, ed.: Studies in Siberian Ethnogenesis, AINA, No. 2 (1962), pp. 119-28. Debetz: "The Origin of the Kirghiz in the Light of Physical Anthropological Findings".

سلالة أخرى، ولكنها وسط محاجرها. إلا أن الجفون تضيق فتحة العين، كما هي الحال عند البوشمن. وقد تغطي الثنية المغولية، أو الطية الداخلية للجفن، الحالة الداخلية للجفن. وهناك نمطان من فجوة الأنف عند كل المغولانيين تقريباً.. فإما أن يكون منخفضاً جداً ومفلطحاً، وقد يصل من انخفاضه أن سطح كرة العين تبرز من أمامه. أو أنه أنف معقوف. أما الأنف المستقيم المتوسط بين الاثنين فهو غير شائع.

وخاصية المحاجر السفلى عند المغولانيين أكثر بروزاً منها عند غيرهم، وعظام الوجنات تميل إلى البروز مع تسطح أنفي، مما يعطيها الشكل المعروف بعظام الوجنات المرتفعة. وأكثر الشعوب تطرفاً في بروز عظام الوجنات وارتفاعها هم السيبريون والاسكيمو، كما توضح اوشانسكي فهذه العظام الوجهية عندهم مقعرة(1). ومن ثم كان الفك الاسفل عند الاسكيمو والسيبيريين نافراً بارزاً بشكل حاد. ومن السهل ملاحظة هذه الخاصية التليفية عند الشعوب القطبية، الذين قويت عندهم العضلات الماضغة.. أما المغولانيون الآخرون الذين يعيشون إلى الجنوب من الدائرة القطبية فهم أيضاً لهم فكوك عريضة وعظام وجنات بارزة، ولكن ليس بالشكل الحاد الموجود عند أقاربهم الشماليين.

ولمعظم المغولانيين – سواء اكانوا في الاقليم القطبي أم في غيره – قواطع منحنية، ولاسيما القواطع الوسطى العليا، كما أن قواطعهم وأنيابهم أكبر بصفة عامة من الأضراس. وعندما يعيش المغولاني على الطعام اللين ولا يحتاج إلى عمليات الضغط الثقيلة، فإنه يصاب بما يسمى بالانطباق

(1) Oschinsky: "Facol Flatness and Cheekhone Morphology in arctic Mongoloids", Anthropologica, n. s., Vol., 4, No. 2 (1962), pp. 349-77.

Psaliodont Occlusion في الأسنان الامامية. ومن ثم فإن كان شكل الفك عند المغولانيين بارزاً فهو بعكس شكله عند القوقازانيين. فلا تغطى الأسنان العليا الأسنان السفلى، بل تبرز كل منهما وتنطبق الواحدة على الاخرى، مثلما هو شائع عند اليابانيين.

وقد ابتكرت ت. ل. وو Woo[1] وسائل حديثة لقياس مسطحات الوجه، ولاسيما حالة التسطح التي يمتاز بها المغولانيين. وهذه المقاييس شملت: الجبهة، والعين، والأنف، والوجه، والوجنة، والفك. وهذه الفلطحة الوجهية تصل مداها في سيبريا، ولاسيما بين التونجوس وبعض الآسيويين القدماء الذين يعيشون في أبرد مناطق آسيا. وكلما اتجهنا جنوباً خفت هذه الصفة. صحيح لا يزال الوجه أقرب إلى الفلطحة، ولكنه في الجنوب من المنطقة القطبية أقل فلطحة.

## الاينو والجلياك[2]

لم يكتب عن أصول شعب، أو عن صفات شعب، بقدر ما كتب عن الآينو. ولكن لا تزال أصول هذا الشعب مجهولة، كما لا تزال صفاتهم غير واضحة. فهذا الشعب عادي المظهر، قوي البنية، ملتح، كثيف الشعر، يعيش في الضوء الخافت الذي يلف هوكايدو وجزيرة سخالين. وكان يعيش في جزر

(1) T. L. Woo and G. M. Morant: "A Biometric Study of the Flatness of the Facial Skeletal in Man", Biometrika, Vol. 26 (1934), pp. 196-250.

(2) Levin's Ethnic Origins of the Peoples of Nertheastern Asia contains a bibliography of the extensive literature on this subject, much of which is in Japanese. See also Coon: "An Anthropogeographic Excursion Around the World", pp. 31-42.

الكوريل. وقد قيل أن رأس حربة تتقدمه لهجرة قديمة قدمت من أوروبا، وقيل أنهم استراليون خفت الوان بشرتهم، وقيل أنهم تفرعوا من المغولانيين. ولاريب أنهم اختلطوا بالمغولانيين وبكل من اليابانيين الذين طردوهم من شمالي هونشو، وبالسيبيريين الذين قابلوهم في هوكايدو وغيرها. ولكنهم نجحوا في الاحتفاظ بصفاتهم المميزة. نمط من القوقازانيين، أسمر أو أبيض، كثير الشعر، مزود جيداً بغدد للعرق، ونمط من القوقازانيين يتراوح فيه شكل الشعر من المستقيم إلى المموج، مثل الاينو الذين كانوا يسكنون جزر كوريل(١). وشكل الآينو النمطي هو صاحب الجبهة العريضة، والحواجب المعتدلة، والفجوة الأنفية المعتدلة، والشفة البارزة، والعينين المتباعدتين، ولكن دون ما ثنية على الجفون، والعيون البنية الفاتحة، يتراوح لون انتائها بين الأخضر والرمادي في بعض الحالات القليلة.

والاتجاه العام الآن أن أصل الآينو من القوقازانيين للاسباب الآتية :

بصمات أصابع الآينو بها عقد أكثر مما بها دوامات. وهذه خاصية قوقازانية. إذ أن الدوامات تربو على العقد عند كل من الاسترالانيين والمغولانيين. فصماخ الأذن لزج بنسبة ٦٣٪ عندهم(٢). وهذه صفة قوقازانية في حين أن هذا الصماخ مفتت صلب عند المغولانيين. ورغم أن القواطع العليا عند الآينو حاروفية الشكل عند ثلث الأشخاص الذين درسوا من الآينو، إلا أنها ليست في تطرف الشكل الجاروفي لقواطع المغولانيين، ولكنها

(1) R. Torii: "Les Ainou des Iles Kouriles", JCS, Vol. 42, Art. I (1911), pp. 1-337.

(2) E. Matsunaga: "Polymorphism in ear-wax types and its anthropological significance", ZZ, Vol. 67, No. 722 (1959), pp. 171-84.

أقرب إلى شكل قواطع سكان أوروبا الشمالية المعتدلة(١). وتغطي الأضراس العليا عند الآينو طبقة لامعة كاللؤلؤ، في ٣٪ من الأفراد موضع الدراسة. ولا توجد هذه الصفة إلا في ٣٠٪ فقط من الجماجم اليابانية التي درست. وهذه الأضراس اللامعة توجد أيضاً بين الاسكيمو والأوروبيين الشماليين، ولاسيما بين سكان ايسلاندا في العصور الوسطى(٢).

ولم يكن الايسلانديون مغولانيين قط. وإن ظهرت فيهم بعض الصفات التكيفية التي اكتسبها السيبيريون والاسكيمو، ولاسيما قوة الفك والعظمة السميكة تحت الأذن، وقد تكون هذه الصفات التكيفية مشتركة بين أكثر من شعب قطبي.. فهي موجودة أيضاً عند الماريوري Mariori الذين يسكنون جزر تشاتهام بالقرب من نيوزيلندا. إلا أنه ليس من السهل تفسير وجود هذه الأضراس اللامعة عند الآينو، فهي تمثل امتداداً في المورثات التي تحملها. ويبدو أنه بعد انتهاء البلايستوسين انتقلت هذه الصفة شرقاً على طول الغابة السيبيرية من الأورال حتى نهر آمور، وهذا احتمال أقوى من احتمال انتقالها غرباً. وفي هذه الصبغة يبدو كما لو أن الاسكيمو بدءوا قوقازانيين، ثم انتهوا مغولانيين. وهذا عكس الأتراك العثمانيين.

ومهما يكن من أمر الاسكيمو، فإن الأقرب إلى الصحة أن يكون الآينو من أصل قوقازاني. وهذا لابد أن يصدق جزئياً على الجلياك. وهم شعب آخر كثيف اللحى يسكن سخالين ووادي نهر آمور الأسفل. كما أن الصور القديمة لبعض الشعوب الآسيوية القديمة مثل اليوكاغير تبين بعض الملامح الأوروبية بما فيها اللحى الكثة. إلا أن هذا الشعب قد اندمج تماماً مع غيره

(1) M. Suzuki and T. Sakai: "Shovel-Shaped Incisors in Polynesians", AJPA, Vol. 22, No. I (1964), pp. 65-76.

(2) Coon: "An Anthropogeographic Excursion Around the World.

واختلطوا اختلاطاً يجعل من العسير الوصول إلى نتيجة عن تكوينهم السلالي قبل أن يصل الروس إلى المحيط الهادي.

## الصفات السلالية للهنود الأمريكيين[1]

ينتمي الاسكيمو والألوت سلالياً للسيبيريين المغولانيين، وهم يمثلون هجرة حديثة إلى العالم الجديد، بعد هجرة الهنود. ومن السهل اثبات ذلك بدراسة فصائل الدم، ودراسة المعالم المورفولوجية أيضاً. فربما لم ينقض أكثر من ٥٠٠٠ عام على هجرتهم إلى العالم الجديد، ولكن ليس هذا الرقم سوى حدس قائم على البقايا الاثرية التي عثر عليها حتى الآن.

والهنود الأمريكيون أكثر تجانساً سلالياً من أي جماعة بشرية أخرى تسكن مساحة مشابهة لوطنهم. بل هم أكثر تجانساً من أي شعب آخر يسكن عُشر مساحة وطنهم. وكل هذا يدل على أن شعباً قليل العدد نسبياً، عبر مضيق برنج خلال الجزء الاخير من فترة جليد ويسكونسين، وأن أبناء هم ملأوا بالتدريج ما عمروه من العالم الجديد. وهم مغولانيون عامة، وما تمتاز به فصائل دمائهم لا تجعلهم نوعاً فرعياً قائماً بذاته. ولكنهم مغولانيون من نوع خاص، فربما كانوا قوقازانيين من نوع خاص، يتكون من شراذم صغيرة من الأوروبيين الذي كانوا يعيشون في العصر الحجري القديم الاعلى، عبر إلى العالم الجديد - كما يقول و. س. أوسمان هل[1]. ومـــن

(1) For a bibliography on the North American Indians see G. K. Nomnan: "Archaeology and Race in the American Indian" YPA, Vol. 8 pp. 213-55. For the South American Indians. See J. H. Steward, ed.: Handbook of the South American Indians, SIBAE, Bull. 143 (1950).

الاعتراضات التي توجه إلى هذا الفرض أن للهنود الامريكيين قواطع جاروفية الشكل، بدرجة أكثر من أي شعب آسيوي آخر، وبشكل أكثر تطرفاً(٢).

والفروق بين الهنود الأمريكيين والمغولانيين الآسيويين ترى على وجه الخصوص في ملامح الوجه. فوجوه الهنود الأمريكيين أقل فلطحة من وجوه المغولانيين الآسيويين، وأنوفهم أكثر بروزاً، فكثير منهم لهم أنوف معقوفة. وربما وجدت مثل هذه الأنوف الهندية الأمريكية، ولاسيما بين: أهل التبت، والناجاس، والأساميين. ولكنها أقل انتشاراً بين الصينيين والسيبيريين. وإذا كان الأنف المعقوف عند الهنود الأمريكيين نتيجة اختلاط بالقوقازانيين، فستنشأ لنا مشكلة أخرى، حيث أن هذا الاختلاط لا يمكن أن يكون قد تم من هجرة قوقازانية عن طريق اقليم غابات سيبيريا (ومثل هذه الهجرة هي التي تفسر وجود الآينو). ومثل هذه الهجرة مستحيلة بالنسبة للزمن الذي هاجر فيه اسلاف الهنود الأمريكيين. والاحتمال الوحيد أنها كانت هجرة للنياندرتاليين الذين كانوا يسكنون وسط اسيا عبر ممر زونجاريا إلى شمالي الصين في زمن صناعة آلات الشظايا الليفالوازية الموسنيرية. ومثل هذه العلاقة ممكنة، ولكن لا يمكن تفسيرها. وقد وجدت جماجم الهنود الأمريكيين ذات عظام الحواجب الثقيلة والجباه المتقهقرة في المواقع الاثرية، كما وجدت بين هنود أونا فى تيبرا ولفويجو، إلا أنه لم توجد أي بقايا حفرية من هذا النمط، فإذا كان ثمة صفات كهذه قد دخلت العالم الجديد، فلابد أنها

(1) W. C. osman Hill: "The Soft Anatomy of a North American Indian", AJPA, cadaver of a sixty-seven-year-old male Cherokee of blood group B.

(2) Suzuki and Sakai: op. cit.

دخلته في حاملات الصفات بشكل عرضي، ولم تكن صفات مميزة لأي مجموعة بشرية منها.

ويختلف الهنود الأمريكيون عن الآسيويين المغولانيين في لون البشرة، حيث أن بعض الهنود أكثر سمرة. كما أن السمينول في فلوريدا لهم لون الماهوجني، ولون الباباجو وغيرهم من الهنود الذين يعيشون في الاجزاء المشمسة من العالم الجديد داكن وليس السبب في ذلك هو مجرد اسمرار البشرة نتيجة التعرض لأشعة الشمس. إذ أن ٩٠٪ من هنود ألاسكا لهم شعر أسود وبشرة غير داكنة(١). والهنود الألاكالوف جميعاً سمر البشرة، فيما عدا بقعاً زرقاء داكنة في مواضع مختلفة من الجسم. وكثير من الهنود الذين يسكنون غابات الامازون لون بشرتهم فاتح، والأنف المعقوف بينهم نادر. ويشبه بعض هؤلاء الهنود سكان غابات بورنيو. وربما كان هذا مجرد حالة تشابه فى الانتخاب من أصل مشترك.

وقد درست حالات شاذة من الهنود من وقت إلى آخر.. فمثلاً يسكن ضفاف بحيرة أتيتلان Atitlan في جواتيمالا شعب قصير يكاد يكون قزماً، في حين يوجد في قرى مجاورة شعب عادي الطول، كما يوجد هنود من أصحاب القامة الربعة في جبال كولومبيا(٢). ومن الممكن تفسير هذه الحالات من القامة القصيرة بالزواج الداخلي المحلي، وبنقص في المواد الغذائية، الذي يدل عليه تضخم الغدة الدرقية. كذلك وجد أناس قصار القامة في الوديان السحيقة المنعزلة لجبال الألب في القرن الماضي.

---

(1) R. A. McKennan: "The Physical Anthropology of Two Alaskan Groups", AJPA, Vol. 22. No. I (1964), pp. 43-52.

(2) Gusinde: "The Yupa Indians in Western Venezuela", PAPS, Vol. 100. No. 3 (1956), pp. 197-220.

ورغم أن متوسط طول القامة عند الهنود الأمريكيين يتبع قاعدة مناخية، حيث تسكن أطول القبائل في سهول أمريكا الشمالية، وفي باتاجونيا، واقصرها في الاجزاء الاكثر رطوبة، إلا أن هناك بعض الاستثناءات لهذه القاعدة. فالمايا من الطبقات العليا التي وجدت جثثهم المحفوظة في مدَابر تيكال بالبالنك وغيرها من الخرائب الرومانية، كانوا أضخم أجساماً من المايا الحاليين، إلا أنهم لم يكونوا بالضرورة غزاة أو سلالة اجنبية، وأي زائر يرتاد السوق في سولولا، بجواتيمالا، سيرى أن عمد الهنود الأمريكيين الذين يجتمعون في هذا المكان أطول بنحو خمس بوصات من بقية الهنود، وهم لا يزيدون عن كونهم هنوداً مثلهم. وهذا ملاحظ أيضاً في الاسرة الملكية السعودية، وفي نبلاء التوتسي (الواتوتسي).

وقد لفت لون البشرة الفاتح – امتاز به مونتيزوما – نظر الغزاة، ولكنهم لم يلاحظوا أن الملك قلما يتعرض لأشعة الشمس. وقد لاحظ جورج كاتلين شقرة بعض الهنود في رسمه لهنود الماندان. إلا أن م. ت. نيومان ذكر أن هذا الرسام اعتقد الشيب المبكر في الهنود الذين صورهم شقرا[1]. وليس من السهل حسم هذه المشكلة، حيث أنه لم يبق أحد من هنود الماندان الأنقياء الآن، والبومو والهويا والقبائل المجاورة في شمال وسط كاليفورنيا من حالات الهنود الشاذة، فعندما تنمو لحاهم يبدون كالقوقازانيين عندما يشاهدون لأول وهلة.

**الخلاصة:**

المغولانيون في آسيا الشرقية والأمريكتين نوع فرعي بشري قديم

---

(1) M. T. Newman: "The Blond Mandan A Critical Review of an Old Problem", SWJA, Vol. 6, No. 3 (1950), p-. 255-72.

أساسي، متجانس تماماً على وجه العموم، ولكنه ينطوي على تنوعات اقليمية تعكس الظروف المناخيـة المختلفـة. وربما يرجع مظهـر الاينو والجليـاك القوقازاني إلى هجرة قديمة من سيبيريا الشرقية، وأهم أوجه الاختلاف بين الهنود الأمـريكيين والمغولانيين الآسيـويين تكمن في أنهم أقل فلطحـة في وجـوههم، وفي عظام الأنف بصفـة خاصـة، وفي تنوع لون البشـرة. وليس هناك دليل قوي على أن الهنود قد اشتقوا من أكثـر من أصل واحد، أو أنهم جاءوا إلى العالم الجديد من طريق آخر سوى مضيق برنج.

**المراجـــــع** :


١. د/ محمد إبراهيم حسن : جغرافية افريقيا الطبيعية والبشرية.

٢. د/ محمد إبراهيم حسن : القرن الافريقي وحوض البحر الأحمر.

٣. د/ محمد السيد غلاب : البيئة والمجتمع.

٤. د/ محمد السيد غلاب : التطور والسجل الحفري.

٥. د/ محمد السيد غلاب : السلالات البشرية الحالية

٦. د/ محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشري

٧. د/ يسرى الجوهري : دراسات في جغرافيا الانسان «الجماعات البدائية»

٨. د/ يسري الجوهري : السلالات البشرية.

## المحتويـــات


في
علم الأجناس البشرية